الحوار الحضاري والثقافي
أهدافه ومجالاته

مؤتمر مكة المكرمة الخامس
الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي

خلال الفترة: ٤-٦/١٢/١٤٢٥هـ
الموافق : ١٥-١٧ يناير ٢٠٠٥م

صفحة أبيض

صفحة أبيض

التأثير العربى الإسلامى فى الحضارة الأوربية

أ٠د٠ عبد الصبور شاهين

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله سبحانه فى سورة آل عمران:﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [**آل عمران**:١١٠].

وهى آية حاكمة للزمان، منذ نزلت، فهى تقرير للواقع، وإنباء بما سيكون عليه مستقبل الإنسانية، ما دامت الأمة الإسلامية تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله.

إن الآية تتحدث عن (أمة) - هى خير (أمة)، وبدهى أن هناك فرقا بين الأمة والقوم. وهو فرق يعبر عن مكانة كل نبى من أنبياء الله. لقد بعث أنبياء الله إلى أقوامهم، والقوم تعبير عن العلاقة العنصرية، أما (الأمة)، فهى فى أوضح مفاهيمها مجموعة من الأقوام، هم (الناس) المخاطبون بالدعوة، أى :إن دعوة الإسلام التى تحمل أمانتها هذه الأمة - هى دعوة شاملة عامة فى كل الناس، حيثما وجدوا على سطح الأرض، ذلك أن القرآن لم يذكر أن الدعوة موجهة للعرب - مثلا، أو لغيرهم من الأقوام، بل هى دعوة تخاطب كل (الناس) برسالة الله وشرائعه، فى كل زمان، ومكان٠

هذا الطابع الشمولى هو ما حاولت الحضارة الغربية المسيحية أن تفرضه على البشرية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكنها فشلت، لأنها لم تكن تمثل دعوة دينية - كما هو شأن الإسلام، بل كانت سلطة تحكمية تفرض أقدارها على الشعوب، وهى أقدار عنصرية سرعان ما رفضتها الشعوب المستعمرة، وهذا هو نفس ما حدث للماركسية، التى أرادت أن تتحكم فى مصائر الشعوب بدعوى عالميتها، ولكنها فشلت فشلا تاريخيا مدويا، حين سقط النظام الشيوعى عام ١٩٩٠م، وعادت الشعوب التى خضعت لسلطان الشيوعية إلى نظمها القومية أو السياسية، وهجم النظام الرأسمالى على تلك الشعوب كما يهجم النمر على القرية المصروعة.

وما زال العالم بعيدا عن أن تضمه دعوة سلام واحدة، كدعوة الإسلام، القائمة على (الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والإيمان بالله) وهى ثلاث عبارات تمثل منهاجا شاملا لا ظلم فيه ولا عوج.

لقد نهضت (الأمة) بقيادة نبيها (محمد) صلى الله عليه وسلم - بأمانة الدعوة، وخاطبت كل الشعوب، وكل الناس، وكان ذلك بعد أن رجع من الحديبية سنة ست للهجرة، وقد خرج بكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأرض ستة من الصحابة، فى المحرم سنة سبع، وكان كل رسول منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل إليهم، وأولهم عمرو بن أمية الضمرى، وقد أرسل إلى النجاشى، والثانى دحية بن خليفة الكلبى، وقد حمل رسالة النبى إلى قيصر، (هرقل)، والثالث عبد الله بن حذافة السهمى، أرسله النبى إلى كسرى - الذى مزق كتاب رسول الله، فدعا عليه الرسول أن يمزق الله ملكه، فوثب عليه ابنه شيرون فقتله.

ورابع الرسل هو :حاطب بن أبى بلثعه، وقد أرسل إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وعظيم القبط.

والخامس :شجاع بن وهب الأسدى، حمل كتاب رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى، وكان من توابع القيصر، حاكما على الشام.

والسادس هو سليط بن عمرو العامرى، وقد أرسله النبى إلى هوذة بن على الحنفى فى هجر.

هذه البعثات الست، بما صحبت من كتب تحمل الدعوة إلى الإسلام هى الانفتاح الأول على العالم خارج الجزيرة العربية، وقد توجه الخطاب إلى كسرى وقيصر، باعتبارهما أعظم ملوك ذلك العصر، كما توجه إلى الحبشة التى أسلم ملكها النجاشى، وإلى بعض أطراف العالم العربى الآن، كدعوة الغساسنة بالشام، والمقوقس بمصر، وهجر بأطراف الجزيرة العربية، وقد كان الشام ومصر مستعمرتين من قبل الإمبراطورية الرومانية.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن تلك الفترة قد شهدت انفتاحا سياسيا عم كل أنحاء الجزيرة العربية، سواء تمثل ذلك فيما كتب الرسول صلى الله عليه وسلم من كتب لمختلف القبائل والشيوخ، أو فيما قدم إلى المدينة من وفود - عام الوفود، وقد بلغ عدد الكتب التى نظمت العلاقات بين الدعوة الإسلامية والقبائل خمسة وتسعين كتابا، بالإضافة إلى الرسل الستة الأولين، كما بلغ عدد الوفود التى استقبلتها المدينة، لتحمل ولاء قبائل العرب، وليعلنوا إسلامهم ثلاثة وسبعين وفدا، أى :إن الدعوة فى تلك المرحلة قد صوبت سهامها فى كل اتجاه من العالم المحيط بها شرقا وغربا، وقد بلغت الدعوة بشمولها وعمومها أقصى ما كان يمكن الوصول إليه، والتخاطب معه من (الناس) عربا، وفرسا، ورومًا، وأحباشا، ولا شك أن هذه كانت مرحلة التبليغ الأولى، ثم بدأت المرحلة الثانية حين ارتحلت الدعوة إلى كل الأصقاع البعيدة٠ فى حركة الفتوحات الإسلامية التى بدأت إثر الانتهاء من حروب الردة على عهد أبى بكر الصديق - الخليفة الأولى.

لقد كانت هذه المرحلة الأولى تمهيدا للمرحلة الثانية، التى خاطبت الشعوب، وعرضت عليها الإسلام، بعد أن تحررت المستعمرات فى مصر، والشام والعراق من السيطرة الأجنبية، وكانت استجابة الشعوب آنذاك لدعوة الإسلام تلقائية، لم يخالطها ضغط ولا إكراه ولا قهر، كما كان يحدث مثلا للشعب المصرى إبان الحكم الرومانى.

لقد بدا بعض الكتاب المبغضين للإسلام أن يفسروا تحركه نحو البلدان المجاورة بأنه تحرك استعمارى، وهو تفسير مبعثه الحقد على الإسلام من جانب الصهيونية وعملائها.

لقد أقبلت تلك الشعوب على اعتناق الإسلام بمحض اختيارها، وهجرت المسيحية إلى الأبد بسبب ما ذاقت من الويلات والحروب بين المذاهب المختلفة، واعتنقت الإسلام الذى حررها من الاستبداد، وفرض السلام الشامل بين الطوائف الدينية المختلفة، فعاش أتباع الأديان فى وئام لم يعرفوه

طيلة الفترة الرومانية الاستعمارية.

ولم يمض القرن الأول الهجرى حتى زحفت الدعوة الإسلامية إلى أوربا - الأندلس، التى تم فتحها عام ٩٢هـ، وأحرزت الدعوة تمام نصرها خلال أربعين سنة أو زهاءها، وبذلك بدأت عملية البناء الحضارى الذى شهدته إسبانيا، حتى أصبحت منارة التقدم الحضارى طيلة أكثر من ثمانية قرون، فقد سقطت (غرناطة)، وهى آخر مدن الأندلس، عام ٨٩٧هـ فى أيدى الفرنجة.

وبذلك نستطيع أن نوجز حركة انتشار الدعوة إلى الإسلام فى مختلف الاتجاهات، فقد اتجهت إلى الجنوب، وعبرت اليمن، ثم إلى الحبشة فى إفريقيا، وعبرت المحيط الهندى إلى بلاد الشرق الأقصى، واتجهت إلى الشمال حيث عبرت بلاد الشام، إلى أن فتحت القسطنطينية عام ٨٥٧هـ.

واتجهت شرقا لتشرق على بلاد العراق ثم إلى فارس وما وراءها حتى وصلت الهند والصين، واتجهت غربا لتعبر البحر الأحمر، وبدخولها مصر أمكن لها أن تعبر الحدود إلى المغرب، وأن تتوغل فى غرب إفريقيا، على طول شاطئ المحيط الأطلسى. ثم عبرت البحر الأبيض إلى جبل طارق، والأراضى الإسبانية. وقد مهد هذا الانتشار ليصل الإسلام إلى كثير من جزر البحر الأبيض، ومنها جزيرتا قبرص وصقلية.

وهكذا صار العالم ملعبا كبيرا تصول فيه فرق الدعاة إلى الإسلام، معبرة عن حيوية الدعوة الجديدة، التى تستهدف تجديد العقيدة، كما تنشر النور فى كل اتجاه. وتبنى الحضارة الإسلامية لخير الإنسان.

ومما ينبغى أن نسجله هنا أن الحضارة الإسلامية قد انتصرت فى كل معاركها، أو توجهاتها، على الرغم من كثرتها، واختلاف الشعوب المواجهة لها. والسر فى ذلك أن الشعوب أدركت أنها لا تواجه موجة استعمارية، أو زحفا من زحوف الجوع، بل لقد أبدى الإسلام دائما صفحة من النقاء والرغبة فى إصلاح العقيدة، وهو أساس التحرك الإسلامى، ثم يكون بعد ذلك إقرار

قواعد العدل، ومبادئ الحرية والمساواة والإخاء، التى طالما تطلعت لها أحلام الشعوب. دون أمل فى إدراكها، حتى جاء الإسلام بشيرا بكل خير، وهو يعلن المبدأ الأسمى :"لا إكراه فى الدين"، كما يؤكد أن "الناس سواسية كأسنان المشط"، ويفرض حق الجار فى مال جاره، حين يحتاج إلى طعام، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :«والله لا يؤمن.٠ والله لا يؤمن.٠ قالوا :مَنْ يا رسول الله ؟.٠ قال :من يبيت شبعان، وجاره إلى جانب جائع».٠ فالتراحم بين الناس، مهما اختلفت مللهم ونحلهم فريضة.

ولقد جعل الإسلام إحدى فرائضه الخمس، وهى الزكاة، لمواجهة الضرورات الاقتصادية التى يعانى منها فى المجتمع الإسلامى، كل الفقراء والمساكين وذوى الحاجات الدائمة والمؤقتة، دون أن يشترط فى الاستحقاق أن يكون المستحق مسلما، وكل النصوص القرآنية التى تحض على العطاء تذكر المستحقين بصفاتهم المادية، الاقتصادية، والاجتماعية، ويكفى أن نقرأ هذا الخطاب الربانى للنبى صلى الله عليه وسلم :"فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر"، هكذا بإطلاق معيار الاستحقاق :اليتيم - السائل، مهما يكن مخالفا فى العقيدة أو الجنس. وهو معنى شائع فى كل النصوص التى تخص على العطاء :"ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال - على حبه - ذوى القربى واليتامى والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفى الرقاب"، وأجمل ما نلاحظه فى مجموعة المستحقين :"فى الرقاب"، وهو تعبير يستهدف تحرير الأرقاء من إصر العبودية، فلقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا، ولابد أن يعيشوا أحرارا.

لقد أدركت شعوب العالم هذا الاتجاه الجديد الذى تتميز به عقيدة الإسلام، فأقبلت على اعتناقه حبا وإيثارا، واختيارا للحرية على العبودية، فلم يكن فى المجتمع الإسلامى من طبقة الأرقاء إلا من وجد أن الرق يمنحه ميزات مادية أو سياسية، لا تتوفر فى حياة الحرية، كالعبيد المقربين من

الحكام، باعتبارهم أدوات للسلطة، وكالجوارى اللاتى يعتبرن زخرفا (ديكورا) للأوضاع الاجتماعية، وقد شاع ذلك فى قصور السلاطين والحكام والأثرياء، وقد كان هناك من يسعى (من الذكور والإناث) إلى أن يعيش مسترقا فى تلك القصور، لما يتوفر فيها من ترف مادى، ونفوذ سياسى، لا يتوفر لبعض الوزراء.

لقد أحدث الإسلام ثورة حضارية فى المجتمع الإنسانى، تطلعت إليها الشعوب الأوربية بخاصة، لما كانت تشعر به من تخلف مادى وأدبى، وأدركت تلك الشعوب تفوق المسلمين فى مختلف المجالات، بدءا بالمجال العسكرى، الذى تفوق فيه المسلمون، وحققوا انتصاراتهم المدوية التى وصلت بهم إلى جنوب فرنسا، حيث توقفت زحوف الإسلام فى معركة "توربواتيين" أو تعبير آخر «بلاط الشهداء» وهى التى توقف عندها زحف المسلمين، واعتبرها بعض المفكرين الأوربيين فى أوربا أشأم حدث فى تاريخ تلك الفترة، ترتب عليه تأخر أوربا الحضارى قرنين من الزمان. إذ إنه حال دون وصول الحضارة الإسلامية إلى العقل الأوربى على مدى قرنين، إلى أن استيقظ ذلك العقل إلى ضرورة طلب العلم، ونقل المعارف من بلاد الإسلام إلى مراكز الثقافة الأوربية، للوصول إلى ما بلغة العالم الإسلامى من تقدم وحضارة.

وأقبلت أوربا عبر حدودها مع إسبانيا، وجزيرة صقلية التى كانت لمدة قرنين تحت حكم المسلمين تعرف طريق الحضارة، وتجلس فى مقعد التلميذ فى مجالات الإسلام ومدارسه، وتتعلم اللغة العربية وتعبّ من معين الثقافة، وقد بهرها ما بلغته الحياة الإسلامية من تقدم وازدهار.

والواقع أن هذا الانفتاح الأوربى على الحضارة الإسلامية كان محاولة للخروج من المأزق الذى وجدت أوربا نفسها فيه، فقد كانت الكنيسة هى صاحبة هذا الاتجاه، فى محاولة لنقل التجربة الإسلامية، وإن أضمرت الحقد على الإسلام والمسلمين.

وإلى جانب النافذتين الكبيرتين (أسبانيا وصقلية) - كانت هناك نافذة (الحروب الصليبية)، التى بدأت عام ٤٩٠هـ وانتهت عام ٦٦٩هـ، وكانت

نافذة واسعة تبادل من خلالها الطرفان التأثير والتأثر، حتى انتهت بموت لويس التاسع فى العاشر من المحرم عام سنة ٦٦٩هـ.

ومع ذلك فقد دامت للإسلام قوية قرنين آخرين حتى تم فتح القسطنطينية عام سنة ٨٥٧هـ، ولكن المؤشر البيانى للتاريخ بدأ فى الانحدار حتى عام سنة ٨٩٧هـ عندما سقطت غرناطة، وتمت تصفية الوجود الإسلامى فى إسبانيا (الأندلس).

أى :إن الوجود الإسلامى فى الأندلس استمر ثمانية قرون كاملة، تم خلالها عملية هائلة لنقل الدم الحضارى من جسد الحضارة الإسلامية، إلى جسد أوربا المسيحية. وقد وجد المفكرون آنذاك أن طريقهم إلى نقل الحضارة يتمثل بصورة أساسية فى ترجمة كنوز المعرفة من العربية إلى اللغات الأوربية، ولا سيما اللاتينية.

وقبل أن نتابع حركة الترجمة هذه نشير إلى أن التأثير الإسلامى لم يقتصر على هذه الحركة، بل كانت هنالك مجالات للتأثير الحضارى، تعتبر حيوية، ومنها :التأثير الإسلامى فى مجال الحرب، فقد تعلم الأوربيون بناء القلاع والحصون وتكتيكات الحصار، واستعمال المنجنيق والكباش الهادمة٠ كما نقلوا فكرة ألعاب المبارزة، ومهارات الفروسية.

وفى مجال الزراعة نقل روادهم زراعة مجموعة من الحاصلات الزراعية، ومجموعات من الأعشاب العلاجية، مثل الليمون، والسمسم، والأرز، والبطيخ، والثوم، ومجموعات من الأعشاب العلاجية والتوابل.

وعودة إلى أثر العربية فى اللغات الأوربية لنلاحظ أن حركة الترجمة قد أدت إلى دخول كلمات عربية كثيرة إلى لغات أوربا، ومن الباحثين الأوربيين من تتبع هذه الظاهرة ووضع لها معجما يضم الألفاظ العربية الدخيلة فى اللغات الأوربية. بل لقد وضع حديثا أحد الباحثين كتابا بعنوان «عشرة آلاف كلمة إنجليزية من أصل عربى»، وهو قدر هائل يبرز التأثير العربى العظيم فى اللغة العالمية.

لقد بدأت حركة الترجمة عن العربية فى القرن الثانى عشر الميلادى، بدأها ليوناردو فيبونانشى، فطاف بمصر والشام، وتعلم أصول علم الجبر من المسلمين.

كما درس أديلار البانى علم الهندسة والفلك. وقد دفعهم إلى الأخذ عن المسلمين تزمت الكنيسة، فى مقابل ما كان يتمتع به المسلمون من حرية الفكر، ومن ثم كانت حركة الترجمة إلى اللاتينية.

وكان من رواد أوربا فى الترجمة عن العربية غير أديلارد الانجليزى، هرمان - من البندقية، وجيرارد من إيطاليا، إلى جانب المستعربين الإسبان.

وقد أنشأ ريموند رئيس أساقفة طليطلة مكتبا كبيرا للترجمة عن العربية، وقد أنجز كثيرا من الترجمات إلى اللاتينية.

ومن أعلام المترجمين روبرت الشسترى، المتوفى فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى (السابع الهجرى) وهو أول من ترجم القرآن الكريم إلى اللاتينية، كما ترجم كتب الخوارزمى فى الرياضيات، ومؤلفات أخرى فى الكيمياء والفلك.

وجاء بعده جيرارد الكريمو ناوى، وكان قد تعلم العربية فى طليطلة، وعكف على ترجمة أمهات الكتب، حتى بلغ ما أنجز ترجمته سبعين كتابا عربيا.

وجاء بعده ألفرد الانجليزى، وميخائيل الاسكتلندى، وهرمان - الألمانى، وعملوا على ترجمة المؤلفات العربية فى إسبانيا.

فإذا ألقينا نظرة على صقلية إبان الحكم الإسلامى فيها، طيلة قرنين من الزمان، وجدنا من أعلام المترجمين :أبو حينو البالومى، وفرج بن سالم اليهودى، وقد ترجما كتبا كثيرة إلى اللاتينية.

وهكذا استطاع المترجمون بهمة غير عادية أن ينقلوا آثار الحضارة

الإسلامية فى الواقع، وفى العلوم والرياضيات، إلى اللغات الأوربية الكبرى.

ولم تكن همتهم فى ترجمة الآداب تقل عن ذلك، وقد اعترف كبار المفكرين الأوربيين بما أسدته الحضارة الإسلامية من آثار فى الثقافة والفكر والأدب. وهذا المستشرق (جب) يقول :«إن خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوربا - أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربى فى شعر العصور الوسطى ونثرها».

وهذا (دانتى) يقول: «إن الشعر الإيطالى ولد فى صقلية، حيث كانت للعرب حضارة زاهر».

وقد أثر الشعر العربى الأندلسى - كالموشحات والأزجال فى غزل الفروسية الذى انتشر فى القرن الثالث عشر، فى فرنسا، وألمانيا، ومن أمثلته أشعار الثروبادور، وهذا اللفظ ذاته محرف عن التسمية العربية:دور طرب، وهنا يذكر كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلى، وما ورد فيه من شعر رقيق.

ولا شك فى ان بوكاشيو الإيطالى قد تأثر فى كتابه (الأيام العشرة) بكتاب (ألف ليلة وليلة).

كما أن دانتى قد تأثر فى (الكوميديا الإلهية) بما قراه عن محيى الدين بن عربى فى وصف الجنة، وما جاء عن الإسراء والمعراج فى (رسالة الغفران) للمعرى. وكان لقصته (حى بن يقظان). لابن طفيل - أثرها فى صياغة قصة (روبنسون كروزو) لدانيل فو.

وليس غريبا أن تصبح العربية مادة أساسية فى مناهج بعض الجامعات فى أوربا، إذ كانت العربية هى الوسيط الذى قبست عنه أوربا تراث فلاسفة اليونان. بعد أن ضاعت مصادرها الأصلية.

فى مجال الفنون:

لم يقتصر تأثير الحضارة الإسلامية على الحياة الأوربية -على تلك

المجالات الفكرية والأدبية، بل كان هنالك مجال آخر للتأثير الحضارى. ومن أهم المجالات فنون الرسم، والموسيقا،والهندسة.

وإذا كان الورق عنصرا أساسيا فى ممارسة تلك الفنون، فقد تفيدنا تلك القائمة التى تسجل تاريخ صناعة الورق وانتشاره فى أقطار العالم.

بدأ استخدام الورق فى الصين عام ١٠٥م.

وفى مكة عام ٧٠٧م، وفى مصر عام ٨٠٠م

وفى إسبانيا عام ٩٥٠ م، وفى القسطنطينية عام ١١٠٠م، وفى صقلية عام ١١٠٢م، وفى إيطاليا عام ١١٥٤م، وفى ألمانيا عام ١٢٢٨م، وفى إنجلترا ١٣٠٩م.

أما صناعة الورق فقد ظهرت فى بغداد، فى عهد الرشيد، عام ٧٩٤م.

وليس من قبيل المبالغة أن نقرر هنا أن، كل ما عرفه الغرب من قواعد الرياضيات وفنون الرسم والموسيقا، والقيشانى، والخزف، والفخار، والزجاج والزخرفة وغيرها -كان اقتباس من فنون الحضارة العربية، الإسلامية. حتى أطلق المهندس الإنجليزى (رن) على الفن القوطى: «الفن العربى» أو الـ(أرابيسك).

ولا أحد من الغربيين ينكر أن اختراع (الصفر) فى الرياضيات هو إبداع عربى محض، وهو إبداع فتح الباب أما التقدم فى مجال الرياضيات.

ولاشك أن ما أسدته الحضارة الإسلامية للغرب أعظم من أن تستوعبه مقالة كهذه، لكن عطاء هذه الحضارة فى المجال الأخلاقى أعمق وأعظم، ويكفى أن نسجل هنا أن الروح التى استقبل بها المسلمون طلاب العلم الأوربيين - كانت تجسد معنى الحب والسلام، والخير والإثيار، فلم تعرف الأنانية لها مكانا فى النفسية الإسلامية، ولذلك أقبل الغرب على المجتمع الحضارى الإسلامى، فى العصور الوسطى، يغترف من المعارف بنهم، ويتعلم فنون الحضارة، التى أسس عليها تقدمه الحديث، وتفوقه المذهل الآن، وحين

نقارن بين موقف الحضارة الإسلامية قديما، وموقف الحضارة الغربية الآن فسوف يذهلنا ما تتصف به الأخيرة من صفات الجشع، والأنانية، والعدوان وخبث الطوية.

لقد قطعت الحضارة الغربية أشواطا بعيدة على طريق التقدم، ولكنها تحتفظ لنفسها دائما -من العلم- بما يضمن لها التفوق، فى مقابل حرصها على تأخير الآخرين، وإبقائهم فى قاع التخلف.

بل إن العالم الغربى يحقق تقدمه على حساب العالم الإسلامى من طريقين:

الأولى:الاستيلاء، على ثروات الشعوب الضعيفة، التى هى الآن شعوب العالم الإسلامى، وهذه هى السرقة المادية.

الثانية: الاستيلاء على مجموعات الأذكياء فى هذه الشعوب، واستغواؤهم، ليؤثروا الهجرة إلى الغرب، ويفارقوا أوطانهم إلى الأبد. وهذه هى السرقة العقلية.

ولو أننا تأملنا موقف الغرب من الاحتفاظ بأسرار التقنية النووية، بحيث لا يصل إلى هذه الأسرار الضعفاء المتطلعون إلى النهضة، والراغبون فى تحقيق التقدم - لأدهشتنا روح الحقد المهيمنة على قادة الغرب، إنهم حريصون على أن يبقى الضعاف ضعافا، فالعالم فى فلسفة الحضارة الغربية المعاصرة منقسم إلى قسمين:الأقوياء الذين يملكون كل وسائل القوة ويسيطرون، حتى على أنفاس الناس، والضعفاء، وهم المجردون من أى سلاح يحمون به وجودهم. فهم دائما فى وضع العبيد، أمام سادتهم.

ولقد تجسدت هذه الأنانية الغربية فى موقف القوة الأمريكية من ضمان السيطرة على مصادر القوة، ودعم قوى العدوان الصهيونية بكل الأدوات الممكنة، حتى تضمن لبضعة ملايين من المعتدين تفوقهم على الوجود العربى العربى والإسلامى، وهو وجود يتجاوز المليار وربع المليار.

إن الحضارة الغربية لم تحفظ الجميل للحضارة الإسلامية، بل كان الجزاء جزاء سنمار، وهو ما يمكن تلخيصه فى أن العالم الغربى قد تجرد تماما من كل القيم الأخلاقية التى كانت دائما هى الضمان لتحقيق السلام بين الأقوياء والضعفاء، واستبدل بكل ما دعا إليه النبى الخاتم محمد صلى الله عليه وسل - وبكل ما دعا إليه السيد المسيح من الحب والسماحة - قيما مادية يغذى بها روح العدوان، فلا مكان للدين فى عالم اليوم، وإنما المكان كل المكان للشيطان.

مراجع البحث

١- الطبقات الكبرى لابن سعد

٢- سيرة النبى صلى الله عليه وسلم لابن هشام

٣- حضارة الإسلام أ.د. سعيد عاشور

٤- حضارة العرب المستشرق جوستاف لوبون

٥- عالم الإسلام أ.د. حسين مؤنس

صفحة أبيض

آفاق الحوار بين الحضارات والثقافات
(نحو ثقافة حوار في مواجهة ثقافة العنف)

كتبه:
أ. د. عبد الستار فتح الله سعيد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعتي الأزهر وأم القرى (سابقاً)

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

المؤلف الدكتور/عبد الستار فتح الله سعيد

١- بدأ البحث بمقدمة عامة لبيان أن نعمة الحوار البشري هي هبة قديمة من الله تعالى، وقد أفسدها المجادلون في الحق، واستمر ذلك إلى عصرنا هذا، ولذلك حرص الباحث على الرجوع إلى القرآن والسنة لبيان هذا، ودعا الأمة الإسلامية إلى محاورة الناس جميعاً بحقائق الإسلام، المحفوظة في الكتاب والسنة.

٢- قسم الباحث بحثه إلى ستة فصول:

الفصل الأول: بين فيه معاني الكلمات الأساسية: (الحوار - الحضارة - الثقافة)، وما يتصل منها بالدين الإلهي.

الفصل الثاني: بين فيه حديث القرآن عن نشأة الإنسان مكتمل العقيدة والدين، وأن حضارته المادية تدرجت تباعاً، وبين فضل الله على الإنسان بتعليمه وإرسال الرسل إليه.

الفصل الثالث: كان عن حوار الرسل والأمم، وما جرى فيه من الحق المطلق في جانب الرسل، ثم الضلال والجدل البالغ من الأمم، حتى أهلك الله تعالى أجيالها وقرونها بذنوبهم وجدالهم بالباطل.

الفصل الرابع: عن الرسالة الخاتمة، وكيف بعث بها الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، وجعل الله معجزته كتابا يتلى، يقوم على الحوار والبيان، والدليل والبرهان، وهو حجة مستمرة إلى يوم القيامة.

وتحدث الباحث عن الأمة المستخلفة لحمل هذا الدين إلى يوم القيامة، لتكون امتداداً لصوت النبوة، بعد وفاة النبي الخاتم ﷺ.

الفصل الخامس: تحدث فيه الباحث عن مهمة هذه الأمة وضرورتها المستمرة ووجوب: الالتزام، والدعوة والبلاغ، والجهاد على هذه الأمة إلى يوم القيامة.

الفصل السادس: المسلمون وحوار الحضارات والثقافات بين الباحث **وعنوانه** الضوابط الإسلامية للتواصل الحضاري والثقافي بين الأمم. وهي ضوابط تمثل أرقى الشرائع الدينية والحضارية وتحدث عن مزاعم صراع الحضارات، ومحاولة فرض الثقافات وما فيه من خطر داهم على الدين، مما أوقع الأمة في محنة عاصفة، لا مخرج منها إلا بعودتنا الشاملة إلى الإسلام مهما تكن العقبات، لأن الله وعدنا بالنصر المبين إذا أقمنا هذا الحق الإلهي، ودعونا الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وفي البحث تفصيلات كثيرة وتقسيمات متعددة، واستدلال بالقرآن الكريم، والسنة النبوية، وسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

والله الموفق،،

المقدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عباده المرسلين، وعلى خاتمهم أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين (أما بعد):

فقد خلق الله الإنسان، وعلمه البيان، ترجمانا لعقله وفكره، ووسيلة للفهم والتفهيم، وللعلم والتعليم، وليعبد ربه الذي أنشأه مكتمل العقيدة والدين، فامتاز بذلك على غيره، وتصاعد في مدارج الحضارة والمدنية جيلا بعد جيل، بفضل هذه النعمة الإلهية السابغة.

ولكن فريقا من البشر بدلوا نعمة الله كفرا، واستخدموها في فنون المجادلات والمنازعات، والمراء والافتراء، والكذب والتكذيب، فضلوا بذلك قولا وعملا، ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾ [**الكهف** : ٥٤].

ولما بعث الله تعالى رسله مبشرين ومنذرين، ودعاة هداة إلى الحق المبين قامت الأمم في وجوههم، وردوا أيديهم في أفواههم، ﴿ **وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ [**غافر** : ٥].

ولقد كان من أعظم الحكم أن جعل الله معجزة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم كتابا يتلى على الناس، يحاور العقول والأفكار، ويعتمد على الدليل والبرهان، ويعلم الناس خطاب الرب الأعلى، ويسجل لهم محاورات الرسل، ومجادلات الأمم، ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم بخير الطرق: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [**النحل** : ١٢٥].

وأن يجاهد المجادلين بهذا الهدى الإلهي المبين: ﴿ **فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ [**الفرقان** : ٥٢].

فكان القرآن هو هدى الله وسبيله، ومعجزة النبي ودليله، والأمانة العظمى التي كلفت أمته - من بعده - أن تحملها للعالمين.

نصر الله رسوله والمؤمنين معه، وأخرج منهم خير أمة للناس، فأنشأوا بالقرآن والإسلام حضارة زاهرة، تؤمن بالله والمرسلين، وتقوم على الإيمان والعلم، وتزاوج بين الروح والمادة، فسعد العالم كله بذلك الفضل الإلهي، الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور.

ولكن المسلمين أدركتهم غمرة من دنياهم، وفرطوا في هذه الأمانة العظمى، فقفز المبطلون إلى قيادة البشرية، فمالوا بالدين والدنيا ميلا عظيما، واستعلت قوى الظلم والفساد، وطمسوا بمادتهم المجردة روح الإنسانية، واستبدلوا بشرائع الوحي الإلهي أهواء وفلسفات، وثقافات طامسة دامسة، يحاولون الآن فرضها على المستضعفين من المسلمين وغيرهم، مما أوقع العالم كله في شر مستطير، لا منقذ منه إلا الهدى الإلهي الجليل، والأمة المستخلفة عليه من رب العالمين، تطبيقا والتزاما، ودعوة وبلاغا.

نحن أمة الدعوة والبلاغ المبين، ولسنا أمة صراع وأحقاد، ولا يصلح لعالم مدجج بالسلاح إلا الحوار الهادئ الهادي، ولا يوجد كتاب في الأرض غير القرآن يخرج الناس من هذه الأزمات المتلاحقة: ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾** ﴾ [المائدة].

وقد أحسنت الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي باختيار موضوع: (الحوار الحضاري والثقافي)، وعلينا نحن المسلمين أن نقدم ديننا، وهدى ربنا إلى الناس جميعاً، لنزيل الغبش عن هذا الحق المبين، وليعرف الناس هذا الإسلام الذي لا يزال مجهولاً عند ملايين البشر، والقرآن العظيم لابد له من أمة تحمله للناس، وتبين هديه ونوره في كل مناسبة، ولذلك حرصت على أن تكون هذه الدراسة إسلامية قرآنية، إيماناً بأن هذا هو طريقنا المتفرد، لإنقاذ أنفسنا، وإنقاذ العالم من ورائنا، ولا يجوز أن نخدع

بالفلسفات المادية مهما أخذت زخرفها وازينت، لأنها سراب خادع، وجدليات مهلكة، تقود البشرية - الآن - إلى الهاوية السحيقة. حين أهدرت الدين، والروح، والقيم العليا التي تميز بها الإنسان عن كل ما عداه!!

فيا أمة الإسلام، ويا حكام المسلمين

ويا علماء هم، وقادتهم في كل شعب الحياة.

هذه مهمتنا، ومسئوليتنا بين يدى الله

فأجمعوا أمركم، واعرفوا طريقكم المتفرد، واحملوا تبعاته العظام، لنقود العالم مرة أخرى إلى صراط الله: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [**الأنعام**: ١٥٣].

هدانا الله جميعاً إلى خير ما يحب ويرضى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

صفحة أبيض

الفصل الأول
تحديـــد المعانــــي

يحتوي العنوان على عدد من الألفاظ المهمة، التي تحتاج إلى تحرير وتحديد، وضبط للمعاني الفضفاضة التي تنسب إليها؛ وهي: (الحوار - الحضارة - الثقافة) ونتناولها على الترتيب:

أولاً: (الحوار)

ويقال أيضاً: المحاورة، والتحاور: المرادّة في الكلام[1] ويكون بين طرفين فصاعدا، قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا**﴾ [**المجادلة**: ١]، والخطاب هنا للنبي ﷺ وللمرأة التي كانت تجادله في زوجها الذي ظاهر منها.

ويقول تعالى عن حوار الرجلين: الكافر والمؤمن:

﴿**فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا**﴾ [**الكهف**: ٣٤].

﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً**﴾ [**الكهف**: ٣٧].

والحياة البشرية كلها تقوم على هذا الحوار - قديما وحديثا - في سائر شئون الحياة، وفي الدنيا والآخرة على سواء.

أنواع الحوار:

قد يكون الحوار فطريا في أيسر صوره مثل لغة التخاطب في البيوت والأسواق، والتعارف بين الناس، والسؤال والجواب .. الخ .

ومنه ما يكون قائما على ضروب من الإعداد، أو التكلف، أو على الصناعة الكلامية الجدلية.

وأصلاً يكون باللسان والبيان القولي، ومنه ما يكون حواراً قلمياً مثل

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة: (حور).

الرسائل والكتب، والقصص والروايات المكتوبة، لأن القلم أحد اللسانين كما تقول العرب، أو هو اللسان الثاني عند أهل الأدب.

وإذا دار (الحوار) في إطار المودة والتفاهم، أو الدعوة والبلاغ، أو الاستفهام والاسترشاد سُمىّ بما يناسبه مثل:

التساؤل، أو التناصح، او الجدال بالحسنى، ونحو ذلك، قال تعالى عن أهل الكهف:

﴿ **وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ...** ﴾ [**الكهف**: ١٩].

وقال تعالى عن حوار النبي ﷺ: ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..** ﴾ [**النحل**: ١٢٥]

وإذا دار الحوار في إطار التنازع، أو العناد سُمي على شاكلته مثل: التخاصم، أو المكابرة، أو المجادلة بالباطل، ونحو ذلك:

قال تعالى بعد أن قص لونا من حوار أهل النار في النار:

﴿ **إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ** ﴾ [ص: ٥٩ – ٦٤]

وقال تعالى عن حوار الكفار: ﴿ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ..** ﴾ [**الكهف**: ٥٦].

﴿ **إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾ [**الأنعام**: ٢٥]

وهذا غيض من فيض مما ورد في القرآن الكريم عن التحاور بأنواعه وأسمائه الكثيرة، وبلفظه هذا أو ما في معناه وهو أكثر، وهو يكاد يكون سمة عامة في الأحياء التي بثها الله في الكون، ولكل لغته أو طريقته التي علّمه الله إياها، كما قال تعالى على لسان نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿ **وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ** ﴾ [النمل: ١٦].

وقد وهب الله الإنسان – خاصة – قدرة واسعة على التحاور والتخاطب حتى قال الله فيه: ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾ [**الكهف**: ٥٤].

وكان ممّا قصه الله علينا في كتابه ألوانا من محاورات البشر مع

بعضهم البعض، أو بين الأنبياء وأممهم، أو بينهم وبين الملائكة عليهم السلام، أو بينهم وبين الجن والشياطين، أو غير ذلك كمحاورة سليمان عليه السلام مع الهدهد الذي هدى الله به أمة إلى الإسلام، أو الكلام مع الدابة في آخر الزمان. (سورة النمل: ٢٠،٨٢).

الحوار نعمة أو نقمة؟:

ومن هذا تبين أن الحوار ضرورة للتفاهم والتواصل بين الأحياء، وخاصة البشر، وهو نعمة عظيمة من نعم الله عز وجل، ثم هو مسئولية كبرى بين يدي الله تعالى، فمن استعمل هذه النعمة بحقها سعد وفاز في الدارين، ومن انحرف بها، واستعملها في غير موضعها هلك وأهلك وخسر في الدارين خسرانا مبينا!!

ورسالة الرسل جميعا مصداق لهذا، ولعل إلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ..**﴾ [**إبراهيم: ٤**].

وكثيرا ما كان هذا الحوار الجدلي العابث هو مفتاح هلاك الأمم، ومدخل انتظام العقوبة الإلهية لهم في كل العصور، كما قال تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾ [**غافر: ٥**].

وفي هذا أبلغ النذر للأمم المعاصرة التي استكبرت في الأرض بغير الحق، وتجادل بالباطل في كل القيم والشرائع التي بعث الله تعالى بها رسله، ثم تحاول أن تفرض عبثها وباطلها على الأمم والشعوب، غافلة عن سنن الله عز وجل في الأولين والآخرين: ﴿**اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾ [**فاطر: ٤٣**].

وسنعود إلى تفصيل ذلك في مواضعه من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

ثانياً: (الحضارة)

«الحضر خلاف البدو، والحَضارة والحِضارة: السكون بالحضر، .. ثم جعل ذلك اسما لشهادة مكان، أو إنسان، أو غيره»(١).

وأرى أن أخذ (الحضارة) من الحضور هي المعنى الأسبق في اللغة، والألصق بمعنى التقدم الإنساني ونحوه.

ذلك لأن (الحضور) معناه: المعاينة والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا** ..﴾ [**آل عمران**: ٣٠].

وكما قال تعالى: ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ**﴾ [**الأعراف**: ١٦٣].

أي: قريبة من البحر، مشرفة على شاطئه، وهي (أيلة) التي تقع بين الطور ومدين كما يقول المفسرون.

ومعنى (الحضور) هو الذي يصنع التقدم الإنساني، الذي يكون نتيجة الجهود الجماعية لأقوام حاضرين في مكان ما، ثابتين لا يرحلون، مشاهدين لا يغيبون في فيافي الصحراء الواسعة، شأن البدو الذين يضطرون إلى كثرة الترحال وراء العشب والماء، فلا يستطيعون التأثير في قيام الحضارة بمعناها الواسع.

وقد عرّفت الحضارة عند بعض الباحثين المعاصرين بأنها:

«ثمرة أي مجهود يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته على وجه الأرض مادياً أو معنوياً».

«ومن الواضح أن التحسن المعنوي مقدم على التحسن المادي»(٢).

وللحضارة مظهران:

المظهر المادي: ويتجلى فيما يحرزه الإنسان في مجالات الحياة المادية كالعمارة، والأدوات الصناعية والزراعية..

---

(١) مفردات القرآن، للراغب الأصفهاني مادة: (حضر).

(٢) انظر كتاب الحضارة.. للدكتور حسين مؤنس، ص١٥-٥٦.

المظهر المعنوي: ونعني به العقل والروحي، .. كالأخلاق، والقانون، والعلوم بأنواعها، والفنون بألوانها[1] .

ولعل لهذا سميت المدن الكبيرة (بالحضر)، لحضور الناس فيها، وعدم غيابهم الطويل عنها، وبالتالي يتعاون التجمع البشري على ما ينفع الجميع، تلبية لحاجاتهم المتعددة، وهنا تنشأ الحضارة - بأي درجة - ثم تزدهر تباعا.

ومعلوم أن ظاهرة «**التجمع**» تشيع بين الأحياء من المخلوقات، ولكنها تأخذ في الإنسان شكلا خاصا، أكثر انضباطا وتنظيما من غيره، وتكاد تنفرد باستحداث الوسائل الصناعية للحياة، واكتساب العلوم والمعارف، واستخدام نتائج التجارب، ولذلك صارت هذه الظاهرة عند الإنسان أعظم سموا وتفاعلا، وتأثيرا وتأثرا حتى غدت بمنزلة (خاصة) للإنسان تميزه عن غيره من الأحياء.

وحتى قيل في تمييزه أنه: «مدني بطبعه»، ولا يمكن استمرار (التجمع) البشري إلا إذا نظم على أساس عدد من القواعد، والشرائع، أو القوانين، أو الأعراف والتقاليد تكون ملزمة للجميع طوعا أو جبرا، وإلا انحل هذا الاجتماع، وتبدد وقد أجاد الشاعر العربي في بيان ذلك:

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحوا ... فإن تولوا فبالأشرار تنقاد

المدنية البشرية:

ولذلك خلق الله تعالى الإنسان «متدينا بالفطرة»، ثم نظم له حياته بشريعته، وزوده بالعقل ليجلب به لنفسه الخير، وليدفع عن نفسه الشر، وبذلك أعطى كل أسباب الحضارة ومقوماتها فقامت تجمعاته في (المدن) الكبيرة المنظمة، فصارت حضارته (مدنية) واسعة النطاق.

---

(١) الإسلام فكرا وحضارة، للدكتور/محمد كمال شبانة، ص١٥٠.

و (المدينة) في أصلها مأخوذة من (الدِّين) بمعنى الشرائع التي تنظم حياة الناس، وتحقق لهم الأمن، وتفصل في خصوماتهم وهذا أصله كله من الوحي الإلهي للرسل والأنبياء عليهم السلام، ثم أضافت إليه الأمم في انحرافاتها ما يضبط حياتها كما قال الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴾ [**يوسف** : ٧٦].

والمراد في قوانين الملك الذي كان يحكم مصر يومئذ.

(وقد أشار البحث اللغوي إلى أن كلمة مدينة ترجع أصلا إلى كلمة دين، ولهذه الكلمة أصل في الآرامية والعربية، وعرفت المدنية عند الأكديين والأشوريين بالدين أي (القانون) كما أن (الديان) يقصد بها .. (القاضي)، (والحاكم)، (والملك) وكل المواضع التي أطلق عليها القرآن الكريم لفظ (مدينة) كان عليها حكام وملوك، وفيها على وجه التحقيق الصيغة القضائية؛ والدينية، والإدارية، والسياسية)(١).

ثالثاً: (الثقافة)

ورد مادة (ثَقِفَ) في اللغة العربية بمعنى: الحذق، والفهم، وسرعة التعلم.

قال الراغب: «الثَّقْف : الحذق في إدراك الشيء وفعله، .. ورمح مثقف: أي مقوم، ويقال : ثقفت كذا، إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر ..»(٢).

وقال ابن السكيت: رجل ثقف لقف، إذا كان ضابطا لما يحويه، قائما به، ويقال: ثقف الشيء، وهو سرعة التعلم.

وقالوا : رجل ثَقْف لَقْف، وثَقِف لَقِف: رامٍ راوٍ .

وثُقف الرجل ثقافة، أي صار حاذقا خفيفا.

والثِّقاف والثِّقافة جديدة مع القوّاس، أو الرمّاح يقوّم بها الشيء المعوّج حتى يعتدل.

---

(١) انظر كتاب: المدينة الإسلامية للدكتور/محمد عبد الستار عثمان، ص١٧ وما بعدها، بتصرف واختصار.
(٢) مفردات القرآن، مادة: (ثقف).

وفي المعجم الوسيط تفصيل دقيق لذلك ومنه:

(ثقَّف) ثقفا: صار حادقا فطنا .. والخلُّ: اشتدت حموضته .. والعلمَ والصناعة: حذقها، والرجل في الحرب أدركه، والشيء: ظفر به، وفي التنزيل: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

(ثاقفة) مثاقفة وثقافا: خاصمة، وجالده بالسلاح، ولاعبه إظهارا للمهارة.

(ثقِّف) الشيءَ: أقام المعوجّ منه وسواه، والإنسانَ: أدبه وهذبه وعلمه (مولد أي لظ استعمله الناس قديما بعد عصر الرواية).

(الثقافة): العلوم، والمعارف، والفنون التي يطلب الحذق فيها(١).

فالمادة واسعة الدلالة في اللغة العربية، وتشمل المحسوسات والمعاني والأفكار، حقيقة ومجازا.

اتساع المعنى حديثا:

وللباحثين اجتهادات كثيرة في تحديد معنى (الثقافة) في العصر الحديث فمنهم من يجعلها: (كل ما يميز الإنسان عن غيره ويجعله إنساناً) وهي بذلك مقاربة أو مرادفة لمعنى: (الحضارة).

ومنهم من يجعلها: كل ما يميز شعبا عن شعب آخر، أي الطريقة الخاصة بشعب ما في الحياة، بكل ما تضمه حياة هذا الشعب من تفاصيل في أساليب ووسائل الطعام، والشراب، والمساكن، والأثاث، والأقاصيص، والحكم والأمثال، وطرائق الزواج، وتنظيم الأسرة، وملابس الرجال والنساء وغير ذلك.

فالثقافة إذن هي ثمرة كل نشاط إنساني محلي نابع عن البيئة(٢).

أو هي مجموع المعلومات، والمعارف، والممارسات، والقيم الخاصة بشعب

---

(١) المعجم الوسيط جـ١، مادة (ثقف) واللفظ الأخير أقره مجمع اللغة العربي.

(٢) راجع كتاب (الحضارة) للدكتور/حسين مؤنس، ص٣٦٩ وما بعدها: الفصل السادس: الثقافة والحضارة.

مّا، والتي يعيش بمقتضاها، وتميزه عن غيره من الشعوب .. وهذا معنى جديد في كل اللغات ظهر منذ نحو ثلاثين سنه ونقل إلى اللغة العربية وغيرها[١].

---

(١) السابق: ص٣٩٨.

الفصل الثاني
الإنسان بين الهدى والضلال

تكريم وتمكين الإنسان:

خلق الله تعالى الإنسان بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء كلها، وأسكنه وزوجه الجنة، وهداه إلى شريعة الحق المناسبة لحياته يومئذ.

ولما أهبط إلى الأرض كان الله تعالى قد زوده بخصائص كبرى، تجعله أقدر المخلوقات على الاستخلاف في الأرض، وأعظمهم استعدادا لاستعمارها، وإحياء الموات في جنباتها، بما وهبه الله عز وجل من نعم لا تحصى منها:

١- الدين الهادي: (الإسلام)، وهو دين الله لعبادة في كل العصور.

٢- العقل المفكر، الذي يميز الأشياء والأحياء، ويختزن المعلومات والتجارب، ويتذكرها ويسترجعها عند الحاجة.

٣- البيان المفصح عما في نفسه من المعاني فيُفهم، ويَفْهم.

٤- الحواس المدركة (ظاهرة وباطنة) من السمع والبصر، والشم، والذوق، واللمس، والاستشعار بما ينفعه أو يضره، كالجوع والعطش، والحرارة والبرودة .. الخ.

٥- البيئة المهيئة بكل ما يحتاجه، والمسخرة له، والمزودة بكل العناصر القابلة للتحويل، والتشكيل، والتثمير .. الخ.

وقد فصل الله تعالى لنا ذلك في كتابه الكريم تفصيلا وافيا مثل قوله تعالى:

﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ..** ﴾ [البقرة: ٣٠]

﴿ **خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾** ﴾ [الرحمن].

وقـد جـعل الله تعـالى دينه (فطرة) في أصل خلقـة هذا الإنسـان المستخلف:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

ثم جعله وحيا يوحي، وهديا يتبع، وشرعا مفصلا، وحذر من عواقب الأعراض عنه: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤] .

وجعل سبحانه عمارة الأرض - في ظل شريعته - مهمة كبرى للإنسان، يستحق بها كرامة الدنيا والآخرة قال تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٦١].

وبهذا وكثير غيره استحق الإنسان التفوق والامتياز، على سائر المخلوقات حوله، في شئون الدين والدنيا، والروح والمادة، والتكوين والتمكين، كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠]

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وكان من أجلّ عوامل التمكين، والتفضيل للإنسان ما وهبه الله تعالى له من (العلم) بأنواعه، حين علم آدم وذريته فنونه من قراءة الخط، وكتابة القلم، وتسطير العلوم والمعارف التي ما كان له أن يعلمها إلا بفضل الله، وتعليمه إياه كما قال تعالى:

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق].

نشأة الحضارة وملحقاتها:

وبفضل الله ورعايته درج الإنسان على الأرض، مزودا بأجل عناصر الحضارة الإنسانية، وهو (دين الله) عز وجل، فكان عابدا موحدا، عالما بخالقه وغاية خلقه، عاملا بأمر ربه وشرعه وهديه، موقنا بالدار الآخرة، وما فيها من جزاء للطائعين والعاصين. ولكنه في الجانب (المادي) كان في أول الطريق، يلتمس وسائل الحياة والمعاش مما علمه ربه مباشرة، أو بما أودع الله فيه من مواهب العقل، والبيان، والتجارب، وبما سخر الله له حوله من الأشياء والأحياء، وبما ذلل له من مناكب الأرض: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠)**﴾[نوح].

قصة ابني آدم:

وهي قصة خليقة بتأمل ألفاظها ومعانيها الباهرة، قال تعالى:

﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)**﴾[المائدة].

ونوجز هنا بعض دلائل القصة:

١- لقد ضل البشر قديما وحديثا في تفسير نشأة الإنسان، وقيام حضارته، ومعرفة الدين الحق، وهذه القصة تبرز لنا الأمر من أول البشرية (ابني آدم): قابيل وهابيل، ولأنها ليست رجما بالغيب مثل أساطير البشر قال الله تعالى: (بالحق) أي بالخبر المطابق للواقع والحقيقة التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

٢- تقوم الحضارة الإنسانية في كل العصور على جانبين:

(أ) الجانب الديني، أو الروحي، أو المعنوي .. الخ .

(ب) الجانب المادي، أو الحسي، أو العملي.

والقصة القرآنية تبرز بوضوح تام أمرا على غاية الأهمية وهو أن الإنسان من أول أمره نشأ مكتمل (العقيدة والدين) عالما بشريعة الله وعبادته، ويتمثل ذلك في معرفة (القربان) لله، ومعرفة (الله) تعالى، وأنه (يتقبل) من المتقين، ومعرفة (الخوف من الله رب العالمين)، ومعرفة (الإثم) ومعرفة (النار) التي يعذب بها المجرمون الظالمون، وكل هذا معلوم من وحي الله لرسوله آدم.

٣- أما في الجانب (المادي) المتعلق هنا بدفن الميت فكان يجهله القاتل حتى تعلمه من غراب، لأن هذا القتيل أول قتيل على وجه الأرض، ولم تكن هناك سابقة ولا تجربة، وهكذا يمكن للإنسان أن يحصل الأمور المادية بالتجارب، أو الملاحظات، أو التقليد والمحاكاة، أو بالتفكير العقلي والاستنباط، لذلك ترك الإنسان لهذا كله ليتعلم، أما حقائق الدين التي لا يمكنه تحصيلها من هذه الطرق، فأعطيت له بواسطة الوحي الإلهي الجليل.

٤- النّدم من القاتل، ومعرفة طريقة الدفن أمران حضاريان، وهكذا تتابعت المعارف الحضارية المادية بالتدريج؛ إلى أن وصلت إلى الازدهار والاتساع في ظل الدين الإلهي الذي سبق - في الاكتمال - كل الجوانب المادية.

وهذا أبلغ الدليل على أن الحضارات الإنسانية تأسست ابتداء على الدين الإلهي (الإسلام)، وأن الحضارات التي تباعدت عن دين الله كانت شذوذا عن القاعدة، وانحرافا عن الطريق المستقيم، ومن هنا كانت بعثة الرسل كما سنبين بعد إن شاء الله.

٥- سبب كل إفساد في الأرض هو الظلم، والطغيان، وتجاوز المفسدين لشريعة الله.

حقائق الوحي الإلهي:

لذلك جاء الوحي الإلهي بالحقائق القاطعة، وعلمنا ربنا هذه العقائد الصادقة، وأنه سبحانه خلق الإنسان، وهيأه للتحضر والتقدم وعمارة الأرض عبر محوري (الثبات والمرونة) كالآتي:

أولاً: زوده الله تعالى بكل الحقائق المطلوبة لذلك من الدين، والعقل، والخصائص والملكات كالبيان، والحواس .. الخ.

ثانياً: خلق الله له كل المواد التي يحتاج إليها في مهمته الممتدة إلى آخر الدهر، في صورة أشياء مباشرة كالماء، والهواء .. أو كامنة قابلة للاستخراج، أو التحويل، أو التشكيل، كالمعادن المتعددة، والأخشاب، وألوان الزراعات .. الخ.

قال تعالى: ﴿ **وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (21) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22)** ﴾ [**الحجر**].

وقال تعالى عن الأرض بعد خلقها:

﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ** ﴾ [**فصلت**: ١٠]

وجعل الله تعالى سبيل الانتفاع التام بهذه النعم كالآتي:

أولاً: ما يستحيل أن يدركه الإنسان بذاته أو بأدواته وآلاته بينه له بيانا تاما شافيا، وفرضه عليه فرضا ملزما، رحمة بالإنسان حتى لا يزيغ ويهلك، وذلك كالدين كله، والتوحيد بصفة خاصة، وصفات الله تعالى عامة، وحقائق البعث والنشور، والجزاء بنوعيه.

ثانياً: ما يمكنه معرفة حكمه بجهد ومشقه، أو علم سبحانه وتعالى أن الناس يتخبطون فيه بسبب الهوي، أو المصالح الفاسدة، وهذا النوع أيضا

بينه سبحانه، وثبته، إنقاذا للإنسان من حيرته، وأهوائه، وشهواته، وذلك كالزنى، والشذوذ الجنسي، والربا، والخمر، وأكل الخنزير .. الخ.

ثالثاً: ما يمكن للإنسان الوصول إليه عبر استعمال العقل، أو تكرار التجارب، أو محاكاة ما حوله من الأشياء والأحياء .. فهذا النوع تركه الله تعالى مرسلا، مفتوحا، وحث الناس فيه على العلم والعمل، والفكر والنظر، والاجتهاد والسعي، ليصلوا فيه إلى غاية الممكن في كل زمان ومكان، وليتعودوا دائما بذل الجهود، وطلب الترقي والتقدم في الانتفاع بنعم الله التي سخرت لهم، واللازمة لعمارة الأرض وتحقيق مصالح الخلق.

وذلك مثل ألوان الزراعات، وفنون الصناعات، وبناء المساكن، وحياكة الملابس، وشق الأنهار، وإحياء الموات، وعلاج الأمراض .. الخ.

وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [**الجاثية** : ١٣]

والمعنى: يتفكرون فيعرفون قدرة الله ونعمته السابغة عليهم. أو يتفكرون بعقولهم ليستخرجوا ما أودعه الله تعالى لهم في السموات من طاقة الشمس والهواء، وأمثالها، وما أودعه لهم في الأرض من النعم الظاهرة والباطنة، بالزراعة، والصناعة، ووسائل الانتقال من الدواب، والسفن .. الخ.

التعدد البشري حكمة إلهية:

ولقد انتشر الناس في الأرض، وتوسعوا في العمل والسعي، وصاروا شعوبا وقبائل، وأمصارا وأقاليم، وأمما ودولا حسبما اقتضته حكمة الله لهم، وبذلك قامت في الأرض حضارات واسعة، تجاورت وتحاورت، وعمرت وثمرت كما شاء الله عز وجل.

وكان التعدد البشري لحكمة إلهية جليلة، إذ أشاع التنافس بين الناس، وحقق لهم التوازن بين القوى، والتكامل في المصالح والمنافع، كما قال تعالى:

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ..** ﴾ [**الحجرات**: ١٣].

والآية الكريمة تقرر أصلا أساسيا أن الناس جميعا متساوون في أصل الخلقة، وأن الله تعالى هو الذي فطرهم على (التعدد) لتحقيق مصالحهم، فهو للتعارف لا للتخالف، وهو للتكامل لا للتفاضل والتمييز العنصري أو الطبقي، وتقرر الآية الكريمة أن معيار التفاضل هو (تقوى) الله عز وجل، بإشاعة العدل، وترك الظلم، والخضوع للحق الإلهي المعلوم في الأرض دائما، وعلى ألسنة الرسل عليهم السلام.

والله تعالى لم يأذن لأمة واحدة أن تتحكم في الأمم، ولا لحضارة واحدة أن تسود الآخرين بالقوة والعنف، والظلم والاستكبار، لأن هذا مناقض لحكمة التعدد البشري، الذي هو ضرورة لحياة الناس من حيث هو تكامل بين الأمم لتحقيق المصالح، فكل يتنافس في التقدم وإنتاج ما ليس عند الآخرين، وكذلك من حيث تحقيق حكمة الله تعالى في الدفع والاستخلاف، حتى لا يتفرد الطغيان بمصائر الناس.!

وبالضرب في الأرض، والتبادل بين السلع، والانتقال الآمن من أمة إلى أمة، تتحقق المصالح، وتجري الأرزاق، وينقطع التحاسد والتحاقد بين الأمم، ويشيع الأمن بين الجميع، وقد امتن الله تعالى على (قريش) بما وفره لهم من هذا وهم في جاهلية طامسة فقال:

﴿ **لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)** ﴾ [**قريش**]

ويتكرر هذا طالما التزمت الجماعات والأمم والدول بالعدل والإحسان اللذين أمر الله بهما، وابتعدوا عن الفحشاء والمنكر والبغي التي نهى الله عنها، واحترموا الوعود، والعهود، ولم يتلاعبوا بالمواثيق ليكونوا كما حذر الله:

﴿ **أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ** ﴾ [**النحل**: ٩٢].

وبذلك تقوم الأسواق، وتروج التجارات، وتتزاوج الحضارات، ويشيع التفاهم بين الأمم، ويقل أو ينعدم الصراع والصدام في المجتمعات البشرية، ولم تقم (مدنية) البشر إلا بهذا وأمثاله، وقد قدمنا أن لفظ (المدينة) مشتق من (الدين) بمعناه الشرعي الإلهي، أو حتى بمعناه الوضعي البشري[1] القانوني، لأن التزام الناس بقانون ما خير من الفوضى، والاعتداء الغاشم على الحقوق والحرمات!!

الظلم والفساد آفة الأرض:

وما من مرة في التاريخ البشري يضطرب الأمن، ويختل النظام، وتضيع مصالح الناس، ويشيع بينهم الذعر والخوف إلا بجنوح جماعة من البشر عن الطريق السّويّ، أو التعابس السلمي بين الأمم والجماعات، فيقع الظلم والبغي، وينتشر الفساد والإفساد في الأرض، ويتصادم الناس ويتصارعون، وتسفك الدماء، وتندلع الحروب بكل أهوالها وأوزارها!!

بدأ هذا حين اندلع الحقد والأنانية من ابن آدم الأول، فسفك دم أخيه غدرا وبغيا!!

ثم تسلسل هذا بين الجماعات نتيجة الطمع، وحب الأثرة واغتيال حقوق الآخرين، أو الرغبة في الانفراد بالمنافع بغيا وعدوانا.

ولذلك نهى الله تعالى عباده نهيا جازما عن الظلم، والإفساد، لأنهما المدخل المظلم لتدمير الإنسان، وحضارته، وقيمه العليا.

لذلك كانت وصية الوحي الإلهي في كل العصور للبشر:

﴿ **وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا** ﴾ [**الأعراف**: ٥٦].

﴿ **وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [**القصص**: ٧٧].

وقد ندد الله تعالى في كتابه الكريم بالفساد والمفسدين أكثر من

---

(١) القانون الوضعي خطيئة دينية بالغة في كل العصور، وشريعة الله دائماً موجودة وكافية، والمقصود بيان أن أي قانون هو أهون من الفوضي.

خمسين مرة، واستنكره بكل أنواعه وأوضاعه، فرديا كان أو جماعيا، خاصة إذا صدر من أكابر المجرمين والطواغيت، الذين لهم تأثير ونفوذ وسلطان على أممهم، فيسوقونهم إلى أفجع المصارع، وتخريب العمران، وسفك الدماء، لتكون للطواغيت الكبرياء في الأرض!!

وقد نبه الله تعالى عباده إلى أن الفساد والإفساد يجلب الدمار على أهله، ويستنزل عليهم سخط الله، وعذابه العاجل، وعقابه الناجز، كما قال تعالى عن الأمم السابقة:

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر].

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨]

وهؤلاء لما تآمروا على قتل نبي اله صالح عليه السلام، وعلى عقر المعجزة المؤيدة له وهي الناقة كان جزاؤهم:

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل: ٥١، ٥٢].

ولذلك استحث الله تعالى العقلاء في كل أمة ليقاوموا هذا الداء البشع، قبل أن يدمر الجميع، أو يهلك الصامتين عن الحق مع المجرمين، قال تعالى:

﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [هود].

والمعنى بإيجاز:

هلاّ وجد في القرون التي أهلكت قبلكم، أصحاب بقية من عقل وخير ينهون المفسدين عن الفساد في الأرض، ويقاومون الباطل حتى لا ينزل العذاب على المفسدين والساكتين، وقد فعل ذلك قليل من اتباع الأنبياء عليهم

السلام لكن لم يكونوا مؤثرين في دفع الفساد، فنزل العذاب الجائح، وأنجى الله القلة المؤمنة، وأهلكت القرى الفاسدة المفسدة، ويقول المفسرون هنا ما خلاصته:

(والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لكون القوم معتقدين للشرك والكفر، إنما ينزل ذلك العذاب إذا خانوا في المعاملات، وسعوا في أذى الخلق وظلمهم، وإنما لم يهلكهم لمجرد شركهم، لأن مكافأة الشرك النار لاما دونها، وإنما يهلكهم بمعاصيهم زيادة على شركهم، مثل قوم صالح بعقر الناقة، وقوم لوط بالأفعال الخبيثة، وقوم شعيب بإنقاص الكيل والميزان..،)(٢).

ودليل ذلك أنه قيل لفرعون حين أدركه الغرق وأعلن إيمانه وإسلامه: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

ويقال مثل هذا كله عن الظلم والظالمين، فإن الفساد والظلم توأمان، أو شران متلازمان غالبا، وبينهما عموم وخصوص، فتارة يجتمعان، وقد ينفرد كل منهما بضرب من ضروب الخزى والعار.

الظلم المدمر:

وقد يكون الظلم أشنع وأشيع وأمرّ من صاحبه، لذلك ذكره الله تعالى في كتابه أكثر من (ثلثمائة) مرة، مصرفا القول فيه، محذرا منه غاية التحذير، لأن الفساد قد يحقق شهوة أو لذة لصاحبه، قاصرة عليه كالزنى والخمر والغناء الماجن، لكن الظلم يكون متعديا للغير، مرير الوقع، فادح الأثر لذلك قيل بحق: «العدل يعمّر، والظلم يدمّر»، و«الملك يبقى مع الشرك، ولا يبقى مع الظلم»!!.

وقد عدّه الله تعالى أظهر الأسباب لتدمير الأمم والشعوب والدول، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ..﴾ [يونس: ١٣].

---

(١) انظر تفسير روح البيان عند تفسير الآيات الكريمة، ومختصر تنوير الأذهان، ج٢، ص٢٠٢ ومابعدها.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

فكان (الظلم) هو أبرز سبب لإهلاك قوم نوح عليه السلام بعد هذه القرون المتطاولة من الدعوة، والتكذيب، وكانت البشرية في مطلع حياتها لا تزال قريبة من الفطرة، فانظر كيف دمرها الظلم والبغي، والطغيان؟! ثم كيف ابتلعهم الطوفان؟! وما هو من الظالمين ببعيد في كل مكان وزمان!!

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]

إن الأمم قد تكون آمنة هادئة، حتى يظهر فيها المستبدون الظالمون، المحرضون على الشر، المعتدون على حقوق الغير، وحرمات الناس من رعاياهم، أو من جيرانهم في الأقاليم، والأمصار، فإذا خنع الناس أمامهم اشتدوا في الإفك، وامتدوا في الباطل، وصاروا قوة قاهرة مسيطرة، فتجر المجتمع كله إلى الدمار والهلاك، سواء بتكذيب الأنبياء، أو بإشعال الفتن والحروب، أو بمصادرة الحريات، وقتل الحرمات والكرامات، لذلك جعل الله هذا الظلم سبب الأذن بقتال الكفار بعد طول الصبر فقال:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩].

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٩].

أبيض

الفصل الثالث
حــوار الرسل والأمم

تمهيد:

لقد أحاط الله بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، لذلك جعل معجزة الرسالة الخاتمة كتابا يتلى على الناس: ﴿**قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [**الفرقان**: ٦].

ولقد ضمنه الله أسرار الوجود، وحقائق الاجتماع البشري، وطرائق التعامل الإنساني، وأنواع الحوار بين الأفراد والمجتمعات، وأصول الدعوة الهادية، وما وراء ذلك من ألوان الخطاب، والجدل، والنقاش، والمراء، كل في موضعه: ﴿**وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾ [**الحجر**: ٢١].

وفي الأثر الشريف (فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم..)(٣).

والقرآن الكريم يقرر أن رسالة الرسل هي حجة الله على عباده في الدنيا والآخرة، ثم هي ضرورة الضرورات لإنقاذهم من ضلال الدنيا، ومن عذاب النار في الآخرة.

لذلك توسع القرآن الكريم في عرضها، وبيان حقائقها، والتنبيه على دقائقها، وكيف أداها الرسل عليهم السلام، وكيف تلقتها الأمم، لتكون زادا للدعاة، وعبرة للناس إلى آخر الدهر، يجد فيها كل جيل لونا من الهدي الذي يأخذ بيده، وصدق الله العظيم:

﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [**يوسف**: ١١١].

---

(١) رواه الترمذي والدرامي وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً، وهو حديث حسن.

وسنأخذ من هذا الفيض القرآني ما يتصل بموضوعنا، لضرورته في فهم قضايانا المعاصرة، ومشكلاتنا الحاضرة، على النحو التالي:

١- الإنسان المعلَّم:

لما خلق الله آدم عليه السلام شرفه وكرمه، وعلمه الأسماء كلها، وأفهمه معانيها، وأعطاه البيان، ووهبه الحواس، وزوده بكل ما يلزمه من خصائص وغرائز تناسب حياته الجديدة في الأرض.

٢- الدين القيم:

وكان في مقدمة هذا التعليم والإعداد أن وهبه الدين القيم، فطرة في النفس، وتفصيلا من الوحي، فنشأ الإنسان مكتمل العقيدة والدين، عالما بمعبوده وبصفاته العليا، وأنه الخالق، الرازق، المالك، العليم، الحكيم، القوي، القادر .. الخ.

وقد جاء الوحي الإلهي من أول الطريق بما يناسب الروح والمادة معا، لأن الإنسان خلق منهما، ولكن في جانب الروح لم يتركه للتجارب وإنما علمه الحقائق مباشرة، وفي جانب المادة أعطاه ما يناسب حياته يومئذ، وترك له الأمر يجد فيه ويجتهد بالعقل والتجارب ليقيم ما يصلح حياته، ويصنع حضارته تدريجا واجتهادا كما قررنا ذلك بالتفصيل سابقا.

٣- الإنقاذ الإلهي:

ولما انتشر الناس في فجاج الأرض، وقعوا فيما حذرهم منه ربهم، فانحرفوا عن الهدى الإلهي، وأعرضوا عن ذكر ربهم، فذاقوا المشكلات والمهلكات، وكان فضل الله تعالى يتبدى عليهم دائما بإرسال رسول بلسان قومه ليبين لهم، ويردهم إلى الإسلام الذي بعدوا عنه، لا يسألهم أجرا، ولم يستعل الرسل على أحد بنسب أو إصطفاء، وكان عامة أتباعهم الضعفاء، ولم يجدوا حماية من الزعماء والرؤساء، بل ناصبوهم العداء، فصبروا عليهم السلام طويلا على ما كذبوا وأوذوا.

وكان من فضل الله أن حفظ للأجيال تفاصيل ما جرى بينهم وبين أممهم، من دعوة وحوار، وجدال ومراء، وافتراءات وشبهات، كانوا يردون عليها بحقائق الوحي الإلهي، فكان ذلك عبرة وتذكرة، وزادا للدعاة وللمؤمنين يستضيئون به في معاركهم مع اللاحقين من المنحرفين عن الحق، وهي معارك ممدودة عبر التاريخ البشري إلى يوم القيامة.

٤- نماذج من الفريقين:

يعرض القرآن الكريم نماذج من الحوار والدعوة والبلاغ في النبوة الأولى: (آدم، نوح، هود، صالح ..) ومن النبوة الوسيطة: (من إبراهيم إلى عيسى) عليهم السلام أجمعين، ثم يعرض النموذج الأوفى من النبوة الخاتمة التي جاء بها محمد ﷺ.

ويأتي مع كل بمواقف الأمم، وردود الرؤساء والطواغيت، ومحاولاتهم الدائبة لدحض الحق، ومنع الرسول من البلاغ والدعوة.

وحين نتأمل النماذج القرآنية إجمالاً، نجد عجبا، متكررا عبر الأمم، والعصور:

نجد في جانب الرسل عليهم السلام:

الأدب الجم، والنصح الخالص، والدعوة الهادية، والبلاغ الراقي، والصبر الجميل الطويل، والرد المهذب في أحرج المواقف، وبكل ذلك جاء القرآن الكريم تفصيلا.

ونجد في جانب الأمم:

الإنكار والتكذيب، والسفة والافتراء، والتطاول والطغيان، والتهديد والتعذيب والعدوان، جمودا على إرث الأولين.

إن دعوة الرسل عليهم السلام ليست بدعا من القول، ولا هزلا من الكلام، وإنما هي دعوة لأحق الحقائق، من التوحيد والتعبيد لله الواحد القهار، ومن الإيمان بالبعث والنشور، ومن وجوب (الإسلام) لله في كل شئون

الحياة. ونبذ هذا العار البشري المتمثل في عبادة الأصنام، والأحجار، والأشجار، والدواب، والكواكب .. ثم الكف عن المظالم والفساد في الأرض، ونبذ الفواحش والموبقات!!

وإن رد الأمم يتمثل في التمرد على الله تعالى، والاعتصام بكل ما هم فيه من ضلال مبين، والسخرية من الدعوة الهادية، والتحرش الدائب بالأنبياء والضعفاء الذين آمنوا بهم، والمحاولة الدائمة لإسقاط القداسة عن المعصومين والمصطفين الأخيار، ورميهم بكل إفك وكذب وبهتان!!

وفي آية جامعة يوجز القرآن الكريم هذا الداء البشري:

﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ [غافر: ٥] .

ويقول سبحانه وتعالى مستنكرا هذا الموقف المتكرر من الأمم بلا اتفاق سابق عليه، ومبينا علته وسببه وهو (الطغيان) الدائم في نفوس الطواغيت:

﴿ **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾** ﴾ [**الذاريات**:] .

وهؤلاء الطغاة من زعمائهم وكبرائهم يتصدون لدعوة الرسل حفاظا على مصالحهم الذاتية أو الطبقية، واستبقاء لتبعية جمهور الأمة لهم، أو استكباراً واستعلاء في الأرض بغير الحق، ويسوقون ألوانا من المعاذير، والمبررات، والأكاذيب ليستخفوا أممهم وأتباعهم، ومن يؤمن منهم بالرسل يجعلونه عبرة للآخرين بما يصبونه على المؤمنين من جرائم النكال، والتعذيب بل كانوا يصبون العذاب على الرسل ذاتهم، بالنفي تارة، أو بالتهديد بالرجم، أو السجن، أو القتل، أو الحرق كما فعلوا بإبراهيم عليه السلام، لولا أن نجاه الله من النار.

ويأتي في النهاية القصاص الإلهي العادل الباتر، فيهلك الله تعالى المستكبرين، وأشياعهم من المستضعفين، وينجي الله المؤمنين، ثم تعود

القصة، وتتكرر المأساة مع رسول جديد وكأنهم لا يتعلمون، ولا يعقلون:

وكأن الذي مضى لم يأت بعد   فيستأنف الجناة الجناية!!

وما أبلغ وأوجع عبارات القرآن الكريم في هذا الصدد:

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يس:].

٥- مشاهد تفضيلية وتاريخ مكرور:

ولقد كان من الإعجاز القرآني الباهر أن قص علينا مشاهد تفصيلية عن دعوة الرسل، ومواقف الأقوام، تحمل لنا حقائق التاريخ الوثيق، وتعطينا أبلغ الدلالات عن موقف كل فريق، في فجر التاريخ البشري، وكأن القرآن يحدثنا عن الصورة الحاضرة، التي لا تزال - رغم القرون - هي هي في خطوطها الأساسية، وإن تغيرت - فقط - الأسماء، والأزياء، والصور، والأشكال!!

ومن ذلك على سبيل الإيجاز:

١- أرسل الله تعالى شيخ الدعاة، الصبور الشكور، (نوحا) عليه السلام إلى البشرية بعد أن استقرت أجيالها في الأرض، وأقامت حضارة عظيمة بما أعطاهم الله تعالى من العلوم والخصائص والمعارف الوهبية (كالدين والأخلاق في أرقى صورهما) أو الكسبية القائمة على التجارب، والتعلم، وغيرهما مما أودع الله في الإنسان من خصائص العقل، والبيان، وسائر النعم.

ولكنهم كفروا بخالقهم العظيم، وعبدوا الأصنام، واتبعوا الشيطان، فبعث إليهم (نوح) عليه السلام، ليردهم إلى الإسلام الذي تعلموه من أبيهم آدم ومن بعده، فتلطف في دعوتهم غاية التلطف، وعلمه الله تعالى أن يراعي جدة الدعوة عليهم، وأنهم الطلائع الأولى الذين لم يتعاملوا مع الرسل من قبل، وليس لهم سابقة تجربة أو معرفة لرسالات الله عز وجل، لذلك أمره

بطول الصبر، وكمال الجهد رحمة بهذه الأجيال الأولى..

وقد جاءهم عليه السلام بكل طرق الدعوة الصالحة: ترغيبا وترهيبا، وليلا ونهارا، وإعلانا وإسرارا، واختار لهم أحكم القول، وأطيب اللفظ، فلم يجد إلا السوء والنكران، وأغلظ الكلام، وأفظ الأفعال:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح].

ولقد أفاد وأجاد، ولفت أنظارهم إلى دلائل الحق في السموات والأرض، وظل على هذا ألف سنة إلا خمسين عاما، يحتمل منهم كل صنوف السخرية والأذى، والتهديد والوعيد، والتكذيب والتعذيب، ثم قال في أسى عميق:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح].

وهكذا استحق هؤلاء الطواغيت غضب الحق، فدمر الطوفان حضارة البشر الذين تعبوا قرونا في إقامتها، وعادت الأرض من جديد تستأنف جهودا مضنية، بنفر آمنوا بنوح ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

٢- ثم بارك الله لهؤلاء المؤمنين الناجين فتنا سلوا، وتكاثروا، وأقاموا حضارتهم بفضل الله مرة أخرى بعد جهود مضنية، وزرعوا، وثمروا، ولكن الآفة البشرة تكررت بأفدح مما سبق، حين نشأت في جنوب الجزيرة العربية القبائل العملاقة التي اشتهرت باسم (عاد) فغرتهم نعم الله، وكفروا بالله، وعبدوا الأصنام وأفسدوا في الأرض، وأشاعوا البغي والظلم،

فبعث الله تعالى لهم رسولهم الأمين (هوداً) عليه السلام، ولم يتعلم طواغيت قومه الدرس الأليم رغم تذكير نبيهم لهم بأنهم (خلفاء قوم نوح)، بل ربما أربوا على ضلالات السابقين حين ردوا على نبيهم في وقاحة:

﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧)** ﴾ [**الأعراف**:].

﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ** ﴾ [**فصلت**: ١٥].

وأهلكهم الله بالريح العاتية، ولم تغن عنهم قوتهم، ولا جناتهم وعيونهم.

٣- وتكرر المشهد الأليم في (ثمود) خلفائهم، نحاتي الجبال، ذوي الحضارة الفارهة، في شمال الجزيرة العربية حين كفروا بربهم، وأفسدوا في الأرض وفي قوم لوط حين فسقوا عن أمر ربهم، وأشاعوا الفاحشة في أوساطهم، وفي قوم شعيب المطففين، ثم في الفراعنة الجبارين، حضارات تقوم وتزدهر، ثم تكفر بربها، وتأبى إلا الإفساد والظلم، فيحق عليهم القانون الإلهي الصارم:

﴿ **فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [**العنكبوت**: ٤٠].

والخلاصة هنا:

(أ) أن هذه أمم وشعوب أو دول وحكومات ذات حضارة باهرة، ولهم جنات وعيون، وكنوز ومقام كبير، ولديهم قوة وسلطان، وصناعات وفنون، يقيمون بها القصور، وينحتون من الجبال بيوتا فارهين، ويبنون بكل ريع آية يعبثون، ويبنون بها الصروح (والمسلات)، والتماثيل والصور .. الخ.

ولكنهم استكبروا على رسالات (الإصلاح) الديني والأخلاقي، ورفضوا دعوة الرسل الهداة، الأساة، الناصحين!!.

(ب) أن دعوة الرسل كانت هي الحق المبين، والإنقاذ المتفرد للناس، وكان الرسل هم المثل البشري الأعلى في الدعوة الصحيحة، والأدب الراقي، والخلق الأسمى، ومع ذلك لم تفلح وسائلهم في إنقاذ الناس من العذاب الماحق، لإصرارهم على تبعية الباطل.

(ج) وسبب ذلك هم أولئك الطواغيت والجبابرة من زعماء الأمم وكبرائها، الذين واجهوا الرسل بغاية الضراوة والافتراء والسخرية والاستهزاء، واستطاعوا استغفال (جمهورهم) واستهواء الأقوام، واستخفافهم، فاتبعوا الباطل حتى أهلك الله الظالمين ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف].

(د) وفي الجانب الآخر كان الرسل عليهم السلام دعاة إلى الحق، لا يملكون قوة ترهب أو ترعب الناس، ولا يملكون سلطانا أو مالا يؤثر في الأمم، وإنما هي الدعوة المجردة، والحق المبين، والحوار الأمين، والمناقشة بالحجة والبرهان، وتذكير الناس بأيام الله، ونعمه التي أسبغت عليهم.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن أيد رسله بالبينات القاطعة، والمعجزات الخارقة، حتى تتعادل الدعوة مع جبروت القوة في عقول وأسماع وأبصار الذين يريدون الحق والإيمان.

ولكن اطردت جهالة الرؤساء في تكذيب الرسل، ولم يحفلوا بهذه الخوارق الحسية الهائلة، وكذبوا بها في وقاحة مزعجة، وجادلوا بالباطل رغم وضوح كذبهم كما قال تعالى عنهم:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت : ١٧] .

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت : ٣٨] .

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا

أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾ [النمل].

وهذه قضية بالغة الخطر والأثر، ينبغي أن تفهم على وجهها الصحيح، فإن الأمم السابقة قد فهموا دعوة الرسل، وقامت عليهم الحجة، ولم تكن نتائج الحوار مع الرسل محل شك منهم، ولكنهم عاندوا على علم، ورفضوا الحق جحودا واستكبارا لا جهلا، وهذه معضلة بشرية مكرورة!!

يقول المفسرون: (والحال أنهم كانوا ذوي بصيرة عقلاء، متمكنين من النظر والاستدلال، ولكنهم لم ينتفعوا بعقولهم، ولا بأسماعهم وأبصارهم، بل عطلوا ذلك كله عمدا، فاستحقوا العذاب المهين).

(هـ) لذلك اقتضت حكمة الله أن يمنع هذا النمط في الرسالة الخاتمة، فلا يستجيب لاقتراحات المشركين المعاندين بطلب الخوارق الحسية، لأنهم لم ينتفعوا بها طوال التاريخ النبوي السابق كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا..** ﴾ [**الإسراء**: ٥٩].

وأي آية تلك التي تخرج من الصخر - أمام أعينهم - ناقة ضخمة فخمة، تنبض بالحياة والخير، وتدر لهم لبنا غزيرا غير معهود؟! فكذبوا نبيهم صالحا عليه السلام، واستخفوا بنذير الله لهم، فعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، فعاجلهم عذاب الاستئصال المبيد:

﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)** ﴾ [**الأعراف**:].

إن كل إنسان عاقل مفكر في الأرض ليقف حائرا في أعقاب القرون، وفي أدبار هذه الحوادث الجسام، يسأل عن هذه العلة المهلكة؟ وعن أسباب رفض هذه النصيحة الخالصة؟ التي عالج بها المرسلون أممهم، قبل أن تأخذهم سنن الله الصارمة؟!

إنها - كما قلنا - الآفة المكررة من الظلم والبغي، والفساد والإفساد، أو ذلك الاستكبار الأرعن، أو الطغيان الأحمق الذي سد على الرؤساء كل منافذ الخير، وقادهم وأممهم إلى مصارع السوء الأليم، وصدق الله العظيم:

﴿ **لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً** ﴾ [**الفرقان**: ٢١].

على ما نفضله في الفصل التالي إن شاء الله تعالى..

الفصل الرابع
الرسالة الإلهية الخاتمة

هذا عنوان جليل، لأجلّ رسالة، وأعظم دعوة في التاريخ. وهي خليقة بالبحث، والفهم، والدراسة المستوعبة، لأنها طريق السعادة الخالصة في الدنيا والآخرة، كالمثل الذي ضربه الله في القرآن:

﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)** ﴾ [**إبراهيم**: ٢٤، ٢٥].

وقد جعل الله لهذه الرسالة أسسا تقوم عليها، وتضمن لها التفوق والامتياز، والبقاء والاستمرار، والحجة البالغة، والبلاغ المبين إلى يوم الدين.

وسنتحدث عن أربعة من هذه الأسس على الترتيب التالي:

(الرسول الخاتم - الدين الكامل - الكتاب المعجز - الأمة المستخلفة).

وسنتناول كلا منها بما يتناسب مع موضوعنا عن حوار الحضارات والثقافات، ومع الإيجاز قدر المستطاع إن شاء الله:

الأساس الأول: الرسول الخاتم:

أرسل الله تعالى رسوله محمدا ﷺ في ختام الرسالات الإلهية للبشر، وجعله كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [**الأنبياء**: ١٠٧].

وحدد له مهمته الجليلة فقال تعالى:

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦)** ﴾ [**الأحزاب**].

فهو شاهد للأمم وعليها بأنه بعث بالحق المتفرد، وهو المبشر بكل خير، ونذير المخالفين رجاء أن يعودوا إلى ربهم، وهو داعي الأمم إلى الله في

وحدانيته ورسالته وشريعته، على نور وعلم مبين، ومتلبسا بالرحمة المهداة في كل شأنه، حتى في نذارته للعصاة قبل الممات، وقد دفعت الأمم الشاردة طوال التاريخ ثمنا باهظا حين نزل بهم عذاب الاستئصال في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخرى.

وقد جعله الله لهم أمانا من هذا العذاب المبير في الدنيا، وألزمه في مقابل ذلك مواصلة الدعوة والبلاغ، بالحجة والبرهان، والحوار والبيان، وبما علمه من القرآن.

ولقد كان من أعظم حوادث التاريخ الديني قديما أن أنزل الله تعالى (التوراة) فيها هدى ونور على رسوله الكريم موسى بن عمران، فصارت علامة فارقة في الأرض بعد هلاك القرون الأولى الكافرة، وجمع حولها بني إسرائيل، وأصبح للحق معسكر واضح متميز، يبعث الله تعالى فيه الرسل والأنبياء بالحق والبيان.

ولكن بنو إسرائيل ضلوا ضلال مبينا، وشاقوا الله ورسله، حتى بعث فيهم عيسى بن مريم في نهاية المطاف، وأنزل عليه واحدا من أعظم الكتب الإلهية وهو (الإنجيل).

وكان من شؤم اليهود أن كذبوه، وقالوا فيه وفي أمه بهتاناً عظيما، فنشأت النصارى فرقة متميزة من اتباع المسيح عليه السلام، على التوحيد الخالص، والحق المبين.

وما لبث النصارى أن اختلفوا وتفرقوا وضلوا في أصل الدين ضلال مبينا، حتى عبدوا المسيح وأمه، وزعموه إلهاً أو ابن الإله ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ [**الإسراء**: ٤٣].

وبدت الأرض كلها في ذلك الوقت كالحة مظلمة.

فأين جهود الأنبياء والمرسلين التي بذلوها طوال التاريخ؟!

وأين ما أعلنوه من التوحيد الخالص، والتجرد المطلق، والإسلام المتفرد

لله رب العالمين؟

أين ملة إبراهيم الحنيف المسلم محطم الأصنام؟! وأين ملة أبنائه التي أعلنها يوسف عليه السلام وهو في سجن الفراعنة؟!

﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [**يوسف** : ٣٨].

لقد خان معظم اليهود والنصارى التاريخ النبوي الشريف، وغدت الأرض بعد عيسى عليه السلام يومئذ في معسكرين مظلمين:

الأول: جمهور أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وكان عندهم الحق في كتبهم قبل تحريفها، لكن واقعهم أبعد ما يكون عن دين الحق الإلهي الذي جاء به المرسلون، بل كانوا فتنة للذين كفروا حين حجبوا عنهم الحق، وزيفوا عليهم الدين، ولبسوا عليهم الطريق الصحيح.

الثاني: المشركون من المجوس، وعباد الأصنام والأحجار والصابئون عبدة الكواكب، وأهل الفسوق والانحلال الذين لا يؤمنون بشيء في كل الأمم والشعوب

وكان الله تعالى بعباده رءوفا رحيما:

فهيّأ الأرض لحدث جليل وأمر خطير، حين اختار محمدا ﷺ للرسالة الخاتمة.

رسول كريم أمين، جمع الله تعالى له كل فضائل الرسل والأنبياء، ابتداء من الرسالة الشاملة الكاملة، التي بعث بها. وانتهاء بالآية الخارقة التي ساقها له وهو الكتاب المعجز.

واختصاصاً بالصفات الخلقية الباهرة التي جمعها فيه من الأمانة، والصدق، والصبر، والحلم، والرحمة، وبالإجمال ما أقسم الله تعالى عليه في كتاب: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [**القلم** : ٤].

ولذلك جعل رسالته عامة للبشر جميعا في زمنه، وباقية خالدة للناس

جميعا من بعده إلى يوم القيامة.

إن النبوة - كما قلنا - مرت بثلاث مراحل:

١- النبوة الأولى: (من آدم، ونوح، وهود، وصالح، وغيرهم) عليه السلام.

٢- النبوة الوسيطة: (من إبراهيم إلى عيسى وما بينهما) عليهم السلام.

٣- النبوة الخاتمة: وقد أعد الله لها رجلا عظيما، يقوم وحده - بتوفيق الله - مقام الجمّ الغفير ممن سبقوه، وقد كلف بحمل هذه الرسالة الباقية وجعلت له أمة. ممتدة في الزمن لتحمل هذه الرسالة للعالمين بعد ختم النبوات، ولذلك كان القرآن ممتدا بعده، والأمة ليظل صوت النبوة ممدودا.

ونحن هنا لا نتحدث بالتفصيل عن النبي الخاتم ﷺ، فتاريخه أشهر من أن ينكر أو يجهل، وأعظم من أن يفصّل أو يكرر، لأنه هو التاريخ الوحيد الذي ثلث بيقين مفصل من الأنبياء والمرسلين، فضلا عما جاء في الكتاب المعجز عنه، بل كان ﷺ هو الذي أحيا الله به تاريخ المرسلين السابقين بعد اندثاره وضياعه في بطون الزمان: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [**النمل**: ٧٦]. ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [**الأنعام**: ٣٤].

وخلاصة ما يتصل بموضوعنا أنه ﷺ ما كان يدعا من الرسل، وإنما جاء بالوحي الإلهي، والدين الجامع، لقوم غارقين في الجهالة والضلال المبين.

وقد أمر بالدعوة والبلاغ بالحكمة والموعظة الحسنة. والحوار الطويل باللين والصفح الجميل، والصبر الطويل.

ولم يكن لقومه العرب براعة في شيء أكثر من الفصاحة والبلاغة والبيان، وضراوة الجدل والمشاقة والمراء، خاصة وهم شعب حمى الأنف إذا غضب، في قلوبهم حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم عزة وشقاق!!

وقد وصفهم الله تعالى، بالجدل، واللدد، وشدة الخصومة فقال تعالى:

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

وكان على النبي ﷺ، أن يجادلهم بالحسنى، طويلا، وأن يجاهدهم بالقرآن جهادا كبيرا، وهو كتاب حجة وبرهان، وأن يصبر كثيرا على أذاهم، وأن يحسن القول والفعل في كل موطن يحاورهم فيه حرصا على هدايتهم، وتأليفا لقلوبهم، وقبل ذلك امتثالا لأمر ربه ومولاه الذي أمره مرارا بذلك، كما قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.. ﴾ [النحل: ١٢٥].

بل أمره ربه ومولاه في مواقف المنازعة والمكايدة أن يمعن في الصبر الجميل، والعفو، والمعروف، والصفح، والمسالمة، والدفع بالأحسن، كما قال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥]، ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ [المعارج: ٥]، ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ.. ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ ﴾ [الزخرف: ٨٩]، ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ [المزمل: ١٠].

ومع هذه الأوامر الصريحة حذر الله تعالى نبيه الكريم من عواقب الغلظة، والفظاظة، وسوء القول، خاصة بعدما أقام له دولة الإسلام، وأصبح له جنود وأنصار وسلطان، قد تغري الإنسان، أو يظنها المتعجلون مظهر الاحترام والتوقير والمهابة، قال تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ.. ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لذلك ظل ﷺ طوال حياته على هيئته من الفضل، والأدب العالي، ومكارم الأخلاق، مع الناس جميعا مسلمهم وكافرهم، ولم يتغير بإقبال الدنيا

عليه، بل لقد ازداد فضلا وإحسانا، وعرفانا وشكرانا، وموقفه مع أهل مكة بعد فتحها من أعظم المواقف نبلا وكرما، خاصة وهم الذين أسرفوا في التعذيب والتكذيب، والمصادرة والمطاردة، وحملوا السلاح عليه وأوقدوا الحرب ضده في كل موطن.

لقد قال لهم كلمته الشهيرة: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)(١).

وسيرته ﷺ كلها شاهد عدل على التزام أوامر ربه التزاما أمينا، وصبره صبرا جميلا، وكان لهذا الخلق النبيل في دعوته وبلاغه، وحربه وسلمه، أطيب الثمرات والتأثير، في غلاة خصومه، فضلا عن أحبابه من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين.

ولقد آذاه رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول في عرضه، ودعوته، وأصحابه، وحكومته.. الخ.

ومع ذلك لما مرض عاده، ولما مات كفنه في قميصه، ثم صلى عليه، وبلغ الذروة العليا من الرحمة حين فهم النص القرآني: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾ [**التوبة**: ٨٠].

فهمه ﷺ على أنه تخيير لا نهي وقال كلمته الشهيرة بما معناه: (أنا بين خيرتين قال الله لي: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ..)، والله لو أعلم إني لوزدت على السبعين غفر له لزدت عليها(٢).

الأساس الثاني: الدين الكامل:

فقد بعثه بدينه الحق: (الإسلام)، وهو دين الله للبشرية في كل العصور، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ [**آل عمران**: ١٩].

والمعنى: إن الدين الذي بعثت به الرسل جميعا هو دين الله الإسلام، وقد بلغته الرسل إلى أهل الكتاب، ولكنهم ضلوا بعد أن جاءهم العلم، ظلما

---

(١) سيرة ابن هشام في قصة فتح مكة، والحديث في مسنده ضعف، ولكن الواقعة والعفو متواتران.

(٢) وردت عدة أحاديث في ذلك عند البخاري، ومسلم، وأحمد والترمذي (تفسير ابن كثير في آية التوبة: ٨٤).

وحسدا وجهلا، فبدلوا أصوله، وغيرّوا أحكامه، بل تركوا اسمه كلية، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والمعنى: أن أي دين غير الإسلام فهو باطل، مردود على صاحبه، ولن يقبل منه في الدنيا والآخرة، ثم يخسر صاحبه صفقة الأبد حين يخلد في النار. فالآية الأولى إثبات، والثانية نفي وتجريد لغير الإسلام عن عوامل الصحة والقبول، وإثبات الخسران لأصحابه.

والإسلام الذي جاءت به الرسل متفق في الإيمان والأخلاق، جملة وتفصيلا،، ثم يتفق في أصول العبادات والمعاملات، ويتفاوت - على ألسنة الرسل - في صور العبادات والمعاملات الجزئية فقط حسبما تقتضيه حكمة الله في تكليف العباد وقد أثبت الله تعالى ذلك في قوله الكريم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقد تميز ما جاء على لسان محمد ﷺ بأمور:

أولاً : أنه خطاب موجه للبشر جميعا في كل زمان ومكان، بخلاف دعوة الرسل السابقين حيث كان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة.

ثانيا: كثرة ما فيه من القواعد الجامعة، التي تندرج تحتها أفراد كثيرة، ضرورة أنه مخاطب به الناس إلى يوم القيامة، والقواعد الجامعة أنفع لهم من الجزئيات المتغيرة.

ثالثاً: أن معجزته كتاب يتلى على الناس يتضمن الرسالة، وهو في نفس الوقت دليلها، فاجتمع المدلول والدين، أو الرسالة وبرهانها فيه.

رابعاً: أن معجزته تخاطب العقل والفكر، وتقوم على الحوار والبرهان كما سنبين وفي هذا إقامة للحجة على جميع الأجيال بعد نزوله، وليس كالمعجزات الحسية التي هي حجة على أهل زمانها فقط.

وقد جاءت آيات القرآن قاطعة بكمال هذا الدين وتمامه، وعمومه وشموله، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وهو رسالة الله إلى عباده، ودعوته إلى خلقه، وبلاغ الرسول إلى الناس جميعا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثم هو موجه إلى (أهل الكتاب) قبل غيرهم من الناس، لأنهم مصدر التحريف في دين الحق، وهم الذين نسبوا إلى دين الله كل باطل وضلال، ولذلك خاطبهم بقوله الكريم: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ..﴾ [البقرة: ٤١].

ويقول تعالى عن أهل الكتاب: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

الأساس الثالث: الكتاب المعجز:

فكما قدمنا أيد الله تعالى كل بني بمعجزة خارقة تصدقه في دعوى النبوة، وكانت المعجزات قبل القرآن هي معجزات حسية مادية، لحسم المراء، وقطع التمادي في الجدل والافتراء، ولما كذب بها الأولون نزل بهم عذاب الاستئصال، ولم ينج منه إلا قلة من الأقوام آمنوا بينهم عليه السلام.

فلما بعث الله محمدا ﷺ، وجعله (خاتم النبيين) أعطاه معجزة المعجزات، كتابا يتلى، وحقا يقرأ، يعلم ويذكر ويستمر بعده ﷺ، يحاور أصناف الناس، ويرد الشبهات بالحجج البينات، ويدحض الظنون باليقين والدليل والبرهان، بل ويطالب خصوم الحق بإقامة أي دليل على مزاعمهم، حتى يتعلم المتقولون والمفترون الحوار الحق، والأمانة في القول، والمسئولية

عن الخطاب كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [**النمل** : ٦٤].

وكما قال تعالى: ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)** ﴾ [**الأنعام**].

﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [**الأحقاف** : ٤].

وفي هذه الآية الكريمة إبطال لآلهتهم المزعومة بدلائل العقل، والنقل، والحس، والتاريخ.

فقد طالبهم بإثبات أكاذيبهم بدليل حسى كالرؤية (أروني ماذا اخلقوا؟) أو بدليل نقلي من الكتب الإلهية السابقة، أو أي بقية من بقايا العلم تؤيد دعواهم، وهم عن كل هذا عاجزون، وبالتالي فهم كاذبون.

وقد حاول المشركون اقتراح (الآيات الحسية) على النبي ﷺ، وخادعوا بالوعود الكاذبة بأنهم سيؤمنون إذا جاءتهم هذه الآيات، وقد أدار الله تعالى معهم خطابا طويلا، وأمر رسوله أن يحاورهم بما ينزل به القرآن الكريم من حجج قاطعة، وأن يفضح دعاواهم الكاذبة بما يعلمه الله من أسرارهم الخفية، وإسرارهم الكفر، وإصرارهم على الباطل، وكان القرآن الكريم هو عماده في هذه المحاورات الهائلة، ذات القضايا الخطيرة الشائكة، كما قال تعالى: ﴿ **فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ [**الفرقان** : ٥٢].

ومن هذا اللون من الجهاد بالقرآن في الدعوة والبلاغ، والحوار والبيان:

١- أنهم أكثروا من اقتراح الآيات الحسية المادية، تعنتا، ومحاولة لتعجيز النبي ﷺ أمام ضعفائهم المخدوعين بهم، مثل: إحياء الموتى، وقلب الصفا ذهبا، وإزاحة الجبال بعيدا عن مكة حتى تنبسط الأرض وتصلح للزراعة، وتفجير الأنهار، والرقي في السماء أمام أعينهم، بل بلغ من سفاهتهم أن

يقترحوا عليه: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٩٢].

٢- ورد عليهم القرآن الكريم ببيان كذبهم، وأنهم غير جادين في طلب هذه الآيات، وأنه تعالى لن يستجيب لهم لأمور:

(أ) لقد أعطى أمثالهم من المكذبين الأولين آيات بينات فكذبوا بها، واستخفوا بوعيد الله عز وجل، فأبادهم الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا..﴾ [الإسراء: ٥٩].

ومعلوم أنهم عقروا الناقة: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤].

ورغم الآيات البينات التسع التي أعطيت لموسى عليه السلام فقد كذب بها كلها فرعون وقومه، وقالوا: ساحر مبين وكذاب.

بل إن بني إسرائيل الذين تتابعت فيهم الأنبياء والرسل انكروا رسالة عيسى عليه السلام جملة وتفصيلا رغم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.. الخ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

فما الذي يدفع أو يمنع مشركي العرب إلى أن يكونوا استثناء من هذه الظاهرة البشرية العابثة، سواء في التكذيب بها، أو السخرية منها، أو الجراءة الفاجرة عليها؟ خاصة مع قيام سنة الله في إبادة المكذبين واستئصالهم؟ كما قال تعالى عقب هذه القصص: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣].

وكما قال تعالى مكذبا لهم في دعواهم:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..﴾ [الأنعام: ١١١].

(ب) أن الله عز وجل لم يدع رسوله من غير معجزة مؤيدة، بل هي معجزة فريدة في لفظها ومعناها، وأسلوبها وخطابها، وأثرها وتأثيرها كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

ولو كانوا جادين حقا لكفتهم معجزة القرآن لأنها جامعة شاملة، وقد عجزوا عن الإتيان بمثلها، أو بسورة من مثلها، كما قال تعالى عقب الآية السابقة: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

(ج) ثم إن معجزة القرآن تحاورهم وتناقشهم، ولا يستطيعون إبطالها بالعقر، أو بالحرق، أو بالتكذيب والتعذيب، بل هي ماضية مستمرة، وفي ذلك نجاة لهم من الاستئصال وهذا ما يشير إليه ختام الآية السابقة (لرحمة وذكري لقوم يؤمنون)، وهذه حجة عليهم إن أرادوا الهداية حقا لأن رسولهم هو رحمة لهم، لا عذاب عليهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

(د) وهكذا سد القرآن الكريم عليهم المنافذ، وأقام عليهم الحجة، وأفحمهم بالدليل والبرهان، فانقلبوا إلى ألوان من الهزل والهذيان مثل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ومثل ما قصه الله عنهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن

قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[يونس].

(هـ) وهكذا كان هذا الحوار القرآني المتتابع، والذي يتنزل على رسول الله في كل وقت، وحسب الوقائع والأحداث - كان ذلك مزعجا لهم مبطلا لشبهاتهم، رادًّا لأكاذيبهم وألاعيبهم، لذلك اقترحوا اقتراحا مثير خبيثا يدل على شراسة الجدل، ومحاولة استخدام الكتب السابقة في الخصام والمراء: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً** ﴾ [**الفرقان**: ٣٢]، أي يقترحون نزول القرآن دفعة واحدة كالكتب السابقة، ليستريحوا من الملاحقة اليومية، التي تفحمهم، وتظهر عوار حوارهم، وخطايا ظنونهم.

وقد رد الله تعالى عليهم بأن نزول القرآن الكريم منجما تم لحكم عظيمة جليلة: ﴿ **كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴿٣٣﴾** ﴾[**الفرقان**].

وخلاصة المعنى:

أن نزول القرآن مفرقا على مدار الأيام والشهور والأعوام أتاح:

أولاً : تقوية قلب الداعية الأول ﷺ - في مواجهة هذه الحملات الشركية العاصفة من الجدل، والمراء، والشبهات، والأكاذيب - بما ينزله الله عليه عقب كل قول، أو موقف من البشارة والتأييد له، أو النذارة والوعيد لخصومة، أو كشف الحقائق والأسرار له ﷺ.

ثانياً: مدّ فترة نزوله طوال سنوات البعثة، وإعطاء الفرصة لقراءته في تؤده، وتمهل، وتأنٍ، لأنه أيسر في الحفظ والاستيعاب، وأعون على الفهم والتدبر، وأسهل في الدعوة والبلاغ، وأجدر أن يعيه القارئ والسامع بمتابعة حواره وأسراره، خاصة وهو خطاب الرب الأعلى لعباده، ينبغي أن يتلقوه بالإجلال والإقبال.

ثالثاً: وضع الحقائق مكان الأباطيل المقترحة، أو الشبهات الطارئة من

الكفار، وهي أشياء تتكرر منهم يوميا، فلو نزل دفعة واحدة لما تحقق الرد، والبيان، والتفصيل، الذي تحقق بنزول القرآن منجما يبين (الحق) كالتوحيد، والبعث، وصدق الرسول، وربانية القرآن، عند كل مناسبة، أو بعد كل سؤال.

(وأحسن تفسيرا) في كل موطن يلتوي فيه الكفار، ويحتاج الناس فيه إلى البيان والإيضاح في قضايا الغيب، أو خفيات الحياة والكون، فإذا ضل الناس في قضية (الخلّق) ونسبوه إلى الطبيعة أو الصدفة جاء القرآن بأحسن تفسير للمعضلة، فبين قدرة الخالق الواحد، وكيف خلق الأرض وقدر فيها أقواتها، وأجرى أنهارها، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقضاهن سبع سموات في يومين .. ولا شك أن القول بنسبة الخلق إلى الخالق القادر القاهر أحسن تفسيرا وبيانا من القول الجدلي العابث بنسبة الخلق إلى الصدفة ونحوها.

ونسبة خلق الإنسان إلى الله خلقا ابتدائيا مكرما مشرفا كما قرر القرآن، خير بما لا يقاس من لغو البشر، أو الفلاسفة، وكهنة الحضارة المعاصرة في نسبته إلى نظريات النشوء، والارتقاء من وحيد الخلية: (الأميبا)، ثم التطور والانتساب إلى القردة وأمثالها.

وما يستوي وحي من الله منزل   وقافية في العالمين شرود

معجزة المعجزات:

لذلك كله نجد أن القرآن العظيم هو المعجزة الكبرى، والخارقة العظمى، والحكمة الإلهية في ختام الرسالات الربانية، لتبقى حجة الله تعالى ممدودة موصولة بعد ختم النبوات، وهو يغني عن كل معجزة، ولا يغني عنه شيء، بل لقد ضمنه الله آثار كل المعجزات السابقة في الجانب الروحي المعنوي، وهو أقوى أثرا؛ وأبقى وأنقى من الجانب المادي، ولو صلح الجانب الروحي المعنوي في فرد أو جماعة لانقادت له المادة الحسية، ولتفجرت في جنباتها بركات

الروح، كما قال تعالى على لسان نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

وهذا عين ما أجاب به القرآن العظيم على مشركي مكة حين اقترحوا على النبي ﷺ أن يسير به الجبال عن مكة، وأن يشق به الأنهار، وأن يحيي به أمواتا منهم يشهدون له بالرسالة، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ..﴾ [الرعد: ٣١].

والجواب محذوف تقديره: (لكان هذا القرآن) وصدق الله العظيم: فلقد أخرج العرب من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وورثهم حضارات زاهرة ذات جنات وأنهار وبحار، وأحيا مواتهم وموات الأمم التي حملوا إليها نور الإسلام .. كل ذلك وأكثر منه كان بفضل الله، ثم بفضل القرآن العظيم الذي هداهم الله به من الضلالة، وعلمهم به من الجهالة، وفتح به قلوبا غلفا، وعيونا عميا، وآذانا صما والتاريخ كلّه شاهد صدق على ذلك، وهذه كلمات الله أصدق شهادة، وكفى بالله شهيدا.

وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك أصدق إشارة، حيث وازن بين المعجزات الحسية العظيمة التي سبقته وبين القرآن الكريم فقال:

«ما من الأنبياء من بني إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»(١).

والمعنى أن الآيات الحسية هي خوارق إلهية يظهرها الله تعالى على يد أنبيائه عليهم السلام فيؤمن المؤمن بها لعجزه الكلي أمامها، أي يؤمن وهو مغلوب القدرة، مسلوب الإرادة أمام قهر المعجزة الربانية، كما خر السحرة ساجدين، أما القرآن فيحاورهم، ويقيم لهم الأدلة وينتزع منهم الإيمان بعد الاقتناع، ومثل هذا الإيمان يكون أكبر ثباتا، وأكثر عددا، ولله الحكمة العليا في كل حين.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأساس الرابع: الأمة المستخلفة في الأرض:

لقد بعث الله تعالى رسله طوال التاريخ البشري دعاة هداة إلى دين الله تعالى، وآمن مع كل رسول فريق من الناس، وضل أكثر الأولين، وكانت العاقبة للمؤمنين، فيرثون الظالمين، ويخلفونهم في الأرض، بإذن الله وفضله.

سنة الله في الاستخلاف:

وهي سنة إلهية قديمة ومكررة كما فصلها القرآن الكريم:

١- فكان الإنسان ابتداء خليفة في الأرض، مكان الأجناس الظالمة التي أهلكها الله تعالى.

٢- ثم جرت سنة الله تعالى في القرون الإنسانية ذاتها، حين يهلك الله الظالمين، ويستخلف قرونا آخرين قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾**﴾ [**يونس**].

ولقد فصل الله تعالى قصص الأمم منذ نوح، ثم هود، وصالح، ومن بعدهم، وكيف استخلف المؤمنين مكانهم كما بينا سابقا.

٣- ولقد هاجر أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ليقيم الله به قاعدة النبوة الوسيطة، إلى أن بعث موسى بن عمران، وأنزل الله عليه أعظم الكتب الإلهية قبل القرآن ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ**﴾ [**المائدة**: ٤٤]، بعد أن أهلك القرون الأولى الظالمة، وكان ذلك تمهيدا هائلا لاستخلاف بني إسرائيل في الأرض، ليقيموا نموذجا للأمة المسلمة في الأرض، وقاعد تمثل الدين الإلهي بين الناس.

وقد مكّن الله لهم في الأرض، ورزقهم من الطيبات، وآتاهم الكتاب الحكم والنبوة، وكانت تسوسهم الأنبياء، وبالاختصار حسب النص القرآني: ﴿**وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ [**المائدة**: ٢٠].

ولكنهم خانوا العهد والميثاق، وكفروا بالله والمرسلين، وقتلوا الأنبياء بغير حق، واستحلوا الفواحش والموبقات، وقالوا أشنع كلمة في تاريخ النبوات: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] فأذاقهم الله تعالى خزي الدنيا، وسلط عليهم الأعداء ليتوبوا، فما زادهم إلا كفرا وفسوقا، حتى قالوا في آخر أنبيائهم وفي أمة بهتانا عظيما، وحينئذ سلب الله منهم شرف الإمامة في الدين، ونحّاهم عن الاستخلاف في الأرض إلى آخر الدهر، وضرب عليهم الذلة والمسكنة!!.

٤- ثم استخلف الله من بعدهم أتباع عيسى عليه السلام، وجعل لهم دولا وسلطانا بعد ضعفهم، ومدهم إلى أمم كبيرة خارج بني إسرائيل، ولكن لم يلبثوا إلا قليلا حتى أفسدوا الدين الإلهي، وضلوا ضلالا مبينا، وحرفوا (الإنجيل) الذي نزل على نبيهم الكريم عيسى بن مريم، بل كانوا أضل أمة في تاريخ النبوات حينما عبدوا المسيح، وزعموا الصلب، واتخذوا مع الله آلهة يعبدون، فكان لابد من تنحية الباطل، وإظهار الحق الإلهي في دورة من دورات الاستخلاف الكبرى في الأرض.

٥- وهكذا تتابعت سنن الله تعالى لتخرج البشرية من الظلمات إلى النور فبعث محمد ﷺ، وأخرج معه أمة جديدة ليكونوا قاعدة الحق في الأرض، وحملة لواء الوحي الإلهي بين الناس. وكان هذا أعظم استخلاف في تاريخ النبوات المباركة، وزوده (بخصائص كبرى) تضمن استمرار رسالة الله محفوظة مصونة إلى آخر الدهر.

الشروط الإلهية للاستخلاف:

إن الله تعالى هو الخالق الأعلى، والكون كله ملكه، والخلائق جميعا عبيده، وهو لا يظلم ولا يحابي أحدا، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب ولا صهر أو قرابة، ولذلك جعل للاستخلاف شروطا معلومة منصوصة عبر التاريخ البشري كله، فمن استجمعها استحق الاستخلاف بسنن الله تعالى، ومن نكص عنها، أو نكث بها نحاه الله عن مقام الإمامة والريادة، وحرمه

شرف الاستخلاف لإقامة الحق الإلهي.

وقد زعم بنو إسرائيل أنهم شعب الله المختار لذاته، وأنه فضلهم تفضيلا (عنصريا) أو (قوميا)، وهذا زعم باطل، مخالف لصريح الكتب السماوية وخاصة القرآن الكريم، وقد رد الله تعالى على أهل الكتاب زعمهم فقال: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ﴾ [**المائدة**: ١٨].

ولقد كان موسى بن عمران عليه السلام أكبر أنبيائهم، وأمره الله تعالى أن يعمل بوحيه وشريعته هو وقومه أمرا جازما مؤكدا: ﴿ **وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** ﴾ [**الأعراف**: ١٤٥].

وقد عدد الله تعالى الشروط التي فرضها على بني إسرائيل، وحذرهم من عواقب التفريط فيها: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ [**المائدة**: ١٢].

ثم لعنهم الله لعنا مبينا واستخلف غيرهم حين نقضوا عهد الله وميثاقه كما قال تعالى: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ..** ﴾ [**المائدة**: ١٣].

ونفس المعيار طبق على خلفائهم الألداء في الآية التالية مباشرة: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ..** ﴾ [**المائدة**: ١٤].

وحين أراد الله تعالى أن يستخلف المسلمين، فصل لهم شروط الاستخلاف تفصيلا، وألزمهم بها إلزاما، وحذرهم من مصارع السابقين الذين استخفوا بها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا**

الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فهذا وعد إلهي صادق باستخلاف أمة الإسلام كما فعل مع السابقين، وبشروط معلومة: (الإيمان - وعمل الصالحات - وأفراد الله تعالى وحده بالعبادة - ونبذ الشرك - والاستقامة على دينه الذي ارتضاه لهم).

وقد وفت الأمة بشروط ربها جل وعز، فاستخلفها، ومكن لها في الأرض، وأظهرها على الأمم جميعا، وقهر بين يديها طواغيت العرب والفرس والروم بما كان أعجوبة التاريج كله.

الأمة الإسلامية: تشريف وتكليف:

لقد شرف الله رسوله الخاتم أعظم التشريف، حين اختاره لأعظم المهمات في الرسالة الإلهية الخاتمة، وأتم عليه فضله العظيم، وقيض له أصحابا كراما يحملون معه هذا الحق للناس.

ولذلك كانت هذه الأمة منحة إلهية في أصل نشأتها، شرفها الله لتحمل فضله للعالمين، ولتبذل جهدا مبرورا في طاعة الله عز وجل كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ..﴾ [الحج: ٧٨].

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ..﴾ [آل عمران: ١١٠].

فالجعل، والاجتباء، والإخراج مسند في الآيات إلى الله تعالى، (والاجتباء) هو مطلق الاختيار والاصطفاء من الله تعالى قبل تقديم عمل، أو سبق بذل، أو استحقاق ذاتي، وإنما هو محض فضل من الله تعالى، يمنحه لمن شاء ممن اختارهم للنبوة، أو ما يليها من مقات الفضل، مثل ذلك الشرف الذي منحه الله للأمة الإسلامية، لتحمل للناس رسالته وهدايته ونوره المبين، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

وبهذا الفضل الإلهي اجتمعت للرسالة الخاتمة كل عناصر النجاح، والاستقرار، والاستمرار، من:

(الرسول الأكرام، والكتاب المعجز، والأمة المستخلفة لحمل هذا الحق).

خصائص الأمة المستخلفة:

وقد زود الله تعالى هذه الأمة بجملة من الخصائص، المناسبة لعموم الرسالة، وختم الأنبياء، والمعجزة الدائمة (القرآن)، ولذلك كانت نسيجا فريدا بين الأمم، موصول التشريف والتكليف ومن ذلك أنها:

١- أمة عالمية:

طليعتها العرب، وامتدادها الناس جميعا، تبعا لعموم رسالته ﷺ: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ [**الأعراف**: ١٥٨].

ويسمى القرآن الكريم العرب (قومه)، ولذلك أنزل الله المعجزة الكبرى بلسانهم، لأنهم كانوا فاتحة الخطاب الإلهي، وطليعة الأمم دعوة، وقبولا، وجهادا في سبيل الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ..** ﴾ [**إبراهيم**: ٤].

ويسمى القرآن الكريم المؤمنين به ﷺ (أمته)، أو (أمة الإجابة) كما يقول العلماء، تمييزا لها عن (أمة الدعوة) وهي الناس كافة في كل زمان أو مكان كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ..** ﴾ [**سبأ**: ٢٨].

وأمة الإجابة هم المخاطبون بقوله تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ..** ﴾ [**آل عمران**: ١١٠].

٢- أمة وسط:

كما قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..** ﴾ [**البقرة**: ١٤٣]. أي أخياراً عدولا، أجود الناس دينا، وخلقا، وطاعة، وجهادا، وشعارهم: (سمعنا وأطعنا)

لذلك استجابوا لله وللرسول في كل موطن، وكانوا يسارعون في الخيرات، ويتنافسون في الطاعات بفضل هذا (الجعل) الإلهي الذي يسر له الأسباب من تربية الرسول ﷺ، وتربية القرآن الدائمة لهم، فخرجت هذه الأمة الفضلى مؤسسة على الإيمان الزكي، والخلق الرضي، والبذل والعطاء، والتضحية والفداء، وهذه أعظم مؤهلات الأمم لحمل هذا الدين القيم للناس، وقد كان المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان أعظم تصديق لهذا التشريف الإلهي، بما قدموه من تكليف وانقياد.

٣- الأمة الشهيدة على الناس في الدنيا والآخرة:

لقد اصطفى الله محمد ﷺ ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين، وأعطاه الكتاب المعجز تبيانا لكل شيء، فصار ﷺ المعصوم المعلَّم هو (الشاهد) على ما في الأرض جميعا من حق أو باطل.

وإلى شهادته ينبغي أن يرجع الناس جميعا ليتعلموا الحق الذي يرضاه الله، أو الباطل الذي يبغضه وينهي عنه.

وقد وثق الله تعالى علمه وشهادته بالقرآن المعجز، الذي هو كلام الرب الأعلى، ووحيه الأوفى، ومعجزته الممدودة إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ** ..﴾ [**المائدة**: ٤٨].

ومعنى المهمين: الأمين - والشاهد - والحاكم.

فالقرآن العظيم له كل ذلك:

فهو (الأمين) على الكتب السابقة يخبر بحقها التي جاءت به، وبما أضيف إليها من أباطيل وتحريف أهل الكتاب.

وهو (الشاهد) المحفوظ إلى يوم القيامة، ليكون قوله (معيارا) يوزن به كل ما ينسب إلى الوحي الإلهي.

وهو (الحاكم) عليها بالصحة أو بغيرها، وهي معان متقاربة.

ولقد أخذت الأمة الإسلامية من الشاهدين الأمينين.

الرسول المعصوم ﷺ .

والقرآن المحفوظ بحفظ الله تعالى.

وأمرت أن تحمل هذا الحق للناس مع رسول الله ﷺ وبعده إلى يوم القيامة، فكانت (شهيدة) على كل ما في الأرض من مناهج، وشرائع، ومذاهب وأفكار، بما تعلمته من الوحي الإلهي الوثيق.

وقد تكرر هذا الوصف القرآني للأمة الإسلامية تشريفا لها، وتكليفا بمهمتها ورسالتها الجليلة، كما قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وللشهادة هنا معنيان:

(أ) شهادة الدنيا:

بأن يكون الرسول ﷺ شاهدا على أمته وعلى الناس في حياته، بما معه من الحق اليقيني، وحكما عليهم يصحح الأمور، ويبطل التحريف.

وتكون أمته شهيدة على الناس بسيرته وسنته وكتابه بعد وفاته - كما كانت معه في حياته - قيادة للأمم، وتعليما للناس. وتمييزا بين الحق والباطل، بما معها من ثوابت الكتاب والسنة.

ولهذا عكف رسول الله ﷺ على تربية هذه الأمة، وإرشادها، وغرس معالم الإيمان والتوحيد في قلوبها، وأقوالها، وأعمالها لتكون أهلا لهذه المهمة العظمى في حياته وبعد وفاته، ثم في الطريق الطويل أمامها إلى يوم القيامة وفي الحديث الشريف تأييد واضح لهذا المعنى، ومنه قوله ﷺ :

(أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة فقالوا: وثلاثة؟ قال: وثلاثة، فقالوا: واثنان؟ قال: واثنان، ثم لم نسأله عن الواحد)(١).

---

(١) رواه البخاري والترمذي والنسائي.

وقوله ﷺ: (يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن، والثناء السيئ، أنتم شهداء الله في الأرض)(١).

والأمة التي تقوم بهذه الشهادة هي الأمة الوسط، التي زكاها الله تعالى، والتي ربيت على أصدق العقائد، وأرقى الأخلاق والآداب والفضائل، وهي - بهذه المواصفات - التي استخلفت في الأرض مكان العصاة البغاة من بني إسرائيل، أو عبدة المسيح.

وهي هي التي انتدبت لتقوّم (بمعيار الوحي) كل ما في الأرض من مذاهب، وشرائع، ونظم وأمم.

وهي هي التي دفعت ثمن هذه الريادة والإمامة عملا صالحا، وجهادا متواصلا، والتزاما صادقا، ولذلك كافأهم الله تعالى بالنصر والتمكين، وبإصلاح العباد، ومحق الظلم والفساد، وتلك عاجل بشرى المؤمنين في الدنيا، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا؛ ومنها:

(ب) شهادة الآخرة:

وهي شهادة في أصعب المواقف والأحوال، حين تجمع الأمم، وينزع من كل أمة شهيد عليهم، فيقوم الرسول ﷺ شاهدا على أنه بلغ أمته رسالات ربه، وتقوم الأمة مصدقة لرسولها، وشاهدة له بالبلاغ، بل تشهد لكل رسول قبله حين تمارى الأمم في بلاغ الرسل، فتقوم شهادة الأمة الإسلامية حجة لكل رسول، بل حجة على كل أمة تتمارى وتكذب رسولها صلى الله عليهم أجمعين.

وقد تبين هذا بالعديد من الأحاديث التي رواها البخاري وغيره من أهل السنن(٢).

٤- الأمة المكلفة:

إن الله تعالى قد أفاض من فضله على هذه الأمة ألوانا عديدة من التشريف والتكريم، فجعلها بذلك في المقام الأعلى من الأهلية والاعتبار،

---

(١) رواه ابن ماجه، وأحمد في المسند، وابن مردويه كما ذكر ابن كثير في تفسير الآية الكريمة.

(٢) انظر تفصيل ذلك في تفسير ابن كثير عند تفسير الآية الكريمة من سورة البقرة.

لذلك كانت محلا للخطاب الإلهي الأسمى، وللتكليف بمعالي الأمور، وعزائم الحق.

والأمة الإسلامية بذلك ليست مجرد أمة عابرة في التاريخ، ولا هي حلقة من حلقاته التي تستنفد أغراضها ومهمتها في الحياة، ثم تسقط كأوراق الخريف الذابلة في سباق التطور أو التشريع، كما سقطت قبلها أمم وشعوب، وحضارات ودول!!

وإنما الصحيح أنها أمة بقاء ونماء، وامتداد موصول حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لأنه تعالى قد أخرجها في الأرض إخراجا لمهمة عظمى، واستخلفها لأمر خطير لا تقوم حجته على الناس إلا به، هو أن تكون امتدادا أمينا لصوت النبوة الخاتمة بعد وفاة الرسول ﷺ، ولتحمل للناس رسالة الله الشاملة الكاملة، لذلك كلفها بمهمة التطبيق والالتزام بالإسلام لتكون نموذجا عمليا لكماله وجلاله، وناط بها مهمة الدعوة والبلاغ للعالمين على نمطها القرآني، وكتب عليها مهمة الجهاد والاجتهاد في سبيل الله عز وجل، لا يريدون بذلك علوا في الأرض ولا فسادا، وإنما هم رحمة مهداة للعالمين، على ما نبينه في الصفحات التالية إن شاء الله.

أبيض

الفصل الخامس
المهمة العظمى للأمة المسلمة

خلاصة ما نريده هنا هو:

أن هذه الأمة هي وريثة النبوة الخاتمة.

وحاملة رسالتها للناس: (تطبيقا، ودعوة، وجهادا).

وبذلك تقوم حجة الله على الناس بعد ختم النبوات.

وتظل النبوة المحمدية الشاملة ممدودة موصولة في العالمين رحمة وهداية ونورا.

فإذا قصرت الأمة الإسلامية عوقبت أشد العقاب، لتعود إلى مهمتها التي لا بديل، عنها، ولا استخلاف لغيرها، بعد نزول القرآن، وإنما الاستخلاف هو الاستبدال من داخلها: ﴿**وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾ [**محمد**: ٣٨]. وسنتحدث عن جوانب هذه المهمة العظمى بالترتيب:

الجانب الأول: التطبيق والالتزام:

فليس الإيمان بالتمني، وإنما هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، لذلك جاءت شرائع الإسلام وأحكامه مفصلة منوعة، منها ما هو فرض عين على كل فرد بذاته، ومنها ما هو فرض كفاية، ومنها ما هو واجب أو ما دونه، ومنها ما هو إلزام للجماعة، ومنها ما هو إلزام للولاة والحكام، ومنها ما هو منوط بالعلماء والأمراء معا، على ما هو مبين مفصل في ديننا، قولا، وعملا.

وقد شرع الله تعالى لنا نظاما معجزا لحراسة هذا الدين، والالتزام بتعاليمه الهادية، ومن ذلك:

١- أن رأس الأمر عندنا هو الإيمان بالله الواحد الأحد، وأنه على كل

شيء رقيب، ولذلك كانت (تقوى الله) أساس التكليف حتى يراقب كل فرد نفسه، ويحملها ذاتيا إلى طاعة الله، والاستسلام لحكمه وهديه.

٢- ثم أمر الله أن تتكون (أمة) مخصوصة في داخل الأمة الكبيرة، من الدعاة، والعلماء، والهداة يذكرون بالخير والمعروف، وينهون عن المنكرات حتى لا ينسى الناس التطبيق والالتزام في غمار الحياة ومشكلاتها، قال تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [**آل عمران**: ١٠٤].

وقد خص الله بهذا التكليف (العلماء) حتى يقوم بهذا الواجب أهل العلم والفهم، وهم (ورثة الأنبياء)(١) فيسمع لهم الناس من جانب، ولا يخطئون الطريق من جانب آخر.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [**آل عمران**: ١٨٧].

٣- ثم حث (المجتمع الإسلامي) كله ليكون حارسا على هذا بما شرعه تعالى من إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل جعل الله ذلك أول مقومات الخيرية للأمة المسلمة فقال:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [**آل عمران**: ١١٠].

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [**التوبة**: ٧١].

وجعل الله تعالى التخلف عن هذا من صفات المنافقين.

٤- وقد كلّف الله تعالى (الأسرة) المسلمة بحراسة هذا الالتزام كما قال تعالى في شأن الآباء، والأمهات، والأولياء، وقد جمعها النبي ﷺ في حديث (المسئولية) فقال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»(٢).

---

(١) هذا جزء من حديث نبوي شريف، رواه أبو الدرداء رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود في سننه: (أول كتاب العلم، والترمذي، وابن حبان، والحديث صحيح بمجموع طرقه..

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

٥- ويأتي في نهاية المطاف تكليف (الحكومة المسلمة) بحراسة الدين، ورعاية التطبيق، وتنظيم الالتزام، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك بنفسه ليلا ونهارا، وكما فعل خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم.

ولذلك يعرف العلماء (الإمامة) الإسلامية بأنها:

(موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين، وسياسة الدنيا به)(١) وكل هذه الأمور من فضل الله على هذه الأمة بشريعته الهادية، وهي تترادف وتتعاون على حراسة هذا الدين العظيم، وجمع القلوب والجهود حوله، وتجديد الصلة بتعاليمه وأنواره، وهذا خير ما يحفظ الناس في دنياهم وأخراهم، وصدق الإمام الغزالي حين قال:

(الدين أصل، والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع).

المسئولية الشاملة:

وهكذا نرى أن التطبيق والالتزام هو مسئولية الأمة جميعا، حاكمين ومحكومين، ودعاة ومدعوين، ورجالا ونساء، وإلا دخل الفساد على الجميع، واختلت أمورهم كلها، كما هو حادث في أمتنا الآن في كل نواحي حياتها!! والمتأمل في القرآن الكريم يلاحظ أمرا على غاية الأهمية، وهو:

كثرة توجيه (الخطاب) لجماعة المسلمين: أمرا، ونهيا، وإرشادا، وتحذيرا، مما يقطع بأن حراسة الدين، والتزام الإسلام هما مهمة كلفت بها الجماعة المسلمة في كل زمان ومكان، حتى في عهد النبي المعصوم ﷺ حين كان يتنزل القرآن.

وعلى سبيل المثال: ينادي الله تعالى المؤمنين والمؤمنات، بهذا العنوان الكريم: (يأيها الذين آمنوا) تسعين مرة في القرآن، وفي أكبر وأخطر قضايا الدين والحياة مثل:

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي، ص٥.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والمعنى: التزموا شرائع الإسلام جميعها، من غير تجزئة ولا تفريق.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ .. ﴾ [البقرة: ١٧٨].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. ﴾ [البقرة: ١٨٣].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ .. ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

وقد استجابت الأمة المسلمة لله وللرسول، وعلم الله صدقهم ظاهرا وباطنا، فصدقهم وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، والعاقبة للمتقين، والصورتان معروضتان أبدا:

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

الجانب الثاني: الدعوة والبلاغ

ولقد كانت هذه مهمة الرسل عليهم السلام عامة، والمهمة العظمى لمحمد ﷺ خاصة، لأنه بعث مثلهم هاديا وداعيا، وزاد على ذلك بما أعطى من المعجزة الكبرى، ذلك الكتاب الكريم الذي يتلوه على الناس، وهو يقوم على الحوار والبيان، والحجة والبرهان، والحث على النظر والفكر فيما يدعو إليه من حقائق الحق، في التوحيد والبعث، والحشر والجزاء، وعجائب الخلق الإلهي، وما فيه من دلائل القدرة الإلهية الباهرة في النفس والكون.

ولقد وضع رسول الله ﷺ ذلك موضع التطبيق العلمي الموفق، فدعا إلى الله على بصيرة، وبلغ رسالات ربه بلاغا مبينا، وحاور المشركين طويلا رغم غلظتهم البالغة قولا وعملا، وقد علمه ربه ومولاه حقائق الدعوة، وطرائق البلاغ، وضرب له الأمثال من حوار الرسل والأمم، وكان القرآن يتنزل معلما

وهاديا، فاجتمع له ﷺ في دعوته وبلاغه كل أطراف الحق، والخير، وكان بذلك يؤسس دينا، ويعلم أمة، ويقدم للناس أعظم قدوة وأسوة، تظل مثالا يحتذي لأمته المستخلفة من بعده، وللعلماء والدعاة خاصة الذين يحملون أمانته، ويلتزمون سنته ﷺ .

ولقد كان ﷺ صادقا أمينا بفطرته، وعلى خلق عظيم بفضل ربه تأديبا وتعليما، وحكمة وبصيرة، فكان لدعوته وبلاغه أطيب الثمرات، وأبر البركات ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [**النحل**: ١٢٥].

وهذه الآية الكريمة من جوامع ما شرع الله تعالى لرسوله، ولأمته من بعده في الدعوة لهذا الحق الإلهي، الذي هو خير ولا يدرك إلا بالخير، وقد صدرت بفعل الأمر (ادع) والأمر للوجوب، وكل حقائق هذا الدين واجبة البيان، والدعوة إليها، لأنها خطاب الرب الأعلى لعباده لهدايتهم ولإنقاذهم في الدنيا والآخرة.

ثم ترشد إلى ثلاثة من أجل أساليب الدعوة وهي:

(الحكمة) وهي وضع الأمور في مواضعها الصحيحة، بالعقل، والفهم، والفقه في الدين، وحسن تقدير المواقف، واختيار الأنسب من الكلام، والرجال، والأحوال.

(والموعظة الحسنة) والمراد بها التذكير بالخير، ومع ذلك قيدها بالحسن والتلطف في أسلوب الدعوة، ليكون الداعية جميل الغاية، وجميل الوسائل والأساليب الموصلة لها.

(وجادلهم بالتي هي أحسن) والجدال هو المحاورة على سبيل المنازعة والمغالبة، والأصل فيه: الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة[١].

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني مادة (جدل).

والإنسان أكثر شئ جدلاً، وحبًّا للغلبة على خصمه، ولكن الله العليم الحكيم يأمر نبيه ﷺ في مواقف المنازعة أن يعلو بحواره عن هذه العادة، فلا يحاول أن يسقط خصمه على الأرض، أو أن يدخل حقائق الحق في شعاب المنازعة الوعرة، وإنما يحاور في مواقف المعاندة (بالتي هي أحسن) أي المبهج للنفس، الأبعد عن الشبهة، وذلك بالكلمة الطيبة، والألفاظ المختارة، والصدر الرحب، والوجه الباش، واحتمال نزوات الخصوم بصبر جميل، وإشعارهم بأن الأمر هو بحث عن الحق، وطلب للخير، ومحاولة للمعرفة الصحيحة والفهم.

وهذا أمر بالغ الصعوبة والعسر النفسي، ولكنه أنجع الوسائل لكسر حدة الخصوم، وتلطيف شهوة المنازعة والمعاندة، خاصة في حقائق الدين، التي عليها سعادة الدنيا والآخرة، والله تعالى أعلم بنفوس الناس، ويريد بهم اليسر، ويحب لهم النجاة، ولذلك لم يكتف بطلب (الحسن) من الوجوه والوسائل، وإنما أمر (بالأحسن) في عامة المواقف، منعا للعناد، الذي يغلق على الخصوم منافذ التعقل، ويقودهم إلى أشأم المصارع بالكفر في الدنيا، والنار في الآخرة!!

إن إنقاذ أمثال هؤلاء من ضراوة أنفسهم، ومن عواقب العمى الذي يغشاهم يهون على كل داعية أن يختار (الأحسن) بطيب نفس منه، إنقاذاً للآخرين، فكيف إذا كان الداعية هو المبعوث رحمة للعالمين؟ ﷺ.

ولذلك وجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وأمته جميعاً إلى هذا (الأحسن) بأسلوب القصر الذي لا تخيير فيه، حين يتعلق الجدل (بأهل الكتاب) بالذات، لأن لديهم علماً سابقاً قد يغرهم ويغريهم بالجدل، ولديهم تحريفا هائلا في دينهم ورثوه عن أسلافهم قد يضلهم ويجعلهم يتصلبون على باطلهم، لذلك يحتاجون أكثر من المشركين إلى غاية الملاطفة والمحاسنة، حتى يسمعوا كلام الله وهديه في هدوء وروية، رجاء أن يهتدوا إلى الحق الذي يصدق ما معهم من الحق، ويصحح ما ورثوه من الباطل، قال تعالى: ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي**

أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [**العنكبوت**: ٤٦].

وقد جمع الله تعالى حكمة الدعوة والبلاغ جميعاً في كلمات وجيزة، خاطب بها رسوله والمؤمنين فقال تعالى: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [**يوسف**: ١٠٨].

فقوله تعالى: (على بصيرة) أي على معرفة وتحقق وطمأنينة قلب، لأن البصيرة في الأصل: الإدراك القلبي.

وهذه من أجمع الوصايا الإلهية لأساليب الدعوة الناجحة، التي يكون الداعي فيها بصيراً بالكلمات والبراهين، وبالمدعوين وأحوالهم، وبالوقت المناسب، والقدر المناسب، وكذلك يكون الداعي مطمئن القلب لدعوته، ويتعامل مع المدعوين بحواسه الظاهرة، وبمشاعره الباطنة، فإذا صدق ظاهراً وباطناً كان ذلك أدعى للقبول والإقبال، وأرجى للاستجابة والهداية، وما خرج من القلب حل في القلوب، وتمكن في الأفئدة.

وختام الآيتين السابقتين يعطي توجيهات ربانية لا يعقلها إلا العالمون.

ذلك لأن بعض الناس حين يسمع هذه الوصايا القرآنية الجليلة بالتزام الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدل بالأحسن الأتم، والتبصر بمعناه الأوسع حين يسمع هذا بما أفرط في اللين والتساهل، فتختلط عليه القضايا، وقد وجدنا أمثال هؤلاء يجامل على حساب الحق، أو يتساهل في قبول الباطل، ويعدّ ذلك لونا من الكياسة أو السياسة المقبولة دينا، وهذا خطأ شديد لأن هذه الأمور هي وسائل وأساليب لتوصيل الحق واضحا إلى الناس، والحق ذاته ليس محلا للجدل أو المساومات، خاصة في التوحيد، ونبذ الشرك، والخضوع لشريعة الله الذي هو معني (الإسلام)، لذلك يوصى الله تعالى باللين، والحكمة والبصيرة، مع الثبات التام على حقائق الحق الذي علمنا إياه.

ولذلك ختم الآية الكريمة بقوله: **﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** لأن مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن لا ينبغي أن تنسينا أصل القضية

في التوحيد، وإسلام الوجوه والقلوب لله الواحد القهار، وأهل الكتاب قد حرفوا هذا الأصل تحريفاً هائلاً كما قال تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ [التوبة].

ولذلك أيضاً ختمت الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فهذا تنزيه لله تعالى عن الشرك والنقص، وإعلان واضح بأننا موحدون لا نقبل الشرك والشركاء، مع التزامنا التام بالدعوة إلى الله على بصيرة، بمعناها الواسع الجميل.

ولقد علّم الله تعالى رسوله والمؤمنين أن يلتزموا دينهم الوسط بلا إفراط ولا تفريط فقال تعالى:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣)﴾ [هود].

فقد نهى الله تعالى في الآيتين الكريمتين عن الطغيان في الدعوة ذلك كالغلظة والشدة والفظاظة التي يستخدمها بعض الدعاة، ويظنون ذلك حماسا في الدين، وغيرة على الحق، وهو (إفراط) مذموم، ينفر الأصدقاء والخصوم.

وكذلك نهي الله تعالى عن اللين المفرط الذي يؤدى بصاحبه إلى أن يميع حقائق الدين، فيركن إلى الذين ظلموا، بمجاملة أو بمساهلة كما قدمنا، والركون كما يقول المفسرون: هو أدنى الميل، وهو (تفريط) مذموم أيضاً، ونعوذ بالله من الخذلان.

حوار بلا عنف ولا ضعف:

وهكذا يعلم الله رسوله والمؤمنين، حقائق الدين، وآداب الحوار وأساليب

الدعـوة والبــلاغ، بلا إفـراط ولا تفـريط، وبلا (عنف) يفـسـد الود، ويوغـر الصدر، ويصد الخصم عن الفهم، وينفر العقلاء عن الاستماع، فضلا عن الاستجابة.

وكذلك بلا (ضعف) من المسلم، يؤدى إلى إقرار الأخطاء، أو انتقاص الحقائق، أو محاولة الوصول مع الخصم إلى أنصاف الحلول فيما لا يقبل التجزئة، لأن ذلك خداع وكذب من جانب، وإضرار بالخصم نفسه حينما تقدم له الحقيقة ناقصة مبتورة لرغبة أو رهبة، فربما كان طالب حق فيلتبس عليه الأمر، والمسلم ينبغي دائماً أن يأخذ الدين بقوة وعزم، ولا يخجل من شئ ثبت بنصوص الكتاب والسنة، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، ولا علم لنا إلا ما علمنا في كتابه المعجز، أو على لسان رسوله المعصوم ﷺ.

ولقد بلغت وصايا القرآن ذروة الإحسان مع الخصوم حين حدد (الجدل) بالتي هي أحسن، ووضع ذلك موضعا العمل والتنفيذ كما في قوله تعالى:

﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة: ٦].

فالمشركون مخالفون للإسلام في أصل الأصول، ومع ذلك أمر الله رسوله بغاية الرفق بهم ليسمعوا (كلام الله) كاملاً غير منقوص رجاء هدايتهم.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية الكريمة:

(وإن أحد من المشركين) الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم (استجارك) أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله القرآن، تقرأه عليه، وتذكر له شيئا من أمر الدين، تقيم به عليه حجة الله (ثم أبلغه مأمنه) أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

وهذا ما لا نظير في شرائع البشر، ولا معاملات الدول والأمم، قديماً

وحديثاً، ولا تزال القوانين الدولية تلهث لتقترب من هذا الجلال القرآني، الذي وضع موضع التطبيق الشامل منذ قرون، في ظروف الحرب والسلام على سواء.

المثل الأعظم في الحوار:

ومن أعظم ما ورد في ذلك، المحاورات التي وقعت بين الرسول ﷺ ووفد (نجران) النصاري، والتي أنزل الله تعالى في شأنها فوق ثمانين آية من صدر سورة آل عمران.

وهي قصة جديرة بالتأمل والدراسة، لأنها مثال عملي تطبيقي، يشتمل على جملة من القواعد، والأصول، والحكم، والمعاني، والمعاملات الحسنة، والصبر الجميل في الحوار والمناقشة.

وقد أذن النبي صلى الله عليه وسلم بنزول هذا الوفد الكبير في مسجده الشريف، وأذن لهم أن يصلوا فيه على طريقتهم هم، وإلى قبلتهم في جهة المشرق، وظلوا يجادلون النبي ﷺ نحو ثلاثة أيام جدلاً مريراً متعصباً بلا دليل، وهو يقيم لهم البرهان على قضية القضايا وهي (التوحيد)، ونفي الشركاء، والأنداد، والأبناء عن الله تعالى، فيحتجون على ألوهية المسيح، أو بنوته لله، أو كونه ثالث ثلاثة بكلام ساقط لا معني له، بل يحزن كل مؤمن، حيث يرى رسالة واحد من أولى العزم من الرسل وهو عيسى عليه السلام، تتحول إلى وثنية مشركة، وإلى جدل عقيم، ضلوا به وأضلوا الناس في أخطر وأكبر قضايا الدين والدنيا جميعاً!!

وكان أول ما عرضه الرسول ﷺ على الوفد وأحباره أن (يسلموا)، فقالوا في لجاجة: أسلمنا قبلك، قال: كذبتم يمنعكم من الإسلام ادعاؤكم لله ولدا، وعبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير!!

فجادلوه في المسيح طويلا، وزعموا أنه (ابن الله)، ولما قرأ عليهم النبي ﷺ الآيات التي ينكر الله تعالى فيها أشد الإنكار على من يدعي هذه

الدعوى البلهاء، قالوا: فمن أبوه؟ فرد عليهم بدليل القرآن المفحم:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

[آل عمران: ٥٩]

والمعني: إن كان عيسى آلهاً - في زعمكم - لأنه خلق من غير أب، فأولى بالألوهية أو بالبنوة آدم خلق من غير أب ولا أم، والحقيقة أنهما مخلوقان، وخلق آدم أغرب وأعجب من خلق عيسى، وهذا إبطال صارم لمزاعم النصارى.

فلما احتدم الجدل في طبيعة المسيح قال لهم النبي ﷺ في أسى: ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يحدث الحدث؟ قالوا: بلى

قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة؟ ثم وضعته كما تضع ولدها، ثم غذى كما يغذى الصبي، ثم كان يأكل الطعام، ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون كما زعمتم؟!

وهكذا مضى هذا الحوار الجدلي في أوضح قضايا الدين، وهم يصرون على مزاعمهم الباطلة في عيسى عليه السلام، بلا حجة ولا برهان!!

وقد تبين للوفد حروجة موقفهم، وإفلاسهم من كل دليل عقلي أو نقلي، بل مناقضتهم الصارخة لكل دليل، لأنهم يتربون من صغرهم على عدم (التفكير)، ويرون التفكير في مثل هذه الأسرار (كفرا) وهرطقة!!

لذلك افتعل بعضهم قضية هزلية للإمعان في الجدل العقيم، فقالوا: إذا لم نعبد المسيح فهل تريد منا أن نعبدك أنت يا محمد؟ وإلى هذا تدعونا؟!

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: معاذ الله أن أعبد غير الله، أو أمر بعبادة غيره، وما بذلك بعثني، ولا أمرني: وأنزل الله تعالى عليه ما يقرر هذا الأصل الذي رد به رسول الله عليهم:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

وخلاصة الجواب:

أنه لا يصح ولا يستقيم من حيث المبدأ أن يدعو نبي يوحي إليه إلى عبادة غير الله، لأن التوحيد أصل الأصول جميعاً في دين الله، ومن أمر بعبادة غير الله ولو كانوا ملائكة أو أنبياء فهو آمر بالكفر، خارج عن بدهيات دين الله تعالى.

وإذا تقرر ذلك فكل ما نسبتموه إلى المسيح من دعوى الألوهية، أو النبوة، فهو لغو باطل، لا يتصور - من حيث المبدأ - صدوره من المسيح، ولا يصح من حيث الواقع والتاريخ، بل أنتم - أيها النصارى - تكذبون عليه، وتحرفون أصول الدين الإلهي جهلاً وجدلاً، من غير علم ولا هدى(١).

ومع هذا التعنت البالغ صبر عليهم النبي ﷺ، ولم يكرههم على شئ لا يرضونه، ودعاهم إلى (المباهلة) كوسيلة للفصل في الخلاف، بعد أن تأبوّا على دلائل النقل والعقل، وأوغلوا في الجدل، وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى.

(والمباهلة) مأخوذة من الابتهال، وهو الاسترسال في الدعاء والتضرع، والمباهلة مفاعلة من الجانبين، وفيها نزلت الآية الكريمة: ﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾ [آل عمران: ٦١].

والمعني: لقد جئتهم بالعلم والحق في شأن المسيح، وأنه عبد الله ورسوله، فمن جادلك منهم فيه بعد ذلك فاطلب منهم أن تجتمع أنت وأهلك

---

(١) يراجع في هذا تفسير ابن كثير في صدر سورة آل عمران، وكتاب فقه السيرة للغزالي ص٣٢٨ وما بعدها وسيرة ابن هشام في وفد نجران.

الأقربون، وهم كذلك، ثم يدعو كل فريق على الآخر إن كان كاذبا بأن يهلكه الله تعالى.

وليس هذا حلا حوارياً عقلياً، وإنما هو موقف عملي بالغ التأثير النفسي، لذلك خافوا هم عواقب (المباهلة)، لاعتقادهم الداخلي بصدق محمد ﷺ، وأن الله سيهلكهم إن دعا عليهم، لذلك طلبوا عدم المباهلة، وطلبوا المصالحة، فقبل النبي ﷺ منهم ذلك، لأن هذا إقرار منهم في الحقيقة بخطاياهم في هذا الجدل، واعتراف بصدقه ﷺ.

لذلك استجاب لهم النبي ﷺ، وعقد معهم صلحا يؤمن مصالح المسلمين من دسائس دولة الروم، وهي قوة عالمية يومئذ، وأصبح نصارى نجران من رعايا الدولة الإسلامية بهذا الصلح العادل المكتوب في وثيقة، بل طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل معهم أحد أصحابه الثقاة، ليفصل بينهم في قضاياهم وخلافهم، فأرسل معهم "أمين الأمة" أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، على ما رواه البخاري وغيره

ومن هذا كله يتبين:

١- أن النبي صلى الله عليه وسلم حاور وجادل هذا الوفد طويلا، مطبقاً معايير القرآن في ضبط الجدل بالأحسن، وغيره من الشروط.

٢- كان الحوار في أصل الأصول وهو التوحيد، وتأليه غير الله وقد حاورهم طويلا، ورد أباطيلهم، ولم يساوم أو يتنازل عن شئ من الحق، وإذا جاز الحوار في هذا فكل ما عداه أهون منه، لأن الحوار هو طريق الفهم والبيان، وإقامة حجة الله تعالى على الناس.

٣- أن النبي ﷺ أنزلهم في مسجده، وتركهم وما يدينون فلم يكرههم على شيء، وبعد أن تصلبت عقولهم عن قبول البرهان والدليل، دعاهم للمباهلة.

٤- بعد أن اتضحت الحقائق، وتقررت العقائد، وظهر الحق جليا لم يمنعه

ذلك من (التعايش) السلمي معهم على ما هم عليه، وقد قبلهم في دولته، وعقد معهم صلحا على غاية العدل والفضل، راعي فيه حقوقهم وحقوق المسلمين، وهذا هو الأساس في قبول غير المسلمين في دولة الإسلام، وعدم انتقاض حقوقهم بسبب الخلاف في الدين، مع تجلية العقائد وأحكام الدين، وعدم المداهنة فيها، أو تمييع حقائقها.

٥- من هذا وأمثاله كثير يتقرر أن الحوار الواسع، ثم التعاون حتى بعد الاختلاف، وهو عندنا - نحن المسلمين - ليس قضية سياسية تخضع للتقلبات، وإنما هو دين ملتزم، مقرر بنصوص القرآن، وعمل الرسول، وأن الأمة الإسلامية مكلفة به، ملتزمة تطبيقه في كل العصور ضرورة أنه وسيلتها العظمى في الدعوة والبلاغ.

أمة الرحمة المهداة:

وبذلك يبطل كل ما يذيعه ويشيعه الإعلام الغربي واليهودي عن (الإسلام) من دعاوي الإفك والكذب، وكل ما يتقولون به على الأمة الإسلامية المستخلفة لحمل هذا الحق إلى الناس، لأن العلم، والتاريخ، وكل منصف في الأرض شهود عدول لهذا الحق الإلهي.

ولأنه بهذه الأخلاق العليا في المحاورة، والاستدلال، كانت الدعوة تمضي إلا الآفاق، وكان البلاغ النبوي يسري إلى القلوب والأسماع، وكان التأثير القرآني ينشئ أجيالا جديدة على الإيمان النقي، والعمل التقي، ويزيح عن صدور الناس أدران الجاهلية وخطاياهم، ويملأ القلوب والنفوس بنور الله وهديه كما قال تعالى:

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة].

وعلى هذه الأنوار والمثل العليا ترتب أمة الإسلام، على الرحمة والتعقل،

والمحاورة البناءة، أو المجادلة بالتي هي أحسن، التي تستهدف إنقاذ الناس، لا إسقاط الخصوم بشهوات الجدال الفارغ، والمغالبات الجائرة.

لذلك كانت هذه الأمة حين تم لها الغلبة «علماء حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» كما جاء في الأثر.

فبلغوا رسالات ربهم. ودعوا الأمم إلى الحق الإلهي الأسمى، ولم يكرهوا أحدا على الدين، ولم يبيدوا المخالفين لهم في العقائد، وإنما عاش في ظل الأمة الإسلامية المنصورة: (اليهود، والنصارى، والمجوس) وأمثالهم، وقد دخل الملايين منهم في دين الله طائعين، متأثرين بتعاليم هذا الدين الجليل، وما فيه من رحمة ومودة، وجدوهما واقعا ملموسا في أخلاق الأمة الإسلامية، وفي وضوح رسالتهم الربانية، وفي كريم دعوتهم لهذا الحق الإلهي الحنيف.

ولم يكن هذا الذي تمثله (أمة الإسلام) إلا امتدادا أمينا، لتعاليم الإسلام ذاته، الذي أراده الله تعالى رسالة عامة للبشر، يمتد طولا حتى يغطي آماد الزمن، ويمتد عرضا حتى ينتظم جميع الأمم، ويمتد عمقا حتى يستوعب خير الشرائع والنظم، وبذلك قدم للبشرية نمطا معجزا، تمازجت فيه الروح والمادة، والدعوة والقوة، والكرامة الإنسانية من خلال العبودية الصادقة لرب الكون ومليكه وحده لا شريك له، فلا غرو أن يكون له هذا التأثير المدهش في كل مكان، وأن تتلقاه كل الأقوام ببشاشة الإيمان، بعد أن تبلغهم حقيقته على وجهها الناصع الصحيح.

لذلك لم يكن للإسلام أي مصلحة في إكراه الناس على الدين.

ولم يكن لأمته حاجة ولا مصلحة إلا في الحوار والبيان، والدعوة والبلاغ، ولا يتم ذلك إلا في أجواء السلام، بعيدا عن أوزار الحروب، وغبار الصراع والصدام!

وهذا ما كانت تحرص عليه الأمة الجديدة كما علمها الله ورسوله:

١- أن تتعايش مع الذين يسالمونها، وأن تتعاون معهم على خير الجميع، وأن

يكون شعارهم: (العدل والإحسان)، والكف عن العدوان، كما قال تعالى: ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ .. ﴾ [المائدة: ٢].

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ.. ﴾ [المائدة: ٨].

٢- أن تكون أمة دعوة وبلاغ دائمين، لأن ذلك مهمة وجودها. ولا يقوم ذلك إلا على الحوار والبيان، والبصيرة والإيمان، والحكمة والإحسان، بلا ظلم ولا عدوان، وبذلك يفهم الناس خطاب الرب الأعلى، ويتميز الحق من الباطل، وتقوم الحجة البالغة مقام القوة الغاشمة، وهذا ما لا نظير له تشريعا أو تطبيقا في التاريخ البشري قديما وحديثا، والذي لا يزال مفعما بالطغيان والعدوان، والذي يدعو فيه دعاة السوء إلى صراع الحضارات، وصدام الثقافات، والتحالفات الدولية المتعاونة على الإثم والعدوان!! من أجل ذلك شرع الله تعالى الجهاد، وجعله من صلب مهمة الأمة الإسلامية بعد التطبيق، والدعوة على ما نبينه فيما يأتي:

الجانب الثالث: الجهاد الإسلامي

تقرر مما سبق أننا أمة ذات رسالة عظمى، استخلفها الله في الأرض لحمل هذه المهمة الجليلة، تطبيقا والتزاما من داخلها، ودعوة وبلاغا للأمم جميعا حولها، وبذلك تكون شهيدة على الناس، ورحمة للعالمين.

ولكن آفة الجاهليات الدائمة أنها تقوم على البغي والطغيان، وتواجه الحق بالأكاذيب والضلالات، وترفض كل حوار يقوم على العقل والمنطق والبرهان، وحين تتهافت ظنونها وأوهامها تلجأ إلى العنف الأرعن، والقسوة المفرطة، مدفوعة بغرور القوة التي تملكها، أو بقوة الغرور الذي يملكها، لتبطش وتظلم، وتستبيح الحرمات، وتسفك الدماء، وتسلب الأموال، وتسحق المستضعفين بالبطش والجبروت!!

هكذا فعل الطواغيت في كل العصور، وهكذا فعلوا مع النبي ﷺ وأصحابه

من أول العهد المكي، ورغم أنه جاءهم بالحق، وبدليل مبين من عند الله يحاروهم، ويحاجهم، ويلزم الرسول وأصحابه إلزاما بالصبر الطويل، والصفح الجميل: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [**الأعراف**: ١٩٩].

ولم يأذن الله لهم حينئذ برد هذا الظلم الفاحش، بل قال لهم: ﴿ **كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ..** ﴾(١) [**النساء**: ٧٧]. رغم التكذيب والتعذيب والمطاردة والمصادرة، وسفك الدماء، بل اضطر المسلمون إلى الهجرة المريرة إلى الحبشة أو البوادي، ولم يسلموا مع ذلك من الملاحقة الظالمة!!

فلما منّ الله عليهم بالهجرة إلى المدينة، وأواهم الله وأيدهم بالأنصار من أهلها استمر الكفار على ظلمهم بحبس المستضعفين في مكة، ومطاردة المهاجرين إلى المدينة، ومصادرة الأموال والديار، وقطع الطرق، وتحريض القبائل!

تشريع الجهاد:

ولذلك شرع الله تعالى للأمة المسلمة الجهاد دفاعا عن أنفسهم ووجودهم، وكفاً للظلم والبغي الذي يلاحقهم بلا ذنب ولا جريرة، كما قال تعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ..** ﴾ [**الحج**: ٣٩، ٤٠].

ولقد كانت صدور المسلمين مليئة بالغيظ من هذا الظلم الجائح، وربما نفسوا عن أنفسهم بالانتقام من الظالمين، ولا لوم عليهم حينئذ!! لكن الله الحكيم العليم ضبط حركتهم بقواعد رسالتهم، التي تقوم على (العدل والإحسان)، فنهاهم أشد النهي عن العدوان، والظلم، والإفساد، وأمرهم أمرا جازما بالقسط حتى مع أعدائهم الظالمين المفسدين قال تعالى:

﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [**البقرة**: ١٩٠].

---

(١) الآية رقم (٧٧) من سورة النساء، وهي مدنية يذكرهم الله فيها بما كان يقال لهم في مكة.

ثم يقول تعالى بعدها:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وهذا أعدل وأحكم تشريع للقتال في التاريخ البشري كله:

١- فهو أمر بالقتال (في سبيل الله) لا في سبيل الشهوات، أو المنافع الشخصية، أو الطبقية، تلك التي أفسدت الأرض قديما وحديثا، وأشعلت فيها الحروب والكروب!!

٢- وهو رد للظلم إذا جاوز مداه فخرج الباطل مدججا بالسلاح، ليقاتل المؤمنين الأبرياء، أو ليرغمهم على الكفر: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ..﴾ [البقرة: ١٩١].

٣- ثم هو نهي صريح عن المبادأة بالاعتداء في القتال، لأن الحرب كره وضر وبلاء، والله لا يحب الذين يستخدمونها بلا ضرورة ملجئة!!

٤- ثم غاية هذا الإذن الإلهي بالقتال هي: كف الفتنة التي أشعلها طواغيت الكفار لإكراه المؤمنين على (الكفر) بالتعذيب، والإخراج من الديار .. الخ . وليسود الدين الإلهي الذي هو رحمته للعالمين، لا أن يتأسس لكم ملك شخصي، أو سلطان قومي، أو مجد أممي كما يفعل طواغيت الأمم في كل العصور!!

٥- ويبقى المبدأ القرآني ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] مثلا أعلى من مبادئ الحرب والقتال، وأصلا من أصول السلام الذي شرعه الله تعالى للعالمين.

فريضة إلهية:

لذلك فرض الله تعالى (الجهاد) على هذه الأمة، وجعله من أعظم العبادات والقربات لله تعالى، وبشر المجاهدين بنصر الدنيا، وجزاء الآخرة، خاصة لمن شرفه الله بالشهادة في سبيله.

والقرآن الكريم مستفيض بهذه المعاني فيضا، وقد أوجز النبي ﷺ منزلة الجهاد في دين الله فقال لأحد أصحابه:

(ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟ .. رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد..)(١).

الحكمة العليا:

ومعلوم أن الله هو الرحمن الرحيم، والرءوف بعباده، ومع ذلك شرع الجهاد بحكمته العليا، لعلمه أنه ضرورة لازمة لا غنى عنها، لبقاء الحق وأهله في الأرض، ولرد العدوان إن وقع عليهم، ولردع البغي المتربص بهم، ولتأمين الداخلين في الدين من الفتنة التي تستهدف ردتهم، ولإعطاء المؤمنين فرصة لأداء (فريضة) الدعوة والبلاغ المبين بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثم في نهاية المطاف، لمنع الحرب الظالمة من الاشتعال، لأن ضعف المؤمنين يغري الطواغيت بالعدوان، والظلم، والفساد في الأرض، وإعداد القوة يرهب المعتدين، والمتربصين المنتظرين، فتزداد بذلك مساحة السلام والأمان، كلما قلت نوبات الحرب والعدوان!!

قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ..** ﴾ [**الأنفال**: ٦٠].

ومن أجمع الآيات الكريمة في ربط (الجهاد) بمهمة الأمة الإسلامية الشاملة قوله تعالى:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۝٧٨** ﴾ [**الحج**].

---

(١) هذا جزء من حديث طويل من رواية معاذ بن جبل رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

والآيتان الكريمتان تكليف للأمة (بمهمة) جامعة، عبادة لله تعالى بمعناها الخاص (الصلاة)، والعام مثل بقية (فرائض الدين) والأعم المطلق وهو (فعل الخيرات)، ومساعدة الضعفاء والمحتاجين، وإطعام المساكين واليتامى والأسرى ولو كانوا كفارا، وغير ذلك من كل ضروب الخير بإطلاق.

ثم أمر الله تعالى الأمة أمرا جازما مؤكدا: (وجاهدا في الله حق جهاده) أي بإخلاص النية فيه لله وحده، وأن يكون شاملا للجهاد بأموالكم، وألسنتكم وأنفسكم، وهذه هي المهمة النبيلة للأمة المختارة: (هو اجتباكم) والمعنى:

(يا هذه الأمة: الله اصطفاكم، واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع، وما جعل عليكم في دينكم من ضيق بل وسعه عليكم مثل ملة أبيكم إبراهيم، والله سماكم المسلمين في كتبه السابقة وفي هذا القرآن، وهذه تسمية شريفة مقصودة لأنها تعني مدحكم بالاستسلام لأمر الله وشرعه، لتتحقق بكم حكمة الله العليا من قيام الرسول شاهدا عليكم، ولتكونوا أنتم شهداء على الناس بالدعوة، والبلاغ، وإقامة الحجة، والتزام العبادات والطاعات والمسارعة إلى فعل الخيرات، والمسابقة إلى الطيبات حتى تكونوا نموذجا عاليا في الأرض، يجذب الناس إلى هذا الدين الحق، بالأعمال النافعة، وليس بمجرد الأقوال، فداموا على إقامة الصلاة رمزا لخضوع لله تعالى، وإيتاء الزكاة رمز الخضوع لله أيضا، ورمز نفع الفقراء والمحتاجين والإحسان إلى الخلق.

فإذا وجدتم مقاومة من الباطل، وصداما من الأمم الظالمة فلا تخافوا، واطمأنوا إلى جنب الله عز وجل، وتوكلوا عليه، واستعينوا به، وتأيدوا بقوته وعزته لأنه هو (مولاكم) يتولى أموركم، ويحفظكم وينصركم على أعداء الحق في كل زمان ومكان، وهو سبحانه نعم الولى لكم، ونعم الناصر من الأعداء)[١].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير مع بعض التصرف والاختصار.

جهاد بلا عنف ولا ضعف:

ويبقى الجهاد الإسلامي هو المثل الأعلى (للحرب) في التاريخ البشري كله سواء في الغاية التي يستهدفها، وفي الضرورة التي يمثلها، وفي الشروط والضوابط التي شرعها الله تعالى معه، ولا غرابة أن تحمل للناس أكمل الشرائع والأحكام في بابها، لأنها تشريع الرحمن الرحيم، ولأنها من تطبيقات الرسول الخاتم، المبعوث رحمة للعالمين.

وهذا باب واسع جدا لا يتسع له بحثنا هذا، إنما نجتزئ منه ما يتصل بواقعنا المعاصر، من رد دعاوي الكذب، واتهام الدين الحق بالباطل والإفك، ورمي أهله وأمته بالإرهاب والعنف زورا وافتراء.

ومن ذلك:

أولاً: غاية الجهاد (في سبيل الله)

فهو عبادة لله تعالى، وإعلاء لكلمته ودينه، ورد للمظالم عن أمته ودعاته كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾** ﴾ [**النساء**: ٧٥، ٧٦].

فالجهاد الإسلامي لا يكونه إلا لله نية، وفي سبيل الله وخدمة دينه عملا، ودفاعا عن المستضعفين (رجالا ونساء وولدانا) واقعا!

وكل حرب أو قتال لمجد شخصي، أو قومي، أو نفعي هي حرب شيطانية، وهي مضاده لسبيل الله تعالى، لأنها في (سبيل الطاغوت)، والظلم، والاعتداء!!

وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ:

(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[1].

ثانياً: الحرب ضرورة وليست غاية لذاتها

فقد بين الله أن الحرب مكروهة للطباع لما لها من آثار ودمار وأوزار، وما كتبها على الأمة إلا رحمة بها، حماية لوجودها ورسالتها، وإنقاذا لها من تسلط الطواغيت والشياطين، قال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ..﴾ [**البقرة**: ٢١٦].

وهذا توجيه إلهي حكيم يكسر شهوة الحرب والانتقام، وضراوة الشماتة والحقد المجنون الذي يقود الطواغيت إلى تدمير كل شيء، وإهلاك الحرث والنسل، وتخريب الحياة والعمران، كما قال الله تعالى عن شياطين اليهود: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [**المائدة**: ٦٤].

ولذلك علم الله المؤمنين ألا يبدأوا بالعدوان، وأن يستعملوا السلاح بقدر الحاجة الماسة، وليس للشهوة العارمة المخربة، قال تعالى: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ..﴾ [**الأنفال**: ٦١].

ولا تتغير وصايا القرآن عن هذا المعنى إلا عند فجور الأعداء بنقض العهود، أو الغدر ونحوهما مثل ما فعلها اليهود خاصة!!

ثالثاً: الأخلاق العليا لضبط الحرب

ومن أجل ذلك جعل الله تعالى للحرب آدابا عليا، وأخلاقا ضابطة، تعصم المجاهدين عن الولوغ في الدماء، والاندفاع في الانتقام، وقد سبق الإسلام بهذه (الأخلاق الحربية) كل تشريعات الأرض، ولا تزال شرائعة سباقة لم يدركها العالم كله إلى اليوم، خاصة في التطبيق العملي، ومن ذلك:

١- عدم المبادأة بالعدوان: ﴿**وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [**البقرة**: ١٩٠].

٢- الالتزام التام بالعهود والمواثيق، ونبذ عهود الخائنين علانية قبل حربهم

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ..﴾ [النحل: ٩١].

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

٣- الاقتصار على قتال وقتل المحاربين فقط عند الحرب:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ..﴾ [محمد: ٤].

يقول المفسرون: إن الأمر بضرب الرقاب إرشاد للغزاة إلى أيسر أنواع القتل في الحرب على القتيل وعلى المحارب.

وشدّ الوثاق للأحياء من الأعداء المحاربين معناه: أسرهم، واستبقاؤهم. وقد أوصى الله تعالى بالأسرى المحاربين، وهذا من أعاجيب التشريع الرحيم لأن الله أمر بإطعامهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، وخيرّ في الآية الكريمة بين المنّ عليهم بإطلاقهم مجانا، أو أخذ فدية مالية، أو مبادلتهم بأسرى المسلمين (على تفصيلات عند الفقهاء).

٤- الوصايا النبوية الجامعة في الحرب:

(أ) عن بريدة أن رسول ﷺ كان يقول:

(اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع) رواه مسلم.

(ب) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان) رواه البخاري ومسلم.

(ج) وعن حذيفة رضيا الله عنه .. عن النبي ﷺ قال:

(إن قوما كانوا أهل ضعف ومسكنة، قاتلهم أهل تجبر وعناد، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة) رواه الإمام أحمد، وقال ابن كثير هذا حديث حسن الإسناد[1].

وأصل هذا كله مأخوذ من جوامع القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

(ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي كما قاله الحسن البصري من: المثلة، والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال منهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس، وابن عمر، وعمر بن عبد العزيز، ومقاتل بن حيان وغيرهم)[2].

هذه حضارتنا الربانية:

وإذا لم تكن هذه الوصايا هي ذروة الحضارة، فهل لحق بها إلى الآن أدعياء الحضارة المادية الظالمة؟!

وإذا لم تكن هذه التعاليم الربانية هي صانعة الحضارة الصحيحة، والمدنية الراقية فأين مثيلها في التاريخ كله؟!

خاصة إذا تذكرنا أن هذه التعاليم الربانية كانت والناس في جاهلية جهلاء، وفي ضلال مبين، وفي همجية طافحة، مما يقطع بأن هذه شرائع الرحمن الرحيم لعباده في كل العصور.

ولم تنبع هذه الشرائع من البيئة (العربية) الجاهلية القاسية، بل هي مضادة لها.

ولا من قوانين (الفرس والروم)، وهما يومئذ مضرب المثل في الطغيان

---

(١) انظر تفسير ابن كثير عند تفسير الآية رقم (١٩٠) من سورة البقرة.

(٢) انظر تفسير ابن كثير عند تفسير الآية رقم (١٩٠) من سورة البقرة.

والضلال، وامتهان الأمم والشعوب!!

ولا من البيئة (اليهودية) الغادرة في يثرب وما حولها، لأن تاريخهم في الغدر، والخيانة، وانتهاز الفرص اللئيمة، كان يومئذ - ولا يزال - خلقا يهوديا متأصلا فيهم!

ومن يقرأ أسفارهم الدينية المقدسة - بزعمهم - يعلم الفرق الشاسع بين تعاليم الوحي الإلهي المنزل من الرحمن الرحيم، وبين التحريف الحقود من اليهود في أسفارهم الحاقدة، فكيف (بتلمودهم) وهو أظلم قيلا، وأضل سبيلا؟!!

أمثلة للموازنة:

ونحن نقدم أمثلة هدية للإعلام اليهودي الكذوب، الذي يسيطر على الإعلام الغربي، والذي يتهم الإسلام والمسلمين بكل نقيصة، وليوازن كل عاقل منصف بين الحق والباطل، وبين أخلاق الإسلام الربانية الهادية، وبين تعاليمهم الشيطانية المظلمة:

إن اليهود لم يقفوا بتحريفهم عند حدود النظريات الأسطورية، وإنما جعلوا ذلك دينا لهم، ووحيا مقدسا نزل على أنبيائهم، مع أنه ليس إلا غلاّ وحقدا يجرف أمامه كل القيم الدينية والبشرية، ويدمر بذلك كل شيء حتى الأطفال والحيوان، وتتجاوز فيه فنون التعذيب كل طرائق الطواغيت والفراعين!!

ومن ذلك ما قالوه عن دخولهم مدينة (أريحا):

١- (وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف) (سفر يشوع: ٦-٢٢). ومعنى (حرموا) أي قتلوا وأبادوا.

٢- أما النبي الكريم داود عليه السلام، فينسبون إليه أفظع الجرائم، التي تتضاءل دونها مذابح فرعون لبني إسرائيل.

ففي سفر صموئيل الثاني (١٢-٣١):

«وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت:

مناشير ونوارج حديد، وفؤوس حديد، وأمرّهم في أتون الآجرّ[١].

وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم»!!!

والوحي الإلهي، والرسل المكرمون برءاء - كل البراءة - من هذه الأساطير، ولكنها الأخلاق الوحشية عند المزورين، تتبدى وتتجسد في هذه النصوص المزورة المفتراه!!

وتنزهت كتب الله ورسله عن هذا الإفك المبين[٢] .

---

(١) أي أدخلهم في أفران حرق اللبن ليصير قوالب الطوب الأحمر وهو (الآجرّ).

(٢) راجع كتاب معركة الوجود بين القرآن والتلمود فقرة (١١) وعنوانها: (أسفارهم شاهدة عليهم).

الفصل السادس
المسلمون وحوار الحضارات والثقافات

وضح مما سبق أننا أمة ذات رسالة، تقوم على الدعوة والبلاغ المبين، والحوار المنصف، والبيان الهادئ المؤيد بالحجة والبرهان.

ولقد أقام المسلمون بهذه الرسالة حضارة عالمية باهرة، وتأسست عليها ثقافات واسعة النطاق والآفاق.

ولقد امتدت وتعددت علاقة المسلمين بأمم وشعوب شتى، وخالطوا حضارات وثقافات من كل لون، وعلمهم الإسلام قبول مبدأ التعدد البشري، وأنه فطرة وحاجة، بل حكمة إلهية لمصلحة الناس، ولذلك اتسمت الحضارة الإسلامية بسعة الصدر، وقبول الآخرين مهما تعددت ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم، والقدرة على التعامل البصير مع كل هذه الأنماط البشرية، وما يتبعها من فنون الحضارات ، وخصائص الثقافات.

وقد أدى هذا إلى تمازج الأمم والشعوب، وتحاور الأفكار، وتقارب المصالح والعادات، في جو العدل والإحسان الذي أشاعته في الأرض رسالة الإسلام، وحضارة المبادئ والقيم العليا.

ولذلك فإن علاقة المسلمين بغيرهم هي نمط راق، له أصوله وجذوره دينيا، وتاريخيا، وقد نجحوا نجاحا منقطع النظير في التعامل والاندماج مع قارات العالم القديم جميعا، ومؤثرين في شعوبها وأممها، ومتأثرين بكل نافع مفيد عند الناس، تقودهم وتحكمهم في كل الأحوال مبادئ دينهم الحق، ومعايير رسالتهم الفريدة التي تنظم هذه العلاقات:

الضوابط الإسلامية للتواصل الحضاري والثقافي:

وهي ضوابط ترجع إلى الإسلام ذاته، وتمتد مع أمته دائما لأنها جزء من رسالتها ومكوناتها الدينية، والنفسية، والتاريخية، ومن ذلك:

١- التعدد البشري ابتداء فطرة وحكمة إلهية:

وقد قرر الله تعالى ذلك لعباده بأساليب شتى، منها أن الله تعالى هو منشئ هذا التعدد ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ..**﴾ [**الحجرات**: ١٣].

﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**﴾ [**الروم**: ٢٢].

لذلك لم تقم في نفس المسلم حواجز اللون، أو اللغة، أو الشعوبية، أو الطبقية العنصرية البغيضة قط، ما دام مسلما يتقى الله تعالى، ولذلك لم تستطل الحضارة الإسلامية بالبغي والإدعاء على غيرها من الحضارات، وإنما تجاورت، وتحاورت، وأعطت وأخذت مادامت لا تخالف دينها، وهذا تأسيس ديني ونفسي بالغ الخطر والأثر، وله ما بعده.

٢- التعايش السلمي بين الأمم والحضارات:

فالتعدد واقع صحيح، والأرض واسعة، وقد جعلها الله تعالى مجالا للتعاون، والتنافس، وتحصيل المعايش والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ..**﴾ [**الأعراف**: ١٠].

﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ..**﴾ [**الملك**: ١٥].

﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ..**﴾ [**المائدة**: ٢]

وهذا العدل والتعاون مع المخالفين فكيف بالمسالمين؟

٣- منع الاستخفاف بخصائص الأمم:

فلكل أمة ثقافة لصيقة بها؛ يبقى منها الصالح، ويحتاج الفاسد منها إلى وقت وصبر، ودعوة وحوار، وتفهيم وتعليم حتى يقلع عنها أصحابها عن اقتناع، وهذا ما جاء به الإسلام حتى لا ينفر الناس من الحق، ويلجأون إلى

العناد المهلك، فقد اعتمد على التدرج في الأحكام، وحرم الخمر على مراحل، وأسس العقائد أولا؛ وجاء بقاعدته مع أهل الكتاب، (اتركوهم وما يدينون)، مع دعوة القرآن الكريم إلى الإصلاح، والتغيير بالحوار، والبيان.

٤- نبذ الظلم والفساد والاستعلاء بغير الحق:

لأن هذا داء الحضارات، وسوس العلاقات البشرية المدمر، ولذلك حرمه الله على المؤمنين، وأمرهم بمنعه ومقاومته.

﴿ **وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ..** ﴾ [**الأعراف**: ٥٦].

فإذا نبذ الظلم والبغي والفساد، شاع الأمن بين الأمم، وكانت الفرصة للحوار الهادئ، والتفاهم الطيب، والبلاغ المبين لرسالات الله عز وجل، وهي منفعة دينية ودنيوية معا، للمؤمنين وغيرهم حين يتحاورون، ويعرفون الحق الإلهي بنماذجه الواقعية.

٥- لا إكراه في الدين:

وهو مبدأ خطير من مبادئ الإسلام، ألزم الله به الأمة المسلمة ابتداء، ولابد من مراعاته ليمتد الحوار والتفاهم بين الأمم، وعند الإكراه، والإرغام يموت الحوار، وتفور الأحقاد، قال تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا ..** ﴾ [**البقرة**: ٢٥٦].

﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا** ﴾ [**الكهف**: ٢٩].

والآيتان تقرران بصراحة تامة أن دين الله هو الحق المتفرد، ومع ذلك لا يجوز إرغام أحد على دخوله، وعلى كل عاقل أن يختار، ثم يتحمل هو مسئولية اختياره في الحالين، شريطة ألا يحاد الحق أو يعاديه باللسان أو باليد.

ويقول الله تعالى مخاطبا رسوله ، وأمته من بعده حاكمين ومحكومين: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا**

مُؤْمِنِينَ﴾ [**يونس** : ٩٩].

لذلك عاش في ظل دولة الإسلام العالمية كل الأجناس بأديانهم ومذاهبهم، وعاش مع أمته اليهود، والنصارى، والمجوس وغيرهم قرونا متطاولة لا يرغمون على ترك دينهم أو عوائدهم، رغم تفرد المسلمين - يومئذ - بالسلطان والسيادة العالمية، بل حفظت لهم دماؤهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأديانهم بأمر الله عز وجل، لا من باب المناورات السياسية، أو المصالح الوقتية .. الخ!!

ودليل ذلك: أن الله تعالى قد أكد الوصية بالتزام الحوار، والدعوة، والبلاغ والبيان، الذي يتم به التعليم والتفهيم، حتى بعد فرض (الجهاد)، وبعد أن أصبح للإسلام قوة حربية مؤثرة، لما يعلمه سبحانه وتعالى من أن الحوار هو مدخل الإيمان، لذلك فتأثيره أبقى وأقوى، بل إن القوة الحربية نفسها هي لتوفير الأمان للناس ليتحاوروا بلا إكراه، لذلك ظل القرآن الكريم بعد فرض (الجهاد) يتنزل بالدعوة والبلاغ، والحوار والبيان، خاصة مع (أهل الكتاب) السابقين.

وقد تقدم كيف حاورهم الرسول ﷺ، حتى في التوحيد الذي هو أصل الأصول الدينية، بعد فرض الجهاد، وقد قال تعالى خطابا لنبيه ﷺ في هذه المرحلة:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ ..﴾ [**آل عمران** : ٢٠].

أي فالواجب عليك - إن عصوك - البلاغ ، وليس الحرب ، لأن مجالها هو رد العدوان، وليس فرض الإيمان.

٦- لا إكراه في الكفر والعصيان:

وهذا مبدأ خطير مكمل لما سبق، لا يتم الحوار إلا به، ولا يستمر ويمتد إلا بحصوله، لأن الله تعالى منع (الإكراه) لإدخال الناس في دين الحق، فمن

باب أولى يمنع الوجه الآخر للإكراه الذي يزاوله الطواغيت والمفسدون في الأرض، وهو إكراه الناس على البقاء في الكفر، أو على الردة بعد الإيمان، أو أن يرغموا على الفسوق والعصيان، بوسائل الحرب والسلاح، أو التعذيب والابتزاز، أو الغش والخداع ونحو ذلك ..!!

وقد نهى الله تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، واستثنى الظالمين منهم، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ..** ﴾ [**العنكبوت**: ٤٦].

يقول المفسرون: (بالتي هي أحسن كمعاملة الخشونة باللين، والغضب بالحلم، والمشاغبة بالنصح على وجه لا يؤدي إلى الضعف، إلا الذين ظلموا بالإفراط في الاعتداء والعناد، فإنه يجب حينئذ الغلظة باللسان والسنان)(١).

معيار التعامل الحكيم:

وقد شرع الله تعالى لنا معيارا على غاية العدل والفضل، يضبط تعاملنا مع المخالفين لنا في الدين، على أساس ثابت نبيل.

فإذا قمنا بحق الله في الدعوة الأمينة، والبلاغ المبين، ثم لم يستجب لنا الناس أو فريق منهم، وظلوا على دينهم، فعلينا أن نسالمهم ما سالمونا ولم يؤذونا، وأن نباد أهم بالخير والمعروف، ولا نقطع علاقتنا بهم لأنهم: (أمة الدعوة) ومجال البلاغ والحوار، وقد جعل الله لهم أمرين: (البرّ) وهم اسم جامع لخلال الخير، (والقسط) وهو العدل باعتباره الحد الأدني للتعامل، قال تعالى: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [**الممتحنة**: ٨].

(والبر) هو لون من الفضل، والإحسان أعلى من (العدل) الذي هو أقل ما يجب أن يؤدي لهم، لمكافأتهم ليس على الإيمان، وإنما لأنهم كفوا عدوانهم على الحق الإلهي، وعلى أمته، وهذا تشريع لا يصدر إلا من الرحمن الرحيم.

---

(١) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان في تفسير الآية الكريمة.

فإذا رفضوا الإيمان، وتتابعوا في العدوان: قتالا، أو إخراجا من الديار، أو معاونة للمعتدين فحينئذ يجب على الأمة أن تقف منهم موقفا حازما، وتقطع ما بينها وبينهم من الصلات ، والموالاة (محبة أو نصرة)، ومن خالف من المسلمين غفلة، أو شهوة، أو نفاقا فهو ظالم لنفسه، مدمر للحق وأهله، ينبغي أن ينأى بنفسه عن هذا المستنقع الأثيم، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٩].

وهكذا شرع الله تعالى لعباده خير منهج في التعامل والحوار، الذي يمكن في ظل هذه الضمانات الإلهية، أن يثمر ويؤتي أكله في كل حين بواحدة من اثنين:

١- إما بإيمان المدعوين، وهدايتهم إلى دين الله ليفوزوا بخير الدنيا والآخرة.

٢- وإما أن يسالموا الحق وأهله فلهم العدل وزيادة، وبذلك يشيع الأمن، وتحفظ الحرمات، وتتحقق المصالح المشروعة للجميع، ويتقارب الناس، ويزدادون تفاهما وإنصافا، وتكون نتائج الجولة لصالح الحق الإلهي في نهاية المطاف، كما حدث بعد صلح (الحديبية) وغيرها.

أما الصورة الثالثة، القائمة على الطغيان والعدوان، فهي آفة الجاهليات المتكررة، وطواغيتها هم المسئولون عن الفتن والمحن، وإشعال الحروب، وتعطيل المصالح، وسفك الدماء، ولا حيلة مع أصحابها إلا بذل النفس، والنفيس لمقاومة هذا الباطل، قبل أن يهلك الحرث والنسل ، ويأكل الأخضر واليابس، ومن أجل هذا شرع الله تعالى الجهاد والاستشهاد ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولا يصلح على المفسدين!!

ضلالة صراع الحضارات؟!:

إن الحضارات البشرية لا ينطبق عليها هذا الوصف إلا إذا كانت مصلحة نافعة، محققة لخير الأفراد والجماعات الإنسانية، فإذا تجردت من

هذا وتحولت إلى ضده صارت انحدارا لا حضارة، وظلما وفسادا، لابد أن يكون عاقبة أصحابه خسرانا ودمارا، على ما جرت به سنة الله في أمثالهم!!

لذلك فالشأن في الحضارات أن تتعاون وتتنافس في تحقيق المصالح، ومتابعة الترقي المادي والمعنوي للإنسان، والتصارع أو التصادم مناقض لحقيقتها، معطل لمجراها، مدمر لثمرتها في إقامة (المدنية) البشرية، التي تأسست ابتداء على (الدين) الإلهي، أو حتى على قانون بشري ينظم الحقوق والواجبات، وإلا تحولت العلاقات الإنسانية إلى فوضى مدمرة، مناقضة لمقررات لكل دين، أو قانون!!

وإذا وقع هذا الصدام الدامى المهلك في أي عصر ، فآفته تأتي من طغاة الأمم، وهم الظالمون المفسدون في كل دورات الانحدار البشري، بسبب الأهواء والشهوات، أو التسلط والجبروت، أو الطمع والجشع لنهب ثروات الأمم الضعيفة، أو اغتصاب حقوق الناس!!

والطواغيت المجرمون يسارعون دائما لتقديم المبررات المزورة لهذا الصراع الحيواني الغليظ، ولا يتأخرون في استخدام كل ثمرات الحضارة الحقيقية لتكون وقودا للحروب والفتن، ولا يعدمون المنافقين الذين يصورون أن ذلك عمل حضاري لصالح الرقي الإنساني كذبا وزورا!!

وهذا في الحقيقة تدمير للحضارة، وتمرد على المدنية، وارتداد عن الارتقاء الإنساني، وتحطيم للقيم العليا التي أتاحت التقدم والازدهار للأمم والشعوب، والتي صار بها الإنسان إنسانا متميزا على ما حوله من الكائنات، مهما زعم هؤلاء المبطلون، وصدق الله العظيم حيث كشف حقيقتهم المتكررة في كل العصور:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

جهالة فرض الثقافات!!

والثقافات كما قدمنا هي خصوصيات الأمم، وطرائقها وأساليبها في

العيش والحياة، ولكل منها وجهة توليها، ووسائل تتبعها وتلزمها، والأمم في ذلك متباعدة تباعد لغاتها، وألوانها، والظروف المؤثرة فيها، لذلك تتنافر الأمم فيها أكثر من غيرها، وقد قدمنا طريقة الإسلام الحكيمة في هذا الباب. وكيف جعل عماد التغيير فيها يقوم على المحاورة الهادئة، والدعوة الهادية، والبلاغ المبين حتى تتحقق السنن الإلهية: ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ..** ﴾ [**الرعد**: ١٧].

ولكن الحاصل الآن هو أدهى وأمر من مزاعمهم في صراع الحضارات، لأنهم اعتقدوا اعتقادا فاسدا بأن حضارتهم وثقافتهم وصلت بالبشرية إلى (نهاية التاريخ)، وأنها الطريقة المثلى في الأرض - مع كل ما فيها من إلحاد، وكفر بالله والمرسلين، وانحلال وفساد - ويحاولون فرض فسادهم هذا على غيرهم بكل وسائل الضغط، والإرهاب الفكري والحربي، ويجاهرون صراحة بنقل هذه (الثقافات) العفنة إلى مجتمعات المسلمين خاصة، مثل:

تبرج النساء تبرج الجاهلية الأولى، وزواج المثلين، والشذوذ الجنسي المطلق، وإباحة الزنى، والإجهاض، والتجارب الجنسية للمراهقين، وتقنين الحمل قبل الزواج فيما يسمونه (الأم العذراء) ، وإشاعة اختلاط الرجال والنساء في كل مواطن الإثارة الجنسية كالشواطئ ، والحمامات والنوادي الراقصة..!!

وقد قطعت (الثقافة) الغربية عامة، والأمريكية خاصة الشوط إلى نهايته، فعزلت من الفكر والواقع رقابة الله تعالى، وأنكرت ما وراء المادة من الغيب، والبعث، والجزاء، وانطلقت بعد ذلك معراة من كل ضوابط الخلق والدين، ليصبح كل ما ذكرناه شيئا محبوبا يغني بشيوعه عن تشريعه، وصار ديدن المجتمع كله بلا حياء، بل يتفاخرون به، وأصبحت كل الأخلاق والفضائل التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام ضروبا من الرجعية والتخلف في زعمهم، مع أن ما يتفاخرون به ما هي إلا (ثقافات) جاهلية مظلمة، وخاصة بأصحابها فقط، وتحرمها وتمنعها الأديان السماوية، وتمجها الأخلاق الوضعية الكامنة في بقايا الفطرة الإنسانية، وقد أهلك الله تعالى

بأقل منها أمما وشعوبا بائدة، كقوم لوط عليه السلام!!

وأشنع من هذا وأبشع ما تحاوله هذه القوى الفاسدة من محاولات شرسة لتعديل مناهج التعليم الديني في العالم الإسلامي، وحذف آيات الجهاد وأمثالها من المقررات الدراسية، حتى تنشأ أجيالنا مبتوتة الصلة بدينها وتاريخها، وتذوب في (ثقافتهم) الفاسدة!!

بل لقد بلغ الفجور مداه في محاولاتهم تغيير الإسلام ذاته، وتحريف أصوله ومصادره من القرآن الكريم، والسنة النبوية[1]، ليتلاءم مع أهوائهم، تمهيدا (للغاية النهائية) التي يخفونها تحت ركام من الحيل والأكاذيب، كما قال الله تعالى عن أسلافهم:

﴿ .. قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وقد فضح الله تعالى هذه الغاية الدنيئة، تحذيرا للمؤمنين في كل زمان:

﴿ .. وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .. ﴾ [البقرة: ٢١٧].

بل لقد بين الله تعالى مقدار ضراوتهم بأن هذه الردة لا تكفيهم، إلا إذا كانت على صورة واحدة، هي دخول دينهم (رغم أنهم هم تركوه)، أو الذوبان في دينهم الجديد: (دين الإفساد والفسوق والانحلال)، قال تعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

محنة المسلمين العاصفة:

ونعني بها محنة العالم الإسلامي، وقد سارت بها الركبان، ونحن بها الآن في وضع بئيس، غير مسبوق في تاريخنا، رغم ما مر بنا من أحداث جسام!

---

(١) هذه حقيقة مؤكدة، وثقتها كتب وأبحاث جادة، وانظر على سبيل امثال كتابي: (الإسلام والمسلمون مواجهة الحملات المعاصرة) ص٤٩ وما بعدها.

وهي محنة قديمة، بدأت منذ سنوات طويلة من التفريط في جنب الله، وذقنا ثمارها المرّة جيلا بعد جيل، حتى انتهت بنا إلى فتن كالحة، كقطع الليل المظلم، وطوقتنا بأمواج كالجبال و﴿ .. **لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ**﴾ [**هود** : ٤٣].

أسباب المحنة:

وهي أسباب كثيرة متداخلة متشابكة، بعضها أمراض مهلكة، وبعضها أعراض منهكة، وربما استفحل العَرَض فصار مرضا برأسه، وأهمها:

١- الإعراض عن الدين:

وهو قانون إلهي صارم، فصله الله في القرآن تفصيلا، وجعله جزاء حتما للإعراض عن دينه في كل العصور، لأن الإسلام هو هدى الله تعالى ضمنه حقائق الوجود، وسنن الحياة، فمن تبعه فاز ونجا، ومن صادم سنن الله صادمته وأهلكته، قال تعالى:

﴿ .. **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ** (١٢٣) **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ**﴾ [**طه** : ١٢٣ ، ١٢٤].

وهذا تحذير قديم منذ درج آدم على الأرض، ولم يتخلف هذا القانون قط طوال التاريخ البشري.

وقد أخذ الله ميثاق هذه الأمة على دينه، واستخلفها على رسالته، وجعلها امتدادا لبلاغ النبوة الخاتمة، فلما وفت أعطاها قيادة الأرض، ومكّن لها دينها ودنياها.

ولما فرطت ابتلاها بالمحن والأعداء لتعود من قريب، فإذا فعلت عادت إلى حماية الله ورعايته، ونصره العظيم.

وقد تمادت هذه الأمة في هذه الجولة، فصارت إلى ما هي فيه الآن من الضعف، والهوان، والذلة، والصغار بين الأمم، وما ظلمنا الله ولكنا ظلمنا أنفسنا، بشيوع الظلم والاستبداد، واندلاع الفساد والإفساد، وضياع العدل،

والشورى، حتى انتهينا إلى تحكيم القوانين الوضعية مكان الشريعة الربانية، وفي جوها الموبوء شاع الربا والزنى، والخمر، وتبرج المسلمات تبرج الجاهلية، وتقاعس العلماء والأمراء، أو غلبهم طوفان الأهواء والشهوات، وضيعت العبادات والمعاملات، فكان لابد أن تلقي الأمة جزاءها الحتم الذي سبق به نذير الله:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. ﴾ [طه: ١٢٤].

ثم تفاقمت البلايا مع هذا (الإعراض)، أو نتيجة له مثل:

٢- التخلف المزري:

حيث عادت الأمة التي قادت البشرية قرونا متطاولة، عادت إلى الجهل المظلم، والتخبط المهلك، لأنها أهملت حقائق الدين والدنيا، وغدت تعتمد على أعدائها في طعامها ، وشرابها، ولباسها، وصناعتها، وزراعتها، بل في سلاحها الذي تدفع به عن نفسها ودينها، ولم تنفعها تلك الثروات الطائلة، والبلاد الشاسعة، والعقول المفكرة، لما جاء وعد الله ﴿ .. **فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [**الأحقاف**: ٢٦].

ومن يقارن أو يوازن بين حال أمتنا في (البحث العلمي) فقط، وبين اليهود أو بين الهنود فإنه يبكي طويلا، ولا يجد تفسيرا إلا أننا قد حق علينا (معيشة الضنك) أو «الفتنة التي تدع الحليم حيران»(١)، لأن الأمة فرت من ربها، وأهملت رسالتها التي استخلفت من أجلها!!

٣- تداعى الأعداء:

فقد تواثب علينا الأعداء من كل جانب، وقد وعدنا الله النصر عليهم ولو اجتمعت علينا الأرض جميعا، وهو لا يخلف الميعاد، لكن ذلك مشروط بالتزامنا هذا الدين كما بينا بالتفصيل.

---

(١) رواه الترمذي والدارمي وغيرهما.

فلما أخلفنا موعدنا، ونقصنا ميثاقنا مع ربنا سقطت هيبتنا، وانكشفت عوراتنا ومواطن ضعفنا، وقد نصرنا الله تعالى حين راجعنا وعدنا، كان ذلك في كل تاريخنا كالتتار حين اجتاحوا ممالك المفرطين في جنب الله، وكالصليبيين، والفرنسيين، والإنجليز[1] وغيرهم كثير.

ولما اتسعت ظلمات التفريط ، وتمادت الأمة وحكامها في هذا الطريق تمكن الأعداء في القرون الأخيرة منا وجاسوا خلال ديارنا، وكان نذيرا مفعولا، وواقعا ثقيلا!!

عداوة ضارية:

وكان أخطر ما رزئنا به - بذنوبنا - هذه الهجمات التي استطال علينا بها (الغرب) الأوربي، وأمريكا من بعده، أو هي امتداد له.

لقد احتلوا بلادنا أزمنة متطاولة، صار العرض فيها مرضا فاحشا، دمر علينا ديننا، وأخلاقنا، وشرائعنا، فضلا عن انتهاب ثرواتنا وبلادنا.

وكان من أفدح الجرائم التي رمونا بها غرس دولة (اليهود) في أرضنا، التي صارت (سرطانا) مركبا، يهدد حاضرنا ومستقبلنا أفدح تهديد، وصارت - بمعونة أمريكا والغرب - مدججة بالسلاح النووي ، والجرثومي مما يهدد أو يدمر وجودنا ذاته!!.

وقد قدمنا ذكر المحاولات الأخيرة لضرب الدين ذاته، وهدم شرائع الإسلام ونحن لا نجهل أن أعداءنا الآن متفوقون علينا ماديا بما لا يقاس، وأنهم سبقونا في هذه الحضارة المادية سبقا هائلا، لا سبيل إلى اللحاق بهم فيه إلا بالإسلام، ولكننا نحلل الأسباب، لنعلم فصل الخطاب، في هذه العداوة الطافحة، والتي لن نوقف خطرها إلا بمعالجة أصل الداء، أي بالعودة الشاملة إلى التزام الإسلام، دينا شاملا لكل شئون الحياة.

---

(١) قاوم المسلمون في مصر حملة نابليون مقاومة باسلة ففر من مصر، فقتل المسلمون خليفته (كليبر)، ثم رحلت الحملة مهزومة بعد ثلاث سنوات، وهزم مسلمو رشيد الإنجليز بعد ذلك بسنوات معدودة)١٩٧٠م) وتكرر مثل ذلك في العالم الإسلامي..

٤- إهمال الجهاد:

ونخصه بذاته هنا لأنه ذروة سنام الإسلام، وهو واسع المعنى ابتداء من (التربية) الصحيحة على الدين، والاجتهاد في الدعوة والبلاغ، وتعريف الناس بهذا الحق المبين، وما يتبع ذلك من بذل المال، والفكر، والقول، للحوار والبيان، ثم بذل النفس في سبيل الله حفاظا على الحق وأهله.

ونحن لا ندعو الأمة إلى الحروب والمعارك، لأننا كما قلنا مرارا: أمة دعوة ورسالة، لا أمة صراع وأحقاد، لكن الأعداء غلاظ شداد، يغريهم ضعفنا بالعدوان علينا، ويهمهم تماما أن تموت جذوة الجهاد في نفوس الأمة، فإذا علموا بقدرتها على البذل والفداء، وأنها تحب الموت في سبيل الله كما يحبون هم الحياة للشهوات .. إذا علموا ورأوا ذلك ترددوا طويلا في العدوان.

ونحن نعلم أن عدونا متفوق في هذا الجانب، وأننا فرطنا فيه طويلا، لكن الأمم قديما وحديثا حين تستجمع عزائمها، فإنها توقف البغي والعدوان بإذن الله ، مهما تكن قوة الأعداء.

إن حكومات المسلمين، وعلماءهم، ومؤسساتهم ينبغي أن تشيع في الأمة (روح الجهاد والاستشهاد) ، وتنشر فيهم (ثقافة) المقاومة دفاعا عن البلاد والعباد والمقدسات، ولا تترك نفسها فريسة لخداع أعدائها حين يسمون هذا (بالإرهاب) ونحوه، فالإرهاب هو ما يفعلونه هم من الظلم والبغي، وليس هو الدفاع عن النفس والدين.

وفي الأثر (ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا) وهذا صحيح تماما طوال التاريخ البشري، وإن أخطر ما تمنى به أمة أن تحب الحياة الذليلة، وتكره الموت في سبيل الله، ولذلك حذر النبي ﷺ من ذلك كما به التحذير، في حديثه الشهير:

«توشك الأمم أن تداعي عليكم، كما تداعي الأكلة إلى قصعتها، فقال

قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينز عن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت[١].

جهاد الدعوة والبلاغ:

ومن المهم هنا التذكير بالفرض الواجب علينا، وهو جهاد الدعوة والبلاغ المبين، وهو جهاد في قدرة الأمة يقينا، وهو أمضى من أسلحة الحروب، وهو بجانب أنه تكليف ديني، له تأثيره الواسع في الناس، لأنه يحمل لهم فهما لديننا، ومعرفة بحقيقتنا، وتذكيرا بحضارتنا، وبالمهمة العظمى التي أديناها للبشرية دينا ودنيا، وبالقسط العظيم الذي أسهمنا به في الحضارة البشرية الكبيرة، وقد اعترف به وأثنى عليه المنصفون من العلماء والمفكرين والأدباء في كل الأمم، فضلا عماله من أثر في تصحيح الصورة الشائهة التي يقدمها الإعلام الغربي واليهودي الحقود عن الإسلام والمسلمين.

وما المخرج منها؟!:

هذه هي المحنة العاصفة التي تكتنفنا، أو الفتنة القاصمة التي تهددنا، وفي الحديث: ألا إنها ستكون فتنة، قلنا: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ..»[٢].

وهذا جواب يغني عن كل جواب.

ولا بديل عن ديننا بشموله إذا أردنا النجاة في الدنيا والآخرة.

ولابد أن نعي أن البشرية في أشد الحاجة إلى ديننا، بعد أن أفلست كل المناهج والمذاهب، وأن هذه مهمتنا النبيلة في الأرض، لنحمل لها هداية الله عز وجل.

---

(١) رواه الإمام أحمد عن ثوبان رضي الله عنه، ورواه أبو داود في السنن (كتاب الملاحم - الباب الخامس: تداعي الأمم على الإسلام)، جـ٢، ص٤٤٦.

(٢) رواه الترمذي، والدارمي من حديث علي بن أبي طالب مرفوعا، وهو حديث حسن في أصح الأقوال.

وإذا كنا لا نستطيع أن ننافس أهل الحضارة في الجانب المادي مع أننا كنا أئمته من قبل، فإننا نستطيع أن ننقذ أنفسنا، وأن ننقذ الناس بدعوتهم وقيادتهم إلى صراط العزيز الحميد ، بعد أن نلتزم به شرعة ومنهاجا.

وإذا ظن بعض الضعفاء أن ذلك مستحيل لأن الدول الكبرى لا تسمح لنا بذلك، ولا طاقة لنا بمخالفتهم، ولا حربهم، وهذا منطق مقبول بمقاييس المادة، لكنه غير صحيح في موازين الدين، والإيمان، والقرآن، والمتواتر من تاريخ الرسل عليهم السلام.

فمن بدهيات اعتقادنا أن الله تعالى هو رب الكون، ومليكه، وهو الفعّال لما يشاء، وهو على كل شيء قدير.

وقد وعد عباده بالنصر المطلق إن التزموا دينه فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨﴾ [محمد].

وحين دعانا للجهاد الحق تكفل بحمايتنا فقال سبحانه:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ثم ختم الآية بقوله الكريم:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وهل وافقت القوى الحاكمة على دعوة أي رسول؟ وهل منع ذلك الرسل والمؤمنين من المضي في دعوتهم ودينهم؟ وماذا كانت نتيجة الطرفين طوال التاريخ المتواتر؟ لقد سجل الله تعالى في كتابه الجواب عن ذلك في كل قصص الأنبياء عليهم السلام، بالإجمال أو بالتفصيل، وبالأسماء والوقائع في كل العصور، ويكفينا

قوله الكريم:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فهذا تأكيد إلهي قاطع، ونص على نصر (المؤمنين) في الدنيا والآخرة،

والانتقام من المجرمين، ثم إعلان صريح من رب العزة والجلال أن نصر المؤمنين هو حق عليه سبحانه، أوجبه على نفسه.

فإذا توكلنا على الله تعالى، وأخذنا الدين بقوة وعزيمة، فنحن في رعاية مالك الملك وحمايته بيقين، فمن عاش منا عاش حميداً عزيزاً، ومن قتل في سبيل الله كان شهيداً كريما في أعظم الدرجات عند الله تعالى.

أسلموا تسلموا:

وهذا هو الغرض اللازم على الأمة جميعاً حاكمين ومحكومين، علماء وأمراء، وعلى كل ذي رأي وعقل، وعلى كل مسئول، بل على جمهور الأمة كلهم أجمعين: أن نسلم جميعاً وجوهنا وقلوبنا ومحيانا ومماتنا لله رب العالمين. لتسلم من الخطر الداهم، ولنكون أهلا لتنزل نصر الله وعونه علينا، ولننهض من رقدة العدم التي غشيتنا، وهذا هو طريقنا الوحيد، وخيارنا الصحيح، ولا وقت لدينا للهزل في مواطن الجد الخطير، ولا للتلاعب بالألفاظ والكلمات، وإلا فإننا سنواجه خطرا ماحقا، وأعداؤنا غلاظ شداد لا يرحمون، وما يجري في فلسطين وغيرها هو نذير من النذر البالغة: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: ٣٧].

بشائر النصر العظيم:

وسينتصر هذا الدين إن شاء الله بنا أو بغيرنا، وسيعم الأرض جميعاً في جولته الخاتمة، وسيعود لقيادة البشرية العانية، إنقاذا لها من المصرع الأليم الذي يسوقها إليه كمهنة الإلحاد والعناد، من طواغيت الحضارة المادية، وذلك وعد الله الحق:

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٣].

وذلك ما بشرنا به الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم:

(ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل و النهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر

إلا أدخله هذا الدين، يعز عزيزاً، ويذل ذليلا، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل به الكفر)[1].

اللهم اجعلنا من حزبك المفلحين، وجندك الغالبين واختم لنا ولأمتنا بخاتمة السعادة أجمعين.

وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

أبيض

أهـم المراجـع

١- القرآن الكريم.

٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي.

٣- تفسير القرآن العظيم - ابن كثير (دار الفكر - بيروت).

٤- تفسير روح البيان - الشيخ إسماعيل حقي (دار إحياء التراث).

٥- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان - اختصار: الشيخ محمد على الصابوني (دار القلم - دمشق).

٦- مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني تحقيق: صفوان داودي (دار القلم - دمشق).

٧- المنهاج القرآني في التشريع - عبد الستار فتح الله سعيد (دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة).

٨- كتب السنة كالصحيحين ، والسنن، ومسند الإمام أحمد .

٩- الحضارة - الدكتور حسين مؤنس (سلسلة عالم المعرفة - الكويت - ط٢).

١٠- المدينة الإسلامية - الدكتور محمد عبد الستار عثمان (سلسلة عالم المعرفة - الكويت ١٤٠٨هـ).

١١- الإسلام فكرا وحضارة - الدكتور محمد كمال شبانه (بدون بيانات).

١٢- السيرة النبوية - ابن هشام (المكتبة التجارية - القاهرة).

١٣- فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي (دار الشروق - القاهرة).

١٤- الإسلام والمسلمون في مواجهة الحملات المعاصرة - عبد الستار فتح الله سعيد (دار الدعوة - الإسكندرية ١٤٢٣هـ).

١٥- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية - القاهرة ط: ٣.

١٦- الأحكام السلطانية - الإمام أبو الحسن المارودي.

أبيض

مستقبل الحوار بين
الثقافات والحضارات: الإيجابيات والسلبيات

إعـداد
أ.د. عبدالله التطاوي
نائب رئيس جامعة القاهرة لشؤون خدمة المجتمع وتنمية البيئة

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

محاور الورقة :

- تمهيد : نقاط مبدئية.

١- نحو تأصيل مبدئي لفكرة المشترك الثقافي والإنساني.

٢- في سياق معطيات ثقافتنا العربية الإسلامية.

٣- في إطار العام والمطلق.

٤- الاتجاه نحو المستقبل ومستوى الرؤية.

٥- تقويم ومكاشفة.

تمهيـــد

نقاط مبدئية في ورقة العمل المقترحة للمشاركة في محور
« مستقبل الحوار بين الحضارات والثقافات: الإيجابيات والسلبيات »

١- الحد الاصطلاحي بين مفاهيم الحوار والصراع والتصادمية الثقافية.

٢- البعد الإنساني وقراءة المشترك الثقافي ومقومات الحوار وتداعياته بين:

القبول ـ التأثير والتأثر ـ الأخذ والعطاء - الانفتاح الذهني - تجاوز العنصر والمذهب والمعتقد ـ الموضوعية ـ الحيدة ـ سلامة المنهج ـ صحة النتائج.

٣- تواصُل الحوار وإيجابياته:

تفعيل الماضوية لبناء جسور الثقة بالذات ـ الانطلاق من منظومة التطوير والتحديث ـ الوعي بالمتغير وامتلاك آلياته، تجاوز الانقطاع المعرفي واحترام فكر الآخر.

٤- الإيجابيات : تعزيز المشترك الإنساني ـ صحة الاتجاه إلى طريق التنمية البشرية ـ تفعيل قنوات الفكر ـ التثاقف الفاعل ـ تلافي الانقسام المجتمعي أو الانشطار الذاتي ـ رحابة الفكر المنهجي في رؤية المستقبل ـ نجاح مشروع الإصلاح والتحديث ـ مواجهة صدمة الحداثة وتأصيل الجديد ـ صناعة المزاوجة الهادفة بين الموروث والمستحدث ـ تفعيل التكامل المؤسسي في صناعة قنوات المعرفة ـ بداية إنتاج الثقافة ومواجهة التحديات ـ تقوية الجسر الثقافي مع الآخر، والاتجاه إلى ثقافة الفعل والإنجاز.

٥- السلبيات المتوقعة :

- الخوف على الهوية، والحذر من رياح التهميش والمساس بالقوميات، أو الكيانات التاريخية.
- الانزعاج أمام تيارات التغيير إذا لم تقم على مناهج علمية جادة، قادرة على الاستيعاب، وضبط المسار القومي، دون تهيل أو تهوين.
- اهتزاز الرؤية أمام مرجعيات التغيير، أو التراخي في الانطلاق إلى ثقافة الإنتاج والإنجاز، وتجاوز الخطابية وضجيج الحوار.
- التراجع في مسئولية تحليل الخطاب العربي المعاصر بكل أبعاده ومستوياته التربوية والشبابية والإعلامية والدينية والقيمية ضمانًا للتواصل المعرفي بين الأجيال.
- الاكتفاء بالانبهار والدهشة أو التماهي في الآخر، أو الاكتفاء بدور المستهلك والمستورد دون اندماج في توظيف العقل العربي في ساحات الابتكار والإبداع.

(١)

نحو تأصيل مبدئي لمفهوم المشترك الثقافي والإنساني

لم يعد الوقت ولا المرحلة تسمح باجترار مفردات الصراع الحضاري التي ثبت فيها التجاوز للحقائق، ولا حتى مفردات الحوار باعتبارها النموذج الأفضل للتثاقف ولقاء الأفكار، وتجانس المواقف؛ ذلك أن البحث في دائرة المشترك الإنساني قد تبدو أكثر فائدة من قبيل التأصيل لكل ما هو إنساني جامع بين البشر بعيداً عن التقسيمات المصطنعة بين الأجناس، وأهل الأديان، وعبر الزمان والمكان.

يبدو المنطلق الأساسي في المشترك مسجلا في النص القرآني الكريم في قوله تعالي: ﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**﴾ صدق الله العظيم، حيث إن التلاقي في الأصل واحد ووارد في وحدة الخلق، ثم جاءت التعددية مدخلا ضامنا للعودة إلى المشترك في باب التعارف، وتوظيف لام التعليل (لتعارفوا).

ويمتد المنطلق عبر جوامع الكلم في جمل موجزة حدث بها الرسول ﷺ الناس جميعا في حجة الوداع حين خاطبهم قائلا:

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوي ، أكرمكم عند الله أتقاكم.

فهي إذن وحدة المعبود الخالق، ثم وحدة الأصل والنشأة، ثم وحدة المصير والمطاف وبينهما رحلة التعددية المنتهية إلى منطق (الكل في واحد).

ولنسمح لأنفسنا - مؤقتا- أن نستعير من توفيق الحكيم شعاره في «عودة الروح» التي طبقها على المصري القديم والمعاصر من حيث البحث عن الرمز والمعبود للالتفاف حوله تحت هذا الوازع النفسي، حتى وجدنا الظاهرة تمتد إلى الإنسان باعتباره إنسانا، له فكره وملكاته وقدراته وإبداعه، وله أيضا تفرُّده وتميزه ومواهبه التي يكمل بها عطاء الآخر، فهذه

التكاملية تظل شاخصة في منطق الأشياء منذ نبه أفلاطون إلى روح الوطن وجسده بين الفلاسفة وأصحاب الحرف اليدوية، وهي ذات التكاملية التى تحكي فصولا من قصة الإنسان عبر صراعه مع الكون والطبيعة، وحتى مع نفسه ومع أخيه الإنسان، لينتهي بإرادته- أو حتى بدونها- إلى صناعة هذا التكامل، أو الخضوع لذلك المشترك بمساحاته بكل روافده الحضارية والثقافية والدينية، مع تواصل خبرات الشعوب، وتبادل القيم والمنافع، وتبادل صيغ الدفع والوعي الإنساني بكل ما يتطلبه من نبذ الخلاف، والاندفاع إلى منطق التلاقي والتقارب.

من هنا تتحول فرضية المشترك الثقافي إلى واقع وتجربة، يجب التوجُّه إليها والآخذبها من قبيل الدرس الموضوعي القراءة المنهجية، والتوصيف الصحيح للحقائق، بعيداً عن الانحياز لفكرة مسبقة، أو الانقياد خلف منطق التعصب، والعنصرية لمن يرون في أنفسهم نمطاً وبقية البشر من نمط آخر.

لعل البحث في هذا السياق يأتي مدعوماً من طبيعة الفكر الديني ذاته عبر منطلقاته الكبرى الأصلية من وحدة المصدر، وتوحيد الإله الواحد الأحد في كل الديانات السماوية إلا ما ورد من باب التجاوز أو الافتراءات، وهذه لها شأن آخر، وسياق مختلف على غرار ماورد في المذاهب - وليس الأديان - من باب الثنوية، أو الشرك في الألوهية المطلقة، تلك التى انتهت إليها الفطرة السليمة للبشر في عبادة الخالق وليس المخلوق الذي لا طاعة له في معصية الخالق الأعظم جل شأنه.

في عباءة الإسلام دعوة صريحة إلى وجوب الإيمان بكل الرسل والرسالات «لانفرَّق بين أحد من رسله» وهو استكمال الإيمان بالله وكتبه ورسالاته؛ الأمر الذي يجعل الإسلام بابا واسعا لطرح قضية المشترك الثقافي في دعوته للإصلاح والأخوة والمساواة، والتكافل والتكامل، والشوري........ الخ.

وفي عباءة الثقافة الإسلامية كان هذا المشترك الذي اندمج فيه العربي

مع أخيه الخوزي مع البخاري مع الخوارزمي مع الجرجاني دون تفرقة، ولا اعتراف بحدود الإقليم والمكان، ولا حد النشأة والميلاد، فكانت الثقافة هي البوتقة الجامعة بين العرب وكبار مثقفي الأمم المشاركة في بنية منظومة حضارتهم على غرار ابن سينا والرازي والإدريسي وابن الهيثم وابن النفيس وابن حيان وابن رشد والكندي والفارابي وابن خلدون وحازم القرطاجني وغيرهم من أساطين الفكر الكبار الذين صنعوا المشترك إنتاجاً وإبداعاً، ثم قاموا على بنشره وتوزيعه تأثُّرا وتأثيرا في ظل منظومة حركة الترجمة، وتدوين علوم الأوائل، وقد تجاوروا في دار الحكمة منذ أنشأها الرشيد، ونماها من بعده المأمون فالتقي العربي والهندي والفارسي واليوناني والسرياني في سياق المشترك الإنساني في أدق صوره.

إذا كان المشترك يمثل المسعي الحقيقي لتبادل الوعي الإنساني وتجارب الشعوب والأمم فهو المنطلق الذي دفع عالماً مثل الجاحظ -مثلا- إلي البحث في درجة التميُّز بالفصاحة لدى العرب، والسياسة لدي الفرس، والحكمة لدى الهنود، فكان لقاؤهم مدخلا إلى صناعة التواصل وتكامل الخبرات في سياق المشترك العقلي والوجداني قبل أى تصور آخر للتصادم أو الصراع، أو محاولات القهر والظلم والاستبداد، فالأصل في الأشياء هو ذلك الواقع الإنساني الذي لا يعرف ضفافاً الضفاف إلا من خلال تلك الشراكة الفاعلة بين قدرات البشر، وما يصدر عنهم من فكر وعلم وثقافة وإبداع، وحتى الحلم المستقبلي يدخل في هذه الدائرة الواسعة وعمق وذلك السياق الإنساني، فهل أن لنا أن ندرسه بوعي، وأن نمتلك من الآليات والجهد ما يقدم فيه الجديد المتناغم مع متطلبي الفترة وإيقاع المرحلة!.

(٢)

في سياق ثقافتنا العربية الإسلامية

ليس من المبالغة أن نزعم أن الثقافة الإسلامية قد نهضت على أساس الحوار بدليل المطلوب الجدلي المشروط بالحسنى، والدعوة بالحكمة، واحترام الآخر على مختلف انتماءاته العنصرية، وعقائده بدليل ما درجت عليه من انفتاح ذهني عبر حركة الترجمة من العربية وإليها دون تحفظ أو تعقيد، فكانت كل لغات المرحلة داخلة في عباءة العربية، نقلاً منها أو إليها دون جمود أو انغلاق، بقدر ما كانت سبيلاً من سبل المشاركة والإضافة والابتكار؛ وهذا هو المحك في أصول التثاقف والتلاقي بين الثقافات، وهو نفسه الفاصل الحقيقي بين ثقافة حية وغيرها ميتة.

من حقنا أن نفترض ـ على سبيل الجدل ـ ماذا لو كانت ثقافتنا تصادمية أو انطلقت من الصراع مع بقية الثقافات، كما اتهمها أدعياء التنظير الثقافي؟

لو حدث هذا لأغلقت أبوابها على أبنائها، فلم تعرف الدخيل والمعرب، ولما أخذت وأعطت في كل فروع العلم والمعرفة التي تجاوزت منطوق التخصص إلى إطار الموسوعية الفضفاضة، كما تجاوزت إيثار لغة بعينها إلى كل لغات المرحلة بين وسيطة مثل السريانية، وبين لغات أصلية لها أرصدتها التي تضرب في العمق الثقافي على طريقة اليونانية والهندية والفارسية.

لو حدث هذا ـ جدلاً ـ لما استمرت تلك الثقافة على مدار حقب التاريخ تنشر علومها بالعربية، وتشيع مصطلحات علمائها وأفكارهم عبر جامعات أوربا في عصور الظلام، حيث بدت قادرة على العطاء بلا حدود أو حواجز؛ قدرتها على الأخذ والتبادل دون تعصب أو تشنج تحت أي من الظروف؛ الأمر الذي بدت تجلياته أكثر ظهوراً من خلال أمرَيْن:

ترجمة كتاب الشعر، وكتاب الخطابة لأرسطو بقدر ما أتيح للعرب من

آليات ومفاهيم اصطلاحية في مستوى الترجمة بما يتسق وأنماط الإبداع لدى شعرائهم التي اختلفت في طبيعتها النوعية عن مواد الإبداع في الشعر المسرحي اليوناني.

والثاني في ذلك الاندفاع إلى المشاركة في صناعة المنتج الثقافي، دون نظر في طبيعة المَوْلد بقدر التحول إلى طبيعة النشأة والتكوين، حتى ذابت الحدود الفاصلة بين الأجناس والأديان تحت مظلة القبول والتسامح في الفكر الإسلامي، فكانت إسهامات الرازي والبخاري والجرجاني وغيرهم من أبناء وسط آسيا موازية لإبداعات لشعراء العربية الأقحاح، وكان قبول ثقافتنا لجهود المسلمين دون امتهان لعالم، أو تحقير لمنتج ثقافي تحت أي من مقومات الاضطهاد أو العنصرية، أو التفرقة، أو الاستعلاء.

من هنا يأتي البحث في مستقبل الحوار بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات، باعتبارها مؤسِّسة لهذا الاتجاه، امتلكت مفاتيحه، و تمكنت من أدواته، وتستطيع أن تصنع منه نسيجًا متجددًا يتسق مع إيقاع المرحلة، ويصدر عنها من جانب، ويستطيع التواصل والاستمرار وتجديد ذاته مستقبلاً من جانب آخر.

تبدأ آليات المنتج الثقافي في الظهور من خلال عدة اعتبارات أساسية :

١- إعادة قراءة واقع مجتمعاتنا الإسلامية بشفافية واقعية، بعيدًا عن الانزعاج أو المبالغة، وبعيدًا أيضًا عن المغالاة والمغالطة، ودخولاً هادئًا إلى دائرة الحيدة والموضوعية، بما يستدعى وجوب تصحيح صورة المسلمين ـ وليس الإسلام ـ لدى الآخر، مع رفض اعتداءات الآخر على حقوق الإنسان تحت زعم نشر الحرية، أو فرض رياح التغيير بالقوة، أو تحويلها إلى عواصف عاتية تستهدف اقتلاع الجذور، أو المساس بالأصول، أو تهميش القوميات، أو التلاعب بالمقدرات والكيانات، أو الاستخفاف بالثوابت والمقدسات .. وهنا يجب احترام وحدة النوع والتعددية في آن واحد؛ انطلاقًا من دعم مفهوم «المشترك الإنساني» وتقدير عطاءاته

الحقيقية في التاريخ البشري، وانتهاء إلى قبول التعددية التي تتم عن وعي وفهم وقبول لكل ما ينتجه الآخر من باب التبادل النفعي من ناحية، والتلاقي الإنساني المطلق من ناحية أخرى.

٢- التفكير العلمي الجاد في ثنائية التقدم والتخلف، وفي توزيع الأمر جغرافيًا بين الشمال والجنوب، وزمنيًا بين الواقع وتوقعات المستقبل، الأمر الذي يتطلب توظيف الجهود في اتجاه واحد لا بديل له طبقًا لمعيارية محورية تنطلق من ثلاث منطلقات :

- إعادة قراءة الماضي، لا من منظور التباهي والتفاخر، ولا من بواعث الاستعلاء أو الركون إليه، بل من منطلق بناء جسور الثقة بالذات والأدوات والقدرات، واتخاذه ـ أي الماضي ـ متكأ للحضور القومي إيمانًا بالتواصل والاستمرارية، والتحول من ثقافة القول إلى ثقافة الفعل والإنجاز، ومن ثقافة التذكُّر إلى ثقافة الإفادة والاعتبار بالدرس الواعي والمفصل في بناء رؤى المستقبل.
- المقاومة الهادئة والمتأنية لحالة التردِّي التي تعانيها الأمة، مع الاعتراف بطبيعة كبْوَتها الطارئة، باعتبارها مرحلة عارضة وجملة اعتراضية لا تقف حائلاً دون حركة الاندفاع إلى الأمام، ولا تدعوها للتراجع أو الانكسار، لاسيما إذا قيست أزمة الفترة بكثير من الأزمات التي شهدتها الأمة وقاومتها، وانتصرت خلالها على كل خصومها، من لدن الثورات التدميرية في حقب التاريخ من الزنج والقرامطة، إلى تدفُّق جحافل التتار، إلى تدفُّع موجات الصليبيين، إلى الاستعمار الأوربي الشرس في القرنين التاسع عشر وأوائل العشرين، إلى حركات التحرر الوطني والقومي التي أعادت للثقافة العربية هيبتها وصلابتها وقوتها دون انقطاع أو تراجع أمام كل محاولات التغريب في الأرض العربية.
- وضع الشروط والمعايير العلمية المحايدة في قراءة الموروث، لا من قبيل

السيطرة أو الهيمنة أو حتى الاستكانة أمام مشاهد الماضي عطاءاته، بل من قبيل صناعة الحوار معه، والجدل من خلاله، والإضافة إليه، والمناقشة حوله، والاستفسار عن أسراره ومكوناته، قصدًا - بذلك - إلى إحيائه من منظور عصري متجدد يقربه إلى النشء، ويؤسس لمفاهيمه دون اغتراب أو عزلة؛ الأمر الذي يتطلب جهودًا قومية متكاتفة تنهض على أساس من المرونة في مواجهة تحديات العصر، وتتجاوز مسألة الانشطار الفكري بين منطق المعاصرة والإحياء، فكلاهما ينتهي إلى هدف واحد، منطلقُه الإيمان بحرية الفكر الذي تقبل تعرُّب الشعوب والأمم، ودخولها عن رضا وقناعة في عباءة الثقافة الإسلامية بكل ما ارتدته من أثواب الرحابة والعمق والاتساع والمرونة.

٣- الاهتداء بحقبة السلف الصالح في سياق التأليف والإبداع في كل العلوم الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية والإنسانية، إلى جانب ما أحرزته في العلوم الطبيعية والتجريبية، وما يلفها جميعًا من ذلك التداخل الرائع بين قضايا العلم والإيمان، دون اعتبار الدين حجر عثرة في سبيل التقدم، والاندفاع تجاه الأفضل؛ خاصة إذا تطلب هذا الدين إعمال العقل من خلال التفكُّر والتدبر في أسرار الكون، والاندفاع إلى احترام السمو الأخلاقي والوجداني البشري تحت مظلة حقوق الإنسان في الحياة والحرية والمساواة والإخاء، وهي أيضًا حريته في اختيار العقيدة، وإقامة العبادات والشعائر في حرية تامة، دون خوف أو قهر أو استعباد.

٤- تحديد مفهوم الإصلاح وبواعثه وآلياته في مساق إحياء علوم الدين والدنيا، دون انحياز أو تعصُّب، فمن حق كل شعب وكل أمة أن تأخذ بما تراه صالحًا لبناء أجيالها، ورسم سياسة حياتها واقعًا ومستقبلاً في ظل شراكة حضارية واقعية وواعية صنعها الفكر الإسلامي وأصَّل لها في اعترافه بالآخر، واحترام الحدود الفاصلة بين البشر حسب مبلغهم من

العلم والتقوى، وهو ما انتهي إلى احترام المشترك الإصلاحي في تاريخ الأمم، والإفادة من تجارب الآخر مكانًا وزمانًا؛ فمن حيث المكان يمكن الإفادة من تجارب الأمم الناهضة من قصة كفاح اليابان أو الصين وغيرهما، ومن حيث الزمان يمكننا الإفادة من ثراء التجارب التاريخية التي صمدت فيها أمة الثقافة وثقافة الأمة، فلم تتحول يومًا إلى ثقافة تاريخية ولا رموز غامضة ولا طلاسم مستغلقة بقدر ما ضمنته من المرونة والتجديد في كل تيارات الفكر ومناحيه، وعلى رأسه كان تجديد الفكر الديني، وتجديد الخطاب الإنساني بما يتسق وإيقاع حركة التاريخ مع توالي الحقب، وتلاحق الأحداث، وتراكم المعارف، وتوالي التحولات الإنسانية.

٥- عدم التنازل أو التوقف عند حد القول في برامج الإصلاح، مع محاولة تجاوز الجدل حولها باعتبارها ضرورة مرحلية، تستوجب الأخذ بالأسباب، وتتجاوز حد الانشغال بالتفاصيل إلى قراءة أسس التفاعل مع دراسة تداعياته عبر مشروعات التحديث والتغريب، والهوية الحضارية والثقافية، وتجاوز إرباك المصطلح وضبابية الرؤية إلى بناء مواجهة صدمة الحداثة بقوة وجسارة دون خوف على الهوية القومية أو الدينية أو الشخصية إذا أخذنا بمبدأ الحصانة والقدرة على المواجهة، أو استطعنا تحويل الحداثة لخدمة التراث وحمايته دون تعميق هوة الخلاف بين المنطوق الحداثي والتراثي في صورة طرفَيْ خصومة، إذ الصحيح في الخروج من أزمة الازدواجية صناعة المصالحة الثقافية بين القديم والعصري بتحديث الموروث مقابل تأصيل المستحدث، وهذا يكفي لصناعة مستقبل أكثر وضوحًا.

٦- الشجاعة في مواجهة الذات قراءةً ونقدًا وتحليلاً، وإعادة النظر في صياغة مشروع الخطاب العربي العصري بكل أبعاده : التربوية والأخلاقية والشبابية والإعلامية والتثقيفية والدينية، مع ضمان الحد

الأمثل من التواصل المعرفي والتجانس الفكري، والتلاقي الثقافي بين الأجيال، وهو ما لا يتأكد إلا من خلال تعزيز صيغ الحوار، وتعظيم دورها في قراءة التراث من داخله وخارجه ـ على السواء ـ عبر مناهجنا والإفادة من مناهج الآخر، في سياق النسبي وتجاوز المطلق، مع احترام الثوابت في سياق المتغير، وتجاوز التخوُّف من القفزة المعرفية والطفرة الثقافية التي قد تمثل ثورة أو مدخلاً جاداً إلى الاندماج في منظومة التحديث والتطوير الكبرى التي تعتبر سمة من قسمات المرحلة ومتطلباتها، وليست من قبيل الترف و الوجاهة.

٧- الأخذ بمنطق التحليل المنهجي، وتجاهل عشوائية الفكر، أو الاندفاع الجاد من خلال إرادة التغيير في ظل ممارسات إنسانية واعية، تحترم منظومة القيم، وتتحول إلى ثقافة جماهيرية ومجتمعية أكثر منها ثقافة نخبوية أو سلطوية، لعلها تحقق طموحات المستقبل، وتبني مرتكزاته الأساسية في ظل خطوط التنمية وتحقيق العدالة، واستكمال التحرر الوطني والقومي في الانفلات من الهيمنة والتبعية، وتنمية قضية التجديد الحضاري، دون استشعار الدونية أو مركب النقص لمجرد التخلف ـ مؤقتًا ـ عن مواكبة أحدث تيارات العصر المتسارعة، ولا ننسى حاجتنا الماسة ـ هنا ـ إلى الانخراط الفعلي في منظومة التحديث أخذاً بآلياته، وفهمًا لتوجهاته وأبعاده انشغالاً بالانخراط في قاطرة التنمية البشرية، ودعمًا لاحترام الثوابت والأصول واحترامًا للخصوصية الثقافية لكل أمة أيًا كانت طبيعة ثقافتها التي تظل جزءًا لا يتجزأ من شخصيتها.

٨- تحديد موقف ثقافتنا من شروط التغيير، بدءًا من إمكانية تفعيله، وتحويله إلى مشروع حقيقي، وإنجاز فعلي على أرض الواقع، نمتلك آلياته ومداخله ليقود إلى مستقبل أفضل، شريطة أن ينطلق من الداخل مستهدفًا ـ أساسًا ـ تعميق فكرنا العربي، مع احترام الوعي الجمعي،

وتجـاوز منطق التـشـرذم والانقـسـام والتناقض والمزايدة، إلى مـحـاولة تشـخيص الحـالة العربيـة الإسـلامـيـة لا من قـبيل التبـاكي أو الاكتـفـاء بالرصـد والعـرض، بل الانطلاق إلى طرح خطط زمنيـة للإصـلاح الحقيقي، وصياغة التحولات والبرامج الجادة في ظل احترام المرجعية، وصحة الرهان على إنجاح الهاجس القومي، وإعادة النظر في ترتيبات البنية الثقافية، وتعزيز فعاليات ثقافة المعرفة والانتماء والتطوع، مع ثقافة المنهج والحوار وتجديد عطاء العقل العربي، مع تكامل المرحلة والتكامل المؤسسي في رسم خطط المستقبل من خلال رؤى وأفكار ومناهج متجانسة.

٩- الشجاعة في مواجهة الاتهام والافتراءات الباطلة، ومنها - مثلاً - ما أُلصق بالإسلام من صور الإرهاب أو التخلف، وهو ما ليس منه بالفعل - بل هو منها براء - إذا أخذنا بموقعنا كأمة قادرة على البقاء، لأنها لم تخرج من دائرة التاريخ، ولن تخرج منه تحت أي من الضغوط، بقدر ما تخضع لقوانينه التي تستطيع التعامل معهابمرونة واقتدار، إذا أجادت إعادة اكتشاف مناهج التغيير وحدوده ومتطلباته، والعودة إلى قراءة الذات، وتكريم الإنجاز الإنساني، وإدانة ثقافة التخويف والترويع والإرهاب التي ينتهجها الآخر بلا مبررات إلا مجرد استعراض القوة، أو محاولة وتغيير موازين الحق والباطل، أو نشر ثقافة القتل والإبادة والإفساد والتخريب والتدمير دون حساب لتأطير محورَيِّ الخير والشر إلا من قبيل الأهواء والأمزجة، والاندفاعات الحادة إلى الغزو الثقافي الهادف - أحيانًا - إلى إسقاط ثقافتنا من الحسبان، أو فرض نموذج مختلف أو برنامج قهري أو ما يشبه ذلك من إيهامنا بما ليس فينا من تعصُّب أو تخلُّف؛ الأمر الذي يتطلب - بدوره - وتأمل المقاصد العليا من وجوب العودة إلى كلمة سواء لإعادة جسور التلاقي التي أسَّس لها الإسلام منذ حوَّل العرب من قبائل إلى أمة تمتلك المفاتيح الحاكمة للإصلاح، وصحة التوجيه دون

تناقضات بين ما هو وطني وقومي وإنساني وإسلامي إذا تجاوزنا النعرة القُطْرية التي شكلتها الهيمنة الاستعمارية تمهيدًا لاحتلال الأرض والفكر تحت دعوى الحرية الزائفة،أو التجمُّل المفتعل أمام المستضعفين والأقوياء بنشر الديمقراطية في مجتمع كان يعرف جيدًا مقومات النهضة وصناعتها عبر منطلقاتها الجمعية والعلمية معرفته بمفاتيح المستقبل ومواجهة التحديات، والمشاركة في التنافسية، وإدراك الطبيعة النوعية للحدود الفاصلة بين الحرية والفوضى، بين الحوار والصراع، بين الوحدة والتعددية، خروجًا من ذلك التيه العميق برؤية وموقف وخطة عمل تعزز دور الأديان، دون مسخ للحقائق، أو تشويه للثوابت، أو التشويش حول الحقائق، بقدر

ما هو مطلوب من تعظيم ثقافة الإنتاج، وعمق المنهج وتحديد المصطلح والمفاهيم بعيدًا عن الانحياز أو التزييف، واحترامًا لضوابط العقل الصحيح الذي يعيد إلى الأمور ما قد يبدو معوجًا منها في اتجاه مضاد.

١٠- الاحتكام إلى التاريخ والواقع، لا باعتبار التاريخ ماضيًا مقطوعًا؛ بل باعتباره مدخلاً وجسرًا يتواصل مع الواقع، وبالتالي فهو بوابة المستقبل بما تفتحه من متطلب الثقة بعيدًا عن استمرار روح العداء والمؤامرة، أو تضخيم ساحة الخوف من خطط الآخر التي يمكن مواجهتها بحصانة الثقافة ومنعتها، إلى جانب تقويتها ـ توفيقًا لا تلفيقًا ـ دون تصادم أو عدوان أو انحسار في ظل نظرة أحادية تعجز ـ غالبًا ـ عن تحقيق التقدم.

(٣) في إطار العام والمطلق

تحتاج النظرة المستقبلية في حوار الثقافات إلى الدعوة المفتوحة أمام صيغ الفكر وصوره، إلى محاولة البحث عن القاعدة المشتركة على المستوى الإنساني، لاتخاذها مدخلاً لتخطِّي الخلافات والصراعات المزعومة ـ أو المصطنعة ـ لتحقيق أهداف وغايات مرسومة وموجَّهة؛ ذلك أن الصحيح في صياغة برامج المستقبل أن يبدأ من احترام موجب القيم الإنسانية التي بثَّها الإسلام ـ مثلاً ـ بين مشارق الأرض ومغاربها حتى صارت الغلبة لفكره عبر حركَتَي التعريب والتعرُّب، حين عزَّز قيم الإنسان الإيجابية، مع الإفادة من كل دروس التفاعل مع الآخر دون قهر له، ولا التماهي معه؛ بقدر ما هو ممكن من صناعة الجسر الثقافي الذي يسهم في تأكيد التثاقف والتواصل، ويؤكد وجود مساحة من تلاقي عقول الشرق والغرب بأمانة وموضوعية تضمن دعم وتأصيل قيم الحق والجمال، والخير والعدل والمساواة والتآخي بين كل ثقافات بني الإنسان.

تحتاج النظرة تجدُّد القراءة لأسس الحوار بين الشرق والغرب، وتقريب الفوارق بين الشمال والجنوب تحت مظلة دراسة المشترك حين يحترم الهوية، ويعظم منظومة القيم، ويضمن للثقافات الخاصة حقوقها في البقاء، مع احترام المشاركة في ملتقى الثقافات لوضع التصورات في أطرها الإنسانية العامة، وتحديد الآليات والبرامج التي لا ينفرد نمط بعينه بطرحها في غير شراكة الآخرين. وهنا يلزم التحلِّي بالموضوعية، وإعمال العقل المتفتح في استيعاب إنجازات الآخر، وتبادل المصالح معه، وحتى صناعة المصالحة من خلاله.

من الضروري في هذا المساق التنبه والنبيه إلى حقيقة الدور الريادي للمنطقة العربية في صناعة ذلك المشترك، بحكم طبيعة الموقع والتاريخ، وبحكم قدرتها على التحدُّث مع الغرب وإليه بلغة واضحة، مما يستوجب إعدادًا إعلامي عربيًا مشتركًا، وبمعنى أدق لعلنا نحتاج إلى صناعة المشترك العربي أساسًا كما كان حاله على مدار حقب التاريخ، مبنيًا على تقارب

الرؤى، وتجانس الأفكار من ناحية، وعلى أصول لغوية وعقلية ومصيرية من ناحية أخرى، حيث كانت كذلك الحضارة الإسلامية منذ فتحت نوافذها على العالم لتراه من رؤية كلية متجانسة من قبيل تحقيق التعارف بين الشعوب، فهي حضارة العلم وثقافة القراءة والتفكر والتدبر، وهي حضارة التلاقي والجدل بالحسنى، وهي ثقافة احترام الشعور الإنساني، لاسيما حين يحترم الدين الحنيف كل الكتب والرسالات السماوية جاعلاً منها شرطًا أساسيًا لاكتمال أركان الإيمان.

الاعتراف بأن من يثير قضية صراع الحضارات حاليًا هو صاحب منفعة في تلك الصيحة التي يروِّج لها المغرضون في الغرب، وهي تدفع دفعًا إلى صناعة المؤامرة، أو حتى محاولة تبرير روح التآمر وغرس الكراهية بين الشعوب؛ الأمر الذي يستوجب تجاهل مثل هذه الأصوات، والانصراف إلى الجادة، والتوسع في حيِّز العلاقات الإنسانية، والاتجاه شرقًا للتوسع في جسور الفكر والتوسع في تأصيل الدور الثقافي والعمق الحضاري من هذا المنظور الإنساني الذي يجمعه ضمير العالم وحوار الإنسان مع أخيه الإنسان.

لقد تعددت صيغ التلاقي عبر حضارات الشرق القديم وحوض المتوسط، وامتدت الصيغ إلى أفريقيا المسلمة، ومصر، والأندلس والصين، وكان في ساحات الاتساع ما قارب بين اليونان والشرق، ووحَّد بين أساطين الفرس والعرب، وتحققت - يومئذ - القيم المشتركة العليا بين الأجناس والأديان دون جناية على صور المخالفة؛ الأمر الذي يدعو إلى شجاعة المراجعة وجسارة القراءة المنطقية للتاريخ من هذا المنظور الإنساني المفتوح.

وانطلاقًا من احترام هذا الحق، وتعزيزًا لمنطق التعددية يظل واقع ثقافتنا الإسلامية داعيًا - بدوره - إلى شيئين :

أولهما : وجوب إقامة جسور تعاون مع الآخر، بشرط اعترافه بحقنا التاريخي في نشر الثقافة والفكر، ضمانًا للإنصاف وتفاديًا للظلم، أو التجني على موقع أمة من خريطة العالم.

الثاني: وجوب الاعتراف بالأثر الإسلامي الفعلي في صناعة المشترك وصياغته بشكل راقٍ بين شعوب الأرض، بدليل صناعة تلك الثقافة على أيدي غير العرب من حيث المولد، ولكنهم كانوا نشأً حضاريًا إسلاميًا يعكس الصورة الحضارية المشرقة لهذا الدين.

ثم يبقى من الضروري الاهتمام بمستقبل العالم الإسلامي الذي أصبح مطالبًا بتصحيح صورته لدى الغرب، ومن السهل أن يعيدها إلى إشراقة ماضيها في ظل كل دوائر ذلك المشترك القيمي والإنساني والديني والثقافي؛ مع ضرورة تغييب الخواطر البشعة حول الزعم بالخطر الإسلامي الذي يروج له بعض الإعلام الغربي على حساب تجاهل الحقائق المنوطة بتاريخ الأمة التي رسخت كل مفاهيم الخطاب الإنساني الفاعل مع الآخر، منذ خاطبت فيه العقل والوجدان وأكدت عمق النزعة الإنسانية التي جمعت بين كل الحضارات والديانات، وأظهرت من مساحات التسامح وصوره ما أسقط الحدود الفاصلة بين الجنسيات والمذاهب والمعتقدات.

(٤) الاتجاه نحو المستقبل ومستوى الرؤية

لعل الحوار المنهجي ينتهي بنا إلى الخلاص من تداخل دلالات المصطلح، ومحاولة الخروج من دائرة الفوضى، وخلط الأوراق بالوصول إلى طبيعة الحدود الفاصلة بين مفاهيم الصراع والتصادمية، وصيغ الحوار والبحث عن المناطق الآمنة في خريطة الفكر الإنساني.

ولعل الاندفاع المنهجي أيضًا نحو رؤية المستقبل يبدأ : من وضوح الرؤية، وتجدد قراءة ذلك المشترك الثقافي في بعده الإنساني الرفيع بين القبول، والتأثير والتأثر، وبين محاور الأخذ والعطاء، إلى احترام الانفتاح الذهني، والدعوة إلى إعمال العقل والفكر في صورة إنسانية رحبة؛ محورها الحيدة والموضوعية، وأساسها سلامة المنهج، وصحة النتائج، وعدم الافتئات على التاريخ أو تزييف حقائقه وتفسيراته.

مثل هذا الاندفاع يظل ضمانًا لصحة مسار الأمة من خلال قياداتها الفكرية الواعية، بعيدًا عن التخبط والعشوائية والارتجال، إذا أردنا أن نحقق ـ بالفعل ـ خطوة جادة نحو بناء مستقبل أفضل، وهو ما يمكن إيجازه في عدة مسائل ومقترحات منهجية منها :

- طرح صورة من المتوقع بناء على الشفافية في قراءة معطيات الواقع دون انحياز أو جور، وإعادة النظر في منظومة تاريخ الأمة، لا بوصفها مجرد ماضٍ نفتخر به، ولكن باعتبارها عاملاً مؤسسًا لإيجابيات الواقع وآليات المستقبل، وبناء الثقة بالذات، فالتواصل الزمني هنا يمثل جزءًا لا يكاد يتجزأ من التواصل الإنساني في كل صوره وأشكاله ومستوياته وأنماطه.
- موضوعية الرؤية في سياق صحة الحوار النقدي، بما يسمح بمحاسبة الذات ومراجعة النفس، دون جلد أو تقريع بما لا يضيف جديدًا سوى التراجع والتدهور، وزيادة مساحة الانكسار والانهزامية، ويجيب تعزيز الأمر بقبول التعدُّدية، وإفساح الصدر لمقولات الآخر قبولاً أو رفضًا

ومناقشة، والاتجاه نحو تعديل ما نستشعره من احتمال الخطأ أو وقوع التجاوز، أو عدم القبول بالشكل المناسب.

- الإصرار على رؤية المستقبل من منظور منهجي علمي عربي رحب، وإسلامي أكثر رحابة، نتجاوز فيه مراحل اليأس والقنوط التي قد تمليها مؤشرات الأحداث ـ أحيانًا ـ فالتاريخ ليس ملكًا لأحد، والأصول لا تذهب سُدًى إذا ما حدث التواصل والتلاقي بمنأى عن التباهي بالذات، أو التماهي في الآخر، ففي وسطية الفكر ما يضمن سلامته دون تطرُّف هنا أو هناك، وفي غيبة التطرف يظل كل شيء مفهومًا وواضحًا وقابلاً للنقاش والإضافة والابتكار، وفي غيبته ـ أيضًا ـ تبين الحقائق ويتكشف جوهر الأشياء.
- بناء مشروع عربي نهضوي؛ منطلقاته الكبرى هي مرتكزات الثقافة والأصول الثابتة دون تفريط أو تهاون في محاولة النيل من أي منها باعتبارها تراثًا إنسانيًا له أبعاده وآثاره ومقوماته وضوابطه، مع شمولية الرؤية في تحقيق التوحُّد الاقتصادي والتكامل المعرفي، وإتاحة الفرصة لأجيال المستقبل العربي في إعادة صياغة علاقات الواقع العربي العربي من خلال حرية الفكر من جانب، وتشجيع التميُّز والتفوق والابتكار من جانب ثانٍ، مع الأخذ بآليات المعرفة المعاصرة من جانب ثالث.
- ثقافة الاعتراف والصراحة في إدراك حجم التحديات المرحلية؛ مع تهويل شأنها، مع تحديد الآليات المطلوبة من خلال أبناء الأمة، دون فرض أو تبعية، وعندها يتم التلاقي والتكامل الحقيقي بين العربي والإسلامي، بما يمكن أن تنهض به المؤسسات المتعددة التي تتبنى قضايا الفكر ودراسة منهجياته، بعيدًا عن طبيعة التوجُّهات السياسية للحكام، وانحيازًا إلى تحقيق طموحات الشعوب وآمالها؛ الأمر الذي يبدو جليًا في إمكانية توظيف التكنولوجيا في خدمة الفكر الإسلامي؛ على غرار ما يقع من خدمة غيره، مع مراعاة سرعة التحرُّك في هذا الاتجاه، حتى لا يظل

المقترح حبيس الأدراج، أو تذهب نتائجه المتوقعة أدراج الرياح !!

- الاتجاه إلى بنية المشروعات المستقبلية التي تفي بتحقيق بعض طموحات أبناء الأمة ممن آن لهم المشاركة في بناء مجتمع المعرفة، وبداية الخروج من شرنقة الاستهلاك إلى دائرة المنتج الثقافي والمنتج العلمي، بما يسهل أمامهم مهمة اللحاق بركب التقدم، أو يختزل المسافة بين المتقدم والمتخلف، أو ينبئ بإمكانية البحث عن حلول فاعلة لمشكلات الجيل، بناء على تواصل الخبرات وتراكم التجارب الإنسانية التي ربما لا ندرك أبعاد دورها الحقيقي في نجاح المشروع بشكل جاد إلا من خلال الخطوات الجادة والممارسة الفعلية لأفضل ما هو متوقع منها.

(٥) تقويم ومكاشفة

والتقويم هنا ينقسم عبر مسافتين : إحداهما قراءة الواقع التي تكررت مرارًا عن قصد، وهذه عرضنا لكثير من ملامحها وقسماتها وتداعياتها. وترتهن المسافة الثانية بتحليل الإيجابيات المتوقعة من المشروع المستقبلي، والتي يمكن أن نحلل من بينها عدة نماذج نرصد منها على سبيل الذكر والتأكيد إلى حد التكرار أيضًا :

١- تعزيز دراسة المشترك الإنساني بإدخاله في دائرة الدرس والتحليل، واعتباره مدخلاً هادئًا إلى التصالح مع النفس ومع الآخر، وهو التصالح المطلوب بين أبناء الأمة تجاوزًا للفجوات الفكرية المصطنعة، أو الاتجاهات المتناحرة ضمانًا لصحة التوجُّه إلى طريق التنمية البشرية في صورتها الصحيحة البناءة حيث تحترم الفكر وحرية الإبداع احترامها لمنظومة القيم وصناعة جسور التواصل، ومقومات المد بين السابق واللاحق.

٢- تفعيل قنوات الفكر وضمان الرحابة الهادية إلى إمكانية الانفتاح على كل اجتهادات المفكر الإسلامي، في سياق مناهج التنوير والمعاصرة التي تستدعى الهدوء والرزانة والمراجعة مع تأمل الأشياء بعيدًا عن العصبية والتشنُّجات، وبعيدًا ـ أيضًا ـ عن عدم الوعي الكامل بطبيعة الطرق الملتوية بين شعاب ومنحنيات، مما قد يدعو إلى إيثار الغموض أو التوقف في مفترق الطرق، على نحو ما يراد بالأمة ـ أحيانًا ـ ككيان، أو بالثقافة كهوية، أو بالتاريخ كأصلٍ لها.

٣- تلافي صيغ الانقسام المجتمعي أو الانشطار الذاتي، والعودة إلى تأصيل منطوق رحابة الفكر المنهجي في قراءة المستقبل؛ والوعي المناسب بضرورة تسخير عصر المعلومات في خدمة الفكر الإسلامي المتهم دائمًا بلا مبرر، وآن له أن يحقق الرد الفعلي على كل الافتراءات.

٤- صناعة مشروع التحديث والإصلاح مًحليًا، لاسيما إذا امتلكنا إرادة التغيير الكافية لإنجازه، والآليات المناسبة للإقدام على مراحله الأولى؛ بدءًا من مواجهة صدمة الحداثة بتأصيل عطائها وتحديث موروثنا أمامها، إلى صناعة المزاوجة الهادئة بين ذلك الموروث والمستحدث، دون تراجع لأي منهما على حساب مسيرة نواميس الكون، أو اجتهادات الخلف استكمالاً لما صنعه السلف الصالح.

٥- تفعيل التكامل المؤسَّسي في صناعة قنوات المعرفة، وبداية إنتاج الثقافة، ومواجهة التحديات، وتقوية الجسر الثقافي مع الآخر، مع سرعة الاتجاه إلى ثقافة الفعل بجسارة وقوة، تتجاوز فيها حد التخوُّف من النتائج التي لا أحسبنا نتوقع أسوأ منها في ظل حالة التردي والضعف التي حلت بنا، مع تجاوز حالة الخنوع والإحباط، والانتصار على منظور الانهزامية والتخاذل، وتجاوز مرحلة افتقاد الثقة في الذات،أو في منطوق التاريخ.

أما السلبيات المتوقعة فلعلنا نرصد منها ما يستوجب التعرف عليه من باب التخوُّف أحيانًا، والتراجع أمام باب الإصلاح في معظم الأحوال، بدءًا في ذلك من احترام حقنا في الخوف على الهوية من أن تمس، ووجوب الحذر من اندفاعات رياح التغيير إلى حيث مقاصد التهميش أو المساس بالقوميات، أو الكيانات التاريخية.

من حقنا التعبير عن انزعاجنا المؤقت أمام المتغير، ولكن الإفاقة واجبة في سياق القدرة على الاستيعاب، وسرعة التحول من دور التلقي إلى دور المرسل، ومن دور المستهلك إلى المنتج دون تقاعس أو تواكل أو تخاذل أو انحسار.

ومن حقنا أن تهتز الرؤية ـ مؤقتًا ـ في شكل ضبابي أمام مرجعيات التغيير، على ألا يعقبها ما نخشاه من التراخي في الانطلاق إلى ثقافة الإنتاج، وتجاوز الخطابية والمزايدة وضجيج الحوار إلى حد الصراخ العويل، فالبديل أوفق وأولى في التحول إلى منظومة العمل والإنجاز قبل أي اعتبار آخر.

وعلينا ولنا - أخيرًا - ألا نتراجع عن مسئولية تحليل الخطاب المعاصر من خلال دراسات جديدة، تضمن توصيل رسالة فكرنا الحقيقي إلى الآخر، وإلى النشء ضمانًا للتواصل والتلاقي والاستمرارية بشفافية ووضوح وصحة المرجعية، بما يؤسس لرؤية جديدة على كل المستويات التربوية والفكرية والإنسانية.

الحوار في القرآن والسنة: أسسه وأهدافه

كتبه:
د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي
جامعة القصيم - قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
- عنيزة -

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

(ملخص بحث)

مقدمة: من دواعي تعزيز ثقافة الحوار وترشيدها بنور الكتاب والسنة:

١- الانفتاح الكبير بين شعوب العالم، ودياناته، وثقافاته.

٢- الحملة الشعواء الموجهة ضد الإسلام ودعاته ومؤسساته.

٣- تصدر غير المؤهلين، أحياناً، لتمثيل الإسلام في المحافل، ووسائل الإعلام.

٤- الاستفادة من التسهيلات التقنية والقانونية المتاحة نسبياً، لتبليغ الإسلام.

تعريف الحوار وحقيقته:

الحوار في اللغة: قال ابن منظور: (الحور: الرجوع عن الشيء وإلى شيء...والمحاورة: المجاوبة.والتحاور: التجاوب) لسان العرب (٣/٣٨٣).

وقال الراغب: (والمحاورة والحوار: المرادّة في الكلام.ومنه التحاور.قال تعالى:والله يسمع تحاوركما)مفردات القرءان (١٣٥).

الحوار في الاصطلاح: لفظ (الحوار) مصطلح حادث، لا يحمل حقيقة شرعية تزيد على حقيقته اللغوية، بل ولا يحمل دلالة قانونية مستقرة.

حقيقة الحوار: الحوار هو وسيلة الدعوة، وأداة البيان، وإقامة الحجة.ومن صوره المطابقة لحقيقته، التي تحمل معنى المفاعلة من طرفين في القرءان الكريم: (المجادلة) و (المحاجة). وحيث (لا مشاحة في الاصطلاح) فالحوار الشرعي نوعان:

الأول: حوار الدعوة: وهو وظيفة المرسلين، وخلفائهم من العلماء الربانيين، والدعاة الناصحين، وهو مشروع الأمة الإسلامية، وعنوان خيريتها

على سائر الأمم.

الثاني: حوار السياسة الشرعية: وهو ما تفرضه حركة الأمة الإسلامية، وتمليه طبيعة التعايش بين البشر، بحكم الجوار والمصالح المتبادلة.وهذا النوع من الحوار والمفاوضات والمعاهدات يوكل إلى أولي الأمر، وأهل الحل والعقد، وتضبطه القواعد العامة في الشريعة، وتقدير المصالح والمفاسد.

منزلة الحوار في القرءان الكريم والسنة النبوية:

حفل القرءان الكريم بالعديد من المواقف الحوارية، التي بمعنى المراجعة والمرادة في الكلام، بلغت، كما أحصاها الباحث، قرابة مائةٍ وعشرين موقفاً حوارياً، شغلت نحو ألف آية من كتاب الله، أي ما يعادل سدس آي القرءان.كما أن السنة النبوية عامرة بالمواقف الحوارية الثرة، والمناظرات المؤثرة.

أسس الحوار:

أولاً : الإخلاص لله، والتجرد من الهوى وحظوظ النفس.

ثانياً: العلم: والعلم علمان: علم بالشرع، وعلم بالواقع.

ثالثاً: العدل والإنصاف:الاحتكام إلى المعايير الشرعية والعقلية الصحيحة وقبولها.

رابعاً: الحكمة:.فينبغي أن يتصف المحاور بالروية، والأناة، وبعد النظر، ووضع الأمور في نصابها، وتوقيت الأشياء بأوقاتها.

خامساً: الموعظة الحسنة: النصح والتذكير بالعواقب.

سادساً: المجادلة بالتي هي أحسن: مقابلة الحجة بالحجة.

آداب الحوار: كثيرة منها:

١- مخاطبة المحاور بما يليق به.

٢- حسن الاستماع والإصغاء، والإقبال على المحاور، وعدم مقاطعته.

٣- التواضع للحق وقبوله، وعدم التمادي في الباطل.

٤- الاستعلام والتثبت قبل إصدار الأحكام.

٥- حسن العرض، واستعمال الأقيسة العقلية المقنعة.

أهداف الحوار:

أولاً : الدعوة إلى الله.

ثانياً: رد الشبهة، وتحصين المستمعين.

ثالثاً: المذاكرة والتبصر للوصول إلى الحق في المسائل المشتبهة.

رابعاً: امتصاص الحماس والانفعال.

صفحة أبيض

الحوار في القرءان والسنة: أسسه وأهدافه

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا.من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، القائل: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [**النمل**: ٧٦]وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ويبين لأهل الكتاب كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب ويعفو عن كثير، فدعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن.

أما بعــــد:

فقد أودع الله كتابه الكريم روائع البيان، وأصول المناظرة، وقواعد المحاجة.وآتى نبيه صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، والحكمة، وفصل الخطاب، فدعا إلى الله، وحاور، وناظر، وجادل، وباهل.وامتن الله على عباده بنعمة البيان، التي يتوصلون بها إلى مآربهم، ويعربون فيها عن مقاصدهم، فقال: ﴿**الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤**﴾ [**الرحمن**]، فتذرع أهل العلم والإيمان بآلة البيان لتبليغ دين الله، وكشف شبهات المغرضين والطاعنين، بالأدلة النقلية، والحجج العقلية، وقذفوا بالحق على الباطل فإذا هو زاهق.ولا شك أن من دواعي تعزيز ثقافة الحوار وترشيدها بنور الكتاب والسنة، ما يلي:

١- الانفتاح الكبير بين شعوب العالم، ودياناته، وثقافاته.

٢- الحملة الشعواء الموجهة ضد الإسلام ودعاته ومؤسساته.

٣- تصدر غير المؤهلين، أحياناً، لتمثيل الإسلام في المحافل، ووسائل الإعلام.

٤- الاستفادة من التسهيلات التقنية والقانونية المتاحة نسبياً، لتبليغ الإسلام.

ولا ريب أن في ديننا فسحة وسعة، تنافي التقوقع والانكماش، وتمكن

دعاة الإسلام من التقدم إلى العالم أجمع بخطاب متين، يتضمن دعوة المرسلين، إلى توحيد رب العالمين. ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [**الصف** : ٩].

تعريف الحوار وحقيقته:

الحوار في اللغة: قال ابن منظور: (الحور: الرجوع عن الشيء وإلى شيء...والمحاورة: المجاوبة.والتحاور: التجاوب) لسان العرب (٣/٣٨٣).

وقال الراغب: (والمحاورة والحوار: المرادّة في الكلام.ومنه التحاور.قال تعالى:والله يسمع تحاوركما)مفردات القرءان (١٣٥).

الحوار في الاصطلاح: لفظ (الحوار) مصطلح حادث، لا يحمل حقيقة شرعية تزيد على حقيقته اللغوية، بل ولا يحمل دلالة قانونية مستقرة تكشف عن أبعاد استعمالاته.يقول د.عبد العزيز التويجري: (مفهوم الحوار في الفكر السياسي والثقافي المعاصر، من المفاهيم الجديدة، حديثة العهد بالتداول.ولعل مما يدل على جدة هذا المفهوم وحداثته أن جميع المواثيق والعهود الدولية التي صدرت في الخمسين سنة الأخيرة، بعد إنشاء منظمة الأمم المتحدة، تخلو من الإشارة إلى لفظ الحوار) الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي.ص ٧.

حقيقة الحوار: الحوار هو وسيلة الدعوة، وأداة البيان، وإقامة الحجة.ومن صوره المطابقة لحقيقته، التي تحمل معنى المفاعلة من طرفين في القرءان الكريم: (المجادلة) و(المحاجة). وحيث (لا مشاحة في الاصطلاح) فالحوار الشرعي نوعان:

الأول: حوار الدعوة: وهو وظيفة المرسلين، وخلفائهم من العلماء الربانيين، والدعاة الناصحين، وهو مشروع الأمة الإسلامية، وعنوان خيريتها على سائر الأمم.ومضمون هذا الحوار (الكلمة السواء) التي دل عليها قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا**

نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. وأسلوبه هو ما دل عليه عموم قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وخصوص قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وترجمته العملية سيرته صلى الله عليه وسلم في دعوة أهل الكتاب؛ من يهود المدينة، ونصارى نجران، ومكاتباته لملوك الأرض، ثم طريقة السابقين الأولين من الصحابة والتابعين والسلف الصالح، كمحاورة جعفر بن إبي طالب، رضي الله عنه، وأصحابه للنجاشي وبطارقته، وهدي الصحابة، رضوان الله عليهم، في معاملة أهل البلاد المفتوحة، وأسلوب العلماء الراسخين في مخاطبة أهل الكتاب، ككتاب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى ملك قبرص.

فالحوار بهذا الاعتبار وعاء لوسائل الدعوة المشروعة، مثل: (المجادلة) و(المحاجة) و(المناظرة) و(الموعظة) و(البيان) و(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

الثاني: حوار السياسة الشرعية: وهو ما تفرضه حركة الأمة الإسلامية، وتمليه طبيعة التعايش بين البشر، بحكم الجوار والمصالح المتبادلة.وهذا النوع من الحوار والمفاوضات والمعاهدات يوكل إلى أولي الأمر، وأهل الحل والعقد، وتضبطه القواعد العامة في الشريعة، وتقدير المصالح والمفاسد.وقد رافق هذا اللون من حوار التعايش نشأة الدولة الإسلامية في المدينة فعقد النبي صلى الله عليه وسلم عهوداً مع يهود المدينة وأبرم صلح الحديبية مع كفار قريش.كما زخر الفقه الإسلامي، المؤسس على فقه الكتاب والسنة بتراث ضخم في مجال العلاقات الدولية بأهل الكتاب، ذميين كانوا، أو معاهدين، أو مستأمنين، أو حربيين.

منزلة الحوار في القرءان الكريم:

حفِل القرءان الكريم بالعديد من المواقف الحوارية، التي بمعنى المراجعة

والمرادّة في الكلام، بلغت، كما أحصاها الباحث، قرابة مائةٍ وعشرين موقفاً حوارياً، شغلت نحو ألف آية من كتاب الله، أي ما يعادل سدس آي القرءآن. (انظر الجدول المرفق). هذا، سوى الآيات الخطابية المصدرة بـ:(يا أيها الناس)، و(يا أهل الكتاب) و(يا أيها الذين آمنوا)، وسوى آيات المسائلة والمحاجة التي لا يعقبها جواب، وآيات الإخبار عن المقالات التي لا تتضمن مراجعة في الكلام، وإن كانت هذه جميعاً في الواقع تحمل طبيعة الحوار.ولو جرى حسبانها جميعاً لصار القرءان كله كتاب حوار.

وما ذاك، والله أعلم، إلا لأن الأثر الذي يتركه الحوار أبلغ في الإقناع، وأدعى في استفراغ ما لدى المحاوَر من شبهات، فلأجل ذلك كان لهذا الأسلوب تلك المنزلة الواسعة، ولكي ينسج على منواله أهل العلم والدعوة.

منزلة الحوار في السنة النبوية:

السنة النبوية عامرة بالمواقف الحوارية الثرة، والمناظرات المؤثرة.فصاحبها، عليه الصلاة والسلام بشر يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويعرض نفسه في المواسم، ويدعو كل من لقي.فلا غرو أن تمتلئ دواوين السنة والسيرة بهذا اللون من المأثورات مما سنعرض لأمثلة منه، في ثنايا هذا البحث، إن شاء الله.

أسس الحوار:

أولاً: الإخلاص لله، والتجرد من الهوى وحظوظ النفس:

قال تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**﴾ [**يوسف**: ١٠٨]. قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله، في مسائلها: (التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه) كتاب التوحيد: ١٦.

وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ [سبأ: ٤٦]. قال

الحافظ ابن كثير، رحمه الله: (أي تقوموا قياماً خالصاً لله، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً، (ثم تتفكروا) أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد صلى الله عليه وسلم، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك) تفسير القرءان العظيم:٦/٥٢٥.

وعلى هذا المهيع الرشيد سار أنبياء الله، فحكى الله عن نبيه شعيب قوله: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [**هود**: ٨٨]. قال الشافعي، رحمه الله: (ما ناظرت أحداً إلا وأحببت أن يظهر الحق على يديه، لعلمي أني أتبعه.وأخشى أن يظهر على يدي فلا يتبعني).

ثانياً: العلم:

قال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [**الزخرف**: ٨٦]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [**النساء**: ٨٣].

فيتعين أن يكون الحوار قائماً على العلم، لا الظن، ولا الخرص.قال تعالى ناعياً على صنف من المحاورين: ﴿**قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١٤٨].

والعلم علمان: علم بالشرع، وعلم بالواقع.ولا شك أن المحاور إذا استجمع النوعين صار لديه أهلية للنظر، وإصابة الحق.ومن فقدهما أو أحدهما، فربما أساء أكثر مما أحسن، وأفسد أكثر مما أصلح.وقد زخر التاريخ الإسلامي بنماذج رائعة من محاورات الراسخين في العلم، المحيطين بمقالات المخالفين، كما جرى لأبي بكر الباقلاني في سفارته لملك الروم، وكما وقع لشيخ الإسلام ابن تيمية في مناظراته مع المبتدعة، وكما صنع الشيخ رحمة الله الهندي في مناظرته الشهيرة مع القس فندر، وأخيراً، وليس آخراً، ما اشتهر من مناظرات الشيخ أحمد ديدان مع قساوسة النصارى.

ثالثاً: العدل والإنصاف:

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [**المائدة**: ٨]، وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾ [**النساء**: ١٣٥]، وقال: ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا** ﴾ [**الأنعام**: ١٥٢]، وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ [**النحل**: ٩٠]. وقال عمار بن ياسر، رضي الله عنه: (ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان الإنصاف من نفسك وبذل السلام للعالم والإنفاق من الإقتار) صحيح البخاري ١٩/١

رابعاً: الحكمة:

قال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ** ﴾ [**النحل**: ١٢٥]. قال ابن منظور: (الحكمة عبارة عن معرفة الأشياء بأفضل العلوم) لسان العرب: ٢٧٠/٣. وقال الشوكاني: (أي بالمقالة المحكمة الصحيحة.قيل: هي الحجج القطعية المفيدة لليقين) فتح القدير: ٢٠٣/٣.فينبغي أن يتصف المحاور بالروية، والأناة، وبعد النظر، ووضع الأمور في نصابها، وتوقيت الأشياء بأوقاتها. وقد قيل:

إذا كنت في حاجة مرسلاً ... فأرسل حكيماً ولا توصه

وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيباً ولا تعصه

خامساً: الموعظة الحسنة:

قال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ [**النحل**: ١٢٥]. قال ابن منظور: (الوعظ، والعِظه،والعَظه، والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب) لسان العرب:٣٤٥/١٥. وقال الشوكاني: (الموعظة الحسنة: التي يستحسنها السامع، وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها) فتح القدير: ٢٠٣/٣.

وكثير من المتحاورين يشوب حواره شوب من جفاف عقلي، ويقصي المؤثرات الوجدانية من قاموس حواره، مع أن الله قال لموسى وهارون (عليهما السلام): ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤].

سادساً: المجادلة بالتي هي أحسن:

قال تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

قال ابن منظور: (الجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة)لسان العرب:٢١٢/٢ .وقال القرطبي: (على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه على حججه وآياته، رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة) الجامع لأحكام القرءان: ٣٥٠/١٣ .وقال السعدي: (ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت عن غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن؛ بحسن خلق، ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة، وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق، وهداية الخلق) تيسير الكريم الرحمن: ٩٢/٦.

وتحت هذه الأسس العامة من: الإخلاص، والعلم، والعدل، والحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، تتدرج جملة من التطبيقات العملية، دل عليها الكتاب والسنة، يمكن أن نسميها:

آداب الحوار:

١- مخاطبة المحاور بما يليق به:فقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل كتاباً صدّره بقوله: (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى) صحيح البخاري ٦/١.

وقد نسج على منواله، ولزم غرزه، أهل العلم والإيمان، فقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، إلى سرجوان، ملك قبرص، ما يلي: (بسم الله الرحمن الرحيم. من أحمد بن تيمية إلى سرجوان، عظيم أهل ملته، ومن تحوط به عنايته، من رؤساء الدين، وعظماء القسيسين، والرهبان، والأمراء، والكتاب، وأتباعهم، سلام على من اتبع الهدى) مجموع الفتاوى ٢٨/٦٠١.

ففي ديننا فسحة وسعة أن ننزل الناس منازلهم، دون أن يغض ذلك بأصل الولاء والبراء.فينبغي للمحاور أن يستعمل أسلوباً رفيعاً في الخطاب، لا ينحط إلى دركات المداهنة المذمومة، والتملق المستهجن، وأن لا يتعالى إلى حد يورث النفرة والجفاء، فيقطع طريق الدعوة.

٢- حسن الاستماع والإصغاء، والإقبال على المحاور، وعدم مقاطعته: ففي قصة محاورة عتبة بن ربيعة لنبينا صلى الله عليه وسلم، أنه قال له: (قل يا أبا الوليد، أسمع) حتى إذا فرغ عتبة،ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه، قال: (أفرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم.قال: (فاستمع مني) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٩٣.فهكذا ينبغي أن يكون الحوار الرفيع.وإن المرء ليأسف من ممارسات مسفة تعرض على الشاشات، ويراها عشرات الآلاف، تتضمن صوراً من المهاترات، والمقاطعات، لا تليق بأهل العلم والأدب، بل تثلم قدرهم في نفوس المستمعين والمشاهدين.

٣- التواضع للحق وقبوله، وعدم التمادي في الباطل : قال تعالى مثنياً على طائفة من عباده: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾**﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤]. ولما قال فرعون لموسى: ﴿**وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾**﴾ [الشعراء].

إن المحاور المسكون بروح الكبر بعيد عن الصواب، محروم من التوفيق.الكبر آفة تجعل قلب صاحبها في أكنة، وعلى عينيه غشاوة، وفي

أذنيه وقر، فلا يرى، ولا يسمع، ولا يفقه.فإذا أراد المحاور الوصول إلى الحق فليتضع، فإن الحكمة ضالة المؤمن.

٤- الاستعلام والتثبت قبل إصدار الأحكام: فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رابه شيء استفهم، ولو مع قوة القرينة، كما قال لحاطب بن أبي بلتعة لما بعث لقريش برسالة يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، عام الفتح:

(ما حملك على ما صنعت؟ قال حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمنا بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي.وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله.فقال النبي صلى الله عليه وسلم: صدق، ولا تقولوا له إلا خيرا .فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين،فدعني فلأضرب عنقه.فقال: أليس من أهل بدر؟ فقال: لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم.فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم) صحيح البخاري ١٤٦٣/٤.

٥- حسن العرض، واستعمال الأقيسة العقلية المقنعة:

عن عمران بن حصين قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي: يا حصين، كم تعبد اليوم إلهاً؟ قال أبي: سبعة ؛ستاً في الأرض، وواحداً في السماء.قال: فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك ؟قال: الذي في السماء.قال: يا حصين، أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك.قال: فلما أسلم حصين قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني فقال: قل: اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي) سنن الترمذي ج٥/ص٥١٩.

وقد حكى ابن قدامة المقدسي، رحمه الله، أن محمد بن عبد الرحمن الأدرمي قال لرجل تكلم ببدعة، ودعا الناس إليها: هل علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي، أو لم يعلموها؟ قال: لم يعلموها.قال: فشيء لم يعلمه هؤلاء علمته أنت ! قال الرجل: فإني أقول: قد

علموها .قال: أفوسعهم أن لا يتكلموا به، ولا يدعوا الناس إليه، أم لم يسعهم؟ قال: بلى وسعهم.قال: فشيء وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاءه، لا يسعك أنت ! فانقطع الرجل.

لمعة الاعتقاد: ١٧.

أهداف الحوار:

أولاً: الدعوة إلى الله: قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [**آل عمران**: ٦٤]. فدلت الآية الكريمة على أن الحوار الصحيح يحمل هدفاً نبيلاً، ومضموناً شريفاً، وهو الدعوة إلى دين الله، والاتفاق على مقدمات عقدية صحيحة، والتبرؤ من الشرك والعبودية لغير الله.

ومما يؤخذ على بعض المنخرطين في ملتقيات الحوار، تسليمهم لمحاوريهم من غير المسلمين بأن الحوار النزيه يقتضي الفصل بين الحوار والدعوة!كما صرح بعضهم قائلاً: (إن الحوار الذي نفهم ليس دعوة مبطنة ؛ فمن التزم الحوار وقَبِلَه نهجاً، يكف عن الدعوة والتبشير في الوقت الذي فيه يحاور) الحوار الإسلامي المسيحي.الفرص والتحديات: ١٢. وأعجب من ذلك أن يشترط بعض المحاورين المسلمين عدم الحوار في قضايا الاعتقاد! ففيم الحوار إذاً؟ وعلام اللقاء؟ إننا، معشر المسلمين، أسعد الناس بالحوار في مسائل الاعتقاد، فكيف نهدر مكمن قوتنا، وأساس تفوقنا، وسر خيريتنا!!

ثانياً: رد الشبهة، وتحصين المستمعين :قال تعالى في قصة محاورة إبراهيم للنمرود: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [**البقرة**: ٢٥٨]. وقال تعالى في قصة محاورة موسى لفرعون: ﴿**قَالَ**

فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء].

قد يجد المحاور نفسه مضطراً لخوض حوار لا يرتجي من ورائه إقناع مخالفه، لسبب أو لآخر، لكن الموقف يفرض المضي في الحوار لغرض رد شبهة أثيرت، وصيانة عقول المستمعين والمشاهدين، وربما كانوا أعداداً غفيرة حول العالم، كما يقع في بعض المناظرات الفضائية، فيتعين بيان الحق، كما في المثالين القرءانيين،أعلاه.قال الآجري، رحمه الله: (إن من صفة العالم العاقل، الذي فقهه الله في الدين، ونفعه بالعلم، ألا يجادل، ولا يماري، ولا يغالب بالعلم إلا من يستحق أن يغلبه بالعلم الشافي، وذلك يحتاج إليه في وقت من الأوقات، إلى مناظرة أحد من أهل الزيغ ليدفع بحقه باطل من خالف الحق، وخرج عن جماعة المسلمين.فتكون غلبته لأهل الزيغ تعود بركة على المسلمين، على جهة الاضطرار إلى المناظرة، لا على الاختيار) أخلاق العلماء: ٥٦.

ثالثاً: المذاكرة والتبصر للوصول إلى الحق في المسائل المشتبهة:إن من أهداف الحوار التبين والاستبصار في بعض القضايا النازلة، لاستجلائها، وتلاقح الأفكار حولها، وتجاذب وجهات النظر في تكييفها وتقويمها، مما لا يتأتى لشخص بمفرده، بل يفتقر إلى جهد جماعي للوصول إلى صيغة مرضية، ورؤية شرعية.

رابعاً: امتصاص الحماس والانفعال:إن الحوار الهادئ يثمر في بعض الحالات تخفيف الاحتقان لدى بعض المخالفين، بسبب تشبعه بفكرة جامحة، أو تأثره بموقف راهن، فيعمد المحاور إلى امتصاص هذا الانفعال المكبوت، بالحوار الراشد.وفي هذا الموقف الحواري النبوي أوضح مثال على هذا الهدف:

عن أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: إن فتى شابا أتى النبي صلى الله

عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه! مه! فقال: أدنه، فدنا منه قريبا .قال: فجلس.قال: أتحبه لأمك ؟قال: لا والله،جعلني الله فداءك.قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم.قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم.قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم.قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء) مسند الإمام أحمد: ٥/٢٥٦.

ومن شواهد ذلك، أيضاً، الحوار المؤثر الذي جرى بين النبي صلى الله عليه وسلم والأنصار إثر قسمة غنائم حنين. فعن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم في الناس؛ في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم، فقال: يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ.قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال:كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن. قال: لو شئتم قلتم: جئتنا كذا، وكذا .أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت أمرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها .الأنصار شعار، والناس دثار.إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض).

وفي رواية عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما أفاء من أموال

هوازن، فطفق النبي صلى الله عليه وسلم يعطي رجالاً المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يعطي قريشاً، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم! قال أنس: فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبة من أدم، ولم يدع معهم غيرهم.فلما اجتمعوا، قام النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا، وأما ناس منا، حديثة أسنانهم، فقالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يعطي قريشاً، ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم.فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم.أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به.قالوا: يا رسول الله، قد رضينا.فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ستجدون أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإني على الحوض) صحيح البخاري ٤/١٥٧٤.

هذا، والله المسؤول وحده، أن يلهمنا رشدنا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة، وأن يقيض لهذا الدين من يرفع شعاره، ويعلي مناره.إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أبيض

(ملحق)

المواقف الحوارية في القرءان الكريم

عدد	المـــــــوضـــــوع	مـواضعـــه	مجموع الآيات
١	حوار الله مع الملائكة وآدم وإبليس	البقرة: ٣٠-٤٠ الأعراف: ١١-٢٦ الحجر: ٢٨-٤٣ الإسراء: ٦١-٦٦ طه: ١١٦-١٢٥ ص: ٧١-٨٦	١٠ ١٥ ١٥ ٥ ٩ ١٥
٢	حوار وسى مع قومه في قصة البقرة	البقرة: ٦٧-٧٢	٥
٣	حوار الله مع إبراهيم في بناء البيت	البقرة: ١٢٤-١٣٤	١٠
٤	حوار بني إسرائيل مع نبيهم وطالوت	البقرة: ٢٤٦-٢٥١	٥
٥	حوار إبراهيم مع النمرود	البقرة: ٢٥٨	١
٦	حوار إبراهيم مع الذي أماته مائة عام	البقرة: ٢٥٩	١
٧	حوار الله مع إبراهيم كيف يحي الموتى	البقرة: ٢٦٠	١
٨	حوار زكريا مع ربه	آل عمران: ٣٨-٤٢ مريم: ٢-١٢	٤ ١٠
٩	حوار الملائكة مع مريم	آل عمران: ٤٢-٤٨	٦
١٠	حـوار مـوسى لقـومـه في دخـول الأرض المقدسة	المائدة: ٢٠-٢٦	٦
١١	حوار بني آدم	المائدة: ٢٧-٣٢	٥
١٢	حـوار الله مع عـيسى والحـواريين	المائدة: ١٠٩-١٢٠	١٢

١٣	حوار إبراهيم مع أبيه وقومه	الأنعام: ٧٤-٨٣ الأنبياء: ٥٢-٧٠ الشعراء: ٧٠-٩٠ الصافات: ٨٥-٩٩	٩ ١٨ ٢٠ ١٤
١٤	حوار أهل الجنة مع أهل النار والأعراف	الأعراف: ٤٤-٥٢ المدثر: ٣٩-٤٨	٨ ٩
١٥	حوار نوح مع قومه	الأعراف: ٥٩-٦٥ يونس: ٧١-٧٤ هود: ٢٥-٣٥ المؤمنون: ٢٣-٣٠ الشعراء: ١٠٦-١١٩	٦ ٣ ١٠ ٧ ١٣
١٦	حوار هود مع قومه	الأعراف: ٦٥-٧٣ هود: ٥٠-٥٨ الشعراء: ١٢٤-١٣٩	٨ ٨ ١٥
١٧	حوار صالح مع قومه	الأعراف: ٧٣-٨٠ هود: ٦١-٦٦ الشعراء: ١٤٢-١٥٧ النمل: ٤٥-٤٨	٧ ٥ ١٥ ٣
١٨	حوار لوط مع قومه والملائكة	الأعراف: ٨٠-٨٥ هود: ٧٧-٨٢ تاحجر: ٦١-٧٢ الشعراء: ١٦١-١٧٠ النمل: ٥٤-٥٧ العنكبوت: ٢٨-٣١	٥ ٥ ١١ ٩ ٣ ٣
١٩	حوار شعيب مع قومه	الأعراف: ٨٥-٩٤ هود: ٨٤-٩٤ الشعراء: ١٧٧-١٨٩	٩ ١٠ ١٢

٢٠	حوار موسى مع فرعون وقومه والسحرة	الأعراف: ١٠٤-١٣٦ الإسراء: ١٠١-١٠٣ طه: ٤٧-٧٧ الشعراء: ١٠-٦٤ القصص: ٣٦-٣٩ النازعات: ١٦-٢٦	٣٢ ٢ ٣٠ ٥٤ ٣ ١٠
٢١	حوار موسى مع قومه	الأعراف: ١٣٨-٢٤٠ يونس: ٧٥-٨٣	٢ ٨
٢٢	حوار موسى مع ربه في طلب الرؤية	الأعراف: ١٤٣-١٤٥	٢
٢٣	حوار موسى مع هارون والسامري	الأعراف: ١٥٠-١٥٢ طه: ٨٦-٩٩	٢ ١٣
٢٤	حوار نوح مع ربه في شأن ابنه	هود: ٤٥-٤٩	٤
٢٥	حوار إبراهيم مع الملائكة	هود: ٦٩-٧٤ الحجر: ٥٢-٦١ العنكبوت: ٣١-٣٣ الذاريات: ٢٥-٣٥	٥ ٩ ٢ ١٠
٢٦	حوارات قصة يوسف (٢٠ موقفاً)	يوسف: ٤-١٠١ (٢٠ موضعاً)	٩٧
٢٧	حوار الرسل مع أقوامهم	إبراهيم: ٩-١٤	٥
٢٨	حواز أهل الكهف	الكهف: ١٠-٢١	١١
٢٩	حوار صاحب الجنتين	الكهف: ٣٤-٤٤	١٠
٣٠	حوار موسى مع فتاة الخضر	الكهف: ٦٠-٨٣	٢٣
٣١	حوار ذي القرنين	الكهف: ٨٦-٩٩	١٣
٣٢	حوار مريم مع الملك وقومها	مريم: ١٧-٣٤	١٧
٣٣	حوار إبراهيم مع أبيه	مريم: ٤٢-٤٩	٧

٣٤	حوار موسى مع ربه في شأن رسالته	طه: ١١-٤٨ النمل: ٧-١٣ القصص: ٢٩-٣٦	٣٧ ٦ ٧
٣٥	حوار النبي مع المشركين	المؤمنون: ٨٤-٩٠	٦
٣٦	حوار الله لأهل النار	المؤمنون: ١٠٥-١١٦	١١
٣٧	حوار سليمان مع النملة والهدهد	النمل: ١٨- ٢٩	١١
٣٨	حوار ملكة سبأ مع قومها	النمل: ٢٩-٣٦	٧
٣٩	حوار سليمان مع الرسل وملئه وبلقيس	النمل: ٣٦-٤٥	٩
٤٠	حوار موسى مع اليهودي والقبطي وابنتي مدين وأبيهما	القصص: ١٥-٢٩	١٤
٤١	حوار قارون مع قومه	القصص: ٧٦-٨١	٥
٤٢	حوار المستكبرين والمستضعفين في النار	سبأ: ٣١-٣٤ الصافات: ٢٧-٣٣ غافر: ٤٧-٤٩	٣ ٦ ٢
٤٣	حوار أصحاب القرية مع المرسلين والرجل المؤمن	يس: ١٤-٢٦	١٢
٤٤	حوار أهل الجنة	الصافات: ٥١-٦١ الطور: ٢٥-٢٩	١٠ ٤
٤٥	حوار إبراهيم مع ابنه	الصافات: ٩٩-١٠٦	٧
٤٦	حوار داود مع الخصمين	ص: ٢٢-٢٤	٢
٤٧	حوار الملائكة مع أهل الجنة والنار	الزمر: ٧١-٧٥ غافر: ٤٩- ٥١ الملك: ٨-١١	٤ ٢ ٣
٤٨	حوار مؤمن آل فرعون مع قومه	غافر: ٢٨-٤٥	١٧

٤٩	حوار أهل النار مع جلودهم	فصلت: ٢٠-٢٢	٢
٥٠	حوار المخلفين من الأعراب	الفتح: ١١-١٧	٦
٥١	حوار القرين مع قرينه عند الله	ق: ٢٣-٣٠	٧
٥٢	حوار المنافقين والمؤمنين	الحديد: ١٣-١٦	٣
٥٣	حوار المجادلة	المجادلة: ١	١
٥٤	حوار النبي مع بعض أزواجه	التحريم: ٣	١
٥٥	حـــوار أصـــحـــاب الجنـة المـانعـين للمساكين	ن: ١٧-٣٣	١٦
	المجمـــــــــــوع	١٧٧ موضعاً	٩٧٠

أبيض

الحوار في الكتاب والسنة مبادئه وأهدافه

بقلم:
الدكتور بسام داود عجك
عميد كلية الدعوة الإسلامية بدمشق
عضو المجلس العالمي للدعوة الإسلامية

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص محاضرة

تتكلم المحاضرة بداية عن مصطلح الحوار؛ من خلال تعريفه اللغوي والاصطلاحي، ومواضع ذكره في القرآن الكريم، والفرق بينه وبين الجدل والنقاش، ودعوة القرآن الكريم إلى الحوار.

حيث يظهر أن الحوار مشتق في اللغة من الرجوع والمراجعة والرد. وفي اصطلاح الدارسين والباحثين: (الحوار محادثة بين شخصين أو طرفين، حول موضوع محدد، لكل منهما وجهة نظر خاصّة به، هدفها الوصول إلى الحقيقة، أو إلى أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر بعيداً عن الخصومة أو التعصب بطريق يعتمد على العلم والعقل، مع استعداد كلا الطرفين لقبول الحقيقة، ولو ظهرت على يد الطرف الآخر).

وتتحدث المحاضرة بعد ذلك عن العناصر الواجب توفرها في قضية الحوار بشكل عام، وهي:

أولاً: شخصية الطرف المسلم المحاور، وما يجب أن تمتلكه من الإيمان العميق بمبادئ الإسلام وأهدافه، ومن العلم الواسع بالإسلام وأحكامه وبعقائد الآخرين من غير المسلمين وأفكارهم، ومن الحكمة الشاملة، والحرية الفكرية.

ثانياً: شخصية الطرف الآخر المحاوَر، وما يجب أن يتوفر فيه من الرغبة الواضحة في الوصول إلى الحق والاعتراف به إذا ظهر، والإذعان له. وذلك خوفاً من الدخول في الجدل العقيم.

ثالثاً: إيجاد المناخ الهادئ للتفكير المستقل، بالابتعاد عن كل المؤثرات الداخلية والخارجية وبخاصة الانفعالات التي قد يحملها أحد الأطراف تجاه الطرف الآخر.

رابعاً: العلم بموضوعات الحوار.

ثم تنتقل المحاضرة للحديث عن مبادئ الحوار الإسلامي مع غير المسلمين في ضوء الكتاب والسنة فتقرر المبادئ الآتية:

١- الدعوة إلى الله تعالى.

٢- سبيل الدعوة إلى الله تعالى هو الحكمة والموعظة الحسنة. من خلال أ- الحوار بالتي هي أحسن، واعتماد العقل والتفكير السليمَين، والتجرد عن الحكام المسبقة، ومواجهة الطرف الآخر من خلال أفكاره، وعدم إثارة الطرف الآخر.

٣- عدم الإكراه مطلقاً.

٤- مبدأ الإعراض والصبر والتحمل.

٥- مبدأ التعايش السلمي.

مع التأكيد على أن هذه المبادئ لا تعني مطلقاً التوقف عن الدعوة إلى الله وعرض الإسلام والحث على الإيمان به، ولا تعني مطلقاً توقف عملية الدفاع عن الإسلام ومحاربة الشبه والافتراءات التي يطلقها الطرف الآخر، ولا تعني أيضاً عدم الوقوف بحزم في وجه أخطاء الطرف الآخر عندما ظهور رغبته في رفض التعايش واندفاعه إلى محاربة الإسلام.

أما أهداف الحوار الإسلامي مع غير المسلمين وهي آخر مباحث هذه المحاضرة فتتلخص في النقاط الآتية:

١- الحوار الإسلامي مع غير المسلمين تطبيق لمبدأ جهاد الدعوة إلى الله تعالى، حيث إنه جهاد باللسان والقلم.

٢- الحوار الإسلامي مع غير المسلمين وسيلة في مواجهة الحملات التنصيرية، حيث تظهر الزيف الذي تروج له تلك الحملات.

٣- الحوار الإسلامي مع غير المسلمين وسيلة لأن يلتقي المسلمون وغير المسلمين في البلد الواحد لمواجهة العدو المشترك.

٤- الحوار الإسلامي مع غير المسلمين وسيلة لمنع حدوث الفتن الطائفية.

٥- الحوار الإسلامي مع غير المسلمين وسيلة لإظهار حقائق الإسلام ومحو صورته المشوهة، بدحض الافتراءات الشائعة عند غير المسلمين.

ويأتي ختام المحاضرة بالتحذير من الانجرار إلى الجدالات العقيمة في الأمور العقدية والمتخصصة على الملأ، لئلا يجر تشدد كل طرف لمعتقده إلى تعصبات البسطاء مما سينتج عنه غوغائية لا تحمد عقباها.

كذلك أكدت المحاضرة في ختامها على ضرورة الحوار واللقاء مع الآخر لأن هناك كثيراً من التحديات المشتركة التي تواجهنا مسلمين وغير مسلمين كالفساد الأخلاقي، والحفاظ على البيئة، ومكافحة البطالة والفقر، ومكافحة الجهل، والفتن الطائفية، وحروب الإبادة، وخطر العولمة، وغيرها. وهذه قضايا يجب أن تتضافر فيها جهود الإنسانية بشتى مشاربها لتجنب ويلاتها.

صفحة أبيض

الحوار في الكتاب والسنة مبادئه وأهدافه

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا وهادينا سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبع هداهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

بدايةً أشكر المولى تبارك وتعالى على أن هيأ لنا هذا اللقاء الطيب الكريم، ثم أمتثل وصية النبي الكريم ﷺ بقوله: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»(١). فأثني بالشكر لرابطة العالم الإسلامي على جهودها ومواقفها خدمةً للإسلام والمسلمين، متمثلةً في شخص أمينها العام سعادة الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي حفظه الله تعالى، سائلاً المولى الكريم أن يديم الخير على أياديكم إنه سميع مجيب.

إن الحديث عن الحوار في الكتاب والسنة من حيث المبادئ والأهداف لابد له أن يمر أولاً ببيان سبب استخدام كلمة الحوار في القرآن الكريم واستخدام كلمة الجدال والفرق بينهما ولماذا نستخدم في عصرنا الحاضر كلمة الحوار مع غير المسلمين بدلاً من استخدامنا كلمة الجدال.

فالحوار : مشتق في اللغة من الرجوع والمراجعة والرد(٢). وفي اصطلاح الدارسين والباحثين: (الحوار محادثة بين شخصين أو طرفين، حول موضوع محدد، لكل منهما وجهة نظر خاصّة به، هدفها الوصول إلى الحقيقة، أو إلى أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر بعيداً عن الخصومة أو التعصب بطريق يعتمد على العلم والعقل، مع استعداد كلا الطرفين لقبول الحقيقة، ولو ظهرت على يد الطرف الآخر)(٣). وقد استخدم هنا مصطلح الحوار ولم يستخدم مصطلح المناظرة لأنها تعتمد على الصرامة العلمية، والقواعد

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٤/٣٣٩).

(٢) انظر لسان العرب (٣/٣٨٣).

(٣) انظر الحوار الإسلامي المسيحي (ص١٤).

المنطقية[٤]، أكثر من الحوار الذي هو أليق في التعبير والأسلوب.

واستخدم مصطلح الحوار ولم يستخدم مصطلح النقاش لأن المناقشة تعني في اللغة : شدة المحاسبة، والاستقصاء في جمع الأخطاء، ومنها الحديث قوله ﷺ: «من نوقش الحساب هلك»[١].

واستخدم مصطلح الحوار ولم يستخدم مصطلح الجدال لأن الجدال في اللغة هو شدة الخصومة[٢].

الحوار والجدال في القرآن الكريم

وردت كلمة الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

١- في سورة الكهف: الآية (٣٤): ﴿**فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً**﴾.

٢- في سورة الكهف الآية (٣٧): ﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً**﴾.

٣- وفي سورة المجادلة الآية (١): ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾.

فهنا يلاحظ أن حديث المرأة عن زوجها كان حديث خصومة، لذلك كان التعبير وقتها بالجدال (تجادلك)، ولكن عندما بدأ الحديث بينها وبين النبي ﷺ كان الحديث مراجعة الكلام، فكان التعبير حينئذ بالحوار (تحاوركما).

أما كلمة (جدال) فقد وردت في القرآن الكريم في تسعة وعشرين موضعاً والمتتبع لمواضع هذه الكلمة يجد أن غالبيتها ترد في سياق عدم الرضا عنه، أو عدم جدواه.

ولعل كثرة ورود كلمة (جدال) في القرآن الكريم أكثر من كلمة حوار تشير إلى أن المسلمين الأُول في زمن نزول الوحي كانوا يعيشون في بيئة كلها

---

(١) رواه البخاري (١/٣٠).

(٢) انظر لسان العرب (٢/٢١٢). وانظر القاموس المحيط (٣/٣٤٧).

خصومة، وفيها جميع أنواع العداء والتحديات العقائدية والفكرية والاجتماعية وكان لا بد من الدفاع عن الإسلام بشكل حازم وقوي فاستخدمت كلمة جدال لتعبر عن ذلك المناخ الضبابي الذي خيّم على زمن نزول القرآن وتكامل الإسلام.

ونحن نرغب بكلمة (حوار) أكثر من كلمة (جدال) للأسباب التالية:

أولاً: لفظ الجدال في اللغة العربية يأتي دائماً ليعبر عن مواقف الخصومة والعناد والتحدي على حين يعني الحوار مراجعة الكلام فقط لتبين وجه الحق والصواب.

ثانياً: كلمة (جدال) أخذت عبر التاريخ مدلولاً خاصاً وهو مدلول الكلام العقيم الذي يراد منه إفحام الخصم وإسكاته والوقوف على الصناعة الكلامية المنمقة دون البحث في الجوهر والأصل. ويأتي تعريف الجرجاني ليوضح هذا الجانب بقوله (الجدال هو القياس المؤلَف من المشورات والمسلّمات والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان وهو الخصومة في الحقيقة)(١).

ونحن لا نريد من خلال الحوار إفحام الآخرين وإسكاتهم بل نريد الوصول معهم من خلال الحوار إلى حقائق الإسلام، وأهداف القرآن بالعلم والحكمة والكلمة الطيبة.

دعوة القرآن الكريم إلى الحوار

القرآن الكريم هو كتاب الحوار فلقد طالب أتباعه في كل وقت وحين أن يؤدي كل فرد دوره الفاعل في إيصال كلمة الحق إلى جميع البشر وعلى مختلف مستوياتهم واتجاهاتهم.

وكان شكل الحوار في القرآن الكريم من حيث كونه مراجعة الكلام بين طرفين، قد أخذ المسافة الأوسع من صفحات هذا الكتاب الكريم، وإن لم

---

(١) التعريفات للجرجاني (ص٧٨).

تستخدم كلمة (الحوار)، وإنما استُخدمت مادة (القول)، التي وردت في (١٧٢١) موضعاً[١]، والملفت للنظر هنا أن كل كلمة تكلم بها الآخرون رد عليها القرآن الكريم وطالب النبي ﷺ بأن يرد على كل فكرة عرضوها، فكل كلمة (قالوا) في القرآن الكريم يوجد مقابلها كلمة (قل)، هم (قالوا) وأنت يارسول الله (قل)، وقد وردت كلمة قالوا في القرآن (٣٣٢) مرة، وكلمة (قل) بالعدد نفسه تماماً.

وقصص القرآن الكريم عن الأنبياء وأقوالهم إنما هي في الحقيقة حوارات أنموذجية أمام المسلم الداعية في كل زمان ومكان ليتعلم منها كيف يحاور الآخرين موضحاً مبدأه راداً على كل شبهة تعارضه مفنّداً كل ادعاءٍ مخالف لدينه.

العناصر الواجب توفرها في قضية الحوار بشكل عام

يجب أن يعيش الحوار في مناخ واضح الملامح، هادف في قضاياه المعروضة، بعيد عن المؤثرات النفسية أو الخارجية، منضبط في كل مراحله.

وهذا لا يمكن أن يتوفر دون العناصر التالية:

أولاً- شخصية الطرف المسلم المحاوِر: ويجب أن تمتلك الشخصية المسلمة المحاوِرة الصفات التالية:

١- الإيمان العميق بمبادئ الإسلام وأهدافه.

٢- العلم الواسع بالإسلام وأحكامه وبعقائد وأفكار الآخرين من غير المسلمين.

٣- الحكمة الشاملة.

٤- الحرية الفكرية.

ولا بد من توضيح النقطتين الأخيرتين لأهميتهما وهما الحكمة الشاملة والحرية الفكرية.

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص (٥٥٤) وما بعدها.

- الحكمة الشاملة: ورد موضوع الحكمة في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وورد بلفظ الحكمة في عشرين موضعاً[1].من ذلك قول الله تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد ذكر الله تعالى في كتابه بعض نعمه على بعض عباده، فاختص من بين نعمه التي ذكرها نعمة النبوة والرسالة ونعمة الحكمة، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤].

ومن بين الذين اختصهم الله تعالى بالحكمة نبيه داود عليه السلام قال الله تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠].

وأيضاً نبي الله عيسى عليه السلام أكرمه الله بالحكمة، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الزخرف: ٦٣].

ومن بين عباد الله الصالحين الذين اختصهم الله بالحكمة لقمان الحكيم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان: ١٢].

وكانت الحكمة إحدى المهمات الأربع الرئيسة التي حملها رسول الله ﷺ إلى أمته وهي:

١- تبليغ كتاب الله تعالى ودعوة الناس إليه.

٢- تزكية النفوس وتطهيرها من آثامها.

٣- تعليم أحكام القرآن الكريم وشرحها.

٤- تعليم الحكمة.

وقد وردت هذه المهمات في أربعة مواضع في القرآن الكريم اثنان منهم

---

(١) انظر المعجم المفهر لألفاظ القرآن الكريم ص ٢١٣.

في سورة البقرة وواحد في سورة آل عمران وواحد في سورة الجمعة.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقد رسم الله تعالى لرسوله ﷺ أسلوب الدعوة إليه تعالى، فكان أحد أركان هذا الأسلوب: الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة.

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وتُعرَّف الحكمة بأنها: العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود، بقدر الطاقة البشرية، ثم العمل بمقتضاها وهي تقسم إلى: حكمة عملية وحكمة نظرية(١).

ولذلك اعتبر العلماء - وبخاصة المفسرون- الحكمة هي سنة النبي ﷺ من حيث أقواله وأفعاله وتقريراته(٢).

وقد سميت السنة النبوية بالحكمة لأن الحكمة تشتمل على: سداد القول، وصواب العمل، وإيقاع ذلك في مواقعه ووضعه في مواضعه اللائقة. ولا شك أن أقواله ﷺ وأفعاله وأحواله وإقراراته، جميع ذلك هو عين الحكمة(٣).

والذي يتعلق هنا بشخصية الطرف المسلم المحاور، أن يكون ذلك المسلم على المستوى اللائق من الحكمة بمفهومها الشامل حيث يعلم حق العلم ما هو مقدم عليه في حواره مع غير المسلمين، ويسلك إلى ذلك الحوار أفضل السبل التي يراها كفيلة بإيصال دعوة الله تعالى إليهم على حقيقتها، وجمالها محاولاً عدم تنفيرهم منها، مستهدياً في ذلك خُطا النبي ﷺ في

---

(١) انظر كتاب التعريفات ص٩٦، وتفسير التحرير والتنوير (٤٢٧/١٤).
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم (٥٥٤/١).
(٣) انظر كتاب سيدنا محمد رسول الله ﷺ ص٩٨.

حكمته الشاملة التي استطاع بها ﷺ أن يأخذ بقلوب وعقول من التفاهم من البشر إلى طريق الإسلام والإيمان.

- أما الحرية الفكرية: مع وجود الثقة بها فلا يمكن أن يكون المحاوِر واقعاً تحت إرهاب فكري أو نفسي يشعر من تأثيره بضعفه أو سقوطه أمام شخصية الطرف الآخر وذلك برفضه لكل مظاهر العظمة والافتخار والتعالي عند الطرف الآخر.

ويمكن رؤية هذا بوضوح في القرآن الكريم ومن خلال سيرة النبي ﷺ.

فالقرآن الكريم يعرض أمراً واضحاً في الحوار بين النبي ﷺ وبين الأطراف الأخرى التي يحاورها خلال مسيرة الدعوة وهذا الأمر يقول: إن الرسول الكريم ﷺ بشر مثل سائر البشر ولم يتفضل عليهم إلا بتلك الرسالة الربانية ومهمته التبليغ والتوضيح وحسب.

فبهذا العرض تزول كل مظاهر السيطرة أو التعالي أو عملية الاحتواء بسبب الصفات والألقاب أو الإيحاءات[1] التي قد تعرض من قبل الأطراف المتحاورة لأجل الهيمنة على الطرف المقابل.

وفي ذلك يقول الله تعالى موضحاً هذه النقطة: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾ [**الكهف**: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [**الأعراف**: ١٨٨].

فالآيات واضحة في دلالاتها: إنها تشير إلى أن الرسول الكريم ﷺ لا يمكن أن يمارس هيمنة وسلطة وتكبراً على الذين يقوم بدعوتهم أو يحاورهم، بسبب أنه رسول الله تعالى بل توضح الآيات حقيقة الرسول أنه بشر ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً: (إنه بشر)، و(لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً).

---

(١) مثل ألقاب: البروفسور - الدكتور - الأستاذ العلامة - صاحب القداسة.

فإذا كان الرسول ﷺ يرفض ممارسة أي إرهاب فكري أو تخويف على الأطراف التي يدعوها للإسلام، لكي يترك لها الحرية والاستقلالية في التفكير، فمن باب أولى يجب أن تكون للمسلم الذي يحاور الآخرين هذه الحرية والاستقلالية في التفكير بعيداً عن هيمنة الألقاب والمناصب أو ما يسمى بالفارق الحضاري.

ثانياً- شخصية الطرف الآخر المحاوَر:

حيث يطلب أن توجد لديه الرغبة الواضحة في الوصول إلى الحق والاعتراف به إذا ظهر والإذعان له وكل ذلك خوفاً من تحول الحوار إلى نوع من الجدل العقيم الذي لا يراد منه إلا الجولات الكلامية التي لا تفيد.

ولذلك ركّز القرآن الكريم على رفض أمثال هؤلاء الذين لا يريدون الحق أو الوصول إليه ويعاندون الدليل إذا ظهر صوابه.

يقول الله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ [**الأنعام**: ٢٥].

فأمثال هؤلاء المعاندين لا يمكن الجلوس معهم على مائدة واحدة للحوار، لأنهم وإن عُرض عليهم الحق فلن يقبلوه، بسبب مكابرتهم، وحتى لو عَرضَوا مقدماً أنهم يريدون الأدلة الصحيحة على الأفكار المعروضة إلا أن طلبهم لهذه الأدلة لن يفيد بشيء فليست القضية طلباً للأدلة، أو عدم طلب لها، بل القضية فقدان الاستعداد للإيمان بالحق والإذعان له عند ظهوره.

ويأتي تصوير القرآن الكريم لهؤلاء واضحاً في قول الله تعالى: ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [**الأنعام**: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** ﴾ [**الأنعام**: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

ثالثاً- إيجاد المناخ الهادئ للتفكير المستقل:

أي الابتعاد عن كل المؤثرات الداخلية والخارجية وبخاصة الانفعالات التي قد يحملها أحد الأطراف تجاه الطرف الآخر.

فمثلاً كانت قريش عندما يعرض عليها الإسلام تبني كل أفكارها في الحوار مع النبي ﷺ على مؤثر وانفعال خاص بها، ولا تريد أن تتجاوزه أبداً، ألا وهو: أن النبي ﷺ الذي يدعوها إلى الإيمان هو بشر مثلها، وتنسى أهداف الدعوة وكل المبادئ التي تتقدم بها.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

وفي موضع آخر يطلب القرآن الكريم من الآخرين أن يتجردوا عن الجو الانفعالي في نظرتهم الأهوائية إلى الرسول ﷺ فقد اتهموه بالجنون وأصبحت هذه التهمة تسيطر على تفكيرهم فدعاهم القرآن الكريم إلى التجرد عن هذا كله ثم دعاهم إلى البحث العلمي والمنطقي في الرسالة السماوية.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

رابعاً- العلم بموضوعات الحوار:

إذ لا بد لطرفي الحوار من معرفة الموضوعات التي يريدون التحاور حولها لأن الجهل سيؤدي إلى المهاترات أو الشتائم، ليغطي كل طرف عجزه وجهله بالأفكار المعروضة.

وقد صوّر القرآن الكريم أولئك الذين يريدون الحوار دون علم بموضوعاته التي سيتحاورون فيها، في قول الله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

مبادئ الحوار الإسلامي مع غير المسلمين في ضوء الكتاب والسنة

إن مبادئ الحوار الإسلامي مع غير المسلمين في ضوء الكتاب والسنة تقوم على ما يلي:

المبدأ الأول: الدعوة إلى الله تعالى:

يقوم الحوار الإسلامي مع غير المسلمين ومشروعيته من الكتاب والسنة على مبدأ إسلامي واضح وهو مبدأ الدعوة إلى الله تعالى ودين الإسلام.

وتعد الدعوة إلى الإسلام من أهم معالم الإسلام العامة والخاصة، إذاً فالحوار هو في الحقيقة التطبيق العملي لمبدأ الدعوة إلى الإسلام مع القريب والبعيد والعدو والصديق ومع كافة أصناف البشر ومختلف العقائد والتيارات الفكرية وسائر الملل والنحل.

والآيات التي تحدثت عن هذا المبدأ كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

والمهمة الأولى في قضية الدعوة إلى الله تعالى هي: عرض الإسلام بجوهره الحقيقي وثوبه القشيب ووضوح رسالته وإبراز جماله وشموله لكل جوانب الحياة الإنسانية الخاصة والعامة وصلاحية تشريعه لكل زمان ومكان وأن رسالة الإسلام ما جاءت إلا لتسعد الإنسانية جمعاء وتوضح لهم سبل النجاة والأمن والاطمئنان والعيش بسلام ومحبة وإخاء، يقول الله تعالى عن

مهمة الرسول الكريم ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [**الأنبياء**: ١٠٧].

المبدأ الثاني: سبيل الدعوة إلى الله تعالى هو الحكمة والموعظة الحسنة:

إن أي حوار يقوم بين طرفين لا بد وأن تكون له إحدى وجهتين:

- الوجهة الأولى: قيام الحوار على مبدأ العنف: وتقوم هذه الوجهة على مواجهة الخصم بأشد الكلمات وأقسى الأساليب ويتركز فيها العرض على التجريح والتنقيص وإحصاء الأخطاء والعثرات وأحياناً تصل إلى مرحلة الإهانة ولا مجال فيها لمراعاة الشعور والعواطف أو احترام العقائد والمقدسات بل تصبح المواجهة وكأنها تحدٍ صارخ للشعور الإنساني.

وهذه الوجهة لا تحتاج إلى تأكيد عدم جدواها بل هي على العكس تماماً ستولد المزيد من الأحقاد والبغضاء، وبُعد الشقة بين المتحاوِرين وعدم إمكانية التقريب بين وجهات النظر.

وما أروع القرآن الكريم حين نبه الرسول ﷺ إلى الحذر من هذه الوجهة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [**آل عمران**: ١٥٩].

ويأمر القرآن الكريم النبي ﷺ عندما يتوقف الحوار وتتعطل سبل الدعوة إلى الله تعالى، يأمره بالانسحاب الهادئ وإنهاء العلاقة بألطف العبارات وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [**يونس**: ٤١].

وقد حذر النبي ﷺ من عرض الإسلام بشكل عنيف صاخب فقال: «يسروا ولا تعسروا وبشّروا ولا تنفروا»(١). وكانت هذه العبارة وصيته الدائمة ﷺ لمن كان يرسل من أصحابه في المهمات.

- الوجهة الثانية: قيام الحوار على مبدأ عدم العنف: أي الحوار الهادئ وهي الطريقة السليمة التي تعتمد على اللين والمحبة أساساً، ولذلك لا بد من

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢٤/١).

سلوك هذه الطريقة بالكلمات الطيبة المرنة التي تفتح القلوب على الحق وتقرب الأفكار إليه وتخاطب فطرة الإنسان ووجدانه بعيداً عن كل المعاني الشديدة والألفاظ القاسية.

وقوم هذه الوجهة على النقاط الآتي:

(أ) الحوار بالتي هي أحسن:

ويتضح ذلك من خلال الآيات الآتية:

١- قول الله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [**فصلت** : ٣٣].

٢- وقوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [**النحل** : ١٢٥].

٣- وقوله تعالى: ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [**العنكبوت** : ٤٦].

فالتي هي أحسن: هي التعبير عن الحوار الهادئ والأسلوب السلمي.

وقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [**فصلت** : ٣٤]. فقد جاء فيه تعبير السيئة وهو مبدأ العنف والحوار الصاخب والأسلوب الشديد.

وعندما يختار القرآن الكريم مبدأ الحوار الهادئ والأسلوب السلمي وطريقة اللين يشير إلى نتائج هذا المنهج وهي نتائج تكاد تكون خيالية إنها تحول العدو إلى صديق والمبغض إلى محب والبعيد إلى قريب.

وبهذا كله يتحقق للحوار هدفه وهو الوصول إلى الإيمان أو إلى أكبر قدر من الفهم المشترك في الأسس والأهداف.

والحوار بالتي هي أحسن يتمثل في اتباع أفضل الأساليب وأحسنها في إقناع الطرف الآخر بالفكرة التي يدور حولها الحوار بحيث يظل المسلم في بحث دائم عن الأساليب التي توصله إلى الطريقة الأفضل في موضوع (التي هي أحسن) سواء في المنهج أو الفكرة أو الأسلوب أو انتقاء العبارات.

(ب) اعتماد العقل والتفكير السليمَين:

يهدف القرآن الكريم إلى إبراز الحجة والبرهان والمنطق العلمي والعقلي ويتابع التسلسل المنطقي في كل فكرة يوردها ويدلل عليها.

وتقوم هذه النقطة على الأسس التالية:

١- تقديم الأدلة المثبتة أو المرجحة للدعاوى.

٢- إثبات صحة النقل في الأمور المروية المنقولة.

وهذا ما تشير إليه القاعدة التالية في منهج علماء المسلمين في بحثهم عن الحقيقة وهي: إن كنت ناقلاً فالصحة أو مدعياً فالدليل(١). ولعل مثالاً واحداً يوضح هذه الفكرة، وهو قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [**آل عمران**: ٥٩].

فبكل عقلانية ومنطق سليمين يقول القرآن : إنكم يا من اتخذتم المسيح إلهاً من دون الله عز وجل لأنه قد خلق بمعجزة وهي كونه قد ولد من دون أب فإن آدم عليه السلام من قبله قد خلق من تراب، أي من دون أب أو أم - وأنتم تؤمنون بهذا- فلماذا لا يكون آدم إلهاً لكم أيضاً، بناء على المنطق نفسه الذي تسيرون عليه. مع أن معجزة آدم أعظم من معجزة المسيح، ولكن عيسى ليس إلا مثالاً كمثال آدم - عليهما السلام -.

(جـ) التجرد عن الأحكام المسبقة:

وهذا هو الأسلوب العلمي الذي يقوم على تفريغ الحوار من الأفكار المسبقة بين المتحاورين والتي تحول دون الوصول إلى الصواب وتشكل حاجزاً نفسياً يصعب اختراقه.

ومعنى التجرد عن الأحكام المسبقة الخاصة: وضع مبدأ الشك في كل شيء يعرض مبدئياً من قبل طرفي الحوار ويوحي مبدأ الشك هذا بضرورة أن يعيد كل طرف النظر في موقفه وأفكاره التي يحملها أي مراجعة الذات بما تحمله من أفكار ومبادئ.

---

(١) انظر: ضوابط المعرفة (٣٦٥) وما بعدها، وكبرى اليقينيات الكونية (ص ٣٤) وما بعدها.

فليس لدى أحد الفريقين حكم سابق مفروض على الطرف الآخر بأنه على الهدى أو على الضلال ويتضح هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

إذ ليس في أسلوب القرآن الكريم مبدأ: نحن على الحق والهدى، وغيرنا على الضلال. إذ لا يمكن أن يطلق هذا الحكم مقدماً قبل البحث والاستدلال وإقامة الحجة والبرهان.

(د) مواجهة الطرف الآخر من خلال أفكاره:

أي على مبدأ: من فمك أدينك. وهذه النقطة تحث كل طرف على عرض كل أفكاره على ساحة الحوار ويحاول دعم وجودها بكل الأدلة والبراهين.

وهذا أمر لا يخيف الطرف المسلم مطلقاً بل يقول للطرف الآخر: هات ما عندك من أفكار وأبرز حقائقها وادعم سيرها فيصل بذلك إلى عملية تفريغ كاملة لكل أسلحة الطرف الآخر.

ثم يعرض المسلم ما لديه من أفكار ويقول: هذا هو الحق الذي نؤمن به وهذا هو الهدى الذي نتبعه فإن كان لديكم - يخاطب الطرف الآخر- طريق أفضل أو عقيدة أصح فنحن على استعداد لقبولها وتلقيها.

وقد جاء هذا واضحاً في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص: ٤٩].

(هـ) عدم إثارة الطرف الآخر:

وهو مبدأ مهم جداً لأن الإثارة تولد انفعالاً ومع هذا الانفعال سينحرف الحوار عن منهجه فيؤدي ذلك إلى قطع كل الحبائل التي يمكن أن تقرب بين وجهات نظر الطرفين، ويعتمد هذا المبدأ على قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فهذه الآية فيها نهي للمؤمنين عن شتم وسب آلهة المشركين وهي المعبودات الباطلة لأنهم إذا شتموها نفّروا المشركين أكثر وزادوهم بعداً عن الإيمان.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**قال كفار قريش لأبي طالب: إما أن تنهى محمداً وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها، وإما أن نسب إلهه ونهجوه**»(١).

وقد قال العلماء عن هذه الآية الكريمة: «وحكمها باق في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في مَنَعة، وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ أو الله عز وجل فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك لأنه بمنزلة البعث على المعصية»(٢).

المبدأ الثالث: عدم الإكراه مطلقاً:

من خلال عملية الحوار لا يحق لطرف أن يمارس الإجبار أو الضغط على الطرف الآخر أو أن يستخدم الإرهاب الفكري أو المادي ليحوله إلى معتقده أي يجب أن يكون سير الحوار ضمن حرية فكرية واضحة وهذا ما تشير إليه الآيات التالية:

١- قال الله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [**البقرة**: ٢٥٦].

٢- وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [**يونس**: ٩٩].

٣- وقوله تعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [**الكهف**: ٢٩].

٤- وقوله تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢)**﴾ [**الغاشية**].

وسبب نزول الآية الأولى: (لا إكراه في الدين) أن أهل يثرب كانوا قبل الإسلام ينذرون: إن رزقوا بأولاد أن ينصروهم أو يهودهم فلما أجليت بنو النضير أراد بعض الصحابة أن يجبروا أولادهم على ترك اليهودية، والالتحاق بالمسلمين فنزلت الآية(٣).

---

(١) انظر لباب النقول في أسباب النزول ص١١٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/٦١).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٨٠)، وتفسير القرآن العظيم (١/٣١٠).

وروى زيد بن أسلم عن أبيه، قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لعجوز نصرانية: «أسلمي، أيتها العجوز، تسلمي، إن الله بعث محمداً بالحق».قالت: أنا عجوز كبيرة، والموت إليّ أقرب! فقال عمر: «اللهم اشهد». وتلا قوله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة: ٢٥٦](١).

المبدأ الرابع: مبدأ الإعراض والصبر والتحمل:

ويأتي هذا المبدأ عندما لا توجد نتيجة واضحة للحوار، فلا بد حينئذ من الإعراض بمعنى عدم متابعة الحوار حيث إنه يصبح جدلاً عقيماً فيجب ألا ينزل المسلم عن أهدافه وأسلوبه في الحوار ويعامل الطرف الآخر معاملة المثل، إذ قد لا يتورع الطرف الآخر عن الطعن والتشويه للإسلام وعقيدته والنيل من عظم رسالته وسموها والإساءة إلى نبيه صلى الله عليه وسلم فلا يمكن مقابلة هذه الأخطاء بالطعن في أديان الآخرين والإساءة إلى أنبيائهم عليهم السلام، والتنقيص منهم فهذا هو المقصود من مبدأ الإعراض والصبر والتحمل.

والآيات التي تتحدث عن هذا المبدأ كثيرة منها:

١- قول الله تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة: ١٠٩]. فهنا أمر واضح بالإعراض عن الخوض مع أولئك الذين يريدون الانحراف عن الحق إلى غيره، وطالب أيضاً بالصفح عنهم.

٢- وقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٩].

٣- وقوله تعالى: ﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [آل عمران: ٢٠].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٨٠).

٤- وقوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

٥- ولعل سورة (الكافرون) توضح هذه الفكرة بكل صراحة، وهي التي تسمي السورة الفاصلة يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون].

المبدأ الخامس: مبدأ التعايش السلمي:

ويعتبر هذا المبدأ نهاية المطاف في الحوار لتبدأ مرحلة جديدة من العلاقات القائمة على الاحترام المتبادل بين المسلمين وغير المسلمين وهي مرحلة التعايش السلمي وعدم تعرض كل طرف لمقدسات ومعتقدات الطرف الآخر.

والإسلام هو الدين الوحيد الذي حمل لواء فكرة التعايش السلمي بين الأديان وذلك عندما لا يجدي الحوار في أمور العقيدة وحتى لا يتحول الحوار إلى جدال متوتر ينسف كل أجواء التعايش من أساسها.

والقرآن الكريم واضح صريح في هذه النقطة حيث يبين أنه لا حرج على المسلم أن يحيا التعايش السلمي بينه وبين أي إنسان مخالف له في دينه ومعتقده ولم يظاهر الطرف الآخر على المسلم بالعداوة والتحريض أو الإساءة والخيانة وهذا التعايش السلمي قائم على أساس من العدل والإحسان يقول الله تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨](١).

ويبدو هذا المبدأ واضحاً في تطبيقات النبي ﷺ مع وفد نصارى نجران، حين وصل الحوار إلى طريق مسدود وتوقفت القدرة على الحوار عند ذلك تحول الرسول ﷺ إلى مبدأ التعايش السلمي ووضع مبادئ العيش المشترك

---

(١) انظر سبب النزول: لباب النقول (ص٢٩١) وصحيح البخاري (٢/٩٥).

من خلال معاهدته مع وفد نصارى نجران(1).

وقبل ختم الكلام لا بد من الإشارة إلى بعض الملاحظات المهمة حول مبادئ الحوار الإسلامي مع غير المسلمين، وهي:

١- إن المبدأ الرابع للحوار مع غير المسلمين وهو مبدأ الصبر والإعراض والتحمل لا يعني مطلقاً ترك الدعوة إلى الله تعالى أو إيقاف عملية عرض الإسلام وإبراز جماله والحث على الإيمان به، والتبشير بمعتقداته بين صفوف جميع أتباع الأديان والمعتقدات الأخرى وبشتى الوسائل ومختلف الطرق.

وإلى هذا تشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى].

٢- إن مبادئ الحوار الإسلامي مع غير المسلمين هذه كلها لا تعني مطلقاً أن تتوقف عملية الدفاع عن الإسلام ومحاربة الشبه والافتراءات التي يطلقها الطرف الآخر في كل فترة من الفترات وبعدة أشكال وبخاصة تلك الافتراءات التي تمس جوهر الإسلام وعقيدته وتسيء إلى نبيه ﷺ وإلى أحكامه وشرائعه.

٣- في حال رفض الطرف الآخر لكل أشكال الحوار وظهور عدم رغبته في التعايش السلمي وفي حال اندفاعه إلى محاربة الدعوة الإسلامية والحد من انتشارها والسعي إلى تدميرها بحيث تتحول تلك الافتراءات إلى منهج كامل له، أي يسير الطرف الآخر في طريق العداء الصريح للإسلام والمسلمين ظاهراً وباطناً فعند وجود مثل هذه الحال لابد من الوقوف

---

(١) انظر نص المعاهدة: الخراج لأبي يوسف (ص٧٨).

بحزم في وجه هذه الأخطاء كلها وتوقيفها عند حدودها وذلك بالتأديب الذي قد يصل إلى مرحلة القتال فيكون القتال عندها واجباً شرعياً للدفاع عن العقيدة وحرمات الدين أي تكون الحرب في تلك الحال حرباً دفاعية وقائية دفاعا عن الدين ووقاية للدعوة من التوقف والانهزام .

وإلى هذا تشير الآية الكريمة في قول الله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [**البقرة**: ١٩٠].

أهداف الحوار الإسلامي مع غير المسلمين

ويمكن تلخيص أهم هذه الأهداف فيما يلي:

أولاً- الحوار الإسلامي مع غير المسلمين هو في الحقيقة تطبيق لمبدأ جهاد الدعوة إلى الله تعالى، لأن جهاد السيف قد توقف منذ أمد بعيد لنشر الإسلام في بقاع الأرض والبديل الوحيد - حالياً - عن نشر العقيدة الإسلامية بالجهاد، هو الدعوة إلى الله تعالى باللسان والقلم.

والحوار هو مجال عظيم، ومناخ مناسب يمكن للمسلمين أن يستفيدوا منه بكل حرية لتحقيق أحد فرائض دينهم الحنيف، وهو الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثانياً- الحوار الإسلامي مع غير المسلمين وسيلة فعالة يمكن للمسلمين أن يستخدموها في البلاد والمناطق الإسلامية التي تواجه هجمات تنصيرية وحملات تبشرية تجند لها أضخم الإمكانيات المادية والمعنوية من قبل الكنيسة في العالم، لتحويل المسلمين عن دينهم.

فيأتي الحوار لدعم المسلمين معنوياً تجاه هذه الحملات الشرسة حيث تظهر حقيقة المسيحية الزائفة التي تبشر بها الكنيسة بين المسلمين فيكون ذلك عاملاً مهماً وأساسياً يعطي للمسلمين ثقة أكبر بدينهم ووعياً أوسع بما يخطط لهم وتنهار بذلك تلك الجهود التنصيرية.

ثالثاً- الحوار الإسلامي مع غير المسلمين وسيلة فعالة ليلتقي المسلمون

وغير المسلمين الذين يعيشون في بلد واحد لأجل جمع الكلمة وتوحيد الصفوف لمواجهة عدو مشترك يهدد المسلمين وغير المسلمين في ذلك البلد على السواء.

رابعاً- الحوار الإسلامي مع غير المسلمين وسيلة فعالة لمنع حدوث الفتن الطائفية، التي يمكنها أن تمزق كيان الأمة الواحد، التي يعيش فيها المسلمون وغير المسلمين، حيث تستغل بعض الجهات الخارجية هذا الواقع، لبث بذور الفتن والشقاق والتناحر، بين أبناء الوطن الواحد، بحجة هذا مسلم وهذا غير مسلم، الأمر الذي يؤدي إلى تقسيم ذلك الوطن إلى دويلات متفرقة، أو يؤدي إلى حروب داخلية متواصلة كما حدث في لبنان الذي عاش خمس عشرة سنة (١٩٧٥-١٩٩٠م) داخل لهيب ودمار هذه الحروب.

وهنا لابد من الإشارة إلى ملاحظة مهمة وهي: أنه إذا فكر بعض المسيحيين الذين يعيشون بين المسلمين إذ فكر هؤلاء في بعض الأوقات بطلب الحماية لأنفسهم من قبل الدول الأجنبية عنهم، بحجة الخوف على مصيرهم وحقوقهم بين المسلمين.

فإن هذا التفكير خاطئ ومنحرف حيث أثبتت التجارب والوقائع التاريخية أن المسيحيين الذين يعيشون مع المسلمين في بلادهم لا سند لهم مطلقاً ولا حماية لحقوقهم ولا تأمين لمصيرهم إلا من قبل المسلمين.

والسبب في ذلك هو أن المسلمين عندما يدافعون عن المسيحيين في بلادهم ويحمونهم من شتى الأخطار إنما يفعلون ذلك بدافع ديني منهم، وفرض شرعي عليهم، نابع عن عقيدة راسخة بأن المسيحيين معهم إنما هم في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ على حين أن الدول الأجنبية التي تدّعي أنها تريد حماية المسيحيين في بلاد المسلمين إنما تفعل ذلك بدوافع استعمارية ولأجل مصالح سياسية واقتصادية وغيرها.

وقد وعى المسيحيون في البلاد الإسلامية هذه الحقيقة وفهموها حق الفهم فمن ذلك الوعي على سبيل المثال أنه عندما دخلت فرنسة إلى بلاد

الشام مستعمرة لها في عام (١٩٢٠م) وأوجدت دولة سورية ودولة لبنان وكل ذلك بحجة وادعاء حماية الأقليات المسيحية في بلاد الشام وقف (فارس الخوري) وهو من أكبر رجال الفكر والسياسة المسيحيين آنذاك في سورية وقف في جامع بني أمية الكبير في دمشق ضمن احتفال أقامه المسلمون ضد الوجود الفرنسي وخطب قائلاً: «إن مبرر وجود فرنسة في هذه البلاد هو حماية النصارى أنا نائب النصارى فارس الخوري أطلب الحماية منكم أيها المسلمون وأرفضها من فرنسة»(١).

وقد جاء في كتاب (من يحمي المسيحيين العرب؟) وهو دراسة وتحليل تاريخي وواقعي، حتى عام (١٩٨٥م) إثبات من قبل الكاتب - وهو المسيحي الماروني- أنه لا يمكن أن تأتي دول أوربة الغربية باسم المسيحية لحماية المسيحيين في بلاد المسلمين التي يعيش فيها المسيحيون، ولا يمكن - لما يسمى دولة إسرائيل- أن تدعي أنها دخلت لبنان عام ١٩٨٢م بحجة حماية المسيحيين فيها.

وإنما الحماية الحقيقية للمسيحيين في البلاد العربية هي اتجاه المسيحيين للتلاحم والتفاهم مع المسلمين في هذه البلاد ليتابعوا سوية المسيرة التاريخية الرائعة في التآخي الإنساني والتعايش السلمي، الذي سجله المسلمون والمسيحيون في هذه البلاد عبر العصور التاريخية المتوالية(٢).

خامساً- الحوار الإسلامي مع غير المسلمين يمكن توجيهه لإظهار الحقائق المتمثلة في الدين الإسلامي الحنيف ومحو الصورة المشوهة له عند غير المسلمين ومواجهة كل الافتراءات والادعاءات والتشويهات الباطلة التي ألحقها أعداء الإسلام به.

وبهدف عرض قدرة الإسلام على مواكبة كل تطورات العصر الحديث

---

(١) المسيحيون العرب (ندوة) ص٣١.
(٢) انظر كتاب: من يحمي المسيحيين العرب؟ تأليف: فيكتور سحاب.

وتقديمه للحلول المناسبة لكل المشاكل والمآزق التي تواجه البشرية حالياً في شتى مجالات الحياة الإنسانية.

وقبل الختام لا بد من تسجيل التوضيح الآتي: وهو أن تكون الحوارات المتعلقة بالجوانب العقائدية والتشريعية محصورة بين المتخصصين والباحثين من كلا الطرفين الإسلامي وغير الإسلامي.

والأولى الذي نميل إليه أن لا تكون موضوعات الحوار موضوعات جدليةً عقدية عقيمة، يتشدد كل جانب فيها لمعتقده وتفتح الأبواب واسعةً أمام تعصبات البسطاء من الناس فلربما يؤدي ذلك إلى غوغائية وسطحية لا تحمد عقباها.

إن المسلمين وغير المسلمين ممن يعيشون في بلد واحد مدعوون اليوم وخاصة في العالم الثالث وبالخصوص في العالَمين العربي والإسلامي، مدعوون إلى حوار هادئ هادف للعيش المشترك فلدينا من المشاكل والأخطار ما يحيق بالجميع ولا يفرق بين مسلم وغير مسلم، لدينا عدو مشترك يريد اجتثاث جذورنا وتاريخنا وتراثنا وديننا وقذائف هؤلاء الأعداء وصواريخه عندما تسقط لا تفرق بيننا فهذا الهدف والموضوع هو الفائدة الأولى في حوارنا: (كيف نواجه الخطر الأكبر: الصهيونية العالمية والصليبية الغربية وقوى الطغيان والعولمة).

وهنا أحب أن أورد كلاماً للشيخ بهجة البيطار الدمشقي رحمه الله حيث يقول: «كنت أدعو إلى التعاون بين المسلمين والمسيحيين... لأننا ننشد من ورائه الخير العميم لهذه البشرية المهددة بالفناء بما أحدثت المدنية المادية في الشرق والغرب من القنابل الذرية والهيدروجينية وغيرهما وإن الحرب إذا وقعت - لا قدر الله - يكون وقودها هذا العالم المعذَب وتكون من ورائها النهاية الأخيرة لعالمنا هذا وإن أول عمل يدعونا إليه الواجب الإنساني الخالص، هو نصرة الضعفاء والمظلومين في الأرض وهذا لايتم إلا بالتضامن

والتعاون بين أهل الملل السماوية»[١].

نعم هناك تحديات تواجهنا جميعاً مسلمين وغير مسلمين كالفساد الأخلاقي وانفكاك عرى الأسر، ومؤسسةُ الزواج لدى المسلمين وغير المسلمين يخشى عليها من الذوبان أو التضعضع، يجب أن يسعى الجميع لمواجهته، والأمراض الجنسية تفتك هنا وهناك ونحن لدينا في أسرنا المسلمة وكافة الأسر الشريفة في العالم حصانة جيدة ضدها فيجب أن نحافظ على هذه الحصانة؟!...

إن المخدرات بكل أصنافها تريد ابتلاع شبابنا وشاباتنا في طوفان عجيب فأين ندوات الحوار الإسلامي مع غير المسلمين لمواجهتها؟!...

إن هناك موضوعات أخرى تهمنا جميعاً كالحفاظ على البيئة - ومكافحة البطالة - والفقر - والجهل - والفتن الطائفية - وحروب الإبادة والتطهير العرقي...

إن الوافد الجديد باسم العولمة يريد اجتثاث جذور الجميع غير آبه بمئذنة مسجد، أو برج كنيسة، أو محراب مذبح.

إننا مهددون في بنيتنا الأخلاقية سواء في البيت المسلم أو في البيت غير المسلم، فأمهات فضائل الأخلاق التي تدعو إليها الأديان والتي يدعو إليها الإسلام تحتاج إلى إعادة بناء وتأصيل في نفوس أجيالنا الصاعدة كالصدق والأمانة والوفاء بالعهد وحب الآخرين والإيثار والتواضع وغيرها.

إن ما سبق هو أقل فوائد الحوار التي تفيد المسلمين وغير المسلمين.

وللبيان أيضاً هناك تطرف إسلامي إسلامي / ومسيحي مسيحي/ وإسلامي مسيحي / ومسيحي إسلامي وغيره/ وهو خطير على الوسطية والاعتدال التي يحياها عقلاء المسلمين والمسيحيين وغيرهم ويدعو إليها القادة الواعون للجانبين وهذا يحتاج إلى ندوات حوارية لبحث أسبابه وطرق علاجه ومواجهته.

---

(١) انظر: الإنجيل والقرآن في كفي الميزان ص٢٣.

تلك هـي الرسـالة التي أحـبـبت أن أوصـلهـا إلى الناس عـامـة والمسلمين خاصة من خلال هذه المحاضرة آملاً أن أكون قد وفقت لذلك.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع حسب ورودها في البحث

١- لسان العرب، ابن منظور المصري.

٢- سنن الترمذي.

٣- الحوار الإسلامي المسيحي، بسام داود عجك.

٤- أبجد العلوم، صديق قنوجي.

٥- صحيح البخاري.

٦- القاموس المحيط، الفيروز آبادي.

٧- التعريفات، الجرجاني.

٨- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، فؤاد عبد الباقي.

٩- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي.

١٠- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي.

١١- سيدنا محمد رسول الله ﷺ، عبد الله سراج الدين.

١٢- ضوابط المعرفة، عبد الرحمن حبنكة.

١٣- كبرى اليقينات الكونية، محمد سعيد رمضان البوطي.

١٤- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي.

١٥- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي.

١٦- الخراج، أبو يوسف القاضي.

١٧- المسيحيون العرب، ندوة، مؤسسة الأبحاث العربية.

١٨- من يحمي المسيحيين العرب؟ ، فيكتور سحاب.

١٩- الإنجيل والقرآن في كفتي الميزان، بهجة البيطار.

صفحة أبيض

إسهام الأقليات المسلمة
في
الحوار الحضاري والثقافي

إعداد:
د. إبراهيم جاو
عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد ،،،

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [**التوبة**: ٧١]. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا». ثم شبك بين أصابعه(١) فإن الأمة الإسلامية أمة واحدة، تؤازر بعضها بعضا، سواء كانوا في مشارق الأرض أم مغاربها، سواء كانوا في دار الإسلام أم خارجها.

عندما يتطرق الحديث عن الأقلية المسلمة، يتذكر المرء بقوله سبحانه وتعالي في سورة الأنفال: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [**الأنفال**: ٢٦]. حيث أن المرء المستضعف يتقوى بعزة الإسلام ويتمكن في الأرض بقوة الإيمان ونصر الله القوي العزيز. فإذا عملنا مراجعة لتعداد المسلمين في أنحاء المعمورة، لوجدنا أن تشكيل الأقلية المسلمة يتجاوز لأكثر من ثلث سكان العالم الإسلامي(٢)، تعيش في أوطان تختلف فيها صنوف التحديات، فالأقلية المسلمة توجد في مناطق متعددة بقارة آسيا وفي كل بلدانها غير المسلمة وكذلك في القارات الأفريقية والأوربية والأمريكيتين. وحسب تقدير أهل الذكر قد بلغ مجموع تعداد «الأقلية المسلمة» في العالم أكثر من أربع مئة مليون نسمة. أتشرف بأن أبذل جهدي المتواضع لتقديم هذه الأوراق بين يدي الحضور للتفاعل في العناية والاهتمام بقضية الأمة

---

(١) صحيح البخاري جـ١٠ ص٤٩٩/٤٥٠.

(٢) ص١١ الأقليات المسلمة في آسيا واستراليا - السيد عبد المجيد بكر.

الإسلامية. فإن أصبت فبتوفيق الله تبارك وتعالى، وإن أخطأت فمن نفسي وأسأله تعالى أن يعيذني من الشيطان الرجيم.

قضية «الأقلية المسلمة»

من الواجب التطرق للبحث عن المقصود من مصطلح «الأقلية المسلمة» قبل الخوض في إسهاماتها في الحوار الحضاري والثقافي. لقد شاع هذا اللفظ في عصرنا الحاضر، نتيجة لكثرة الهجرات وتقارب العالم بعضه مع بعض. وقد اهتم القانون الدولي بالأقلية العنصرية أوالعرقية ولم يلتفت إلى الأقلية الدينية بنظرة خاصة متميزة، على الرغم من الاختلاف الكبير بين الانتماء العرقي والانتماء الديني[1]. بينما التفريق في الشريعة الإسلامية يقوم على أساس الاختلاف الديني، مع بقاء الانتماء القومي أوالعرقي لكل فئات الأمة والدول الإسلامية، حيث تضم هذه الدول قوميات وانتماءات عرقية مختلفة، إلا أنها تنصهر جميعا في بوتقة الانتماء للإسلام، ولا تقف العنصرية أوالقومية أوالعرقية حاجزا أمام الانتماء الأوسع للمسلمين وهوالانتماء في العقيدة. وهذا دليل واضح بأسبقية الشريعة الإسلامية في تنظيم شئون الأقلية غير الإسلامية والتي تعرف بأحكام أهل الذمة والمستأمن، وهي جديرة بالإشادة بالرغم أنها ليس ضمن مجال حديثنا الآن.

تعريف «الأقلية المسلمة»

في واقع عصرنا الحاضر، يمكننا أن نحدد «الأقليات المسلمة» بأنها: المجموعات الإسلامية التي أقامت في الدول غير الإسلامية، سواء كانت تحمل الجنسية الإسلامية أم جنسية الدولة التي تقيم فيها وسواء كانوا من المسلمين الذين هاجروا من بلاد الإسلام، أم الذين اسلموا من سكان تلك الدول[2].

---

(١) ص١٠٦-١٠٩ العلاقات السياسية الدولية - إسماعيل صبري مقلد.

(٢) ص٣٦ السلام العالمي بين الإسلام والفكر الغربي - د. سعيد حارب المهدي (أبحاث المؤتمر الإسلامي العام الرابع).

ويرى فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي :أن عصرا جديدا للمسلمين المهاجرين الذين يعيشون كأقليات في غير الدول الإسلامية قد بدأ[١]. ويقسم فضيلته مراحل هذا العصر الجديد كما يلي:

١- مرحلة الشعور بالهوية.
٢- مرحلة الاستيقاظ.
٣- مرحلة التحرك.
٤- مرحلة التجمع.
٥- مرحلة البناء.
٦- مرحلة التوطين.
٧- مرحلة التفاعل.

ففي الواقع أن الأقليات المسلمة المعاصرة قد تقيم في دول أومجتمعات يسمح فيها القانون الوضعي عندهم بحرية التدين باعتبارها جزءا من الحريات العامة التي يكفلها القانون للفرد أومن حقوق الإنسان الأساسية كما جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بالأمم المتحدة[٢]. وربما تقيم هذه الأقلية المسلمة تحت وطأة الظلم والاضطهاد ولا حول ولا قوة لهم، فيجب على الدول الإسلامية والهيئات الإسلامية الدولية مناصرتهم وأن تعاضدهم بما لديهم من قوة، للدفاع عنهم والمطالبة بمنحهم حقوقهم كاملة. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم»[٣].. وقوله صلى الله عليه وسلم: «المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم»[٤]....

بما أن رسالة الإسلام رسالة عالمية خالدة، وكل مسلم حيثما كان، عضوا

---

(١) ص٢٦ المشكلات الفقهية للأقليات المسلمة في الغرب - د. يوسف القرضاوي (أبحاث المؤتمر الإسلامي العام الرابع).
(٢) المعتمد بموجب قزاز الجمعية العامة رقم٢١٧ ألف (د-٣) في ١٠/١٢/١٩٤٨م.
(٣) صحيح البخاري جـ٤ ص٨٧ في فضائل المدينة.
(٤) زاد المعاد للإمام ابم القيم جـ٣ ص١١٢ أخرجه أبو داود.

في أمة الإسلام العالمية، فيتمتع بالأخوة الإسلامية على امتداد بلاد الله الواسعة. فينبغي أن نخصّ الرعاية والمؤازرة للأقليات المسلمة، ثم نشجعهم على الإسهام في البذل والعطاء .

معيار الأقلية والأكثرية

يجدر الإشارة أيضا إلى المفهوم بالأقلية هنا ليست أقلية في العدد، بالكمية أوالكم العددي السائد في الدنيا عند العوام ، حيث أن القلة والكثرة تحكمها القدرة في العطاء. وفي الآية الكريمة: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [**البقرة**: ٢٤٩] وقد كان في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسير صحابته ومن تبعهم من السلف الصالح خير دليل في أن الغلبة والنصر وتحقق الأهداف الإسلامية السامية ليس في العدد الهائل أوالكثرة في المؤن، إنما العبرة بالإخلاص والتقوى وتوفيق الله سبحانه وتعالي.

الإسلام ومبدأ التسامح الديني

يحسن بنا أن نتعرّف بإيجاز على الموقف الإسلامي الصحيح لتنظيم العلاقات البشرية، حتى تتمكن الأقلية المسلمة من معرفة معيار التعامل مع المجتمع الذي تعايشه أوالدولة التي تنتمي إليها وفقا لقوانينها الوضعية . حيث أن تنظيم العلاقات بين «الإسلام» ومناطق أوبلدان غير الإسلامية تتبع لقواعد فقهية واضحة جلية . فإن الدين الإسلامي يدعوالإنسانية كافة إلى تصحيح عقيدتها لعبادة الله، الخالق الذي لا معبود سواه، وإتباع هدي رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذي بعث رحمة للعالمين. فالإسلام جاء لإسعاد البشرية كافة، يشمل على عقيدة وعبادة ونظام مثالي مفصّل لحياة البشرية كافة.

يعترف النظام الإسلامي بالرسالات السماوية والرسل السابقين، عليهم أفضل الصلاة والسلام، وكتبهم المنزل. فالإسلام في الحياة الواقعية العملية يقرّ ما عليه الآخرون ويتسامح مع غيرهم ويتعايش معهم، سواء كان ذلك

داخل البلاد الإسلامية أوغيرها. تجنباً للصراع والتصادم ومنعاً من تدمير مقومات الحياة الآمنة. فالإسلام حريص على الحفاظ بقدر الإمكان على مقتضيات الجسور المشتركة بين الناس، ومن غير يأس في تحقيق الغاية الكبرى في تعريف الناس كافة برسالة الإسلام الخالدة.

وفي القرآن الكريم دلالة واضحة على مبدأ التعايش السلمي والتسامح مع غير المسلمين: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [**الممتحنة**: ٨].

وقد تفضل الأستاذ الفاضل د. وهبة مصطفى الزحيلي بشرح متطلبات التسامح والتعايش[١] كما يلي:

١- الشعور بأن الناس جميعا هم خلق الله وصنيعه، أوجدهم ليبقوا، لا ليقتلوا أويتعرضوا للإفناء والدمار. هذا يعني أن الإنسانية من أصل واحد، وهم أخوة في

الإنسانية، والأخوة تقتضي المودة ومحبة الخير للآخرين وإنقاذهم من الضلالة والانحراف . قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفس»[٢]. قال الإمام النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث : والمراد بالمحبة إرادة الخير والمنفعة والمحبة الدينية لا المحبة البشرية، ويحمل ذلك على عموم الأخوة، حتى يشمل الكافر والمسلم، فيحب لأخيه الكافر ما يحب لنفسه من دخول الإسلام، كما يحب لأخيه المسلم دوامه على الإسلام، ولهذا كان الدعاء بالهداية للكافر مستحباً[٣]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم اهد قومي إنهم قوم لا يعلمون».

٢- تحقيق مبدأ التكافل بين الأمة في مجتمع معيّن باعتباره ترجمةً أومظهراً

---

(١) ص٤ موقف الإسلام من اتباع الرسالات الإلهية الأخرى ومن الأنبياء والرسل والكتب الإلهية. د. وهبة الزحيلي (أبحاث مؤتمر مكة المكرمة الثالث).

(٢) أخرجه الشيخان

(٣) شرح الأربعين النووية.

للأخوة، وقد تحقق هذا المبدأ في دولة الإسلام، فكان جميع الرعية مشمولين به، في أحوال العجز والمرض والشيخوخة والمحنة، لتوفير متطلبات الحياة العزيزة الكريمة، والرخاء والسعادة، فيرتاح الراعي والرعية.

٣- الإحساس بالمسؤولية عن الآخرين في دعوتهم إلى الخير والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر،عملا بواجب التبليغ عن الله تعالى، ولقوله صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهومسئول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهومسئول عن رعيته، فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»(١)

٤- الانطلاق من قاعدة المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات . وهذه المساواة قررها القرآن الكريم بنحوأشمل في مطلع سورة النساء مبينا الوحدة الإنسانية في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ... الآية** ﴾ [**النساء**: ١].

إن الحرية تلازم تقرير مبدأ المساواة، فالناس جميعا أحرار في اختياراتهم الدينية وغيرها، ولا يكون الحساب في الآخرة إلا على أساس هذه الحرية، فليس من العدل إطلاق الحساب على ما يكره عليه الإنسان، لذا قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾ [**فاطر**: ٥]. أي : لا يغرنكم الشيطان. وقال سبحانه وتعالى مهدداً المقصرين: ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. الآية** ﴾ [**الكهف**: ٢٩].

المساواة في الإسلام

يعتبر الإسلام جميع البشر من الجنس الآدمي متساوين، فلا تميّز بين شخص وآخر من حيث الجنس أواللون، ولا تفاضل بين جماعة وأخرى بسبب الغنى والفقر، ولا من حيث الحسب والنسب. جاءت الشريعة بنصوص صريحة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والشيخان.

تقرر المساواة وتفرضها فرضا، فالقرآن يقررها ويفرضها على الناس جميعا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [**الحجرات**: ١٣] ويكرر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هذا المعنى: «الناس سواسية كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى»(١).

وبعد هذا البيان الموجز للنهج الذي يبني عليه العلاقات الدولية لدي المسلمين، يمكن للقراء الكرام أن يدرك مدى التسامح للدين الإسلامي الذي هوشرع الله الصالح للبشرية جمعاء، وصلاحية الشريعة الإسلامية التي يمكن تطبيقها في كل مكان وزمان.

الإسلام دين الحوار

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ... الآية﴾ [**آل عمران**: ٦٤]. يقول الإمام ابن كثير في تفسيره: هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم(٢). وهي دلالة بليغة ووافية على عناية الإسلام بالحوار مع غير المسلمين. لقد أحسن معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي في بيان عمق مبدأ الحوار والتعايش في مفهوم الإسلام: حيث ينطلقان من قاعدة إيمانية، ويعتبر الحوار الحضاري عند المسلمين ثمرة التصور الإسلامي للإنسان الذي يقوم على أساسين:(٣)

أولها:- تحديد غاية الوجود الإنساني- وهي عبادة الله والخضوع له - تلك الغاية التي يتخذ الإنسان الأسباب لتحقيقها.

وثانيها:- هومد الوعي بالوجود الإنساني إلى ما وراء الحياة الدنيا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٧١.

(٣) كلمة افتتاح «ندوة الإسلام وحوار الحضارات» لمعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي - جامعة المنصورة ١٤٢٢.

القصيرة الفانية ـ إلى الحياة الخالدة الباقية .وإذا استوعب المحاورون الآخرون هاتين القاعدتين أمكن أن يتوصل المسلمون معهم إلى العدل والقسط في التعامل.

إن قواعد الحوار الحضاري القائمة على مفهوم عالمية الإسلام توجب على المسلمين القيام بمهمة التعريف بالإسلام على أنه الدين الإلهي الخاتم الذي جاء مصدقا لجميع الأنبياء والرسل، كما أنهم مطالبون بتفنيد ما يتعرض له الإسلام عند المسيئين له من التحريف والادعاءات على أنه العنف والجهل والفقر والمرض .، بينما هوفي الحقيقة الدين الذي يحث على التسامح ويأمر بالعلم والتعلم ويحذر من الفقر والفاقة وجميع الأمراض، وذلك خلافا لما يروجه بعض الناس من تصورات خاطئة عن الإسلام.

ومن أجل تصحيح مثل هذه التصورات والانطباعات أوالتفسيرات الخاطئة عن الإسلام، وجب علينا الحوار بالتي هي أحسن مع الالتزام بالحقيقة في التعامل مع الوقائع، لأن الحق واحد كما يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ [**آل عمران**: ١٩]. فالبغي من صفات الإنسان وليس من صفات رسالات الله، والتاريخ مليء بالجوانب المضيئة في العلاقات بين المسلمين وغيرهم، وهويشهد بسماحة الإسلام وعدالته مع غير المسلمين.

إن ترحيب المسلمين بالحوار بين الحضارات يفتح لهم باب التأكيد على تعميم القيم المشتركة بين أبناء البشرية. مع تحديد نقاط واضحة للحوار تنبذ سياسة الاستعلاء الحضاري أوالعنصري، وتعرف بمبادئ الإسلام، وتعرض أحكامه في القضايا المثارة، ومن هنا يصبح النقاش والحوار بين الحضارات وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية، ونشر قيم الإسلام لمواجهة الظلم، وعلى أساس من هذه المهمة العظيمة ترى أن التواصل مع الأمم، والحوار بين الحضارات مسئولية إسلامية، فقد أمرنا الله بالحوار بالتي هي أحسن، قال الله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ**

أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

يشهد العالم الإسلامي تجدد الاهتمام بالحوار بالسنوات الأخيرة، سواء كان الاهتمام بالحوار للتعرّف على محاسن الإسلام أوللتعرف على حقيقة الإسلام. ويرى المستشرقون وكثير من علماء الغرب أن العلاقات بين الإسلام وغير المسلمين هي علاقات «الصراع والتصادم»(١) إن صح التعبير، نتيجة لسوء الفهم أوالجهل أوالتجاهل عن الواقع. وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، تحولت أنظار العالم جميعا لتركز على الإسلام والحضارة الإسلامية. فهي فرصة سانحة للتحرك نحودعوة شاملة لتعريف العالمين بمحاسن الإسلام.

التحضير الإسلامي للحوار الحضاري والثقافي

لأجل إبراز محاسن الإسلام وتعريف الناس بفضائل الحضارة الإسلامية وخدماتها الجليلة للمجتمع الإنساني عبر العصور المختلفة، يجب علينا التحضير المسبق مع الإعداد لها إعدادا جيدا. ويتطلع فضيلة الأستاذ الدكتور جعفر عبد السلام إلى قيام الجامعات الإسلامية والحكومات والمجتمعات الإسلامية باتخاذ الوسائل الآتية(٢):

١- الاهتمام بدراسة الحضارة الغربية والحضارات غير الإسلامية دراسة نقدية قوية للاستفادة من إيجابياتها وتجنب سلبياتها، وبالطبع فإن هذه الدراسة يجب أن تأخذ مكانها.

٢- إجادة اكتساب مهارات التعامل مع هذه الحضارة بالاحتكاك المتواصل بها دون التفريط في المكونات الرئيسية للذات، وعدم الاتجاه إلى تقليد غير المسلمين في العادات والطباع، أوالاقتراب من المحرمات.

---

(١) يقول بذلك كل من المؤرخ والفيلسوف الإنجليزي الشهير ارنورد تويمبي والمستشرق الشهير برنارد لويس ثم تنادى بذلك الأمريكيان المعاصران: صموئيل هنتجتون وفرتسبس فوكوياما، بينما يجادلهما أدوارد سعيد بشدة وينتقد نظريتهم.

(٢) نحو بلورة معاصرة العلاقة بين الإسلام والآخر - د. جعفر عبد السلام (أبحاث ندوة الإسلام وحوار الحضارات - جامعة المنصورة ١٤٢٢هـ).

٣- إجراء دراسات حول المهمة الأساسية للمرأة في الإسلام وإظهار الحقوق التي كفلها الإسلام لها والواجبات التي قررها عليها، وإعطاء هذه المسائل أهمية في الدراسات الاجتماعية والإنسانية وفي مرحلة التعليم الأساسي كذلك.

٤- إعداد أجيال قادرة على فهم مقومات الحضارات المختلفة وتعويد الأجيال على التعامل معها بمنطق القوة، ولن يتسنى ذلك إلا إذا فهمت ووعت طبيعة الحضارة الإسلامية والخصائص التي تقوم عليها.

٥- تشجيع الدراسات والبحوث المتصلة بأعلام المسلمين من العلماء والمفكرين لإظهار عناصر القوة في التفكير الإسلامي الذي قام على أساس القيم والتربية الإسلامية.

دور الأقلية المسلمة في الحوارات

بناء على ما استعرضت سابقا في تحديد مفهوم الأقلية المسلمة، بأنها المجموعات التي تقيم في دول غير إسلامية، وقد سردت تقسيم فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي للمراحل التي تمر بها الأقليات المسلمة، بأنها الآن في مرحلة التفاعل الإيجابي مع المجتمع، فلا مجال في هذه المرحلة للعزلة والانكفاء على الذات، والحذر من مواجهة الآخرين، فقد غدت الأقليات المسلمة واقفة على الأرض صلبة، واثقة من نفسها، معتزة بذاتها، قادرة على التعبير عن هويتها، والدفاع عن كينونتها وإبراز خصائصها، وتقديم ما عندها من رسالة حضارية للبشرية(١).

ولهذه الأقليات المسلمة مساهمات فعالة وتفاعل متجانس مع بقية أجزاء الأمة الإسلامية في بقية أنحاء العالم. فنرى ونسمع كما نقرأ عن مساع حثيثة من بعض الدول الإسلامية مثل المملكة العربية السعودية وماليزيا ومصر لم تدخر جهدا في رعاية الأقليات المسلمة، وإقامة الندوات والمؤتمرات خارج العالم الإسلامي المألوف، بالتعاون مع الأقليات المسلمة

---

(١) المشكلات الفقهية للأقليات المسلمة في الغرب - د. يوسف القرضاوي (أبحاث المؤتمر الإسلامي العام الرابع).

في أنحاء العالم. وكانت لها نتائج مرموقة تبشر بخير وتفاؤل وتشجع على اتخاذ خطوات إيجابية للقيام بمزيد من الحوارات الحضارية والثقافية.

لقد سبق لعلماء المملكة العربية السعودية تنظيم ندوات علمية في الرياض وباريس والفاتيكان ومجلس الكنائس العالمي في جنيف والمجلس الأوربي في ستراسبرغ حول «الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام» فيما بين فريق من كبار علماء المملكة العربية السعودية وبين آخرين من كبار رجال الفكر والقانون في أوربا، وذلك منذ عام ١٣٩٢هـ[١]. وقيام المؤسسات الإسلامية الأخرى مثل الأزهر الشريف أوالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمحاورة غير المسلمين لتوضيح حقيقة الإسلام وإزالة الشوائب. أرى أن هذه الحوارات تصلح أن تكون نموذج للأقليات المسلمة في الإقتداء أوالاقتباس منها. ففي الحوار الحضاري تتحقق الأهداف الآتية:

١- تقريب المفاهيم وإزالة الشوائب : تظرا لاختلاف الخلفية الثقافية والدينية، قد يسيء المرء في تفسير الاصطلاحات، والحوارات تتوصل إلى الفهم الجلي لهذه الاصطلاحات. وإن كان لا مشاحة حول الاصطلاح. ذلك مثل تفسير الجالية الصينية في ماليزيا للإسلام بمعنى الدين الذي يعتنقه الملاويون فقط[٢]. أوالمقصود من كلمة التسامح لدي المسيحيين الأوربيين[٣]. فالمرء يريد من عمله دائما كسب الصداقة لا اكتساب العداء.

٢- إن معظم حالات الانفعال والخروج من سيطرة نفسانية معتادة نتيجة للجهل، الجهل بحقيقة الأمر أونتيجة التعصب أونبع من الخوف. فالجهل أمر خطير، يجب إزالتها حتى تزيل التشوهات التي تعرض لها الإسلام.

---

(١) كان يرأس وفد المسلمين سماحة الشيخ محمد على الحركان يرحمه الله . وقد نشر تفاصيل الحوار باللغة العربية ثم ترجمت إلى عدة لغات عالمية تحت إشراف رابطة العالم الإسلامي لتعميم الفائدة.

(٢) بحث كتبه د. تشوهونغ يوان أستاذ بجامعة تايوان الوطنية وباحث بمعهد التاريخ المعاصرة بالأكاديمية الصينية في تايوان بعنوان

"Integration or Crash? Primitive Observation on the Development of Chinese Muslims in Malaysia"

(٣) حوار حول الأديان «أهدافه - شروطه - وسائله» للدكتور خالد محمد الأصور(ندوة الإسلام وحوار الحضارات - جامعة المنصورة ١٤٢٢هـ).

٣- مناشدة السلام والتآلف تتطلب للانفتاح . وذلك بأن نتخذ الموقف الإيجابي من التفاهم وإقامة علاقات متداخلة مع الآخرين غير المسلمين على سبيل تبادل مصالح مشتركة. وكذلك لا بد من محاولة تفهم الآخر وتقبله كطرف آخر، لغرض الحفاظ على خصائص وصفات كل جانب من الطرفين مع الحفاظ على استمرارية الحوار والتبادل الثقافي(١). تطبيقا لقولة سبحانه وتعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.. الآية** ﴾ [**النحل**: ١٢٥].

وأحب أن أشير إلى بحث قيم لفضيلة الدكتور أحمد بن عبد الرحمن القاضي في الحوار(٢). حيث أوضح في بحثه المنهج الشرعي للحوار وأساليب دعوة أهل الكتاب وضرب أمثلة عن دعوة السلف الصالح رضوان الله عليهم ثم أتي بتوصيات مفيدة، يجب على المتعاملين في هذا المجال الاستفادة من أبحاث العلماء المختصين مع الحرص على إجراء اللقاءات المستمرة لكسب المهارة وتوريث خبراتهم لغيرهم .

الحوار الحضاري للأقلية المسلمة في تايوان

تايوان منطقة مزدحمة آهلة بالسكان، حيث يقطن ٢٣ مليون من السكان في منطقة لا تتجاوز مساحتها ٣٦الف كيلومتر مربع من الأرض، وثلثا هذه المساحة مناطق جبلية غير صالحة للسكن. والمجتمع التايواني مجتمع متعدد القوميات، معظم أهالي تايوان يعتنقون الديانة البوذية، بينما هناك مسلمون ومسيحيون ومنتسبون الديانات المحلية «طاو» أوالطاوية التقليدية. تعداد المسلمين في المنطقة لا يتجاوز مئة ألف بمعنى أن المسلمين أقلية لا يصل عددهم إلى ١٪ من التكوين السكاني في تايوان. ومعظمهم من المهاجرين إلى البلد بعد عام ١٩٤٨م من البر الصيني. ولكن سكان المجتمع التايواني

---

(١)حوار حول الأديان" أهدافه - شروطه - وسائله" للدكتور خالد محمد الأصور(ندوة الإسلام وحوار الحضارات - جامعة المنصورة ١٤٢٢هـ).

(٢) الحوار مع أتباع الأديان الأخرى في عصر العولمة (بحث مقدم في المؤتمر الإسلامي العام الرابع).

يعيشون في وئام، يتمتع المسلمون بالرغم من قلتهم، حرية إقامة الشعائر الإسلامية، ولهم مساجد ومراكز لإقامة أنشطة مختلفة تخصهم أويشاركون غيرهم في مناسبات مختلفة مع الحفاظ على عقيدتهم.

هناك جمعية تايوانية تسمى «جمعية معتنقي الديانات»، ويلاحظ من التسمية مقصد إخراج الملحدين في المشاركة. يشارك في هذه الجمعية مندوبون من الجمعية الإسلامية الصينية في تايوان، لأجل التنسيق والتعاون بين الديانات الموجودة في البلد، وكسب الصبغة الشرعية للدين الإسلامي في البلد. وتقيم هذه الجمعية ندوات واجتماعات مختلفة، فيجد المسلمون فرص لتعريف الآخرين بحقائق الإسلام.

ويقوم أئمة ودعاة المسلمين في تايوان بمشاركات ثقافية مختلفة مع فئات المجتمع، وتنظم المدارس والجامعات مع المؤسسات الثقافية الأخرى زيارات للمساجد والمراكز الإسلامية، بهدف التعرف على الدين الإسلامي، ويرى المسلمون هناك بأنها فرصة جيدة للحوار الثقافي مع فئات المجتمع. وتسعى بعض المؤسسات العلمية في تايوان بإقامة ندوات أوورش عمل عن الثقافة الإسلامية أوالحضارة الإسلامية أولقاءات مفتوحة، فيعتبرها المسلمون في تايوان فرص جيدة لتبليغ الدعوة .

الندوة الدولية عن الإسلام التي أقيمت في تايوان

بتوفيق الله تعالى أقيمت «الندوة الدولية عن الإسلام» في تايوان في محرم ١٤٢٥هـ، وذلك بالتعاون بين رابطة العالم الإسلامي وجامعة جن جي الوطنية في تايبيه والجمعية الإسلامية الصينية في تايوان، تحت عنوان [الإسلام في شرق آسيا ... حضارة ومعاصرة] كانت الجهود المبذولة من المشاركين مشهودة،حيث تفضل عدد من الأساتذة من المملكة العربية السعودية، مصر وماليزيا، كذلك شاركهم بعض الشخصيات من الأقليات المسلمة من تايوان واليابان وكوريا بأبحاثهم ومقالاتهم، وقد تفضل معالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، الدكتور عبد الله بن عبد المحسن

التركي يشرف بنفسه على جميع ترتيبات الندوة، وقد شكر كثير من الحضور - المسلمون وغيرهم - على هذه الفرصة الطيبة لتبيان حقائق الجوانب المضيئة للحضارة الإسلامية[1].

ولم يترك معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي هذه الفرصة لإجراء حوار ثقافي مع طلاب وأساتذة، فقد تفضل معاليه مشكورا بقبول دعوة هذه الجامعة العريقة، بإلقاء محاضرة للتعريف بحقائق الإسلام، وذلك في اليوم التالي عقب انتهاء الندوة التي استغرقت يومين كاملين. فقد لقي معاليه ترحيبا حارا منقطع النظير، وامتلأت القاعة بالحضور من أساتذة وطلاب الجامعة، والأعجب منها جميعا، كانت أسئلة الحضور تدل على تفهم الحضور وتركيزهم الذهني لمحتويات المحاضرة.

جميع هذه النتائج توحي بأن هناك فرص كبيرة لإجراء المزيد من الحوارات نتيجة لتعطش الناس للحصول على المعلومات الصحيحة عن حقائق الإسلام. وبرزت جهود الأقليات المسلمة وإمكانية إسهامهم في الحوار مع الآخرين. والنتيجة تؤكد لنا مرة أخرى وحدة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فبالتواصل والترابط وإخلاص النية مع التخطيط والتنسيق المسبق، تلاحمت الأقليات المسلمة مع العالم الإسلامي، لتصبح هذه الأقلية المنتجة قوة عاملة والحمد لله رب العالمين. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [**آل عمران**: ٢٠٠].

فهذه ورقتي أسأل الله تعالى أن يجعل عملي فيها خالصة لوجهه الكريم- حاولت فيها البحث عن وسائل مجدية لنشر الرسالة المحمدية والتضامن الإسلامي، خاصة مع الأقليات منهم. سائلا الله أن يكلأها بالعناية والرعاية، إنه على كل شيء قدير.

---

(١) أقيمت الندوة بمدينة تايبيه في يومي٢٤، ٢٥ محرم ١٤٢٥هـ الموافق ١٥، ١٦ مارس ٢٠٠٤م.

إسهام الأقلية المسلمة
في
الحوار الحضاري والثقافي [*]

كتبه:

د. إسماعيل لطفي جافاكيا

رئيس الكلية الإسلامية - جالا/تيلاند

---

[*] بحث مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة، الدورة الخامسة، بعنوان «الحوار الحضاري والثقافي أهدافه ومجالاته)، تنظمه رابطة العالم الإسلامي في الفترة من ٤-٦/١٢/١٤٢٥هـ الموافق ١٥-١٧/١/٢٠٠٥م.

صفحة أبيض

ملخص البحث

إن دعوة جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى خاتمهم وأشرفهم نبيّنا محمّد - عليهم الصّلاة والسّلام - هي الدعوة إلى دين الإسلام وهو الدين الذي يبدأ في بدايته غريبا تعتنقه أقليّة كمّا وكيفا، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ».

فالمسلم في حقيقة وجوده يكون جزءا من كيان الأمّة الإسلاميّة الكبرى، المكلّفة بالتصدّي للواجب الشريف الدعوة إلى الله، الذي يقتضي التقرّب إلى المدعوين، والتفاعل معهم، سواء كان في حالة الأكثريّة أو الأقليّة.

إنّ الأقليّات الإسلاميّة في كلّ مكان من العالم، لا بدّ أن تستشعر أنّها تمثل الأمّة الإسلاميّة في بلادها، ومنطقتها وهي على ثغرة من ثغور الإسلام، تقوم بواجب الدّعوة والحوار الهادف مع أفراد الأكثريّة، لاسيّما في البلاد التي تسمح لذلك. ومن ثمّ فالنهوض بهذه الأقليّات ينطلق من منطلقات عديدة، أهمّها تقوية الذات بما يعني ذلك من تصحيح الأوضاع العامّة في المناطق التي يقطنها المسلمون تصحيحا سليما يقوم على العلم والحكمة من السيرة النبويّة وسير السّلف الصّالح، وتقويم الانحراف من هذه الأوضاع، وتعزيز التضامن والتكامل والتعاون بين أبناء هذه الأمّة لاكتساب القوّة والمناعة والقدرة على الدّفاع عن الوجود والحفاظ على القيم والمقوّمات التي تشكّل الأساس المتين للشخصيّة الإسلاميّة، والمجتمع الإسلامي. ومن الأهميّة بمكان القدرة على الدّفاع عن الحضارة الإسلاميّة، في ظلّ هيمنة حضارة العولمة أو الرأسماليّة على العالم الحالي؛ التي تسعى إلى التغييب الكامل للحضارات الأخرى، والمحاولات المستمرّة لطيّ تلك الحضارات، لتحلّ محلّها الحضارة الماديّة والقيم الجاهليّة.

فالأقليّات الإسلاميّة التي لا تتوفر لديها شروط النهوض وأسباب

التقدّم وإمكانات التغيير من حال إلى آخر إلاّ بالقدر اليسير، يتأكّد عليها الدّفاع عن حقوقها بمختلف الوسائل الممكنة، وترجمة معاني وقيم الإسلام في واقع حياتها وفقا للمنهج الرشيد، وبالعلم والحكمة في إطار الحوار الحضاري والثقافي.

وإذا كان هذا الحوار الحضاري واجب على عواتق المسلمين بشكل عام، فإنّه يكون على الأقليّة المسلمة أوجب ؛ لحاجتها الذاتيّة إليه، بجانب واجبها الدّعوي المكلّف على كلّ مسلم حسب الاستطاعة، فلا بدّ من أن تبذل الجهد الجهيد حتى تخرج عن كونها أقليّة، وتزول عنها هذه الصّفة، أو يتأثر من حولها بها، لا العكس. والأقليّات الإسلاميّة التي عرفت نفسها بأنّها أمّة الإجابة تقوم بمهام الدّعوة، لن تتأثر بما حولها من الأكثريّة الجاهليّة بل تؤثر. والتي تخاف وتتأثر هي الأقليّة كيفا، من حيث قد تكون أكثريّة كمّا.

والحوار الحضاري والثقافي عبارة عن أداء واجب الدّعوة الإسلاميّة المبنيّة على أسس من العلم والمعرفة والحكمة بشتّى الأساليب النافعة، وبأحدث الوسائل المعاصرة، وبمختلف الأشكال المشروعة، على قدرالاستطاعة طاقة وظرفا، وهو الطريقة التي تخالف الشدّة والعنف والتطرّف.

ومن ثمّ يكون الحوار الحضاري والثقافي من أكبر إيجابيّات الإسلام، وأقوى طاقات المسلمين، وهو أفضل الطرائق المجدية النافعة ؛ لاسيّما في هذا العصر، الذي أصبحت الأقليّة كمّا وكيفا ظاهرة للأمّة الإسلاميّة في أكثر بقاع العالم. فلا بدّ أن تركّز نفسها لمواجهة العالم والحضارة الماديّة بهذا الحوار الحضاري والثقافي الهادف، متجنّبة طريقة الشدّة والعنف والتطرّف. ولا يكون الحوار إسلاميا ذي طابع حضاري وثقافي، إلاّ إذا كان صادرا عن المرجعيّة الإسلاميّة الصّحيحة، معبّرا عن الهويّة الثقافيّة والحضاريّة للأمّة الإسلاميّة، أقليّة كانت أم أغلبيّة، مرتكزا على المنهج القرآني المتمثل في قوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [**النحل** : ١٢٥].

ويشترط في هذا الحوار أن يكون حوارا للإفهام، لا لإبهام، وأن يهدف

إلى البناء، لا الهدم. ولا يستقيم هذا الحوار، إلاّ إذا تمسّك بمقوّمات الأمّة الرّاسخة غير القابلة للتبديل والتغيير، وهي العقيدة السليمة، والعبادات الصحيحة، والأحكام الكليّة القطعيّة الدّلالة، والقيم الأخلاقيّة العليا.

والحوار الحضاري والثقافي الذي تسعى إليه الأقليّة المسلمة بتايلاند، يقوم على أساس الحفاظ على العقيدة الصحيحة، والعبادات المرضيّة، مع الحرص على خدمة المصالح العليا لأمة الإسلامية الكبرى، مدافعا عنها بالتي هي أحسن، وفقا للمنهج الإسلامي في الدّعوة إلى الله، وحوار الناس وتعريفهم حقيقة الإسلام وسبل الخير والفضيلة والعدل والسّلام، على علم وبصيرة.

وهذا الحوار في مبناه ومغزاه، هو حوار إنساني، يهدف إلى دعوة الناس عبر التفاهم الإيجابي، والتعايش السّلمي، والتعاون الخيري مع جميع الأطراف في المجتمع المحلي، والإقليمي، والدولي، من أجل إشاعة قيم العدل والسّلم والخير، وهو بحكم صدوره عن المرجعيّة الإسلاميّة، ينأى عن العنف والتطرّف، ويرفض الإرهاب بكلّ أشكاله، ويندّد به في كلّ المحافل، ويدعو إلى احترام حقوق الإنسان وصيانتها، ومنع الظلم، والعدوان والفساد في الأرض.

ويتّرتب على تحديث الأقليّة المسلمة بتايلاند للحوار الحضاري والثقافي الجامع بين الأصالة في المنهج والمرجع، والمعاصرة في الطريقة والوسائل ؛ تحديث البنية الحضارية لها، بتقوية ذاتها وتحصينها، وتكثير الأقلية، عبر القنوات العديدة من الدّعوة الفرديّة والجماعيّة وقوافل الدّعوة، والندوات، ووسائل الإعلام، ثمّ بالترقي في مدارج العلم والمعرفة، والإبداع في حقولهما، واضعة نصب أعينها نشر الرحمة والسلام على جميع المستويات المحلية والإقليمية والعالمية.

أقول قولي هذا و أستغفر الله لي ولكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك، وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله، اللّهمّ صلّ وسلّم وبارك على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه.

تمهيد:

المسلمون شعب أبيّ حيّ يحي بالإسلام، لنظام لحياتهم السعيدة في كلّ مكان، وهم أمّة، يتطلّب منها أن تكون خير أمّة أخرجت للناس، تؤدي واجباتها الدّعويّة فرادى وجماعات، أقليّة وأكثريّة على قدر المستطاع.

يقول تعالى مخاطبا عباده المؤمنين: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [**آل عمران**: ١٠٤].

فالأمّة الإسلاميّة هي الأمّة المنتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمراد بالخير هنا: «الإسلام باتباع القرآن والسنّة » كما رواه ابن مردويه.(١)

فالمسلم في كل حال، وفي كل مكان وزمان، لابدّ أن يكون جزءا من كيان هذه الأمّة الإسلاميّة الكبرى، المكلّفة بالتصدّي للواجب الشريف الدعوة إلى الله، الذي يقتضي التقرّب إلى المدعوين، والتفاعل معهم، سواء كان في حالة الأكثريّة أو الأقليّة. إذ الأقليّة ليست حالة غريبة سلبيّة في الإسلام، وإنّما هي حالة أصليّة أصالة الدعوة الإسلاميّة منذ بدايتها في هذا العالم، فالإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا. بدأ أقليّة كمّا، ويظلّ أقليّة كمّا عبر انتشار أهله في كلّ أنحاء العالم، ثمّ يظلّ أقليّة كيفا في كثير من الأحيان. فإسلام رسول الله ﷺ مع أصحابه بمكّة المكرّمة، أقليّة في أوساط المشركين،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٨١٥/١.

مضطهدة طوال وجودهم في الفترة المكيّة، يحاولون جاهدين من أجل تكثير سوادهم بشتى وسائل الدعوة، والحوار الحضاري حينذاك. وكذلك إسلام الرّسل من قبل، ودعوتهم في كلّ زمان ومكان.

اسمعوا قول الله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [**الأنفال**: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [**الأعراف**: ٨٦].

لذا أرى أنّ الأقليّة في كلّ مكان من العالم، لا بدّ أن تستشعر بذلك. أنّها تمثل الأمّة الإسلاميّة في بلادها ومنطقتها، وهي على ثغرة من ثغور الإسلام، تقوم بواجب الدّعوة والحوار الهادف مع أفراد الأكثريّة، لاسيّما في البلاد التي تسمح لذلك، فوضع الأقليّة المسلمة في بلدان العالم أقرب ما يكون إلى وضع أقليّة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه - رضوان الله عليهم - بمكّة المكرّمة، إلاّ أنّ لها إخوانها في كلّ مكان أكثريّة وأقليّة، تؤيدها وتساندها لمواجهة الجاهليّة بأشكالها المختلفة، بكلّ صبر، وسعة صدر، وضبط النفس، بجانب إبلاغ الدّعوة الصحيحة الحكيمة إلى أكثريّة غير المسلمين.

فمن هذا المنظور تكون الأقليّة المسلمة المرتبطة - بشكل مباشر أو غير مباشر - بإخوانها الغالبيّة المسلمة في عداد الأمّة الإسلاميّة الكبرى، التي لابد أن يتم التعاون على البرّ والتقوى حسبما تقتضيه المصالح العليا لهذه الأمّة. وهي، مع ضعفها وتفكّكها منذ فترات، ما تزال تملك الكثير من المقوّمات التي تنهض بها ماديّة ومعنويّة،إذا وفقت للرّجوع إلى الإسلام الصّحيح، الذي هو المقوّم الأساس لهذه الأمّة.

فالمسلمون في مختلف أحوالهم يتحمّلون مسؤوليّة كبرى في التصدّي للحملات التضليليّة، بالمنهج الإسلامي الحكيم، الذي يدعو إلى السّلام

والتعايش الإيجابي، وينبذ العنف والإكراه، ويرفض الإرهاب بكلّ صوره وأشكاله، ويدينه، ويعدّه إفسادا في الأرض، وعدوانا على الإنسانيّة، وعلى الحضارة بما فيها الفكر والعلم والثقافة.

إنّ النهوض بهذه المسؤوليّة ينطلق من منطلقات عديدة، أهمّها تقوية الذات بما يعني ذلك من تصحيح الأوضاع العامّة في المناطق التي يقطنها المسلمون تصحيحا سليما يقوم على العلم والحكمة من السيرة النبويّة وسير السّلف الصّالح، وتقويم الانحراف من هذه الأوضاع، وتعزيز التضامن والتكامل والتعاون بين أبناء هذه الأمّة لاكتساب القوّة والمناعة والقدرة على الدّفاع عن الوجود والحفاظ على القيم والمقوّمات التي تشكّل الأساس المتين للشخصيّة الإسلاميّة، والمجتمع الإسلامي. ومن الأهميّة بمكان القدرة على الدّفاع عن حضارتنا الإسلاميّة، إذ لا نرى حضارة العولمة أو الرأسماليّة المهيمنة على العالم الحالي ؛ إلاّ التغييب الكامل للحضارات الأخرى، والمحاولات المستمرّة لطيّ تلك الحضارات، لتحلّ محلّها الحضارة الماديّة والقيم الجاهليّة.

إنّ الأقليّة المسلمة التي لا تتوفر لديها شروط النهوض وأسباب التقدم وإمكانات التغيير من حال إلى آخر إلاّ بالقدر اليسير، يتأكّد عليها الدفاع عن حقوقها بمختلف الوسائل الممكنة، وترجمة معاني وقيم الإسلام في واقع حياة هذه الأقليّة وفقا للمنهج الرشيد، وبالعلم والحكمة، وسداد الرأي ومضاء العزيمة.

والأقليّة المسلمة في تايلاند، وفي غيرها من دول جنوب شرق آسيا، تشكّل جزءا لا يتجزأ من العالم الإسلامي، وتمثل مجموع المسلمين في أيّ مكان من العالم. وعلى الأقل تسهم هذه الأقليّة في رفع النسبة المئويّة من تعداد المسلمين في العالم. فالدور الذي تقوم به، أو يمكنها أن تقوم به، من الأهميّة بمكان، وعلى مستويات عديدة، وفي المقدّمة منها، الحوار الهادف والعمل على تصحيح صورة الإسلام، وشرح مبادئه وتعاليمه، والرّد بالطريقة الحكيمة والأساليب الرشيدة على الدعاوى الكاذبة، ودحض الشبهات والافتراءات الباطلة، التي تثار وتروّج ضدّ الدّين الحنيف عقيدة وشريعة

وتاريخا، وحضارة وثقافة ومنهاجا.

فإذا كان الحوار الحضاري والثقافي واجب على عواتق المسلمين بشكل عام، فإنّه يكون على الأقليّة المسلمة أوجب لحاجتها الذاتيّة إليه، بجانب واجبها الدّعوي المكلّف على كلّ مسلم حسب الاستطاعة، فلا بدّ من أن تبذل الجهد الجهيد حتى تخرج عن كونها أقليّة، وتزول عنها هذه الصّفة بإسلام هؤلاء الأكثريّة، أو على الأقلّ يتأثر من حولها بها، لا العكس. فالأصل في الدّعوة هو دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، تلك هي دعوة الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى خاتمهم محمّد عليهم الصّلاة والسّلام.

والأقليّة الإسلاميّة التي عرفت نفسها بأنّها أمّة الإجابة تقوم بمهام الدّعوة، لن تتأثر بما حولها من الأكثريّة الجاهليّة بل تؤثر، بحفظ الله وقوّته، والتي تخاف وتتأثر هي الأقليّة كيفا، من حيث قد تكون أكثريّة كمّا، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

فالحوار الحضاري والثقافي عبارة عن أداء واجب الدّعوة الإسلاميّة المبنيّة على أسس من العلم والمعرفة والحكمة بشتّى الأساليب النافعة، وبأحدث الوسائل المعاصرة، وبمختلف الأشكال المشروعة، على قدر الاستطاعة طاقة وظرفا، وهو الطريقة التي تخالف الشدّة والعنف والتطرّف.

والحوار الحضاري والثقافي من أكبر إيجابيّات الإسلام، وأقوى طاقات المسلمين، وهو أفضل الطرائق المجدية النافعة ؛ لاسيّما في هذا العصر، الذي أصبحت الأقليّة كمّا وكيفا ظاهرة للأمّة الإسلاميّة في أكثر بقاع العالم. فلا بدّ أن تركّز نفسها لمواجهة العالم والحضارة الماديّة بهذا الحوار الحضاري والثقافي الهادف، متجنّبة طريقة الشدّة والعنف والتطرّف.

واقع الأقليّة المسلمة بتايلاند

تايلاند، إحدى الدّول التي فيها رعايا إسلامية، حيث يعتبر مسلموها أقليّة، ذات طابع «ملايوي» متميز عن أكثريّة السكان التايلاندي، بانتمائهم

إلى الأصل الملايوي الذي انتمى إليه غالب سكان جنوب شرق آسيا في كل من ماليزيا وإندونيسيا وبروناي وسنغافورة، حيث يدين أغلبهم بدين الإسلام، بينما غالب سكان تايلاند ينحدرون من أصل صيني وأصول أخرى متفرقة، وغالبيتهم يتديّنون بالبوذيّة.

وتعداد السّكان التايلاندي (٦٣,٠٧٩,٧٦٥) نسمة[١]، حيث تبلغ نسبة المسلمين من ذلك حوالي ٧٪[٢]، ونسبة النصارى وبقيّة المعتقدات والديانات الأخرى في حدود ١-٢٪،والباقي هم البوذيون. والمسلمون متواجدون في كلّ أنحاء البلاد ٧٦ ولاية، إلاّ أنّ معظمهم -- حوالي ٨٠ ٪، يسكنون في منطقة جنوب تايلاند، وهي منطقة تاريخية معروفة بـ«فطاني»، إذ كانت مملكة مستقلّة، حكمها عدد من سلاطين المسلمين الملايويين، ثمّ بعد حدوث مناورات على فترات زمنيّة طويلة بينها وبين قوّات تايلاند، سقطت فطاني وانضمت إلى مملكة تايلاند منذ أكثر من مائة سنة. ولذلك شكّلت عدّة جبهات وطنيّة تحريريّة يقودها المسلمون، وينظمونها للمطالبة باسترداد منطقة «فطاني الإسلاميّة» من أيدي السلطة التايلانديّة، فحدثت بين حين وآخر إصطدامات واغتيالات وهجومات بين رجال الجبهات وبين رجال الحكومة.

أما الحكومة فقامت بعدّة محاولات من أجل تطبيع المسلمين تحت سلطتها، وكذلك لإرضاء العالم الإسلامي بذلك، فمنحتهم الحريّة في ممارسة شعائر الدّين من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها. والتمذهب بأيّ مذهب من المذاهب، ما لم يمسّ أمن الدّولة واستقرارها،لا سيّما بعد صدور آخر الدساتير الوطنيّة عام ١٩٩٨م، المسمّى بالدّستور الشّعبي.

ويبلغ - آنيا - عدد المساجد في تايلاند المسجّلة رسميا (٣,٤٢٤) مسجد[٣]، أمّا المساجد والمصلّيات غير المسجّلة رسميا فيزيد عنهذا العدد

---

(١) أحدث ما أعلنته إدارة الإحصاء الوطني لحكومة تايلاند بتاريخ ٢٠٠٤/٣/٢٤م.

(٢) بل أقلّ من ذلك، حيث تقدّر بـ ٤,٦٪ فقط، وفق الإحصائيّات الرّسميّة لعام ٢٠٠٠م،وعام ٢٠٠٤م إدارة الإحصاء الوطني لحكومة تايلاند.

(٣) وفق إحصائيّة إدارة الديانات التابعة لوزارة العادات والتقاليد، لعام ٢٠٠٤م.

بكثير، تقام فيها الشعائر الإسلاميّة بكل حرية، من رفع الأذان عبر المنارات العالية، وأداء الصلوات المفروضة جماعة وصلاة الجمعة، والدروس الإسلاميّة للكبار والصّغار، ومشاريع موائد إفطار الصائمين في شهر رمضان، وتطبيق سنّة الاعتكاف في العشر الأواخر منه، وغير ذلك من مناشط المساجد.

كما يبلغ عدد المؤسّسات التعليمية الإسلاميّة الأهليّة المسجّلة رسميا أكثر من (٥٠٠) مدرسة وكتّاب والمدارس التي تدرّس فيها العلوم الإسلامية واللغة العربيّة بجانب العلوم العصريّة الحكوميّة، والتي تخضع لأنظمة وزارة التربية والتعليم، مدعّمة من قبل الحكومة في الأمور التشغيليّة كبقيّة المدارس الأهليّة.

وهناك كليّتان إسلاميّتان تدرّس فيهما العلوم الشرعية والأدبية والعلميّة في المرحلة الجامعيّة والعلياإحداهما حكوميّة والأخرى أهليّة.

وثمّة مجالس إسلاميّة رسميّة لتولي الشؤون الإسلاميّة في (٣٣) ولاية من عموم الولايات بمملكة تايلاند، وهي تحت رئاسة المجلس الإسلامي المركزي ببانكوك. كما يوجد في المحاكم العامّة بالولايات الجنوبيّة الأربع – التي أكثريّة سكّانها مسلمون –قضاة مسلمون يفصلون القضاء فيما يتعلّق بالمواريث والأحوال الشخصية للمسلمين.

الرصيد الحضاري والثقافي للأقليّة المسلمة في تايلاند

إنّ الرّصيد الحضاري والثقافي الذي تمتلكه الأقليّة المسلمة في تايلاند، يكفي للتواصل مع مجتمع الأكثريّة الذي تتعايش معه، على شتى المستويات ؛ فعلى المستوى الإنساني، يعتبر التسامح الحضاري القاعدة التي يبني عليها المسلمون علاقاتهم بغير المسلمين، وهو تسامح ينطلق من الإيمان بوحدة الأصل الإنساني، وبالقيم والمثل العليا التي يدين بها البشر في كل عصر من عصور التاريخ، وهي قيم الخير والعدل والفضيلة والعفة والصّدق والأمانة والاستقامة والمروءة.... وعلى مستوى تبادل المصالح والمنافع والتعايش

بمفهومه الشامل العميق، فإنّ المسلمين المتمسّكين بتعاليم دينهم الحنيف، يدركون تماما أنّ العمل وجه من وجوه العبادة، وأنّ السعي في الأرض تكليف ربّاني، وأن نفع العباد مقصد شريف من مقاصد الشريعة الإسلاميّة، وأنّ درء المفاسد مقدّم على جلب المنافع، وأن التعاون على البر والتقوى والخير والمصلحة العامّة، مطلب أصيل من مطالب الشريعة الإسلاميّة، وأن اكتساب عوامل القوة، وتحقيق الرقي وصنع التقدّم والتفوّق في العلم، والتعمّق في المعرفة، من مقتضيات الحياة الكريمة التي ينشدها الإنسان السويّ في كلّ مكان وزمان.

أمّا على المستوى الثقافي العام، وعلى الصّعيد الحضاري، فإنّ المسلمين يسعون إلى التقارب مع أتباع الديانات والثقافات والحضارات، والتحاور معهم، ويجعلون هذا التقارب والتحاور في مقام الدعوة التي أمر الله، سبحانه وتعالى، أن تكون بالحكمة وبالموعظة الحسنة وبالتي هي احسن، ويواجهونهم بالسلوك الفاضل المنبثق عن إيمان بالرسالة التي يحملونها، وبواجب تبليغها إلى الناس كافة، وبأنهم دعاة هداية ربّانيّة، وحضارة بانية، وثقافة هادفة.

وكما يهمّ الحوار الحضاري مع غير المسلمين، فإنّه يهمّ كذلك مع المسلمين أنفسهم، خاصّة أصحاب النفوذ من الوجهاء والسّاسة، الذين لم يملكوا ثقافة إسلاميّة كافية، من أجل تفهّمهم لمحاسن الإسلام وحضارته، وعالميّته ؛ بيد أنّ تأثير القيم الإسلامية في المحيط الاجتماعي الذي يشكّل المسلمون فيه نسيجا متناسقا ومترابطا، لا يأتي مفعوله الإيجابي، إلاّ إذا توفرت شروط تتمثل في الإيمان والوعي بهذه القيم، وتشرّبها، وتمثّلها، والعمل بمقتضاها، وهو الأمر الذي يقتضي القيام بمجهود مستمر في التوعية، والتربية، والتوجيه، على أكثر من مستوى، ممّا له علاقة بالرعاية المتكاملة في إطار الحرص على الحماية الثقافية والذاتية الحضارية.

ولذلك فإن تأثير الأقلية المسلمة في المجتمع الذي تعيش في محيطه،

يتوقف على مدى سلامة الكيان العقدي والثقافي، وعلى المناعة الأخلاقية لهذه الأقلية ؛ فكلما كانت الأقلية الإسلامية، معتصمة بحبل الله المتين عقائديا وأخلاقيا، وواعية برسالتها الحضارية، متجنبة التنازع والتفرق، كان ذلك أقرب إلى التأثير الإيجابي المتحضر في البيئة والمحيط.

أما إذا ضعف هذا الكيان وتراخى بسبب غياب الوعي الديني الصحيح، وانعدام التضامن القوي، والعمل المنظم المتقن في إطار احترام القوانين السائدة والدستور المتعارف والاستفادة منهما، وغير ذلك من الأسباب، انعزل المسلمون عن مجرى الحياة، وانسحبوا من ميدان التدافع الحضاري، وانتهى أمرهم إلى التلاشي، فالانهيار، حيث تصبح الأقلية الإسلامية في هذه الحالة، عبئا ثقيلا على المجتمع الإسلامي الكبير، بل تسئ إلى الإسلام من حيث تدري أو لا تدري. يقول الله تعالى: ﴿ **إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ [**الأنفال** : ٧٣].

الأقليّة الإسلاميّة في تايلاند وعلاقتها بالحوار الحضاري والثقافي

إنّ علاقة الأقليّة الإسلامية في تايلاند بأكثريّة المجتمع، تقوم على أساس من العقيدة السليمة والقيم الإسلاميّة التي تصنع الفرد والجماعة، وتجعل من المسلم عضوا فاعلا ومؤثرا في دائرته القريبة، وفي محيطه الأشمل، وفي أيّ منطقة أو بيئة يعيش فيها، يتجاوب مع ما تعجّ به الحياة من أحوال وأحداث، ويستوعب كلّ ما يجري من حوله بعين فاحصة، وعقل متّزن، وفكر حصيف، وشرع حصين. فكان لها حضور متميّز في ميادين العمل العام، و لها تأثيرها الفاعل في مجريات الأمور.

إنّ العلاقات التي تقيمها الأقليّة المسلمة في تايلاند، ممثلة في الأكاديميين والدّعاة من أصحاب التوجّهات الوسطيّة، مع غير المسلمين، تنبع أولا من خصوصيّة الحضارة والثقافة الإسلاميّة التي تنفتح على الغير، وتتميّز بالتسامح الإيجابي مع جميع أهل الأديان والعقائد والحضارات والثقافات، وتنحو للتعاون على البر والتقوى في إطار الدّعوة الحكيمة

والأخوّة الإنسانيّة، من دون اعتبار للاختلاف في المعتقد والمذهب، أو في العرق والجنس، وتقتضيها ثانيا، ضرورات التعايش السّلمي الذي يتم خلاله الحوار الحضاري، وتمليها متطلبات الحياة في المجتمعات المعاصرة، وتفرضها المصلحة المؤكدة للجماعات الإسلامية العاملة في ساحة البلاد غير الإسلاميّة. لأنّ استمرار حياة الأقلية المسلمة على النحو الذي يضمن لها الاستقرار ويكفل لها المناخ الطبيعي السّليم للرقي والتقدّم، يتطلّب إقامة جسر التعاون مع جميع مكوّنات المجتمع الذي تعيش فيه هذه الأقليّة، وعلى مختلف المستويات، بما يحقق مسيرة الدعوة الفاعلة والمؤثرة في المحيط العام على النطاق الواسع.

وبات من المؤكد أن الأقلية المسلمة في كلّ مكان ستحقق لذاتها منافع جمة، وفوائد كثيرة، إذا ما وفقت لإقامة علاقات ثقافية - غنية ومثمرة - في طابعها الحضاري الإسلامي مع جميع شرائح المجتمع الذي تتعايش معه، فمن شأن تقوية العلاقات الثقافية بين هذه الأقلية وبين أكثرية السكان، أن تنشئ روابط إنسانية، وصلات اجتماعية ترسّخ الجسور الدعوية في هذه الديار، وتساهم في إبراز الصورة الحقيقية للإسلام، وفي تصحيح ما يروّج من مغالطات وافتراءات وأخطاء عن الإسلام، من حيث هو عقيدة ودين، وثقافة وحضارة.

إن إقامة علاقات ثقافية نشيطة، وذات فعالية مثمرة بين الأقلية الإسلامية وبين أكثرية السكان على أي مستوى من المستويات، تتطلب انتهاج الطرق المشروعة قانونيا، وسلوك المنهج العلمي حسب المخططات المدروسة التي تُفضي إلى أقوم السبل المؤدي دائما إلى تحقيق الأهداف المتفق عليها للتعايش السلمي.

ويطلب من البلدان الإسلامية أن تتضافر جهودها في الاهتمام وتقديم المشاركة الفعالة مادية وأدبية ومعنوية لهذه الأقلية عبر القنوات الشرعيّة المفتوحة، وأن تقوّي صلاتها بها، وأن تُشعرها دائما بأنها جزء لا يتجزّأ من

الأمة الإسلاميّة الكبرى، تتجاوب معها، وتساندها وتدعمها ؛ لإثبات ذات هذه الأقليّة، وتفعيل وجودها بمثابة طاقة جاذبة تجلب الناس إلى الإسلام، وتدعوهم لأسلمة الحياة كلّها حتى تصبح أكثرية إسلامية أو أقلية مؤثرة.

العلاقات الثقافيّة في تفعيل حضور الأقليّة الإسلاميّة بتايلاند

أدركت الحكومة التايلانديّة أهميّة التعليم، وأمّلت من جميع مواطنيها على اختلاف الطبقات والمستويات ؛ إيجاد الفرص لطلب العلم ذات الجودة والكفاءة، حرصا منها على إيجاد النقلة التعليمية، وتطوير عمليّتها بمواصفات الجودة العالمية على نطاق أوسع لتشمل كافة الشعب في عدالة التوزيع، لتلبية احتياجاتهم ضمن المتطلبات في عصر الانفتاح والتبادل السريع للمعلومات.

وإنّ العلاقات الثقافية التي تنظمها الأقلية المسلمة في تايلاند تشكل في جوهرها، رصيدا لحضارة وثقافة الأمة الإسلاميّة، يمكن استثماره جيدا في التعامل مع الحكومة ومع المنظمات الرسمية والشعبية في تايلاند، من أجل تحسين أوضاع المسلمين فيها، ومتاجة والتعاون قائما بين الفرصة في إطار العلاقات الديبلوماسية القائمة بينها وبين بلدان العالم الإسلامي.

ولمّا كانت المسلمين في تايلاند عامّة، وفي الجنوب خاصّة، الأمر الذي أمكن أبناء المسلمين ذوي المؤهلات العلميّة العليا والعالميّة، وأصحاب الدّرجات العلميّة العالية من إنشاء مؤسسة إسلامية أهلية للتعليم العالي، تحمل طموح وآمال أبناء الأقلية المسلمة لمواصلة التعليم الجامعي في مختلف الأقسام الأكاديمية الشرعيّة والأدبيّة والعلميّة في بيئة إسلاميّة، فكانت الكلية الإسلامية - جالا تأتي على ضوء التوصية المباركة التي أصدرها المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في دورته الرابعة والثلاثين المنعقدة بمكة المكرّمة في عام ١٩٩٥م بدعم رابطة العالم الإسلامي وغيرها من المنظمات الإسلامية مشروع الكلية الإسلامية وتوفير احتياجاتها المادية والمعنوية لتسييرها وتنظيم أمورها. وتمّ - بعون الله - الحصول على

التّرخيص الرّسمي من قبل الحكومة التايلاندية لهذه الكليّة الإسلاميّة جالا عام ١٩٩٨م.

وتقع هذه الكلية الإسلامية في ضاحية من ضواحي ولاية جالا، إحدى الولايات الإسلامية في جنوب تايلاند. كما لها - أيضا - مدينة جامعية في ولاية فطاني، حيث يزمع تطويرها مستقبلا ؛ لتغدو جامعة فطاني العالميّة، جنوب تايلاند - بمشيئة الله - في الأعوام ٢٠٠٥- ٢٠٠٧م لتحتضن ست كليات وثلاثة عشر قسما، كالتالي:

أولا : كلية الدراسات الإسلاميّة بأقسامها: أصول الدين، والشريعة، والدعوة والإعلام.

ثانيا: كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بقسميها: اللغة العربية، والدراسات الملايوية.

ثالثا: كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية بقسميها: الإدارة العامّة، والاقتصاد المالي والمصارف الإسلاميّة.

رابعا: كلية العلوم والتقنية بقسميها: تقنية المعلومات، وعلوم الأغذية.

خامسا: كلية التربية بأقسامها: برنامج تنظير المناهج، وتعليم اللغة الإنجليزية كلغة ثانية، والدبلوم العالي التربوي في تعليم العلوم الشرعية، والدبلوم العالي التربوي في تعليم اللغة الملاوية.

سادسا: كلية الدراسات العليا، بدءا من كليّة الدراسات الإسلامية للأقسام التالية: قسم التاريخ والحضارة، قسم أصول الدين وقسم الشريعة.

وعدد طلاب وطالبات الكلية الإسلامية جالا - حاليا - (١,٢٥٠) شخص، منهم الوافدون من الصين، كازاخستان، كمبوديا، ماليزيا، إندونيسيا والسويد.

علما بأنّ في تايلاند مئات المؤسسة للتعليم العالي، منها ٢٦ جامعة وكلية حكومية و ٥٥ جامعة وكلية أهلية تحت إشراف إدارة التعليم العالي التابعة لوزارة التربية والتعليم، والكلية الإسلامية جالا هي الوحيدة للمسلمين

- التي تحمل على عاتقها إحياء تراث العلم وإنماء حضارة المعرفة - في المقابل ست عشرة منها للنصارى.

وقد تخرّج من أبناء الكليّة الإسلاميّة - جالا على دفعتين عددهم ما يقارب الـ (٥٠٠) طالب وطالبة، حاملين شهادة اللّيسانس والدّبلوم العالي.

قنوات الحوار الحضاري والثقافي والدعوي في تايلاند

إنّ من متطلبات التعامل المؤثر مع المتغيّرات المتعدّدة في هذا العصر، تحديث المواقف والوسائل التي تتخذها الأقليّة المسلمة في تايلاند؛ بغية الوصول إلى أفضل نتائج الدّعوة الإسلاميّة،التي تقوم بها،وتقوية هذه المسيرة وتوجيهها الوجهة الصّحيحة.

وتتزايد الحاجة إلى إبراز حقائق الإسلام، ودحض الأباطيل التي يروّجها أعداء الإسلام، كلّما اتسع نطاق الحملات العدائيّة الموجهة ضدّ الإسلام والمسلمين، الأمر الذي يستدعي تحديثها لقنوات الحوار الحضاري والثقافي والتواصل الدعوي عبرالقنوات التالية:

القناة الأولى: وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة

ما زالت الأقلية المسلمة في تايلاند في بدايتها المتواضعة في استخدام هذه الوسائل الأعلامية للحوار الحضاري والثقافي سواء كانت مسموعة عبر موجات الإذاعة المركزية والمحلية والاشرطة والسيديهات أو مرئية عبر شاشات التلفزيونية والانترنيت والفيديو أو مقروءة عبر الصحف والمجلات والنشرات والكتب. وذلك باعتبار مالنا من حقوق وفرص. فكان في تايلاند عدة موجات إذاعية يديرها المسلمون منها تبث على مدار أربع وعشرين ساعة.

القناة الثانية: عضويّة الكليّة الإسلاميّة جالا في رابطة البحوث العلميّة لجامعات جنوب لتايلاند

بموجب القرار رقم ١٧٩/ ٢٥٤٧ الصادر من إدارة التعليم العالي التابعة لوزارة التربية والتعليم بتايلاند بشأن تعيين أعضاء رابطة البحوث العلميّة لثماني

مؤسسات التعليم العالي لجنوب تايلاند، حيث يهدف إلى بناء العمليّة التربوية والتعليمية وتحفيز البحوث العلميّة وتسخير وسائل التقنيات الحديثة لتنمية المجتمع فكريا وثقافيا واجتماعيا واقتصاديا. حيث تضم الرابطة ثماني مؤسسات للتعليم العالي، كلها حكومية إلا جامعة هادياي، والكليّة الإسلاميّة - جالا.

وقد حظيت الكليّة الإسلاميّة - جالا بالتعاون مع أخواتها من مؤسسات التعليم العالي، فكان من نصيب الكليّة عدد من مشاريع البحوث العلمية منها:

مشروع Web 360 Panoramic View and Interaction CD For promote Pattani Eco- Tourism (موقع ٣٦٠ عن موجز آفاق/ مناظر، وتأثير الاسطوانة الإلكترونية لدعاية الاقتصاد والسياحة في فطاني).

وعضوية الكليّة في الرابطة يعني ولوجها القرن الحادي والعشرين والعالم يمرّ بثورة هائلة في مجال التأليف والنشر والبحث العلمي والترجمة والمعلومات والتقنيات بحيث يتوفر اليوم كمّ جمّ من المعلومات، فالاكتفاء الذاتي من المعلومات غير ممكن، وبتوفر أساليب الاتصالات الحديثة والأجهزة التي يمكن الارتباط بواسطتها .الأمر الذي يجعل لمنسوبي الكليّة الإسلاميّة جالا الحق في تقديم مشاريع البحوث العلميّة للمجتمع بالتعاون مع مؤسسات أخرى للتعليم العالي في العضويّة نفسها، ممّا تتاح لهم فرص تبادل المعلومات وتلاقح الأفكار، وإبراز الجوانب المضيئة من الدين الإسلامي الحنيف.

القناة الثالثة: ندوة السّلام العالميّة والمحليّة(٤)

حضرها عدد غفير من الشخصيّات العلميّة والأكاديميّة، من المسلمين وغيرهم، داخل تايلاند وخارجها، وقد شارك فيها كاتب هذا البحث بورقة عمل «الإسلام دين السّلام»، ترقت بعدها إلى كتاب منقح، أصدرته شؤون البحوث والخدمات العلمية بالكليّة الإسلاميّة - جالا، باللغة العربية، وقد تُرجم إلى لغات عدّة: الملايوية بكتابتيها الجاويّة واللاتينية والتايلاندية، الإنجليزية،

---

(١) نظّمتها كلية الدراسات الإسلامية، بجامعة الأمير سونجكلا نكرين، شطر فطاني - تايلاند، في ١٨/٦/١٤٢٤هـ الموافق ١٦/٨/٢٠٠٣م.

والصينيّة وقد تم طبع المترجم إلى اللغة التايلاندية عدة مرات وتم توزيعه إلى كبار المسؤولين في الدولة ورجال الحكومة والسياسيين والأكاديميين والعسكريين وغيرهم. وتكون محتويات هذا الكتاب مقسمة إلى أربعة فصول رئيسة.

وقد تحدّث الفصل الأول عن السلام في الاسم والشعار، وكيف أنّ الإسلام اسم دين السلام، لاشتقاقه - ابتداء - من كلمة السلام الذي هو أحد أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، وأنه سبحانه وتعالى سمّى معتنقي هذا الدين الإسلامي من أنبيائه الأولين إلى خاتمهم المصطفى صلى الله عليه وسلم بـ «المسلمين »، وفي ثنايا الفصل الأول أيضا - تناول البحث أنّ السلام تحية المسلمين عند كلّ لقاء ودخول بيت وهو شعار دين الإسلام، حيث لم يكتف الإسلام مجرّد إلقاء السلام في التحية، وإنّما يشرع معه المصافحة باليد لتقوية معنى المحبة الأخويّة التي هي لبّ السّلام. ومن ضمن مباحث الفصل الأول هو أنّ السلام أهم أهداف الصلاة التي تبدأ بالتكبير وتختتم بالتسليم، وفي التشهد يسلّم المصلي بصيغة: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)، وللترغيب في جلب السلام جعل من الأذكار المأثورة التي واظب عليها المصطفى صلى الله عليه وسلم وأمته عقب الصلوات المفروضة قوله: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

وفي الفصل الثاني تطرّق البحث عن السلام في العقيدة والشريعة، حيث إنّ السلام أهم مقاصد الشريعة الإسلامية، وأنّ الزكاة والإحسان من ركائز السلام في إطار السلام من الفقر والمرض، والأمن الغذائي.

واستهدف الفصل الثالث من البحث: السلام في العلاقات مع الآخرين، وكيف أنّ الدعوة بالتعارف والتعاون أساس العلاقات، ثم مشروعية القتال لتحقيق سنّة التدافع باعتبار القتال وسيلة لغاية السّلام، وأنّ العدالة أساس السّلام، وفي سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم في فتح مكّة وغيره ما يكفي لبيان أنّ السّلام غاية العلاقات بين البشريّة في الإسلام، وهو منتهى التطبيق النبوي في مسيرته الدعويّة، ورسالته النبويّة.

وأسهب البحث في فصله الرابع عن أنّ القرآن الكريم مصدر السلام، وكفاه شرفا نزوله في ليلة مباركة (ليلة القدر) وصفت بـ «سلام هي حتى مطلع الفجر»، فهو سلام من كل باطل وجاهلية.. ومن كل شرك وبدعة.. ومن كل ظلم وعدوان.. ومن كل سوء وشر.. ومن كل معصية وفتنة.. من كل كفر ونفاق.. ومن كل مرض وبلاء.. ومن وسواس الشيطان ومكر الدجال.. وسلام من كلّ ضغط ومؤامرة.

وفي خاتمة البحث نداء للشعوب الإنسانيّة والمنظمات الدّولية والجمعيّات الوطنيّة والمحليّة، والمثقفين منهم خاصّة، إلى التعرّف على تعاليم الإسلام من مصادرها الأصيلة الصحيحة من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومؤلفات العلماء المعتبرين، لا من مصادر دخيلة غربية وصهيونية، أو من بسطاء هذه الأمة، لمعرفة ما فيها من حلول للمعضلات البشرية لا سيّما معضلة الظلم والعدوان، والعنف والطغيان ؛ مع دعوة صادقة من الباحث جميع القراء لاعتناق الإسلام فإنه دين يحقق الأمن والسلام للخلق جميعا، دين يبدأ بالسّلام، وينمّي مشاريع السّلام الدنيوي، وينتهي بتحيّات السّلام في جنّة دار السّلام.

فيا حسرة على العباد الذين يرفضون الإسلام قبل دراسته ومعرفته.. !! كما أقيمت ندوة أخرى للسّلام على المستوى المحلي، بتنظيم الجامعة نفسها في الثاني من شهر يوليو ٢٠٠٤م، حيث شارك فيها أطراف عديدة من الجهات الحكوميّة والأهليّة والأكاديميّة، قدّم خلالها معدّ هذا البحث تقدمة الندوة، متضمنا في ثناياها العناصر حول محاور الندوة.

القناة الرابعة: ورقة عمل «الإرهاب والعنف والتطرّف في ميزان الشرع» (١)

تطرّق الباحث في ثناياها أنّ كلاّ من الظلم والعنف والتطرف مذموم في الإسلام، كون هذا الثالوث هو أهم صفات الإرهاب في صورته المشينة.

---

(١) ورقة عمل قدّمها معدّ هذا البحث في أعمال المؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب، الذي نظمته جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة في مدينة الرياض - المملكة العربية السعوديّة، خلال الفترة ٢٠-٢٢/٤/٢٠٠٤م.

كما أبان الباحث حكم الإسلام في الإرهاب، حيث عدّ الإسلام الحرابة والبغي بغير حق من أكبر الجرائم التي يتصوّر بها الإرهاب في بعض صوره التطبيقيّة، فإن جرائم الإرهاب أبعد في أهدافها ومراميها من جرائم الحرابة التي نجد من خلال وصفها في كتب الفقهاء أنها لا تتعدّى أن تكون قطعا للطريق وصولا على الأموال والأنفس والأعراض. ومع ذلك فقد أغلظ الله العقوبة على من يقترف هذه الجريمة، ويسلك سبيلها. إذا فلا أقلّ من أن يعاقب الإرهابي في قياس النظر الشرعي بعقوبة المحاربين، والله أعلم.

ثمّ أكّد الباحث على المفهوم الإسلامي في العلاقات بين الأمم، ببيان أن الأصل في العلاقات البشرية عند الإسلام، فردا كان أو جماعة أو دولة، علاقة التعارف والتعاون والدعوة والخير، لا علاقة التصادم والاعتداء والإرهاب والشر. فالإسلام يدعو البشرية إلى التعارف والتعاون على البر والتقوى، ويرفض التدابر والتعاون على الإثم والعدوان. والتعارف الذي هو محور العلاقات بين البشر على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، له مدلول أبعد من مجرّد معرفة الشخص اسم الآخر، بل هو التعارف الذي يؤدي إلى أعلى تبادل المنافع وإيجاد التعاون فيما بينهم. ومن اجل هذا التعارف يتطلّب طبيعة العلاقة السّلميّة الإيجابيّة. وبذلك فإن السّلم هو الحالة الأصيلة التي تهيئ للتعارف والتعاون وإشاعة الخير بين الناس على اختلاف الشعوب والقبائل.

واستأنس الباحث في ثنايا البحث بكلام الشيخ رشيد رضا: «تفضيل السّلم على الحرب إذا جنح العدو لها، إيثارا لها على الحرب التي لا تقصد لذاتها، بل هي ضرورة من ضرورات الاجتماع، فتقدّر بقدرها... ولمّا كان جنوح العدو للسّلم يكون خديعة لنا، لنكفّ عن القتال ريثما يستعدون هم له أو لغيره، وكان من المصلحة في هذه الحال أن لا نقبل الصلح ما لم نستفد كل ما يمكننا منه تفوقنا عليهم، لم يعد الشارع احتمال ذلك مانعا من ترجيح السّلم، بل قال عز وجل: ﴿**وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ [**الأنفال**: ٦٢].

القناة الخامسة: ورقة عمل «التربية الرّوحية أساس لبناء الحضارة الإسلاميّة»(١)

تطرّق الباحث في ثناياها عن الروح وحقيقتها: حاجة الجسد إلى الرّوح للحياة الدنيويّة، وحاجة روح الجسد إلى روح القرآن الكريم للحياة الدنيا ولآخرة، و(روح الرّوح وحي الله).

كما أبان الباحث مفهوم الإسلام الحضاري من حيث هو مجموعة الأسس والمبادئ والقيم في تلازم مع الدين الإسلامي لترتيب وتنظيم وتقوية الصلة بين المخلوق والخالق، لمضمون الخلافة في الأرض، وحمل الأمانة، وتطبيق الأنظمة التشريعية، والقضائية، والأمنيّة، والاجتماعيّة، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والفكريّة، والأخلاقية.

ثمّ أكّد الباحث على أهميّة وضع مواد القوانين وصياغتها بالاعتماد على مصدرين أساسيين من مصادر التشريع في الإسلام، وهما الكتاب والسنة ؛ لبناء الإنسان الذي يحظى بالتكريم الإلهي.

وحريّة الاعتقاد من الأسس الإسلاميّة في اعتناق الآخرين لهذا الدين. فضمان سير الدعوة الإسلامية التي تحمل راية الرحمة والسلام، تكمن في الحفاظ على حرية بني البشر في اعتناق الإسلام كدين ونظام الحياة عن اختيار ورضا النفس لا الإكراه والقهر.

القناة السادسة: نشر «رسالة رابطة العالم الإسلامي إلى الشعب الأمريكي» المترجمة إلى اللغة التايلاندية.

من نتائج التعاون المثمر بين الكلية الإسلامية جالا جنوب تايلاند وبين رابطة العالم الإسلامي تمت، ولله الحمد، ترجمة «رسالة رابطة العالم الإسلامي إلى الشعب الأمريكي» إلى اللغة التايلاندية ونشرها مركز شؤون البحوث والخدمات العلميّة بالكلية الإسلاميّة - جالا، بتقديم كلمة شيخ الإسلام بتايلاند، متضمنة في الرّد على ما ورد في رسالة بعض المثقفين

---

(١) ورقة عمل قدّمها معدّ هذا البحث في فعاليات الندوة العالميّة في الإسلام الحضاري، التي نظمتها جامعة مالايا بكوالالمبور - ماليزيا، خلال الفترة ٢٣-٢٥/١١/٢٠٠٤م.

الأمريكيين وبيان موقف الإسلام حيال المحاور التالية:

١- الحوار بديل عن الصّدام .

٢- الإنسان والدّين.

٣- المسلمون والإرهاب.

٤- المسلمون والحرب.

٥- الجهاد ليس إرهابا.

٦- المسلمون وأحداث سبتمبر .

٧- الإسلام وشبه الإسلام.

٨- المسلمون والقيم الأمريكيّة.

فكان هذا الإصدار إسهاما من الكلية الإسلاميّة - جالا بالتعاون مع الأطراف الإسلامية؛ لتعميم هذه الرسالة على الدواوين الحكومية والمؤسسات والشخصيات الثقافية والاجتماعية والإعلامية بتايلاند ؛ إنفاذا لقرار المؤتمر الإسلامي العام الرابع الذي عقدته الرابطة بمكة المكرمة في شهر محرم ١٤٢٣هـ.

القناة السابعة: رسالة «إحياء سنّة الاستسقاء»

وهي من سلسلة تقديم الحوار الحضاري مع المدعوين، إصدار شؤون البحوث والخدمات العلمية بالكليّة الإسلاميّة - جالا، إزاء موجات الجفاف التي اجتاحت مختلف ولايات مملكة تايلاند، حيث كُتبت باللغة الملايوية، وترجمت إلى اللغة التايلانديّة، وتمّ توزيعها إلى مختلف مستويات وفئات المجتمع التايلاندي، بمثابة رسالة إلى هذا المجتمع بأن ثمّة تشريع إسلامي من لدن العليم الحكيم لمواجهة سوء الظروف المناخية.

وقد حوت الرسالة مفهوم الاستسقاء، والحكمة التشريعية من إقامة صلاة الاستسقاء، وحكمها، وكيفية طلب السقيا في الإسلام، وخطوات الاستعداد قبل إقامتها، وكيفية أدائها، ثم دعاء الاستسقاء.

وقد لاقت الرسالة - ولله الحمد - قبولا جيّدا بين المجتمع التايلاندي، حيث تداول اصطلاح

(الاستسقاء) على ألسنة كبار موظفي الدولة من البوذيين.

القناة الثامنة: «الإسلام.. طريقة لإخماد نار الجنوب»(١)

حديث صحافي أثناء المقابلة الصّحافيّة التي أجرتها مجلّة ماتيشون (الرأي العام) الأسبوعيّة التايلانديّة مع كاتب هذا البحث، حول طريقة إخماد نار الجنوب، أبان فيها عن أنّ الدين والعقل وجهان لعملة واحدة، حيث لا يحدث بينهما، ولا ينتج عنهما التعارض والاختلاف. فالدين بحاجة إلى العقل في كيفية الاستنباط والاستدلال والتطبيق في جميع مناحي الحياة، حسب ما يقتضيه الدين القيم، وكذا العقل بحاجة ماسّة إلى الدين في ضبط خواطره وهواجسه، وفي وضع الحدود والحواجز، لئلا يتجاوز - بميل أو نقص - عن الحق والقوامة، في منتهى الوسطيّة دون إفراط أو تفريط.

والدين القيم يتلازم في تكامل مع العقل السليم في كل جوانب الحياة، بيد أنه من المؤسف في عصر العولمة، نجد الأكثرية من الناس يتغافلون عن استخدام العقل السليم، ويعلنون حربا لا هوادة على الدين.

كما أضفى فيها المتحدّث عن خلاصة حل المعضلات في الساحة الجنوبية لتايلاند، كالتالي:

١- مناشدة الحكومة التايلاندية ودوائرها الرسمية - ابتداء - لدراسة الإسلام في كل جوانبه المختلفة وحقيقة مشكلات المسلمين في الجنوب، ومن ثم أخذ الحلول التي قدّمها الإسلام، ثم وضع المخططات التنموية في عين الاعتبار بعدم المساس بالثوابت الدينية ومؤسساتها الإسلامية.

٢- الاعتماد على العدالة في كل مناحي الإدارة والتدبير، سواء في مجال التوظيف المدني باعتبار ذاتية أبناء المنطقة والكفاية العاملة، ثم إبراز

---

(١) عنوان المقابلة الصحافية لمقتضب حديث قلب د. إسماعيل لطفي جافاكيا، التي أجرتها مجلّة أسبوعية ماتيشون (الرأي العام)، الصادرة للفترة ٢٠-٢٦/٢/٢٠٠٤م.

إيجابيات المنطقة الدينية والحضارية والتعليمية، على أن تستوعب كافة سياسات الدولة التنموية لهذه الإيجابيات.

٣- الاعتراف بالتنوع العرقي والعقدي، والاستفادة من هذا التنوع من خلال الاحترام المتبادل والتعايش السلمي بين سكان البلاد، ومن ثم إعطاء الأولوية للمشاريع المبنية على خطط التنمية بالمقياس الأدبي والمعنوي، لا الأولوية المبنية على خطط التنمية بالمقياس المادي فقط.

٤- فتح المجال وإعطاء الحريّة الكاملة لممارسة الحياة والحقوق المدنيّة تبعا للدستور الوطني، ومنح أكبر فرصة ممكنة لأبناء المنطقة للمشاركة في إدارتها.

٥- القيام بتنمية المنطقة على المدى القريب والبعيد، والتوكيد على ترقية التربية والتعليم شاملا متوازنا.

ولا أدلّ على عظمة الإسلام وعدالته الصالحة لكلّ زمان ومكان، إلاّ من خلال التعاليم التي أرساها بالنهي عن الإفساد في الأرض بنهب الأموال، وتخريب الممتلكات العامّة، وما يؤدّي إلى الهرج... حتى في حال الحرب.

القناة التاسعة: الخطط الإستراتيجيّة لتنمية الولايات الإسلاميّة الجنوبيّة(١)

تتلخص الخطط الاستراتيجيّة لتنمية الولايات الإسلاميّة الجنوبيّة التي تعاني من مشكلة الاضطرابات بين أكثريّة السّكان المسلمين، وبين الحكومة المركزيّة فيما يلي:

«على الحكومة القيام بتوحيد سياستها ومواقفها مع التنسيق بين صفوف رجالها تجاه حلّ مشكلة الجنوب، مع منح الثقة، بجانب توفير الأمن والاستقرار لأهل هذه المنطقة، والقيام بوضع الخطط التنمويّة التي تخدم المطالب الحقيقيّة لأهالي المنطقة، واتخاذ الخطوات العمليّة، وتنفيذها بكلّ أمانة وعدل، مع التوكيد أثناء تنفيذها على تجنّب المشاريع التي تمسّ عقيدة

---

(١) عنوان المقابلة الصحافية مع معدّ هذا البحث، التي أجرتها صحيفة يوميّة ماتيشون (الرأي العام) التايلاندية، الصادرة بتاريخ ٢/٤/٢٠٠٤م.

المسلمين، وتتعارض مع شريعتهم الإسلاميّة السّمحة وحسن الاستفادة من الطاقات المحليّة والإسلاميّة ؛ لتحقيق المشاركةّ الفعّالة من جميع الأطراف المعنيّة في وضع الخطط وتنفيذها.

كما يجب على الحكومة بذل المساعي من أجل كسب أهالي الجنوب إليها، وذلك عن طريق تقديم الخدمات الصحيحة لتحقيق مصالحهم في الحياة، ونحن نؤيّد توجيه عاهل تايلاند بقوله: [يجب الوصول إلى الحقيقة وفهم المشكلة والقيام بالتنمية]».

القناة العاشرة: الحوار بين الديانات (الإسلام والنصرانية والبوذية)

الحوار الإسلامي بين الديانات يعتبر من أهم وسائل الدعوة الإسلاميّة يقول الله تعالى آمرا نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [**النحل**: ١٢٥]. وهو دعوة الناس أجمعين في كل زمان ومكان، إلى دين الله وشريعته، بالأسلوب الحكيم واللّطف واللّين، بما يؤثر فيهم وينجع،لا بالزجر والتأنيب، ولا بالقسوة والشدّة.

فالدّعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، هي مدار أمر الدّعوة كلّه، وهي الأصل في الحوار الإسلامي في جميع مستوياته، وعبر مختلف قنواته.

وحتى يُكتب للحوار الإسلامي التوفيق والنجاح، كان لابدّ من الاستناد إلى مقوّمات، ويتميّز بخصائص. ولذلك فإنّ الحوار الإسلامي هو ذلك النمط من الحوار الذي يعبّر أصدق التعبير وأوفاه، عن خصوصيّات المجتمع الإسلامي، وعن الهويّة الحضارية لهذا المجتمع.

ومن المرتكزات التي تشكّل مقوّمات للحوار الإسلامي ما يلي:

١- أن يكون حوارا صادقا، أمينا، نزيها، لا يخدم إلاّ المصلحة الإسلاميّة في المقام الأول، وسطيا، منصفا، عدلا، يصدر عن مبادئ الإسلام ومحاسنه ومكارمه.

٢- أن يكون حوارا دعويا، يشمل التعاليم الأساسيّة لحياة البشر على صيغة الخطاب الإسلامي المعاصر في خضم الأحداث والمستجدات.

٣- أن يكون حوارا مرنا، ومتجددا، مستوفيا للشروط الموضوعية التي يقتضيها الحوار بلغة القوم، وبمنطق سليم مقبول، يتلاءم وظروف البيئة.

٤- أن يكون حوارا بناءا، نافعا، هادفا، يرمي إلى الإصلاح والتجديد والتطوير، ونشر السّلام والرّحمة على المستوى المحلّي، والإقليمي، والدّولي، ويسعى إلى توضيح حقائق الإسلام، والرّد على الشبهات المثارة حوله، بالرفق والاعتدال والرفق واللين، مجتنبا كلّ صيغ التطرّف وأشكال العنف، وضروب التعصّب والانفعال.

وقد تيسّر للأقلية المسلمة في تايلاند المشاركة في عدّة ملتقيات للحوار بين الديانات

(الإسلام - النصرانيّة - البوذيّة) في عدّة مناطق، حينا باسم مكتب شيخ الإسلام بتايلاند، وحينا آخر باسم الكليّة الإسلاميّة - جالا، وحينا باسم المجالس الإسلاميّة الموجودة في بعض الولايات.

وآخر ما جرى من ذلك الحوار الحضاري والثقافي، كان في معبد سوان موك(١)، حيث مثل عن الإسلام، رئيس الكليّة الإسلاميّة جالا المساعد لشؤون التخطيط والتنمية، ومثل البوذيّة، الناسك المشهور من ولاية شايفون، ومثل النصرانيّة، الراهب من ولاية شيانجماي الشماليّة.

وقد دار الحوار حول لب الديانات، وكيفية التعايش السلمي بين أصحاب الديانات. وكان تقديم الجانب الإسلامي في هذا الحوار متضمنا عددا من الفقرات، أهمّها:

- الإسلام.. الجواب الشافي لتساؤلات الفطرة البشريّة: من أين جئنا ؟ لماذا،

---

(٩) المعبد المشهور الواقع في ولاية سوراتاني - جنوب تايلاند، حول موضوع (كيفيّة الوصول إلى لبّ الديانات والتعايش بين أصحابها)، بتاريخ ٢٠٠٤/١١/٢٧م.

وإلى أين ؟ وكيف.. ؟؟

- الإسلام دين ليس كبقيّة الديانات، إنّه نظام كامل وشامل للحياة كلّها في الدّارين.
- الإسلام دين السلام، بدءا من اسمه الإسلام المنزل من الله المسمى بالسّلام المؤمن، مرورا بشريعة الرحمة والسّلام إلى العالمين، منتهيا إلى دار السّلام، تحيّتهم فيها سلام.

القناة الحادية عشرة: قوافل الدّعوة الإسلاميّة

ساهمت الأقليّة المسلمة بتايلاند منذ سنوات، ولله الحمد، ماديّا ومعنويّا في تسيير القوافل الدعوية إلى الولايات الشماليّة وغيرها من الولايات التي كانت أكثريّتها غير مسلمة، حيث قدّمت لهم حقيقة دين الإسلام ومحاسنه ودعتهم إليه، فأسلم على أيديها عدد كبير وجم غفير. وذلك مرّات عديدة في كل سنة.

النتائج التي تمخضت عن إسهام الأقليّة المسلمة بتايلاند في الحوار الحضاري والثقافي

عقديا وشرعيا: حرية ممارسة الشعائر الدينية في مختلف الأماكن العامّة والخاصّة، ووجود مصليّات في التجمّع العام، مثل المستشفيات والمطارات والمحطّات، مع السماح لارتداء المسلمات الحجاب في مختلف الأماكن العامّة والخاصّة.

سياسيا: وصول البعض من أبناء الأقليّة المسلمة في تايلاند إلى منصب نائب رئيس الوزراء، ورئيس البرلمان، وزير النقل والمواصلات، وزير الداخليّة، وزير الخارجيّة، وزير الزراعة والجمعيات التعاونيّة، نوّاب عدد من الوزراء، وكيل وزارة الداخليّة، عضوية مجلس الشعب التايلاندي، عضوية مجلس الشيوخ، رئاسة البلديات في الولايات الجنوبيّة الثلاث، عضويّة البلديات في الولايات الجنوبيّة الثلاث. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تغرّس الوعي الإسلامي الصحيح بين أوساط السّاسة المسلمين وعامّتهم، حيث لهم مناعة

إسلاميّة بقدر كاف لمواجهة تيّارات التضليل الفكري، وللحفاظ على شخصيّتهم الإسلاميّة العامّة.

اقتصاديا: تأسيس البنك الإسلامي التايلاندي في عام ٢٠٠٢م، برئاسة شخصيّة عامّة إسلاميّة، بالإضافة إلى مئات من الشركات الإسلامية الأهليّة التعاونيّة، شيوع ماركة ((حلال))- إصدار المجلس الإسلامي المركزي بتايلاند- على مختلف المنتجات الغذائيّة، ممّا فتح باب التنافس بين المؤسسات والشركات الصناعيّة على الإنتاج الصناعي الحلال للحصول على الماركة بغية تسويق منتجاتها في العالم الإسلامي.

دعويا: انتشار مجالس العلم في الولايات الجنوبيّة المسلمة، أسهمت في التوعية والإرشاد باستخدام وسائل الإعلام المعاصرة - المقروءة والمرئيّة والمسموعة -، مشاركة الدعاة إلى الله في القوافل الدعويّة التي تجوب مختلف ولايات تايلاند، أثمرت عن إسلام عدد كبير من غير المسلمين.

فكريا: تأثر أصحاب النفوذ السياسيّة من المسلمين بالشعائر الإسلاميّة، وشيوع ظاهرة الالتزام بالهدي النبوي، جنبا إلى جنب محاربة البدع والخرافات والشركيات.

تعليميا: تقديم الحكومة التايلانديّة بعض المساعدات الماديّة للمدارس الإسلاميّة الأهليّة لأمورها التشغيليّة، على غرار المدارس الأهليّة للمعتقدات الأخرى، إنشاء كليّة الدراسات الإسلامية الحكومية بجامعة الأمير سونجكلا ناكرين شطر فطاني، ظهور الكليّة الإسلاميّة - جالا.

اجتماعيا: الفصل في المواريث والأحوال الشخصيّة وفق الشريعة الإسلاميّة بالتحكيم إلى قضاة شرعيين من أبناء الأقلية المسلمة، استحداث منصب شيخ الإسلام - أعلى المرجعيّة الإسلاميّة -، تأسيس المجالس الإسلاميّة لتصريف الشؤون الإسلاميّة في ثلاث وثلاثين ولاية من عموم ولايات تايلاند، ظهور الهيئات والجمعيّات الإسلاميّة الخيريّة في المجالات الاجتماعية والتعليمية والإنسانية والإغاثية.

الإسلام.. وحوار الحضارات

بقلم:
الأستاذ كامل الشريف
الأمين العام للمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

أولاً: الجذور التاريخية للحوار:

الحوار بين الإسلام والحضارات المختلفة وخصوصاً المسيحية ليس ظاهرة جديدة، فالحقيقة أنه لم ينقطع يوماً منذ ظهر الإسلام في جزيرة العرب، فقد حاور المهاجرون المسلمون رجال الكنيسة في الحبشة قبل الهجرة، واستقبل الرسول محمد عليه السلام وفد نصارى نجران في يثرب "المدينة المنورة" وسمح لهم بالصلاة في مسجده وحاورهم في أمور الدين، وأبرم العهود مع القادة المسيحيين في إمارات الخليج بعد غزوة تبوك، ومع أن هذه المحاورات كانت تهدف إلى إقناعهم برسالة الإسلام، ودعوتهم للإيمان بها إلاّ أنها كانت على الأغلب تنتهي إلى اتفاقات أو معاهدات تضمن حسن الجوار وحريّة العبادة، وتأمين التجارة، كما كان بعضها ينص على دفع (الجزية) التي كانت أحد الأساليب في التعبير عن الولاء للنظام القائم، مما لا يدخل في نطاق هذا البحث.

ومن ذلك أن وفد نجران طلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يرسل معهم واحداً من أصحابه ليكون قاضياً بينهم في خلافاتهم، وختموا طلبهم بالقول «فإننا نراكم أهل أمان وثقة» ابن هشام.

على أن من المفيد أن نذكر أن قاعدة الحوار مع أهل الكتاب كما سجلها القرآن الكريم كانت التذكير بالأصل الواحد للأديان السماوية، وإحياء الفطرة التي أودعها الله في أعماق الإنسان وهي الاتجاه إليه سبحانه والتسليم لمشيئته أو (الإسلام) له، ومن هنا نجد الإشادة في القرآن الكريم بالأنبياء السابقين وتسجيل نضالهم من أجل فكرة الإيمان وإبراز جهادهم في سبيل الحق والخير، ومع أن القرآن قد أشار للتأثير البشري في الكتب السماوية السابقة، - كما ذكرنا - إلاّ أنه اعترف بأصلها الرباني وكرر

الدعوة لأصحابها لإعادة دراستها على ضوء هذا الأصل كما ذكرنا فقال «ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» ٩٧/٣، ولا جدال أن النظرة الإسلامية التي حكمت العلاقة منذ بداية الدعوة لا تزال تصلح قاعدة للعلاقات في العصر الحاضر، إذ لا يمكن أن يكون الحوار مجدياً إلاّ إذا ارتكز على قاعدة من الاعتراف المتبادل، وإذا كان الإسلام قد سبق بإرساء هذه القاعدة، فإن مما يدعو للتفاؤل أن المعسكر المسيحي - أيضاً - قد اتجه في الآونة الأخيرة للقيام بدوره فيها، مما سنتعرض له في مكانه من هذا البحث.

والقارئ للقرآن الكريم يلاحظ بوضوح أنه مائدة مفتوحة للحوار في كل اتجاه، فآراء أهل الكتاب والمشركين تعرض لها ورد عليها، والجبابرة أمثال فرعون وهو التجسيد الحي للطغيان والجبروت يقولون ما لديهم ويأخذون الجواب، بل حتى المشركين والكفار يثبت القرآن الكريم آراءهم الفاسدة، ويرد عليها، ولكأن الله عز وجل يعلم قسوة الإنسان على أخيه الإنسان. ولذلك نجد القرآن في أكثر من موضع يختم الجدل بمثل قوله تعالى " فالله يحكم بينكم يوم القيامة " وحين حط الرسول صلى الله عليه وسلم الرحال في المدينة المنورة كان من أوائل الخطوات التي اتخذها في إنشاء الدولة الإسلامية الأولى هي إصدار " وثيقة المدينة " أو عهد المدينة التي وضعت المسلمين واليهود والقبائل العربية في إطار إنساني واحد، وحددت لمجتمع المدينة رسالته في دعم الحق والخير فكانت أسبق في إنسانيتها العالمية من كل القوانين والمعاهدات العالمية مثل قانون حامورابي أو الماجنا كارت، وقد علق السير مونتجمري وات في كتابه «محمد في المدينة» مطولاً على معاهدة المدينة فذكر أنها أدخلت اليهود في الأمة الواحدة، كما أبدى إعجابه أنها كانت معاهدة شاملة وأنها ذات طابع دفاعي ولم تتعرض لأي عمليات هجومية من جانب المسلمين، مما يعكس روح الإسلام الحقيقية في رفض الحرب إلا إذا كانت وسيلة ضرورية لردع العدوان أو الدفاع عن العقيدة

والأوطان، إلتزاماً بالتوجه القرآني «ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» أما نظرة الإسلام الأساسية لليهود وأهل الكتاب عموماً والافتراض بأنهم جزء من أمة المؤمنين الواحدة فقد لخصه القرآن الكريم أكثر من مرة «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» ٩٢/٢١ وليس من قبيل المصادفة أن تأتي أمثال هذه الآيات الكريمة مباشرة بعد سرد قصص النبوات السابقة، مما يعني أن الإسلام قد انطلق دائماً من الأمل أن يكون المؤمنون بالله الواحد أمة واحدة من دون الناس، وقد أبدى السير مونجمري وات أسفه أن اليهود كانوا أول من أحبط هذا الامل الجميل حين قال في كتابه المشار إليه «أنه لشيء مثير للاهتمام أن تتخيل ماذا سيحدث لو أن اليهود استجابوا لمحمد بدل أن يعارضوه؟ لقد كان من الممكن أن يحصلوا منه على اتفاقيات مربحة، منها ضمان الاستقلال الديني، وعلى هذا الأساس أن يكونوا شركاء في الإمبراطورية العربية. ثم تساءل الكاتب بحسرة «كيف سيكون شكل العالم اليوم لو أن ذلك حدث»؟

على أن العلاقات بين الإسلام والمسيحية - كذلك - لم تكن دائماً وديّة، ذلك أن الحرب لم تلبث أن اشتعلت بين الفريقين على أرض الشام ومصر وشمال أفريقيا لأسباب جيو - استراتيجية قبل أن تصل أمواجها للقسطنطينية عاصمة بيزنطة التاريخية نفسها، ولكن بالرغم من هذا التطوّر فإن الحوار الذي بدأ في المسجد المتواضع في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، استمر على صورة أو أخرى، ويمكن للباحث الآن أن يفرّق بين نوعين من أساليب التعامل بين الناحيتين، أسلوب الحرب، التي انطلقت من عوامل خاصة أملتها الظروف السياسية والاستراتيجية السائدة، والحوار ذي الطابع الفكري الذي اعتمد على البرهان والحجة، حتى لو اكتسب أحياناً مسحة من القسوة والتهجّم، وحين يتلفت المرء للوراء لا يملك إلاّ أن يعجب بدرجة التسامح وسعة الأفق التي حكمت الحوار الإسلامي - المسيحي في أطواره المختلفة، وعمق الأثر الذي تركه على الفريق الآخر، في حالات السلم

أو الحرب على السواء.

ففي ديار الشام - مثلاً - نجد العرب يقتبسون من الدولة الرومانية الشرقية بعض نظم الدواوين والحساب والهندسة وصك النقود، وما توصّل إليه علماؤهم في الفلك والطب أما النفوذ العربي - الإسلامي على بيزنطة فقد وصل تأثيره إلى العقائد والقوانين، ففي فترة مبكّرة من تاريخ العلاقات العربية - البيزنطية راسل الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز الإمبراطور ليون الثالث، وجادله حول التماثيل والقديسيين والبعث وخلود الروح حتى ذهب بعض مؤرخي الدولة البيزنطية إلى الاعتقاد أن هذه المراسلات والاتصالات قد أثّرت في السياسة التي اتبعها الإمبراطور حيال التماثيل المقدّسة، كما تسرّبت إلى مجموعة القوانين التي عرفت باسمه (ECLOGE) ومما يدل على عمق هذا التأثير أن أحد آباء الكنيسة البارزين وهو القديس يوحنا الدمشقي (JOHN Damascus) الذي تصدّى لسياسة الإمبراطور ليون الثالث، قد كتب أبحاثاً جادل فيها العقائد الإسلامية تحت عنوان (مجادلات إسلامية - مسيحية)، وذلك لتطويق التأثير الذي أحدثته العقائد الإسلامية داخل البلاط الإمبراطوري ونفر من رجال الدين، على أن من المفيد أن نذكر أن القديس يوحنا كان يكتب رسائل ينتقد فيها العقيدة الإسلامية وهو يتنقل في أرجاء الدولة الأموية بين دمشق والقدس، وبعد أن سلخ فترة من عمره موظفاً كبيراً في قصر الخليفة الأموي، ويتخذ اسماً عربياً هو (المنصور)، مما يذكرنا بحالة مشابهة مع اليهود هي حالة موسى بن ميمون الذي كان يراسل الجاليات اليهودية في العالم ويكتب كتابه (دلائل الحائرين) الذي حاول فيه الزعم بسمو اليهودية على الإسلام بينما كان يعمل طبيباً في قصر السلطان الأيوبي في مصر، ولا يمكن أن نتحدّث عن الحوار الإسلامي - المسيحي في العصور الوسطى، دون أن نشير إلى حلقة بارزة من الحلقات التي آلت إلينا عبر وثائق معتبرة، ونعني بها المحاورات التي دارت في زمن الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد (٨١٣ - ٨٣٤) وبين عبدالله

الهاشمي، وعبدالمسيح الكندي، وهي محاورات تناولت أصول العقائد الدينية، وكان الخليفة المأمون يحضر بعض جلساتها بنفسه ويشارك في التعليق عليها.

إن غرضنا من الإشارة لهذه الوقائع التاريخية لا يقصد منها بحال تمجيد المسلمين أو الإشادة بروح التسامح لديهم، ولكن للتأكيد على بعض الحقائق التي يمكن أن تشكّل منطلقات للحوار في العصر الراهن وهي:

أولاً : عدم وجود عقبات (عقائدية) تمنع المسلمين من الدخول في الحوار، بل نجد القرآن

يحث على هذا الحوار ويضع له إطاره الأخلاقي "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن" (٤٦/٢٩).

ثانياً: إن الحوار من وجهة النظر الإسلامية ينطلق من الاعتراف بالأديان السماوية

السابقة وكتبها المقدسة ورسلها الكرام بالرغم من وجود خلافات جوهرية، ويدعو الطرف الآخر لمثل هذا الاعتراف حتى تكتمل قاعدة الحوار البنّاء.

ثالثاً: إن الحوار يقنع باللقاء على الحد الأدنى، بافتراض أن الاتفاق مهما كان صغيراً

في البداية إلاّ أنه يخلق (ديناميكية) خاصة ترتاد به آفاقاً جديدة في طريق الوفاق

﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** ﴾ [**آل عمران** : ٦٤].

رابعاً: إن الحوار لا يقتصر على أمور الدين ولا ينتهي عند جدار مسدود حين يتعذر

النجاح فيها لسبب أو آخر، ولكنه يتجه إلى تحقيق التعاون في نصرة الحق

والخير، وفتح قنوات الاتصال للإفادة من التجربة الإنسانية في مجالاتها الواسعة.

وأعتقد أن أمثال هذه المنطلقات التي حكمت الحوار بين الإسلام والأديان الأخرى لا تزال صحيحة، وخصوصاً إذا استمرت البوادر الإيجابية التي ظهرت في الكنيسة مؤخراً إزاء الإسلام والتي سنتحدث عنها بعد قليل.

ثانياً: أمة الشهادة:

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا»، (١٤٣/٢) هذه الآية الكريمة من كتاب الله تحدد دور الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته، كما تحدد دور هذه الأمة بين سائر الأمم، فهي خير الأمم بما تنزل عليها من آيات الله والحكمة، وهي تقع في مكان وسط بين العقائد الغالية، سواء تلك التي تميل إلى الزهد المفرط كالبوذية والهندوكية، أو التي تنزع إلى المادية الجافة وتحيل حياة الإنسان إلى أرقام وآلات كاليهودية وما تفرع عنها من أفكار مادية إلحادية كالشيوعية والمدارس الاشتراكية المتطرفة. وهذه الصفات تجعل الأمة الإسلامية جديرة بأن تكون شاهداً على الأمم لأن "الشاهد" لا بد أن يكون ملماً بأحوال من يشهد لهم أو عليهم، كما يتحتم أن يكون معتدلاً في آرائه وأحكامه، ولذلك نجد القرآن الكريم يتحدّث عن الأمم السابقة وظروفها وتجاربها، كما يشيد برسل الله وكتبهم جميعاً ويجعل الإيمان بهم جزءاً لا يتجزأ من تراث النبوة ومسيرة الوحي الرباني ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [**آل عمران**: ٨٤]. وقد يكفي أن نقارن بين صفات العصمة والكمال التي يسبغها القرآن الكريم على أنبياء الله، والصور الشائكة التي تقدمها التوراة مثلاً حين تلحق بالرسل الكرام من الجرائم والانحرافات ما لا يليق بالأفراد البسطاء فضلاً عن النخبة السامية التي صنعها الله على عينه واختارها لحمل كلماته ورسالاته، ولقد عبّر الرسول

صلى الله عليه وسلم عن دور الشاهد في عدة أحاديث منها ما أورده البخاري في كتاب التوحيد الذين يتنكر لهم أتباعهم يوم القيامة فيهرعون إلى الاستشهاد بمحمد وأمته، وقد لخص النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا البخاري من كتاب الاعتصام قول الله عز وجل "وكذلك جعلناكم أمة وسطا" بأن الوسطية تعني العدل ومما ينسب إلى الإمام عليّ كرّم الله وجهه قوله في هذا المقام «خير الناس هذا النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي».

وقد علّق الشيخ محمد عبده - رحمه الله - في تفسير «المنار» على هذه الآية الكريمة بقوله: «إن الوسط هو العدل والخيار، وذلك أن الزيادة على المطلوب إفراط، والنقص عنه تفريط، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة فهو شر مذموم»، وقال الشيخ أيضاً: «إن الشاهد على الشيء لا بد أن يكون عارفاً به، ومن كان متوسطاً شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب، وثانيهما من الجانب الآخر، وأما من كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة الطرف الآخر أيضاً».

والإسلام هو آخر الأديان ورسوله صلى الله عليه وسلم هو خاتم حلقات النبوّة، والقرآن الكريم جاء مهيمنا على الكتب السالفة يؤكد ما بقي منها من آثار الوحي ويصوّب ما ألحقه الناس عليها من التحريف والتبديل، كما يذكر صاحب المنار في تعليقه على الآية التالية ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [**المائدة**: ٤٨]. ولقد ألحق التحريف البشري بالتوراة والإنجيل رموزاً وطلاسم ما أنزل الله بها من سلطان، وليس بوسعها أن تصمد أمام انتشار العلم والمعرفة، فأخذت تذوب كما يذوب الشمع تحت أشعة الشمس المشرقة، وبدأ أتباع الديانتين يتمردون على الخرافة كما يظهر في عشرات الكتب التي تفرزها المطابع.

لقد تحوّلت التوراة الراهنة نتيجة للتحريف والتبديل إلى كتاب يحث على استعباد الشعوب، وممارسة الفتوحات المسلحّة باسم «الشعب المختار»

والإنجيل تدور عقائده حول وثنية التثليث ومراسم القداس، وشخص المسيح الذي جعلته الكنيسة إلهاً أو ابن الإله، تعالى ربنا عن ذلك علوّاً كبيرا.

ولكي تنجو المسيحية واليهودية من هذا الطوفان وتواجه تطوّرات الحياة الحديثة، فقد كان عليها أن تقدّم تنازلات كبيرة تمس أصول العقيدة، فماذا يبقى من اليهودية لو زالت «خرافة الشعب المختار» وتعطلت الحوافز المحرّكة لاستعمار الشعوب الأخرى، وماذا يبقى من المسيحية لو عاد المسيح بشراً رسولاً، وزالت مع الربوبية الزائفة مراسم القداس وما يتبعها من الأساطير والخرافات؟.

لقد بقي الإسلام راسخاً متزناً في كتاب ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [**فصلت**: ٤٢] وفي الوقت الذي تصدّر فيه كتب ومقالات وأفلام في الغرب، تشكك في وجود موسى وعيسى بالموازين التاريخية أصلاً وتضرب جذور المسيحية واليهودية من الأساس، يؤكد الإسلام رسالتيهما ويشيد بهما كرسولين كريمين من رسل الله، بل يدعو أتباعهما للتمسّك بالحق الذي بقي في التوراة والإنجيل بعيداً عن الغلو والتحريف مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ**﴾ [**المائدة**: ٤٧] وقوله تعالى في حق التوراة ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ**﴾ [**المائدة**: ٤٤].

وقد يكفي أن نذكر ما أورده الكاتب الكنسي الفرنسي ميشيل لولونغ Michel Lelong في كتابه «الإسلام والغرب» فبعد أن سرد عدداً من كبار الكتّاب الذين انتقدوا جذور العقيدة المسيحية وخاصة ما يتعلق بألوهية المسيح المزعومة أمثال رودنسون، وفاهانين، وفان بيرو، وهارفي كوكس، وكريستين دوكوك، وهنري بورجوا، وغيرهم الذين أرادوا - حسب رأيه - تحرير المسيح من التفسيرات الخاطئة، ووضعه في مسار التاريخ انتهى ميشيل لولونج للقول: «وفي نهاية القرن العشرين فالذي يبدو لنا نحن الغربيين أننا نحتاج إلى الإسلام لأننا فقدنا الإحساس بالألوهية، وأن اغراءات الثقافة الحديثة قد حوّلت إيماننا بالرجل «المسيح» أكثر من إيماننا بالله».

وهذا الصراع المرير في قلب المؤسسات الدينية اليهودية والمسيحية بين نور الله ووحي السماء من جهة، وبين دين الغلو والتحريف البشري من جهة أخرى، يوشك أن يعصف بالدينين ويقوضهما من الجذور، مما يفتح بابا واسعاً أمام الإسلام باعتباره المهيمن والشاهد لكي يدعم الوحي الإلهي، ولن يتأتى ذلك إلاّ من خلال حوار علمي يديره رجال مؤمنون يلتزمون شريعة الله ويلمون بالكتب السالفة والتيارات التي تدور حولها والمواقف التي يجب أن يقفها المسلمون منها، ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الإسلام يقف موقفاً معاكساً لاتباع الديانتين اليهودية والمسيحية سواء في نظرة كل منهما للآخر كما يقول القرآن الكريم «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء» أو في نظرتهما المنكرة للإسلام والعاملة على هدمه، نجد الإسلام حريصاً على الديانتين حامياً لهما، ولا يريد أكثر من إزالة التحريف والتشويه الذي ألحقه البشر بهما، وشتان بين الموقفين.

ولا شك أن مما يساعد المسلم الواعي على الحوار مع الأديان والحضارات الأخرى، أنه يدخل الساحة مسترخياً، واثقاً من نفسه ومن عقيدته، فهو لا يحتاج إلى تنازلات أو تراجعات، فالإسلام الذي يمثله يعترف بالأديان الأخرى -كما اسلفنا - ويجل كتبها، ورسلها، وان اختلف مع تلك الكتب فهو خلاف ينطلق من الاعتراف والاحترام، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعطي نفسه أي حق أو ميزة على الأنبياء الآخرين، بل يعتبر نفسه الحلقة الأخيرة في سلسلة النبوات التي بدأت مع آدم عليه السلام، وقد أورد الإمام أحمد في مسنده قوله صلى الله عليه وسلم «إن مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها، وأكملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبناء ويعجبون منه، ويقولون لو تم وضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة» وقد أورد أبو داود في سننه عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التخيير بينه وبين أحد من الأنبياء، وفي حديث آخر عن ابن عباس (رضي الله عنه) أنه قال

«ما ينبغي لعبد أن يقول إنني خير من يونس ابن متّي» وحين خاطبه رجل بقوله «يا خير البرية» قال:- ذاك إبراهيم سنن أبي داود، كتاب السنة.

ثالثاً: أمام ثورة العلم:

إن تطورات الزمن تؤكد الحقيقة التي أشار إليها الكاتب الثيولوجي الفرنسي وغيره عن دور الإسلام في قيادة جبهة الإيمان أمام قوى المادية والإلحاد، وأنه وحده المؤهل لهذا الدور الرباني، وبديهي أن المسلمين لن يكون بوسعهم أداء هذا الدور إذا شاع الخوف، وعدم الثقة، وتغلبت روح الإنطواء على النفس، والانعزال عن التيار العالمي، ذلك لأن الإسلام هو دين الإنسانية في كامل حدودها وتخومها كما يحدد القرآن الكريم أبعاد الرسالة «وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيرا» وقوله صلى الله عليه وسلم فيما أورده الإمام مسلم في صحيحه "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي (أولها) كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود».

وإذا كان الله سبحانه قد ختم الوحي برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، إلاّ أنه - جل وعلا - تعهد بدوام الهداية الربانية «فإنما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى» ٢٠/١٢٣ وقوله سبحانه «وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبيّن لهم ما يتقون» ٩/١١٥.

ومن أدلة ختام النبوّة - كذلك - أن الفترات الزمنية بين الأنبياء السالفين لم تتجاوز المائة عام كما رصدها الفيلسوف باسكال في أفكاره، المشهورة، وها قد مضى قرابة ستة عشره قرناً دون أن يظهر نبي يحمل كتاباً، فهل يعني ذلك أن الخالق القدير تخلّى عن مواكبة عباده بالهداية الربانية لا سيّما في زمن يفرز كل يوم مسائل ومشكلات معقّدة وغير مسبوقة؟! أن الحل الوحيد لما يظهر من تناقض هو أن الإسلام آخر الأديان يحمل في إهابه عناصر التطوّر والتجديد التي يحتاجها الإنسان، أو كما ذكر الفيلسوف جارودي في أكثر من كتاب من كتبه: أن الإسلام دين مفتوح ليس له سقف يقف عنده، وأنه يعين على التطوّر الإنساني ويقدّم له الغطاء

الشرعي حتى لا ينفلت ويظل مرتبطاً بالإيمان وما يأتي معه من الاستقامة والالتزام الخلقي.

ولقد مارست الأمة الإسلامية هذا الدور بكل أبعاده الإيمانية والعملية في أجيال كثيرة، وكان المسلمون هم الطلائع والروّاد الذي اقتحموا الساحات المجهولة في ميادين العلم والمعرفة، كما يذكر روجيه جارودي في كتابه القيّم «الإسلام في الغرب قرطبة عاصمة الروح» وبعد أن عدد جارودي إسهامات المسلمين في فروع المعرفة من الفلك، إلى الحساب إلى الجغرافيا إلى الطب، مما يجعل المرء يدرك أنه لا يوجد ميدان من هذه الميادين إلا وجد في جذوره عالم مسلم يمهّد الطريق ويضع قواعد الدراسة ويحدد أساليب البحث، بحيث يأتي جهد العلماء على تعاقب الأجيال إضافات على هذه الأسس الراسخة، على أن أهم إسهامات المسلمين على الإطلاق هو ذلك الربط المحكم بين العلم والإيمان فالقرآن الكريم يشتمل على أكثر من سبعمائة آية تحض على العلم واكتشاف الكون، والأمر فيها كلها من الله سبحانه مصدر النور والمعرفة الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم».

وهدف العلم الأخير - في المفهوم الإسلامي - هو إرضاء الله والتقرّب إليه كما يقول جل جلاله «ونفصّل الآيات لقوم يعلمون" وفي الطريق إلى معرفة الله يصبح العلم - كذلك - وسيلة لخدمة عباد الله، وإسعادهم، وحين ضعف العالم الإسلامي وتفككت عراه تحت وطأة الهجمة الاستعمارية خفتت مثل هذه المبادئ وانفلت العلم عن مدار الإيمان، ومضى هائماً يفتك ويدمّر دون حساب، وكان من نتيجة ذلك حروب عالمية حصدت البشر بالملايين، وأسلحة فتّاكة تدمّر المدن والقرى، ومن الواضح أن العقل الإنساني لا يزال قادراً على المضي في هذا الشوط المرعب واختراع المزيد من أسلحة الفتك الجماعي ما لم تعد اللحمة التي وضعها الإسلام بين العلم والإيمان، ولا شك أن هذه هي واحدة من الإسهامات الكثيرة التي يمكن أن يقدمها الإسلام للحياة المعاصرة والتي يصعب تحقيقها دون أن يعرّضها

المسلمون ويذكّروا بها أقرانهم عبر الحوار المنشود.

نذكر هذا الميدان لأهميته الخاصة دون أن نغفل تحديّات كثيرة يواجهها العالم المعاصر ولها حلول واضحة في الشريعة الغرّاء، ولا تحتاج سوى أن يعرضها المسلمون بأسلوب علمي خلال حوار تخيّم عليه الثقة، والمودّة، والرغبة في الاستماع.

رابعاً: عقبات أمام الحوار:

لقد رأينا أنه لا توجد ثمة عقبات دينية تمنع الحوار من الجانب الإسلامي، لكن سيكون من التبسيط الشديد أن نقف عند هذه الحقيقة وحدها، دون أن نشير للعقبات الموضوعية التي تجعل الحوار محفوفاً بالصعاب، والتي تحتّم جهداً خاصاً لفهمها وتحديد آثارها، بهدف التغلّب عليها، ويمكن تخليص العقبات فيما يلي:

أولاً: العقبات الدينية - «الثيولوجية»:

لا يمكن التقليل من أهمية القضية "الإيدولوجية" التي تلقي ظلها على مناخ الحوار، ومهما تكن المحاولات لتحاشي الخوض في الخلافات الدينية، إلاّ أنها كثيراً ما تفرض نفسها على النقاش، وخصوصاً إذا انتقلت لمستوى الجمهور الذي يسهم في تحديد طبيعة العلاقات ويؤثّر فيها وليس هناك من سبيل لمنع التساؤلات التي تدور في أذهان المسلمين حول فكرة التثليث وطبيعة المسيح عليه السلام، والصلب، والقيامة، والخطيئة الأولى والخلاص وغيرها، ويوازي ذلك في الأهمية ما اشتمل عليه الإنتاج الأدبي لأكبر العقول في الغرب من طعن على الإسلام وكتابه ورسوله، ولا تعوزنا الأدلة على هذا الاستنتاج، وقد يكفي أن نشير لمكانة الرسول محمد كما صوّرها «دانتي» في الكوميديا الإلهية، أو أوصافه في كتاب مفكّر كبير ينسب إليه عصر كامل من الأدب والفلسفة هو فولتير، ولا جدال أن هذا التراث بجوانبه المختلفة قد ألقى ظلالاً على مناخ الحوار في مرحلة معيّنة إلاّ أن تأثيره يمكن أن

يخف في المستقبل وخصوصاً مع ظهور العديد من المؤلفات والأبحاث التي تصدر عن الدوائر المسيحية وتعالج فيها قضايا إسلامية بروح علمية موضوعية. بالإضافة إلى أن أكثر القضايا والمشكلات الاجتماعية لها حلول في الشريعة الإسلامية لا يوجد مثلها في الشرائع الأخرى، ومن المفيد أن يرجع إليها المحاور المسلم لأنها تضع ثقل الدين وراء العلاج، ثم إنها دليل على صلاحية الإسلام وتأثيره الإيجابي في مسيرة الإنسان المعاصر.

(أ) الاستعمار الغربي:

لا يمكن أن نجد ساحة يمكن أن تتأثر بالتاريخ تأثّراً سلبياً كساحة العلاقات الدينية، وإذا نحن أخذنا عبارة توماس جيفرسون جديّاً حين قال: "أن التاريخ يعلّم الماضي ليكون حكماً على المستقبل فإننا يمكن أن نصاب بإحباط كبير، ذلك لأن تاريخ العلاقات الدينية في مجموعه لم يكن - دائماً - تاريخاً تحكمه المودّة أو التفاهم. ومن سيئات هذا الواقع أن العلاقات المستقبلية يمكن أن تتأثر به بسهولة فائقة، وخصوصاً إذا لم يكن الانفصال واضحاً بين الحاضر والماضي، وكانت المراحل متداخلة كما هو الحال بالنسبة للعلاقات المسيحية - الإسلامية، فالحرب الصليبية ليست جزءاً من الماضي كما يظن البعض والاستعمار الغربي الذي نزل الأراضي الإسلامية منذ القرن الثامن عشر الميلادي كان يحمل شعارات مسيحية لا تزال آثارها قائمة، كما يقول فلوبير في قاموسه «عن الأفكار الموروثة» عن الحروب الصليبية «وأنها لم تكن إلاّ مغامرة محسوبة لترويج تجارة فينيسيا».

إلاّ أن الطابع الديني الذي رسم في أذهان الشعوب الإسلامية له ما يبرره تماماً، نقول ذلك لا لكي نهيج عداوات نائمة. ولكن لنرسم خلفيّة تاريخية واقعية تؤثّر في العلاقات الراهنة، وواضح أننا لا نملك أن نغيّر التاريخ أو نفسّره تفسيراً يتفق مع ميولنا وأهوائنا، ولكن من المؤكد أننا نستطيع أن نقلل من تأثيره على الواقع الراهن إذا توفّرت النوايا الحسنة وتغلّبت الأسباب التي تدعو للحوار على أي اعتبار آخر، كما أن استحضار

هذه الخلفية التاريخية يمكن أن يعين على تحديد خطوات تتسم بالحذر والدقة في استقبال الحوار، والقناعة بالنتائج العملية الممكنة في ظل الظروف السائدة.

لقد كان أكثر قادة الاستعمار من الساسة والعسكريين ينطوون على دوافع دينية، فالحملة التي افتتح بها الملك البرتغالي يوحنا الثاني سلسلة الحملات على أفريقيا الغربية في منتصف القرن الخامس عشر كان هدفها المعلن هو الوصول إلى الحبشة المسيحية، والملك شارل العاشر الفرنسي ظفر بتأييد الدول الأوروبية حين أطلق على حملته الجزائرية عام (١٨٣٠) اسم "الحملة المسيحية" وقد يزيد الأمر تعقيداً في المرحلة الراهنة سهولة تداول الآراء غير المسؤولة عبر وسائل الإعلام الحديثة، مما يظهر وكأننا نعيش امتداداً للتاريخ الذي نحاول نسيانه، ومن أمثلة ذلك عنوان ضخم في الصفحة الأولى من جريدة الهيرالدتريبيون الشهيرة تقدّم رحلة البابا الأخيرة لأفريقيا باعتبارها «حملة صليبية لمحاربة انتشار الإسلام» وكأن انقضاء ست عشرة قرناً لم يغيّر شيئاً على الطبيعة، وبقي الشعار الذي أعلنته أوروبا قائماً على حد تعبير فنسنت مونتيه (Vincent Monteil) في كتابه الإسلام الأسود "أننا نستطيع القول أن السياسة الرسمية للحكم الاستعماري في أفريقيا يمكن تلخيصها في عبارة واحدة هي (أن الإسلام هو عدونا الأوحد)! ولم يستطع خطاب البابا الودي في المغرب في ختام الرحلة الإفريقية المذكورة أن يمحو الآثار التي بشّرت بها جريدة الهيرالد التربيون، ومن الأمثلة أيضاً تعليق ظهر في مجلة «الإيكونمست» تعالج فيه تدفق رؤوس الأموال العربية على أوروبا، لتنتهي إلى القول بأن هذا الخطر قد يحتاج إلى «شارل مارتل» اقتصادي لإنقاذ أوروبا على مستوى القائد العسكري الذي واجه المسلمين في «بواتييه» أو بلاط الشهداء. إشارة للقائد الفرنسي الذي هزم عبدالرحمن الغافقي في المعركة المشهورة. (٧٣٢ ميلادية)

(ب) التبشير:

كان من الممكن أن نربط التبشير بالاستعمار الغربي مباشرة، ذلك لأن من الواضح أن كلا منهما كان صنواً للآخر وعوناً له، وليس من قبيل الاتهام الجزافي أن نكرر التعبير الشائع في أفريقيا الإسلامية «أن بندقية الجندي الأوروبي كانت تختفي تحت عباءة القسيس» وقد يكون هذا المنطق موضوع جدل مع المسيحيين الذين يصرون على أن المسيحية دين سماوي، بصرف النظر عن طبيعة السلطة القائمة في البلاد التي يتجه إليها التبشير، وأن الإرساليات قد عملت في ظروف بالغة الصعوبة، وفي بلاد لا يوجد بها ظل للحكم الأوروبي، ومع أن هذه الحجج لا تخلو من المنطق فعلاً بالنسبة لبلاد محدودة، إلاّ أن مما لا شك فيه أن التبشير قد مهّد للغزو الاستعماري في البلاد الإسلامية وفي إفريقيا على وجه الخصوص ثم اعتمد على مؤسساته في الانتشار.

لقد عقد ر. كوبلاند (R. Copland) فصلاً مطوّلاً في كتابه القيّم عن غزاة شرق أفريقيا بعنوان (الغزو التبشيري) تعرّض فيه تفصيلاً لنشاط الإرساليات في أفريقيا الشرقية وصلتها المباشرة بالمؤسسات السياسية سواء في عواصم الدول الأوروبية أو مع السلطات المحليّة التي تمثّل دولة الاستعمار.

يدعوني للإشارة لهذا الحقائق الاتجاه الذي التزمته خلال هذه الورقة من ضرورة التركيز على العقبات القائمة، لا لنقف عندها أو نجمد أمامها، ولكن لندرك تأثيرها الحقيقي على الواقع الراهن، ونبحث في وسائل محوه أو التخفيف منه على الأقل، وفي موضوع التبشير سيكون من غير المفيد للحوار أن ينظر لهذه المشكلة باعتبارها جزءاً من الماضي البعيد الذي يمكن تجاوزه أو الدوران من حوله لأنه لا يزال مشكلة حيّة تواجه المسلمين وتتحدى مشاعرهم وتقف حائلاً أمام بناء الثقة المطلوبة بين الجانبين.

(جـ) ترويج العلمانية:

ويجب ألاّ نتجاوز موضوع التبشير دون أن نشير إلى أحد أبرز الجوانب السلبية التي تركها لدى المسلمين، ويمكن أن يلخص هذا الجانب في عبارة

تنسب إلى المبشر المعروف (زويمر) حين قال ما معناه "أن الغرض من التبشير بين المسلمين ليس إدخالهم في المسيحية ولكن إخراجهم من الإسلام "فقد جاء في رسالة وجهها (زويمر) لأحد مؤتمرات المبشّرين قوله: "أن لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلامية فائدتين: فائدة تشييد وفائدة هدم، أو بالأحرى تحليل وتركيب .. ولا ينبغي لنا أن نعتمد على إحصائيات "التعميد" في معرفة عدد الذين تنصروا رسمياً من المسلمين لأننا هنا واقفون على مجرى الأمور ومتحققون من وجود مئات من الناس انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم. وسواء عكست هذه العبارات رأياً شخصياً عابراً أم استراتيجية ثابتة للتبشير، إلاّ أن الممارسة العملية في الماضي والحاضر قد أدت إلى هذه النتيجة، مما جعل الحركات الإسلامية تنحى باللائمة على المدارس التبشيرية في تخريج أعداد من القادة السياسيين الذين يعتنقون الأفكار اللادينية بأسمائها المختلفة، ومما يرجح وجود هذه الاستراتيجية الخاطئة أن ممثلي الحكم الأوروبي في البلاد الإسلامية قد اعتمدوها إبان الحكم الاستعماري المباشر، فقد منع البريطانيون الشباب الأفارقة من تحصيل العلوم الدينية في الأزهر الشريف أو الجامعات العربية الأخرى، أما في أفريقيا الفرنسية فلم تكن الأمور أحسن حالاً ذلك لأن القادة السياسيين والعسكريين اعتبروا الإسلام عدوهم الأول ودعوا إلى القضاء عليه بالقوة أو الخداع، وها هو الجنرال لويس ليون فيدهرب (Louis Leon Faidherb) المندوب السامي الفرنسي في غرب أفريقيا يقول في كتابه عن السنغال، أن التكرور المسلمين شعب ذكي ماهر، ولكن الإسلام أفسدهم وجعلهم سرّاق وكذبة كالعرب.

أما مساعدة القائد ماج (Mage) فقد حذر من التساهل مع الإسلام واعتبر أن أي مهادنة له جريمة لا تغتفر.

وإذا كان هدف تلك السياسة حينذاك إبقاء مناخ الجهل مفروضاً على المسلمين لتسهيل عملية التبشير وثمرة هذه السياسة تظهر الآن حين نجد أن

تشكيك المسلم في دينه قد انتهى به للشك في كل الأديان، وأن هذا المزاج النفسي قد انتهى به للإلحاد أو الشيوعية أو العلمانية المفرطة في نهاية المطاف.

لقد ذهب بعض رجال الدين المسيحي بعيداً في الماضي في محاربة الإسلام والتحريض عليه ورميه بكل التهم مما ترك لدى المسلمين جراحاً عميقة، وقد أطلعني الشيخ إبراهيم إيناس شيخ الطريقة التيجانية في السنغال وزميلي في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي على محاورة حادة دارت بينه وبين المنسنيور ليفيبر (Lefebvre) رجل الدين الفرنسي المعروف، حين كتب الأخير سلسلة مقالات في مجلة فرنسا الكاثوليكية (La France Catholique) حذر فيها من استقلال الدول الإفريقية ذات الأغلبيات الإسلامية، وقال أن ذلك سيؤدي بها للفوضى أو للشيوعية، وزعم أن الفكر الماركسي قد وجد أرضاً خصبة بين المسلمين لأن هناك تشابهاً بين العقيدتين في التعصّب والجماعية واستبعاد الضعيف"[١]، وقد وجه الشيخ إيناس خطاباً مفتوحاً للمنسنيور أوضح فيه استحالة التوافق بين الإسلام والشيوعية ورفض تهمة الاستبعاد، وتساءل ساخراً إذا كان المسلمون هم الذين يستبعدون أوروبا الآن ويفرضون سلطانهم على أفريقيا؟ ولا ينبغي الاستهانة بمثل هذه التصريحات التي تستقر في الضمائر لفترة طويلة وتعطي حججاً قوية للذين يهاجمون الإسلام، ذلك أن هذا التهجم كان مادة للحديث مع النخبة الإسلامية حين زرت السنغال بعد عشر سنوات من وقوعها. فإذا اعتبرت بعض المؤسسات التبشيرية السياسة التي عبّر عنها (زويمر) سليمة بالنسبة إليهم في مرحلة من المراحل، فإن ضررها قد أصبح واضحاً على الإسلام والمسيحية معاً وهذه النتيجة وحدها تكفي سبباً للدخول في حوار جدّي بهدف محوها وإزالة الآثار الضارة التي ترتبت عليها.

(د) بدايات جديدة:

ومما يدعو للتفاؤل أن المسيحيين ليسوا رأياً واحداً في قضية التبشير

في العالم الإسلامي فهناك من يرى إلغاءه كلية باعتبار المسلمين أهل كتاب سماوي وبالتالي لا يحتاجون لمن يبشّرهم بالإيمان، ومن هؤلاء القس ج، جوينج (G. Gowing) الذي كتب يقول "أن التسرّب الأوروبي المبدئي في آسيا لم يكن توسعاً استعمارياً فحسب، ولكن كان صليبية "علمانية" ضد الإسلام، وهذه الروح استمرت حتى يومنا هذا" ولكي يؤكد نظريته أشار لعدة وثائق كتبها المبشّرون وفيها نقرأ مثل هذه العبارات الخاطئة: «إذا كان المسلمون فقراء، ومتأخرين فإن ذلك يعود للإسلام. دينهم الزائف وعقيدتهم المنحرفة» ويؤكد جوينج «أن هذه الكلمات الساذجة لا تزال - مع الأسف - مسيّطرة حتى الآن»، وقد تساءل ميشيل لولونج في كتابه الذي أشرنا إليه «كيف يمكن أن نوفق بين رغبتنا في محاورة المسلمين ونحن نصر على إضعاف إيمانهم عبر النشاط التبشيري»!

وقد أحرزت جلسات الحوار التي قامت بها المنظمات الإسلامية العالمية للحوار بعض النتائج حين حصلت من الجانب المسيحي على فهم مشترك يعتبر أن أي محاولة للتأثير على العقائد من خلال النشاط الإنساني، وتقديم المساعدات الخيرية هو عمل «غير أخلاقي» ينبغي التوقف عنه، وقد يقال أن مثل هذه البيانات غير ملزمة للذين يعملون مباشرة في الحقل، إلاّ أن مجرد الاعتراف بها من قبل المراجع العليا في الكنيسة يجعلها مادة هامة للنقاش وخطوة في طريق تصحيح العلاقات.

أن المسلمين لا يملكون أن يقفوا موقفاً سلبياً إزاء هذه التطورات ويديرون ظهورهم إليها، ذلك أنها تقتحم عليهم ديارهم في قرارات وإجراءات، وعليهم أن ينتهزوا كل فرصة تتاح لهم لتغيير المفاهيم الموروثة الخاطئة، وخصوصاً وأنه يوجد في الجهة المقابلة عناصر إيجابية كثيرة من العلماء والكتّاب، وقد أشرنا إلى عدد منهم، وواجبنا أن نشكّل معهم جبهة عالمية عريضة تنشد الحق والعدل، وتعمل لإقامة عالم جديد يرتكز على الإيمان الخالص بالله، والسعي للتعايش السلمي بين الأديان والحضارات.

كان لا بد أن ترسم اللوحة الخلفية التي يتحرّك أمامها حوار الحضارات لكي ندرك عمق الآثار التي يمكن أن يتركها على الواقع العربي - الإسلامي ولكي ندرك أن هواجس الشك والتخويف التي تسيطر على بعض المسلمين ليس لها ما يبررها من الحقائق القائمة، على أن هناك هدفاً آخر لإبراز هذه اللوحة الخلفية هو أن نقدّر قيمة البوادر الإيجابية التي وقعت من بداية الحوار في بعض هذه الميادين، والآثار الصحيّة التي تركتها - على قلتها - مما يصلح أساساً لمزيد من المحاولات، إذ لا شيء يغري بالنجاح سوى النجاح نفسه.

بالرغم من اقتناعنا أن الحوار يجب أن ينأى عن الجدل الديني كلما أمكن ذلك وأن يكتفي في هذه المرحلة بارتياد حقول التعاون في الأمور العامة التي تؤثر في حياة الأفراد والجماعات والتي سبقت الإشارة لشيء منها، إلاّ أننا رأينا مع استمرار هذا البحث أن الفكر الديني لم يقف عند الحيّز النظري وإنما فرض نفسه على الواقع السياسي والاجتماعي أيضاً، كما أن من الصعوبة أن نتجاهل الأثر الذي يحدثه هذا الفكر في نظرة كل فريق للفريق الآخر، خصوصاً وأن مصادر المعرفة أصبحت متاحة للجميع مع سهولة انتشار الأفكار عبر شبكات النشر ووسائل الاتصال الحديثة، بحيث لم يعد ممكناً أن تحتكر النخبة من ذوي الاختصاص بحث هذه القضايا، ومع كل هذه الصعوبات الواضحة فإننا نسجّل تطوّرات إيجابية في هذا الميدان الهام.

لقد أشارت وثيقة المجمع المسكوني الثانية (أكتوبر ١٩٦٥) للإسلام باحترام واعتبرت المسلمين موحدين يعبدون الإله الواحد وإذا كانت الوثيقة الرسمية قد وقفت عند هذا الحد ولم تتقدّم لملاقاة الموقف الذي رسمه القرآن الكريم حين قال: ﴿**وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [**العنكبوت**: ٤٦] نقول إذا كانت الوثيقة قد وقفت عند هذا الحد، إلاّ أنها أعطت إشارة البدء وفتحت الطريق امام العلماء والمفكرين المسيحيين. ربما رغم إرادتها - ليرتادوا آفاقا أوسع في مجال الاعتراف المتبادل، مما يفتح الباب واسعاً أمام خطوات أخرى في هذا الطريق.

لقد اعتبر ج. فان آيس (J.Van. Ess) هذه الوثيقة أساسا حين طالب بخطوة أكثر جرأة قائلاً: "يجب ـ تبعا لذلك ـ ان تنظر الكنيسة باحترام لذلك الذي تجاهلت اسمه (محمد)، لأنه هو الذي قاد المسلمين ليعبدوا ذلك الإله الواحد كما أنه الوسيلة التي تحدث الله من خلالها للإنسان.

ولقد تساءل هانز كونخ (Hanz Kung) في دراسة قدمها الى الندوة الابراهيمية في قرطبة (١٩٨٧) «هل هنالك دين حقيقي واحد، أم أديان كثيرة؟» ودون أن يتزحزح عن اقتناعه بسيادة المسيحية، وهو أمر متوقع – إلا أنه لم يجعل الحقيقة حكرا لها وحدها، وإنما وجد الحق في غيرها من الأديان، وربما أعانه على الوصول لهذا الاستنتاج الفقرات التي استشهد بها في وثيقة الفاتيكان الثاني في وجوب النظر للأديان الأخرى ـ وخصوصاً الاسلام ـ بالاحترام والتقدير.

على ان بعض رجال الدين قد اجتازوا هذه المرحلة لمرحلة اكثر وضوحا وهي إعادة قراءة الكتاب المقدس على ضوء الفهم القرآني لقضايا العقيدة المسيحية، ويمكن أن يمثل هؤلاء رجل الدين الفرنسي البارز ميشال لولنج (Michel Lelong) الذي ناقش طبيعة المسيح والتثليث والصلب وغيرها بجرأة منقطعة النظير استمع اليه يقول في صفحة (٢٠٣) من كتابة (الاسلام والغرب) «ان العلاقات التي تربطني مع اصدقاء مسلمين وتأملاتي في القرآن قد أدت بي الى هذا الاقتناع، وهو أننا في نهاية القرن العشرين محتاجون الى رسالة الاسلام، نحن الغربيين الذين فقدنا الكثير من معنى الربانية، ونحن المسيحيين بصفة خاصة الذين تأثرنا بالثقافة المعاصرة الى درجة ان ايماننا بالمسيح يتعرض لخطر حقيقي هو التركيز على الإنسان.

على الله تعالى – ومع أننا لا ندعي أن أمثال هذه الآراء هي محل إجماع بين رجال الكنيسة إلا أنها تشير إلى ميدان هام أصبح مفتوحاً للدراسة الجريئة ويجب أن يحظى بالتشجيع ممن يعنيهم أمر الحوار. على أن التركيز على القضايا الاجتماعية، في هذه المرحلة، دون الجدل حول العقائد لا يجب

أن يقلل من الاهتمام بالحوار، ذلك لأن القضايا الاجتماعية مثل البحث عن العدل والسلام، والتحرر، وتأكيد الأخوة الإنسانية من فوق العصبيات الضيقة، وغيرها من العلل الاجتماعية، مثل المخدرات، والكحول، والفساد الخلقي، والشذوذ، وتفكك الأسرة وغيرها، وهي قضايا تهدد الإنسان وتظفر باهتمامه أكثر من الجدل في الغيبات والعقائد، وفي كل هذه الميادين يجد الباحث المنصف حلولا حاسمة في مصادر التشريع الاسلامي لا تتوفر في دين آخر، ودخول المسلمين في الحوار حول هذه العلل ومشاركتهم في تنظيم الجهود لمقاومتها، يعتبر أحد أهم وسائل الدعوة «غير المباشرة للإسلام» والقرآن الكريم يربط بين الدعوة والأمن الاجتماعي ربطا محكما من أمثال قوله تعالى «فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، وبمددكم باموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا» ١٢/٧١، وإذا كان واجب المسلمين تشجيع حوار الحضارات للوصول الى هذه الغايات الإنسانية العامة، فلا شك أن لهم مصلحة خاصة الى جانب ابراز موقف الاسلام، وهي مكافحة هذه العلل والأوبئة في منابعها، ذلك ان الفساد الخلقي بأنواعه ينبت في الساحات الخلفية للحضارة الغربية قبل أن يندفع للعالم الإسلامي مع التلفزيون والصحافة ووسائل الاعلام الأخرى، فإذا استطاع المسلمون أن يعينوا على تشكيل جبهة عالمية لمحاربة هذه المفاسد من خلال الحوار فإنهم يقدمون خدمة جلي لأنفسهم وخصوصا للاجيال النامية من الشباب المسلم البريء.

خامساً: نهاية الاستعمار:

لقد قلنا ما نتصوره كافيا لأغراض هذا البحث عن الصلة بين الاستعمار والتبشير، وما تركه هذا التحالف من أثار مدمرة في البلدان الإسلامية، غير أن مما يدعو للتفاؤل أن المرحلة الأخيرة قد سجلت انحسار الاستعمار السياسي الى حد كبير وقيام نمط جديد من العلاقات السياسية والاقتصادية، ومع ان العلاقة تتسم احيانا بعدم التوازن الذي يحدثه التفاوت

الكبير في موازين القوة بين الدول الكبيرة والصغيرة، ومع ان النشاط التبشيري لا يزال على أشده في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي ولا يزال إحدى أهم نقاط الصدام بين الفريقين، إلا أن من الملاحظ أنه يتعرض أيضاً لتغيرات ايجابية إن تكن خافته حتى الآن، إلا أنها يمكن ان تكتسب أبعادا أوسع إن لاقت التشجيع والرعاية.

لقد التزم الاسلام قاعدة مهمة في أخلاقيات الدعوة تقتضي مزيداً من التأمل من قبل الجانب المسيحي وهي عدم الإكراه، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأسلوب الجدل بالتي هي أحسن وفي ذلك جاء قوله تعالى : ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقد سار الخلفاء الراشدون والامراء الصالحون على هذا التوجه القرآني.

وقد نضيف الى التطورات الايجابية لدى الجانب المسيحي في هذا الميدان أن نسمع أصواتا جدية تدعو للعزل بين التبشير والمساعدات الخيرية بحيث تمضي الدعوة الدينية في طريقها من خلال الموعظة والقدوة الحسنة دون استغلال لحاجة الفقير والجاهل والمريض كما هو الحال حتى الآن في مناطق كثيرة من العالم الاسلامي، وبعبارة أخرى الفصل بين (diakony) أو الخدمة، وبين (Kerygma) أو التبيان، كما اقترحه «ارن ردفن» بطرك كراتشي في دراسة بعنوان المفهوم والممارسة في التبشير المسيحي (the concept and practice of Christian mission) والتي قدمها لندوة شامبيزي في ديسمبر ١٩٨١ . وقد اعتمد البطرك في نظريته على اقتباس فقرات من أعمال الرسل كما جاءت في الكتاب المقدس.

ثم انتهى البطرك للقول: «في العهد الجديد يبدو لي أن مهمة التبشير الأساسية هي اعلان الرسالة، لقد كان الانبياء شهودا على حياة المسيح وصلبه، وقيامه، وكانت مهمتهم، أن يشهدوا على ذلك امام الناس جميعاً لعلهم يؤمنون، وعلى اساس هذه النظرية المركزية في الرسالة فإن الإنجيل قد وضع فكرة خدمة المحتاجين في منزلة ثانوية، وبالتأكيد أقل أهمية مما

تمارسها بعض الكنائس الحديثة اليوم».

أما ميشال لولونج فقد كان اكثر وضوحا كما ذكرنا سابقاً - حين أبدى استغرابه (ان تتحدث الكنائس لغتين مختلفتين واحدة تدعو للحوار الذي يفترض احترام ايمان الآخرين، وفي نفس الوقت تشجيع التبشير بينهم كأنه لا يوجد خارج الكنيسة والإيمان المسيحي لقاء حقيقي وعميق بين الله والإنسان، وقد أورد الكاتب نقاشاً دار بين احد المبشرين المتحمسين والبابا بولس السادس، حين طلب الأول بإقامة سد أمام زحف الاسلام، فأجابه البابا قائلاً ان ما نحتاجه الآن هو الحوار وليس السدود! مما يعني أن المراجع العليا في الكنيسة لا تزال تتردد في اتخاذ الموقف النهائي من التبشير وعلينا أن نعينها على اتخاذ القرار الصائب والوحيد وهو إيقاف التبشير في البلاد الاسلامية جملة وتفصيلاً.

أن هذه الأفكار التي عرضنا جزءا منها تشكل منطلقاً جديداً للتبشير المسيحي في البلاد الإسلامية يبعده عن الإكراه والاستغلال، فإذا قبلت دعوة العزل بين الدعوة الدينية وبين تقديم المساعدات الخيرية، فإن احدى العقبات الهامة تكون قد زالت من الطريق، على ان حاجة الشعوب الفقيرة للمساعدة بمكن أن تلبي بصورة أفضل إذا ما قدمت تلك المساعدات للاجهزة المختصة في الحكومات الوطنية حتى لا يكون هنالك اتصال مباشر بين المبعوث الاجنبي والمواطن مما يخدش الكرامة الوطنية ويلقي شبهات على الفكرة الدينية نفسها.

وأذكر في هذا المقام أنني حين كنت عضواً في الوزارة الاردنية في منتصف السبعينات ان زارني وفد من النصارى العرب ولفت نظري لازدياد النشاط التبشيري الاجنبي، وطلب مني أن أعمل على وقفه قائلين: «أن بلادنا لا تحتاج لمن يبشرها بالمسيحية»، وقد أكبرت هذا الموقف منهم لأنه يدل على الوعي والادراك لما يحمله التبشير الاجنبي من أخطار على الوحدة الوطنية، وروح الوفاق بين المسلمين والمسيحيين في الوطن الواحد.

سادساً: الأقليات الاسلامية:

يزداد عدد المسلمين في ديار الغرب باضطراد، ورغم السدود والعقبات التي تقيمها الأحزاب المتطرفة في وجوههم، إلا أنهم بحرزون انتصارات في اكثر البلدان وينالون مزيدا من حقوق المواطنة، ويتسربون للمؤسسات العامة حتى ان بعضهم قد احتل مقعده في برلمانات الدول المضيفة. ويدير البعض الآخر شركات تجارية وفنية كبرى او يعمل في وظائف استشارية لدى الحكومات والمؤسسات، مما يعني أنهم في طريقهم لتثبيت وجودهم والاندماج بصورة مؤثرة في المجتمعات الجديدة . ومع ذلك فان مرحلة القلق لا تزال تنتظرهم، ولا يزال ينظر اليهم كعنصر غريب، تخلف من المجابهات التاريخية المسيحية والإسلام، وهذا التراث العدائي ظهر بوضوح في قضية البوسنة، وكوسوفو، ومقدونيا، ودفع الشعب المسلم هناك ثمن حقد تاريخي لم يعد له ما يبرره. وقد زاد الأمر سوءاً أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في أمريكا وما رافقها من استغلال قامت به الجماعات الصهيونية والمسيحية المتطرفة.

على ان من الانصاف القول ان الرأي العام الأوروبي لم يكن على رأي واحد ازاء هذه القضايا، فقد ظهرت عناصر ايجابية على صور مختلفة حررت نفسها من تراث الماضي، ونظرت لهذه القضايا من زاوية عصرية انسانية.

إن هذه القضايا وملابساتها المختلفة شكلت احدى حلقات الحوار بل التعاون بين المسلمين والمسيحيين وتستحق أن تظل على جدول اعمال الحوار، لأن تيارات التطرف لم تنته، ولا تزال تثير العواصف حول هذه الجماعات الآمنة المسالمة.

أن الأقليات الإسلامية وجدت جلسات الحوار متنفساً لها تثير فيها مشكلاتها ومطالبها بمحضر من القيادات المسيحية، وقد وجدت هذه المطالب سبيلها الى البيانات الختامية التي صدرت عن الحوار مثل النص على احترام حرية العبادة ، وممارسة التقاليد الخاصة، ومعاملة الأقليات الدينية كغيرها من الجماعات الوطنية، ويزيد من أهمية هذه الانجازات أنها

تنقل عبر أجهزة الاعلام وتصل الرأي العام مما يعين على اشاعة جو من التسامح والتعايش البناء. وقد ظهرت أهمية ذلك في الفترة الأخيرة في قوانين وإجراءات في بعض الدول التي اعترفت فيها بالدين الإسلامي وأزاحت كثيراً من العوائق التي كانت تقف أمام اندماج المسلمين في اوطانهم الجديدة. وقد أظهر الحوار حول هذه القضايا تميز الاسلام في النظرة للأقليات الدينية، وما يحيطها به من التقدير والاحترام، ووضع امام الاوروبيين نموذجا فريدا يصلح للاقتباس.

اما بالنسبة للشعوب الاسلامية في اوروبا، فقد اثمر التعاون الاسلامي - المسيحي الذي تبلور في الحوار، في خطوات مهمة من بينها عقد المؤتمر البرلماني حول البوسنة في ابريل ١٩٩٤ م وفي قلب البرلمان الاوروبي بحضور كثيف من اعضاء البرلمان، وكذلك في الوفود الاسلامية التي نظمتها رابطة العالم الاسلامي حيث زارت الفاتيكان والعواصم الاوروبية الاخرى حول هذه القضايا، وما صدر بعدها من بيانات، ولا شك ان هذه الخطوات قد اسهمت في تعبئة الرأي العام في اوروبا وساعدت على بلورة مواقف ايجابية أثرت فيما اتخذ من مواقف وقرارات.

سابعاً: لماذا نرفض الحوار مع اليهود؟

بعض المحاورين المسيحيين لا يستطيعون فهم موقفنا حين نرفض الحوار مع اليهود، ويذهبون في ذلك لتفسيرات شتى دون التفسير الصحيح.

أول علامات التناقض - في زعمهم - أننا نبيح الحوار مع المسيحيين بينما ننكره على اليهود، وهم جميعا "أهل الكتاب": بالميزان الإسلامي، وما ينطبق على فريق يجب ان ينطبق على الفريق الآخر.

وقد يظهر في ثنايا الاعتراض إشارات واضحة او مبهمة للمشاعر اللاسامية المزعومة عند العرب والمسلمين، او الى المواقف «اللاعقلاني» حسب رأيهم، الذي وقفه العرب عموما من اسرائيل حين رفضوا الحوار معها، وضيعوا الفرص، وتركوا المشكلة تزداد تعقيدا.

بهذه البساطة او التبسيط يواجهون القضية المأساة، وعندي أن المشكلة ليست بهذا الغموض، لكن أكثرهم ينطلق في البحث من حتميات دينية أو «ثوابت» سياسية تقف سدا امام التسليم بما نراه نحن من البديهيات، ومن الواضح - ايضا - ان الدعاية الصهيونية الدينية والسياسية قد انفردت بهم زمنا طويلا، فصورت لهم المعتدي الذي اغتصب كل شيء في صورة المتسامح العاقل، الراغب في السلام، أما الضحية التي فقدت كل شيء فهي الطرف العنيد، المتعصب، المتعطش للحرب والدماء!. وأمام هذا الموقف الغريب يجد المرء نفسه مضطرا للحديث عن الأبجديات والبديهيات، او عن (البداية) التي تراكم عليها غبار الزمن، وغطتها الحوادث الجديدة طبقة بعد طبقة.

ونقول لهم ان العرب هم أبعد الناس عن اللاسامية لسبب بسيط هو ا ن اكثرهم ساميون وليس معقولاً ان يكره الانسان نفسه او يحتقر سلالته. أما النظرة للدين اليهودي ـ من حيث المبدأ ـ فهي النظرة للدين المسيحي، كلاهما ـ في الأصل ـ رسالة سماوية نحترم رسلها ونؤمن بالحق الذي جاء في كتبها، وليس عندي ما أضيفه أكثر مما قلته في الحديث عن المسيحية ، وما دار في الندوات واللقاءات حول هذه القضية.

إن تاريخ الاسلام كله لم يعرف المذابح المنظمة التي استهدفت إبادة اليهود في العالم المسيحي والتي ترسبت في اللغات الاوروبية مثل Pogrom في اللغة الروسية، أو Holacaust في اللغات الاوروبية الأخرى، والتي ارتبطت - تحديدا - باضطهاد اليهود، واذا كان هناك من حالات تخالف هذه الصورة فهي حالات فردية وقعت في عهود الظلم واختلال المقاييس التي كابدها المسلمون قبل اليهود، ذلك لأن الطغيان لا دين له وان تلفع بالدين وتشدق بشعاراته.

ومع ذلك فان القضية كثيرا ما تقتحم جلسات الحوار الاسلامي ـ المسيحي، وقد يشير أحمد العلماء المسيحيين الى معركة بني قريظة في العهد النبوي فترد عليهم بمنطق المؤرخين المنصفين، ونسوق ـ مثلا ـ على ذلك رأي البروفسور «رودي باريت» في كتابه «محمد والقرآن» حيث يقول

«بالنسبة لمعركة بني قريظة يجب ان نذكر ان تقاليد الحروب في ذلك العصر كانت اكثر قسوة من الأساليب التي اعتدنا عليها بعد توقيع اتفاقية جنيف، وان سياسة محمد يجب ان تحاكم بمقاييس زمانه».

وقد قال هذا الرأي ايضاً الدكتور جوزيف فإن ايس في «الاسلام والاديان الأخرى» حيث قال أن معركة بني قريظة قد جرت وفق تقاليد الحرب في ذلك الزمن، وهناك من المؤرخين من يقول ايضاً أن تطبيق (حكم الله) على قبيلة بني قريظة كان تطبيقاً لحكم التوراة، ومن الذين ذهبوا الى هذا الرأي الكاتب السويسري «مارسل بواسارد» حين ذكر في كتابه «إنسانية الإسلام» أن الرسول صلى الله عليه وسلم وافق على حكم سعد بن معاذ في قضية يهود بني قريظة، لأن سعدا طبق على اليهود حكم التوراة الذي يعرف بقانون اللعان (Loi de L'anatheme). أما عن معاملة اليهود في ديار الاسلام فهناك اجماع على انها اتسمت دائما بالانصاف والتسامح وحرية العبادة، وهنا نعود الى فصل «الاسلام والاديان الأخرى» من كتاب المسيحية واديان العالم «لجوزيف فان ايس» حيث يقول : «في الحقيقة فإن المسيحيين واليهود كانوا يمارسون أديانهم بحرية في العالم الاسلامي اكثر من أي دولة اوروبية أخرى. وبالنسبة لليهود بالذات فان الفارق مع الدول المسيحية كان هائلا وكان الاضطهاد الجماعي نادرا والمسلم الذي يرتكبه يعتبر مخالفا للشريعة الاسلامية»، وقد لا نجد ختاما لهذا المقطع من البحث خيرا من كلام سياسي اسرائيلي معاصر هو الوزير السابق ابا أبيان الذي يقول في كتابه «شعبي اليهود» ان العالم الاسلامي كان الجنة التي لجأ اليها اليهود امام اضطهاد الشعوب الأوروبية!.

إذن لا محل للقول ان رفض الحوار معه اليهود ينطلق من مشاعر «لا سامية» متأصلة، ولا محل للقول بانها تصدر عن تعصب ديني كذلك، فإن الممارسة عبر التاريخ الطويل تقدم للمسلمين شهادة اعتزاز بانهم صانوا العهد والتزموا شريعة الله.

(أ) العدوان الصهيوني الغاشم

ولقد بقي هذا الحال سائداً في البلاد العربية والإسلامية وفي فلسطين بالذات. حيث عاش اليهود والعرب مواطنين وجيرانا متوادين متآلفين حتى أطلت سحب العاصفة الصهيونية فعكرت كل شيء، وأفسدت على العرب واليهود حياتهم وقذفتهم في مخالب حرب لا تبدو لها نهاية. فإذا أراد إنسان منصف أن يناقش هذه القضية من جوانبها الدينية أو السياسية فلا بد أن يبدأ من البداية، والبداية التي يجب أن ينطلق منها البحث هي أن اسرائيل كيان غاصب قام على العدوان، وأن الصهيونية ليس لها أدنى حق في الأرض التي احتلتها وشردت أهلها منها، وما لم ينطلق البحث من هذه البداية فسيظل جدلا عقيماً لا يستند الى اساس صحيح.

لقد ركزت هذه الحركة العدوانية على إشارات روحية جاءت في الكتب المقدسة واختلف الحواريون على تفسيرها منذ القرن الأول للمسيحية. فوضع الصهاينة في برنامجهم تفسيرات خاصة تجعل الإشارات الروحية وعدا إلهيا مقدسا لاستعمار ارض بذاتها، واستئصال شعب بعينه. ومن سوء الحظ ان هذه الفكرة المسيئة للأديان قد انتقلت من اليهودية الصهيونية إلا قطاع واسع من العالم المسيحي وأصبحت مع التكرار والإلحاح وكأنها حقيقة مقدسة لا تخضع للجدل.

إن الخلاف بين المسلمين والمسيحيين خلاف عقيدي نظري اعترفوا بوجوده وتعايشوا معه قرونا كثيرة، ويمكن ان يتعايشوا معه قرونا أخرى، غير أن خرافة "أرض الله لشعب الله"، وتقديم هذه الخرافة بما يخدم الاستعمار الصهيوني، قد احدث تغييرا هائلاً على تلك الأرض وعلى الشعب العربي الذي ورثها عبر آلاف السنين. فكيف تستقيم الخرافة مع العقل؟ ثم كيف يراد لنا أن نقبل بها قاعدة للحوار؟.

لقد تسربت هذه الفكرة للكنيسة الانجليزية وكانت احد أهم الدوافع التي أدت لوعد بلفور وسياسة الانتداب البريطاني وإنشاء فلسطين، ولا تزال

هي العنصر الخفي في السياسة الامريكية الغامضة تجاه العرب واسرائيل، وقد تسربت للكنيسة الكاثوليكية مع إشارات التقارب الجديدة التي جاءت مع وثيقة الفاتيكان المشهورة عن اليهود، ومع زيارة البابا للمعبد اليهودي، مع اشارات أخرى يعرفها المسيحيون ايضاً.

(ب) عقدة الشرعية

في نطاق الدين ـ كما في السياسة ـ فإن اسرائيل تحكمها عقدة (الشرعية)، لأنها الوحيدة التي تدرك حجم الجريمة التي ارتكبتها، وحجم الزيف الذي مارسته لإخفائها، ومن هنا تحرص على ان تظهر مع العرب والمسلمين في حوار مباشر تحقق به اغراضا عديدة.

أول الأغراض هو أن يألف العرب التعايش مع الحقيقة الكريهة لعلهم ينسون البداية التي أشرنا اليها وان يبحثوا ما فوقها من التفاصيل، ويدخل في هذا الغرض أضعاف الحماس عند الجيل العربي الذي لم يعاصر الكارثة ولم يشهد البداية. ومع ضعف الحماس تزول اسباب الاستعداد ودوافع التضحية والشهادة التي يجب أن تتوافر لنقض تلك البداية الظالمة. وهو ما أشار اليه بن غوريون أول رئيس لوزراء الدولة العبرية حين قال "اننا نعتمد على الزمن، فالجيل الفلسطيني الذي شهد الكارثة سيموت، وكذلك الجيل الثاني، اما الجيل الثالث فلن يذكر شيئا عن فلسطين" ولو كان بن جوريون حيا هذه الايام لأصابه الذهول لأن نبوءته الفاسدة لم تتحقق لأن من يحارب اسرائيل الآن ويقدم البطولات هم ابناء الجيل الرابع من الشباب العربي المسلم!

ومن الاغراض ايضاً ان يقتنع الطرف الثالث ـ وهو المسيحي في هذه المعادلة ـ أن القضية باتت قضية عادية (باردة) وما دامت البداية قد دفنت في تراب النسيان فليس هناك عجلة في بحث التفاصيل او عدم بحثها على الاطلاق، لان الوقت يعمل الى جانب اسرائيل، وكلما مرت السنين كلما رست جذور الظلم والاغتصاب ولا يبقى مجال الا لمناقشة الفروع والتفاصيل.

ومن الاغراض السياسية ان تيأس الدول او الجماعات التي لا تزال

تناصر الحق العربي وخصوصا في آسيا وافريقيا حين ترى العرب والمسلمين يحاورون اليهود في أمور الدين وأمور السياسة، ومن هذا المنطلق يقوم زعماء اسرائيل بزيارة لبعض العواصم العربية حتى لو لم تسفر الزيارات عن شيء، ومن هذا المنطلق ايضا يأتي مندوبو اسرائيل ومعهم حشود صحفية وإعلامية لتغطية اللقاءات وحتى لو كان هناك تصريحات مناوئة لاسرائيل والصهيونية فهي مقبولة عندهم مقابل الثمن الضخم الذي يقدم وهو تركيز الشرعية ودفن البدايات.

(جـ) مفهوم الحوار عند الصهاينة

إن محاولة استدراج المسلمين للحوار مع اليهود الصهاينة محكوم بهذه الخلفية التي رسمناها، فإذا انتقلنا الى بحث الحوار المسيحي ـ اليهودي الذي بدأ قبل عشرين سنة نجد ان انه ليس مما يشجع على الاطلاق، ذلك لأن نتائجه تقع كلها في حجر اليهود، والمسيحيون هم الغارمون في النهاية، والتنازلات كلها من جانب واحد والمكاسب كلها لجانب واحد هي إسرائيل.

لقد قدمت الكنيسة تنازلات كثيرة تمس ركائز التراث المسيحي، وفي طريقها لذلك اوقعت بالعرب اضرارا جمة، لكن موقف اليهود المقابل بقي الموقف العنيد الصلب الذي ينضح بالكبر والغرور.

إن الموقف اليهودي يتركز في أمور لا مجال فيها لخداع النفس:

أولاً : أن اليهودية – في زعمهم – هي الدين الصحيح، وما جاء بعدها كذب وتزييف وادعاء، وقيام اسرائيل – عندهم – دليل على ذلك.

ثاني اً: إن على اليهود ان يستخدموا (عقدة الذنب) حتى يحملوا الآخرين على تنازلات دينية عميقة تزلزل العقائد اكثر فاكثر.

ثالثاً: إن أي تنازلات دينية من المسلمين او المسيحيين لا تفسر عندهم بانها تصدر عن إنسانية أو كرم أخلاق، ولكنها الثمن الذي يدفع لليهود تعويضا عن الاضطهاد، وهي عندهم دلائل ضعف الاديان واهتزازها.

رابعـــاً: استخدام المسيحية كمركز ضغط على المسلمين لاستدراجهم الى محاورات من نفس النوع تحقق نفس النتائج، وبذلك يتحقق الحلم اليهودي الأزلي في تحطيم الأديان لصالح الدين الواحد الصحيح - كما يزعمون - .

خامساً: ان النبؤات المسيحية التي تشترط وجود دولة صهيونية في فلسطين، تمهيدا للعودة الثانية للمسيح ومنها نبؤة يوحنا أو «ارمجدون»، تنتهي للتأكيد ان المسيح العائد سوف ينصر اليهود بالقوة، لذلك كان استراتيجيتهم تقوم على الإفادة من بدايات النبؤة ثم التحوط من نهايتها . كما اشارت لذلك بربارة تودشمان في كتابها «الكتاب المقدس والسيف في فتح بيت المقدس» وقد يكون دور الصهيونية الراهن في تأجيج الصراع بين الاسلام والمسيحية احد اركان استراتيجية التحوط.

(د) تقرير الحاخام سيجمان

لا أريد أن أذهب بعيدا في تسقط الأدلة على اثبات ما ذهبت اليه، وحسبي تقرير وضعه الحاخام هنري سيجمان الأمين العام التنفيذي لمجمع المعابد اليهودية الامريكية الذي يضم مختلف التيارات الصهيونية في الولايات المتحدة، وهو مقدم للاجتماع الخامس لمجلس المجمع الذي عقد في القدس مؤخرا، فالتقرير وصاحبه والمكان الذي ضم الاجتماع الخامس يعكس الذروة في "استراتيجية" القيادة الدينية اليهودية التي مارست الحوار، ويجب أن يؤخذ كلامه بما يستحق من الاهتمام.

يمهد الحاخام لموضوع الحوار بهذه الكلمات «أن السنوات العشر الماضية من الحوار مع الكنيسة المسيحية قد بدأت باعلان الفاتيكان في حق الشعب اليهودي «وثيقة التبرئة» ثم بنشر التوجيهات الكنسية لتطبيق ذلك الاعلان، وفي تقديري انها تشكل خطوات جيدة للأمام، وإن كان قد بقي الكثير مما يمكن ان يسبب مصادمات وعناء للشعب اليهودي». وبعد ان يوجه لمستمعيه

اسئلة كثيرة عن الحوار وشروطه، وأهدافه القريبة والبعيدة، يجيب بوضوح قائلا «أن ما يدفع اليهود لقبول الحوار مع المسيحية هي الاعتبارات «التاريخية» وليس الثيولوجية أو «الدينية»، ثم يمضي قائلا «بالنسبة لليهود، فان المشكلة في العلاقات مع المسيحيين محكومة بتاريخ المواقف والممارسات المسيحية إزاء الشعب اليهودي، الذي عاش العذاب والاستشهاد».

ويظهر بوضوح من هذه الأقوال ما ذهبنا اليه، فالحوار مع المسيحية يجري حول التاريخ وليس حول العقائد، لأن التاريخ يدور حول الاضطهاد والتعذيب والمذابح المزعومة. أما الحوار حول الدين فقد يعني اعتراف اليهود بامر مرفوض او التسليم بعقيدة ينكرونها، وبمعنى آخر فان الحوار التاريخي يركز، على عقدة الذنب عند المسيحيين، ويدفع للاعتذار المصحوب بالتنازلات، أما البحث في العقائد فقد يحمل خطر تنازلات او تفسيرات مقابلة من اليهود وهذا ما لا يسمحون به بحال.

وإذا ظنت الكنيسة أنها قد خلصت من عقدة الذنب واستراحت من قصة الاضطهاد ودفعت ثمنها من التنازلات والتعويضات، فيجب ألا يسمح لها بذلك، حتى تظل حبيسة في ركن «العقدة» تشتري الخروج منها بتنازلات وتعويضات لا تكاد تنتهي، والكثير من التنازلات يقع على حساب المسلمين في اكثر الاحيان.

ولذلك نرى الحاخام يقول «أن مواجهة صريحة مع التاريخ، وبصورة خاصة مع (آشويتز)، وهي المذبحة التي ينسبونها الى ادولف هتلر ـ تدعو المسيحيين لأن يخضعوا تراثهم التاريخي الى دراسة مفصلة. ومما يحمل بصيص الأمل ان بعض كبار رجال الدين المسيحيين يؤكدون ان هذا الاعلان لا يتعدى تبرئة الشعب اليهودي من دم المسيح، ولكن نتائجه تظل دون ما نريد، هناك اشياء يجب ان تعمل»، ثم ينتقل التقرير لختامه المنطقي من وراء الحوار مع المسيحيين ومن وراء الحوار مع المسلمين ايضا اذا سيطرت عليهم الغفلة وروح التسامح الغبية ـ والختام هو دفع الحوار لخدمة شعب الله في

ارض الله - كما يزعمون -. ثم يقول الحاخام سيجمان كلاما طويلا خلاصته، «الواضح أن المسيحيين سيكونون اكثر راحة لو أنهم تعاملوا مع قضية اسرائيل كظاهرة سياسية فقط، أو لو سلمنا بأن اسرائيل ستقدم نفسها كمشكلة سياسية وليس دينية، فان الصداقة التي يجب أن ينتج عنها هذا الحوار ستكون فارغة من أي معنى او محتوى إذا سمح لاسرائيل ان تنهار أو تضعف».

ثم يستشهد التقرير بأقوال زعيم ديني مسيحي معروف هو «جاك ماريتان» حيث يقول : أن محاولة رفض العودة لاسرائيل من جانب بعض اليهود والتي اعطته ملجأ في هذا العالم، يعني السماح بان تنزل المعاناة والآلام على هذا الشعب مرة أخرى. إن معاداة اسرائيل أو «اللااسرائيلية» أسوأ من «اللاسامية»، والملاحظ في هذه الفقرة الأخيرة أن اليهود يكيلون بكيلين مختلفين، ففي الوقت الذي يصرون فيه على أن يدخل الجانب المسيحي لساحة الحوار من الجانب التاريخي وليس الديني، إثارة الجوانب الدينية في أجهزة الإعلام التي يسيطرون عليها، حتى يظل في أيديهم عصا النبوات والخرافات يطرقون بها رؤوس المحاورين من المسيحيين أو المسلمين، ايضا اذا استدرجوا لهذا الحوار.

أما علاج ذلك كله في نظر التقرير وفي نظر العناصر الموالية لليهود بين رجال الكنيسة فتقدمه وثيقة التوجية لاعلان الفاتيكان في فقرة تقول «يجب ان نعامل اليهود بالمقاييس التي يعاملون بها انفسهم». وهذا هو الـ«كارت بلانش» المقدم لهم، وما عليهم إلا ان يفسروا ما يعجبهم من فصول التوراة والتلمود، ثم يطلبون فتستجاب المطالب دون حدود ولا قيود.

هذا هو نمط الحوار المسيحي ـ اليهودي الذي بدأ منذ عشرين سنة والذي يراد لنا ان ننضم اليه بشروط اليهود التي لا تتبدل ولا تتغير مهما تبدل الآخرون.

لقد ظهر ذلك لي بوضوح في مهرجان كبير نظمته مؤسسة «سانت أجيدو» في بوخارست قبل عدة أعوام تحدث فيها الحاخام (لاو) الحاخام الأكبر لاسرائيل وكرر مفتريات الصهيونية حول السلام والقبول بإسرائيل، وقدم الأدلة على ذلك باستقبال الزعماء العرب له، ثم قال على لسانهم ما يخدم البرنامج الصهيوني، ولولا ان اعضاء المنظمات الإسلامية وزعوا انفسهم على جلسات المؤتمر وفندوا أقواله لاعتبر المشاركون المسيحيون وهم يقدرون بالألوف من رجال السياسة والاعلام ان الحاخام قد نقل اليهم الصورة الحقيقية.

لقد أطلت قليلا في الحديث عن الحوار المسيحي ـ اليهودي، لاعتقادي أنه يشكل قضية من أهم القضايا التي تلقي بظلها على جلسات الحوار، وكان دور المحاور المسلم دائماً يهدف الى امور اساسية منها: تحذير المسيحيين من مغبة الارتماء في احضان الصهيونية وخطرها على المسيحية نفسها في المدى الطويل، وإظهار مدى الظلم الذي يلحقه هذا التحالف بشعب بريء في ارض مقدسة شهدت ميلاد المسيح وديانته.

خاتمــة:

أولاً: يتضح في كل ما سبق أن حوار المسلمين مع أهل الحضارات المختلفة أصبح ضرورة ملحة، إذا أردنا تجنيب العالم إخطار المجابهات والحروب، ومن حسن تقدير الله أن هذه الضرورة يحتمها الإسلام أيضاً، ويضع لها ضوابطها الشرعية وقواعدها الأخلاقية، في مثل قوله تعالى «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن، إلاّ الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم والهنا والهكم إله واحد ونحن له مسلمون ٤٦/٢٩ ومن ذلك يتضح أن حدود الحوار مفتوحة لا يحدها حد، إلاّ أن يستخدم الحوار كسبيل لتكريس الظلم والعدوان - كما هو الحال بالنسبة لإسرائيل.

ثانياً: ويقتضي الحوار أن يكون المسلمون جبهة واحدة، تصدر عن خطة

واحدة، تحدد للحوار أهدافه ومراميه حتى يحقق الأغراض التي توخاها الإسلام، وهي إقامة أسرة عالمية من المؤمنين بالله الواحد، يكون هدفها خدمة الحق والعدل، وتأكيد الاستقرار العالمي، ذلك أن اختلاف الرؤى وتباين الاجتهاد والمواقف، يصنع ثغرات يمكن أن ينفذ منها الذين يضمرون استغلال الحوار لأهداف تخالف الغايات المرجوّة، بهدف إضعاف مناعة الصف الإسلامي.

ثالثاً: مع أننا نرى أن يقتصر الحوار على وضع خطط التعاون في الأمور الاجتماعية العامة كالعدل، والسلم، والتضامن في محاربة الأوبئة الاجتماعية كالمخدرات والكحول، وضمان كيان الأسرة، ومنع الفساد بكل أشكاله، دون الدخول في جدل حول العقائد. غير أننا نرى أن يكون المحاور المسلم متمكناً في الأمور الشرعية مدركاً للأبعاد الدينية الإسلامية وغيرها، قادراً على إبراز وجهة النظر الإسلامية، بالأسلوب الحسن الذي أمرت به الآية المشار إليها، وآيات أخرى من الكتاب العزيز من مثل قوله تعالى ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ وقوله - سبحانه - معلياً شأن المؤمنين الذين خصهم بهذه الفضيلة ﴿ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ** ﴾ [**الحج**: ٢٤]. كما أن من الضروري الإلمام بتاريخ الديانات الأخرى وعقائدها وكتبها المقدسة لديهم.

لقد وجدت - من تجربتي الخاصة - أن الحوار في المشكلات الاجتماعية كثيراً ما يصل إلى الجذور العقائدية، لا سيما وأن الإسلام قد حدد لكل هذه المشكلات أسباباً للعلاج مما لا نجده في الأديان الأخرى، ولا شك أن العلاج يكون أكثر جدوى إذا ساندته نصوص شرعية من الكتاب والسنة، بالإضافة إلى أن لقاءات الحوار تتخللها - عادة - مناسبات اجتماعية وندوات فكرية أو دينية تطرح فيها أسئلة حرّة، ومن هنا كان لا بد للمحاور المسلم أن يكون ملمّاً بالحلول الإسلامية، ونظائرها في الديانات الأخرى.

رابعاً: من القضايا الهامة التي ينبغي أن يحيط بها المحاور المسلم،

إحاطة كاملة هي "عالمية الإسلام" وهو موضوع بالغ الأهمية في العالم المعاصر الذي يتجه نحو العالمية بالرغم من وجود مجابهات عنيفة في الكثير من مناطق العالم، وعالمية الإسلام كما لا يخفى، تقوم على الحرية، وتكامل المصالح، والمساواة بين الألوان والأجناس، وفي هذا السياق يمكن للمرء أن يجد آيات كثيرة في القرآن الكريم، والسنة النبويّة المطهّرة.

والإسلام ينفرد بهذه الخصوصية التي يفتقدها الإنسان المعاصر، كما يشير القرآن الكريم ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ**﴾ [**البقرة**: ١١٣].

خامساً: والاعتراف الإسلامي بالأديان السماوية على ما يوجد فيها من أباطيل، يقود لموضوع هام آخر، هو ما يكنه الإسلام من احترام للأنبياء السابقين، وإعلاء مكانتهم، ويكفي أن نقارنه بين موقف القرآن الكريم من إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان وأنبياء التوراة جميعاً، وبين صورتهم في التوراة، إلى تقديمهم كزناة، وقتلة، ومغتصبون، ليس لهم من فضيلة خلقية سوى توسيع ملك إسرائيل على حساب الشعوب المجاورة.

إن التطلعات الروحية الحالية سوف تقود الإنسانية للبحث عن الأنبياء حملة رسالة الإيمان، ونماذج الأخلاق، وعندها سيصبح الموقف الإسلامي محل التقدير والقبول.

سادساً : يلاحظ أن طغيان الحياة المادية وسيطرة الآلة على الإنسان، قد أفرز رد العقل المتوقع، فاتجه الناس إلى الأفكار والنظريات الروحية الغالية كالبوذية والهندوكية، والكابالا، والصوفية المفرطة، ويمكن للمحاور المسلم أن يقدم الروحية الإسلامية في صورتها المعتدلة التي تجمع بين المادة والروح ولا تغلب واحدة على الأخرى كما يقول القرآن الكريم ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [**القصص**: ٧٧]. فالإنسان - في المفهوم

الإسلامي - يستطيع أن يرتقي في مدارج الإيمان والصلة بالله، ومن خلال العمل الصالح بكل أنواعه، دون أن يمنعه ذلك من المشاركة النشطة في كل ضروب الحياة الاجتماعية.

سابعاً: تعطى المؤسسات الرسمية والشعبية عناية خاصة للنواحي الاقتصادية، وحرية التجارة، وتحرك رؤوس الأموال، والأيدي العاملة، بهدف تحقيق المزيد من الرخاء، وفي كل هذه الميادين هناك نظريات إسلامية هامة، تتجه لتحقيق الخير للإنسان، دون أن يقع في محظورات السيطرة، والاستغلال، والاحتكار، وغيرها من الانجرافات التي تفسد حياة الإنسان، وتقود للخلل والأزمات، ومن هنا كان لا بد للمحاور المسلم أن يطلع على هذه النظريات وأن يتحدث عنها كلما واتت الفرصة.

ثامناً: في جلسات الحوار يجب أن يحيط المحاور المسلم بالعقبات التي أشرنا إليها في ثنايا هذا البحث، والتي تسمم إجراء الحوار، وأن نبرزها كلما سنحت الفرصة وبالأسلوب المناسب، ونخص بالذكر، التبشير المسيحي في البلاد الإسلامية وآثاره الضارة على فكرة التديّن عموماً، والحملة الظالمة على الإسلام التي لا يوجد من مبرر لها، والدعم الغربي الأعمى للاحتلال الصهيوني، وأن يكون المنطلق من إثارة هذه العقبات هو الحرص على الحوار، والتفاهم، وتحقيق العدالة، وهذه القضية - بالذات - تحتاج إلى وضع منهج للخطاب الإسلامي المعاصر، وأسلوب طرح مثل هذه القضايا في اللقاءات، وحبذا لو قامت المنظمات الإسلامية المعنية بالحوار لعقد دورات تدريبية حولها.

أبيض

الحوار الثقافي والحضاري
في
خدمة السلام رؤية إسلامية

كتبه:
الدكتور الشيخ محمود عكام

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص بحث

١- **إشكالية ومقدمة:** لماذا الحوار؟! وهل العالم جاد في تبنيه سبيلا للقاء ؟ هل قرر العالم بمن فيه الحوار للتعايش ؟ أم هو قرار الضعيف ليقوى، والقوي ليتمكن ويستولي ؟ ويستعدي ويستعلي ؟ التساؤلات جد وفيرة، ولازالت في ازدياد.

٢- **الإنسان والحوار:**

(أ) الكلمة أس الحوار:

(ب) الكلمة أس الإنسان: من هنا كانت الكلمة هذه، الركن الأهم في حد الإنسان وتعريفه ورسمه.

(ج) الإنسان والحوار بجامع الكلمة: كلاهما يقومان على الكلمة، وتجمعهما الكلمة، فهل يجوز لنا أن نقول: الإنسان حوار والحوار إنسان ؟ إني لأجيب بنعم.

٣- **السلام والحوار:**

(أ) الكلمة أس الإسلام وعليها يقوم: والكلمة في الدين الحنيف تتسم بثلاث سمات:

(١) الإنتاجية. (٢) قابلية التوريث. (٣) البعد الرباني.

(ب) الإسلام والحوار بجامع الكلمة: أسُّ كليهما الكلمة، والسمة الأهم لكل منهما الكلمة، وعلى هذا فالإسلام حوار يبتدئ من الذات ومعها، ويستمر ويتتابع مع الآخر، أعني مع الإنسان.

٤- **الحوار سبيلاً للثقافة والحضارة:**

(أ) الحوار والثقافة: والثقافة: هي تحويل المعطيات المعرفية إلى سلوك

مناسب.

وفي النهاية فنحن أمام معادلة:

إحسان في الحوار + إحسان في الثقافة (التطبيق) = إقناع وإبداع

(ب) الحوار والحضارة: والحضارة حضور , والحضور لا يكون بالعنف والقهر والجبر , وإنما الحضور قوامه الحوار والإقناع والفكر.

٥- دائرة الحوار ومجاله: الإنسان كله.

من وافقك حاوره ليوافقك عن بينة، ومن خالفك حاوره ليخالفك عن معرفة. فإن رُفضت محاوراً حر اً فتحول محارباً حتى تعود محاوراً. وأما سواه - إذ تستخدم القوة المادية - فعرض طارئ شرع للدفع.

٦- الحوار إرادة ومسؤولية وتحديات:

الحوار تحد في حلبة الكلمة. الحوار أمانة لا يراد منه الإدانة. الحوار إنقاذ من جوع يستفحل، وعطش يتفشى، لأن ثمن الطعام والمياه تحول إلى متفجرة دمرت حاضرا وهددت مستقبلاً.

٧- شروط الحوار:

٨- نداء إلى الإنسان وإلى المسلمين:

(أ) نداء إلى الإنسان من أجل حوار جاد يفضي إلى تعايش وسلام.

(ب) نداء إلى المسلمين من أجل حوار فاعل يحقق تعاوناً على البر والتقوى.

خاتمة

١- إشكالية ومقدمة:

لماذا الحوار؟! وهل العالم جاد في تبنيه سبيلا للقاء ؟ وهل هناك اتفاق على مضمونه ومعناه ؟ مادام الحوار شكلية وصيغة.

من الحكَم في الحوار، ومن المرجع الحاكم على أطرافه ؟

هل الحوار صرعة أو صرخة عابرة ؟أم هو ثابتة إنسانية، تغيب إذ يسود القمع، وتظهر حين يزول.

هل الحوار إعلان رفض، وردة فعل على سباق التسلح المخيف، ذي التنوع الأكثر من تعددية فنون الحوار وطرقه ؟ هل قرر العالم بمن فيه الحوار للتعايش ؟ أم هو قرار الضعيف ليقوى، والقوي ليتمكن ويستولي ؟ ويستعدي ويستعلي ؟ التساؤلات جد وفيرة، ولازالت في ازدياد.

٢- الإنسان والحوار:

(أ) الكلمة أس الحوار:

الحوار مراجعة ومواجهة، والمراجعة إنسانية، وما دامت إنسانية فهي في المعنى عبر الكلمة المنطوقة أو المكتوبة، وربما عبر إشارتها المعهودة لدى من لا يحسن نطقها أو تناول قلمها. والحوار مواجهة بين من اختصوا بالوجه المعبر، والوجه صفحة مرسلة ومستقبلة في آن معا:

فالفم فيه: مصدر معرفة مقولة ومرسلة.

والأذن فيه: طريق موصلة للفكر إلى مستقر الصدر، الصدر الحاوي: ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ** ﴾ [الشرح: ١]، و﴿ **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾** ﴾ [**طه**: ٢٥، ٢٦].

وأما العين الباصرة فكفيلة بدعم الفم قائلا مرسلاً، ودعم الأذن مستقبلة.

الحوار فن في المراجعة والمواجهة، تراجع بينك وبين ذاتك، وتواجه الآخر بما راجعت وبما حوّرت في خلدك وداخلك، وهو على الكلمة يقوم، وقد غدا

اليوم فناً من الفنون المؤهلة إلى درجة العلوم له قواعده ونظمه وأسسه.

وحاوَرَ: «تعني لقاء على الكلمة، فإذا ما تم اللقاء على سواها الذي لا يمت إليها، غدا الأمر مسمى بحسب الوسيلة البديل، قاتل»... إلخ.

على أن الكلمة التي يرتكز عليها الحوار، مراجعة ومواجهة، ليست مطلقة ولا حرة من قيد يبقيها سمة إنسانية لائقة، فليس القصد في الحوار أن تتكلم، ولكن القصد والمطلوب أن تصبر على كلام الآخر، فلا تستخدم في مواجهته - ولو كان ما يصدر عنه غير لائق - إلا اللائق: ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا**﴾ [**الفرقان**: ٦٣].

إن الكلمة الأس في الحوار هي التي تستتبع كلمة أخرى، ولا تفضي إلى حنق أو إثارة، لأن الكلمة في انطلاقها وغايتها نوعان: فقد تكون أداة فتك وفتنة، وقد تكون سبيل مواصلة إنسانية، ولم أقل سبيل اتفاق، لأن التواصل بالكلمة - وبغض النظر عن الاتفاق أو عدمه - هو غاية الحوار: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [**البقرة**: ٨٣].

و«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»(١) كما قال صلى الله عليه وآله وسلم.

وشتان بين كلمة مرغوبة تعني الخير وتحمله، وبين كلمة أخرى تعني الشر وتسو قه: «إن العبد ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم»(٢)، كما قال محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الحوار في النهاية:

كلمة مناسبة للإنسان الذي اختير أمينا في الأرض، وموضوعا شاغلاً لأهل السماء. فهل من سبيل إلى تلاق بين الإنسان والحوار، أو إلى إعادة التلاقي، وهما معا للكلمة ومعها وبها؟

---

(١) متفق عليه.

(٢) آخرجه البخاري.

(ب) الكلمة أس الإنسان:

الإنسان تركيبة معقدة، والتعقيد هنا في مقابل البساطة المرفوضة، وهو في النهاية مجموعة معان تنظمها خصوصية فطرية مستقلة، في قالب خلقي راق: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، تشكل هذه المجموعة وحدة قائمة بذاتها، وكينونة نواة نوعية للعالم، ونقطة استقطاب واعية، تدور حولها، وفي فلكها، الأشياء كلها: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠] و﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

وكأني بكل و حدة من هذه الوحدات عالما مستقلا، ولاغرو و لا غرابة أن تكون إضافة الرب إلى العالمين، الواردة في كتب السماء بشكل عام، تعني إسنادَ الربِّ إلى الإنسان، والإنسانِ والإنسان، أي إلى الناس، لأن كل واحد من الناس عالم.

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ولنعد إلى المعاني المكونة - كما أسلفنا - لنجدها تعبيرا صادرا عبر الكلمة، أو ما يقوم مقامها، أي مقام الكلمة.

ومن هنا كانت الكلمة هذه، الركن الأهم في حد الإنسان وتعريفه ورسمه، فقد قالوا معر فين: الإنسان حيوان ناطق يأتلف مع بقية المخلوقات الحية في مطلق الحياة المادية، وينفرد بالنطق، الذي هو صوت الكلمة، وبالكلمة التي هي لبوس المعنى، وبالمعنى الذي هو المرتكز والأساس ولعله النفحة الإلهية التي ميز بها الإنسان: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

هذه قصة الكلمة والإنسان، اختصرناها وكثفناها.

(ج) الإنسان والحوار بجامع الكلمة:

كلاهما يقومان على الكلمة، وتجمعهما الكلمة، فهل يجوز لنا أن نقول: الإنسان حوار والحوار إنسان؟

إني لأجيب بنعم، وأنا واثق أن العلاقة وطيدة، والحكم رشيد. وعلى أساس الحوار يلتقي الإنسان الإنسان، لأن الحوار فعلة الإنسان الرئيسة، مادامت هذه الفعلة تتعامل مع الكلمة.

أو ليس الإنسان - حسب معطيات كل الديانات - حامل كلمة، وناقل كلمة، ومبلغ كلمة، وتلك مهمته التي كلف بها أمانة يسعى إلى أدائها بكل جدية، فمن: ﴿**اقْرَأْ**﴾ [**العلق**: ١]، إلى: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ [**المزمل**: ٥]، إلى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [**فصلت**: ٣٠]، إلى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ [**المائدة**: ٦٧].

وهل هذا إلا حوار؟ ما دمنا قد عرفنا الحوار وعرفناه على أنه الكلمة تراجع ويواجه بها.

فمن أعرض عنها فلم يستقبلها: ﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا**﴾ [**نوح**: ٧]، أو استبدل بها سواها في الإرسال ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ [**الأنبياء**: ٦٨]، من كان كذلك فقد بعدت عليه الشقة مع إنسانيته، وأضحى إلى سوء يبعده عن معانيه التي تحمل سره، وغدا حينها منسلخاً، ﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**﴾ [**الأعراف**: ١٧٦]

الحديث، أخيراً، عن الإنسان والحوار حديث عن نون والقلم، عن الصحيفة والحرف، حديث عن مجلىً يظهر إنسانية الإنسان.

يقول فروم: «الإنسان بالحب يسمو، وبالقيم يسود، وبالحوار يتقدم»(١).

٣- الإسلام والحوار:

(أ) الإسلام أس الكلمة وعليها يقوم:

الإسلام - كغيره من الديانات - قام على الكلمة وأسس عليها، استقبلها من السماء بأمانة عن طريق الوحي، وأرسلها إلى الناس بوفاء عن طريق

---

(١) انظر «الإنسان والقيم»، ص١١١.

التبليغ والدعوة والرسالة. ولو أحصينا ما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة عن الكلمة، وكونها الأصل المرتكز والمحور، لما أبقينا لغيرها شيئا في عالم المصادر.

فالعلم الذي يفترش جل صفحات القرآن الكريم، والتفكير الذي يشغل حيزاً كبيرا في أسطر هذا السفر العظيم، والدعوة التي ملأت أركان الكتاب الكريم، والسلام والسلم اللذان دعي إليهما الإنسان مرارا وتكرارا، والإيمان، والتقوى، و....، دليل على أن الإسلام كلمة، لأن هاتيك المصطلحات التي أتينا على ذكرها تواً لا تعني إلا الكلمة، والكلمة فقط، فإن رفعتها - أقصد الكلمة - منها - أي من المصطلحات - غدت الأخيرة هذه حروفا صوتية، أو لفظا دون قول، كما يقول النحاة.

والكلمة في الدين الحنيف تتسم بثلاث سمات:

١) الإنتاجية.

٢) قابلية التوريث.

٣) البعد الرباني.

أما الإنتاجية: فالدلالة والمعنى المحدد المفهوم، الذي يرى فيه العصر والمكان، والمؤدي في الأخير إلى سلوك، وإذا لم تملك الكلمة مقومات الإنتاج فهي الثرثرة المضيِّعة المضيَّعة.

وأما قابلية التوريث: فإمكانية النقل والتعليم لمن يعيها: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٣].

وأما البعد الرباني: فالكلمة من الله دون سواه: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن]، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

الكلمة في الإسلام لها نسب، وهكذا ينبغي أن تكون بشكل عام، ومن لا

ينسب الكلمة إلى الله يُساءَل عن مصدره المعتمد لكلمته، ولم عدل عن ربه مصدراً يأخذ عنه ؟! فهل وجد ما ينافي العقل ؟ أم رأى في عقله ما يمكن أن يمده ؟ فليفصح إذاً ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

إن مشكلة الكلمة هذه مشكلة ما قبل الحوار، وعلى الإنسان أن يحل هذه المشكلة بينه وبين ذاته، قبل أن يثيرها مشكلة مستعصية مع غيره: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

قدِّر لرجلك قبل الخطو موضعها ... فمن علا موطناً عن غِرَّة زلقا

ونحن نقول: قد ر لكلمتك قبل الحوار مصدرها.

(ب) الإسلام والحوار بجامع الكلمة:

أسُّ كليهما الكلمة، والسمة الأهم لكل منهما الكلمة، وعلى هذا فالإسلام حوار يبتدئ من الذات ومعها، ويستمر ويتتابع مع الآخر، أعني مع الإنسان، وينتهي إعلانا مفاده: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، و﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

أما بدايته مع الذات:

فاقرأ معي قصة إبراهيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام]

وأما متابعته واستمراره ليتجاوز إلى الآخر:

فاقرأ المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ

وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ [المجادلة: ١].

ورتل أيضا: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف: ٣٧].

واتل أيضا: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وأما نهايته الإعلانية:

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤] ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

وها نحن نسوق مثالين مستلين من السيرة النبوية، أولهما حوار مع مشرك، والثاني مع شاب مؤمن يبغي فعل كبيرة ورذيلة.

١- روى ابن خزيمة بإسناده، أن قريشا جاءت إلى الحصين، والد عمران، وكانوا يعظمونه، فقالوا له: كلم هذا الرجل - أي محمداً - فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم. فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبي، فقال: «أوسعوا للشيخ» وعمران وأصحابه متوافرون، فقال حصين: ما هذا الذي بلغني عنك، أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم؟

فقال النبي: «يا حصين، كم تعبد من إله ؟».

فقال حصين: سبعا في الأرض وواحدا في السماء.

فقال النبي: «فإذا أصابك الضر من تدعو ؟».

فقال حصين: الذي في السماء.

فقال النبي: «فيستجيب لك وحده وتشركه معهم، أرضيته في الشكر، أم تخاف أن يغلب عليك ؟!».

فقال حصين: ولا واحدة من هاتين. قال: وعلمت أني لم أكلم مثله.

فقال النبي: «يا حصين أسلم تسلم».

فقال حصين: إن لي قوما وعشيرة، فماذا أقول ؟

قال: «قل اللهم إني أستهديك لأرشد أمري، وأسألك علما ينفعني».

فقالها حصين. فلم يقم حتى أسلم. فقام إليه ابنه عمران، فقبل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبي بكى.

٢- روى الإمام أحمد في مسنده والطبراني، أن رجلا جاء إلى النبي يستأذنه في الزنى.

فقال النبي: «أترضاه لابنتك؟».

فقال الرجل: لا.

فقال: «وكذلك الناس لا يرضونه».

فقال: «أترضاه لأمك ؟».

فقال الرجل: لا.

فقال: «كذلك الناس لا يرضونه».

ثم قر به، ومسح صدره قائلا: «اللهم طهر قلبه، وحصن فرجه، واغفر ذنبه».

فقال الرجل: دخلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما شيء أحب إلى قلبي من الزنى، وخرجت وما شيء أبغض إلى قلبي منه.

٤- الحوار سبيلاً للثقافة والحضارة:

(أ) الحوار والثقافة:

قبل الشروع حديث عن الثقافة وماذا تعني:

وهي في آخر المطاف، تحويل المعطى المعرفى إلى سلوك، أو القدرة على تحويل المعطيات المعرفية إلى سلوك مناسب، على أننا نحترز فنؤكد على أن كلا الارتكاب والاجتناب سلوك، فالمعطى المعرفي الذي يتضمن توجهاً سلبياً إذا ما طبق، فالثقافة حينها تكون بالاجتناب، والمعطى المعرفي الذي ينطوي

على توجه إيجابي في تطبيقه فالثقافة آنئذ تكون بالارتكاب.

وحتى لا تغرق في المجرد والتجريد نقول: الثقافة سلوك، وليست ذاكرة، وإن شئت قل: هي الذاكرة المفعلة باتجاه السلوك والتطبيق والأمثلة وفيرة، بيد أننا نذكر واحداً منها توضيحاً وتثبيتاً، فنقول: حينما أقدر على تحويل آداب الطعام - بغض النظر عن مرجعية هذه الآداب - إلى سلوك فأتحلى بها فأنا مثقف، ولو أنني أبقيت آداب الطعام في طي سجل الذاكرة وتلافيف الدماغ على أنها معارف مكتسبة فلن أمنح صفة الثقافة.

- الثقافة والحوار في دائرة الإحسان:

إذاً: إذا كانت الثقافة والمعرفة وفق الشكل الذي ذكرنا، والمعرفة كلمة أي تقوم على الكلمة، وقد قلنا إن الحوار كلمة، فالتقاطع جلي وواضح فيما يتعلق بالكلمة بين الحوار وبين الثقافة. إلا أننا نريد هنا التوضيح فنقول: الحوار والثقافة حواران:

حوار ذاتي يجول ويجري في داخلي وأنا أبحث عن صيغ التنفيذ، لإظهار ما قد عرفته في قوالب سلوكية.

وحوار مع الآخر يتجلى في حديث معه حول الصيغ المثلى في تجلية مكنون المعرفي المتعلق بأمر ما .... وهكذا.

وها نحن أولاء في هذا العالم نتنادى، وعبر المنظمات الإنسانية الدولية والإقليمية إلى ضرورة الدعوة إلى فتح ملف الحوار والثقافة، وسينصب ذلك على البحث عن صيغ إنسانية مناسبة، ولعلنا نجد مثالاً على هذا الحوار في سورة لقمان من خلال القرآن الكريم حين توجه لقمان الحكيم إلى ولده قائلاً: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾**﴾ [**لقمان**].

فالحوار الثقافي حوار يتطلع إلى الإحسان في النهاية، إلى تحقيق الإحسان في الارتكاب أو الاجتناب، فإن دعوت إلى خير فليكن ذلك على أساس من إحسان وتلطف، وإن نهيت عن شر فكذلك، وفي النهاية فنحن أمام معادلة:

إحسان في الحوار + إحسان في الثقافة (التطبيق) = إقناع وإبداع

وصدق الله القائل: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [**فصلت**: ٣٤].

ويا أيعا العالم: كف عن حوار بلا إحسان، وأنت تبحث عن ثقافة هي سلوك، يجلي معارفك، لتكون هذه الثقافة إحسانية أيضاً، وإلا فلا إقناع ولا إمتاع، بل شراسة وصراع وعداوات وبغضاء وضياع، وإن تكن كذلك فلا كنا ولا كانت الدنيا التي تضمنا وتحوينا.

(ب) الحوار والحضارة:

لعله من المناسب أن نمر على تعريف الحضارة أولاً ثم نجري المقاطعات بينها - أي الحضارة - وبين الحوار , فالحضارة - حسب ما أرى - «حضور ووجود من خلال ممارسة لمنهاج إنساني الموضوع رباني المصدر يستوعب الإنسان فرداً وجماعة بتمام وكمال , ومواءمة بين الزمان والمكان المعنيين , وتوازن بين الفرد والجماعة لتصب الممارسة في غاية مناسبة وتوصل إلى هدف جاد على المسارين الدنيوي والأخروي ضمن سيرورة استيعابية واقتدار على التلقي والتوريث».

وبناء على ذلك: فالحضارة هي حضور , والحضور لا يكون بالعنف والقهر والجبر , وإنما الحضور قوامه الحوار والإقناع والفكر , حتى إذا ما تم الحضور بالقهر وقوة السلاح فالحضارة عن ذاك الحضور منسلخة وغائبة.

فالحوار ملازم للحضارة لا ينفك عنها , ولا تنفك عنه , فهو طريقها وهي غايته المثلى , ومن كان حاضراً على الواجهة الإنسانية في عصر ما

بالإرهاب والتهديد والعنصرية والعنف والتعصب فحضوره تخلف وعنجهية، و«شر الناس من أكرمه الناس اتقاء شره».

وزيادة عما سبق , فالحضارة تستمر ما دامت تتابع الحوار مع الحضارات الأخرى , ومع أشباه الحضارات بل هي - أعني الحضارة - تنهار إن شَتمت أو سَبَّت أما إذا تحملت شتم أشباه الحضارات فسيقوى عودها ويمتد عمرها ويطول أمدها.

وحتى يكون الحوار مناسباً للحضارة، وهو طريقها كما ذكرنا، ينبغي أن يرتكز على الأسلوب الإنساني في المواجهة، والأسلوب الإنساني يعني الاعتراف بالآخر واحترامه إنساناً يحق له أن يتعاطى الفكر بحرية وضمان مني، كما يحق لي الشيء ذاته، كما يعني قطع العهد على النفس في أن نسلم بصحة ما يوصلنا إليه مسار الحوار الحر القائم على الأريحية في التعامل مع المناهج والمبادئ، ونستبق كل ذلك بالآية الكريمة القائلة: ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [سبأ : ٢٤].

وفي نهاية المطاف:

علينا أن نؤكد أن الحضارات ذات الدلالة المذكورة آنفاً لا تتصادم ولا تتصارع، ما دامت تسعى إلى الحضور بمنهاج إنساني الموضوع، وفق مسار سلمي آمن مؤمن، بل يقال عنها إنها تتحاور وتتحادث وتتكامل في استلهام كل منها خيراً تجده لدى الآخر وهكذا...

فقولوا للناس حسناً، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً، وجادلوا بالتي هي أحسن، وادخلوا في السلم كافة، وما أمثال هذه العبارات من آيات كريمة وأحاديث شريفة وأقوال مأثورة إلا مفردات من مفردات الحضارة المنشودة. فهل إلى حضور حر من سبيل، وإنا لمنتظرون.

٥- دائرة الحوار ومجاله:

الإنسان كله، كل ما يصدر عنه، كل ما تفرزه قواه العقلية وقدراته

الإدراكية، لاينِدُّ عن ذلك منه شيء، ولا يستبعد منه معطى، أو أمر، أو قضية إنسانية.

قل ما تريد إذا كنت محاوراً، واسمع ما يقال، وأ جب عليه إذا كنت طرفا في الحوار.

تحرر من كل تحرج وأنت تسأل وتحاور: تأتي امرأة من الأنصار النبي صلى الله عليه وسلم فتقول: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، هل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ فقال النبي: «نعم». فقالت عائشة: «رحم الله نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء من التفقه في الدين»(١).

بادر وأخر ج كل ما يعتلج في داخلك وأنت تطرق باب الحوار، وقد كان النبي يقف أحيانا ويقول: «سلوني أيها الناس ما شئتم»(٢).

كن واضحا وأنت تحاور: ﴿**قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً**﴾ [**طه**: ١٢٥].

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم إليه، وأناخ بعيره على باب المسجد، ثم عقله، ثم دخل المسجد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين، فأقبل حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه، فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا ابن عبد المطلب».

فقال: أمحمد؟ قال: «نعم».

قال: يابن عبد المطلب، إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة، فلا تجدن في نفسك ؟

قال: «لا أجد في نفسي، فسل عما بدا لك».

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.

قال: أنشدك الله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك: آلله بعثك إلينا رسولا؟

قال: «اللهم نعم».

قال: فأنشدك بالله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك: آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئا وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟

قال: «اللهم نعم».

قال: فأنشدك بالله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك: آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟

قال: «اللهم نعم».

الإنسان بساحاته كلها مجال للحوار، وضمن دائرة الحوار، لا تغيب منه ساحة عن شمس الحوار، ولا تمتنع فيه مساحة من استمتاع بوابل الحوار الطيب.

من وافقك حاوره ليوافقك عن بينة، ومن خالفك حاوره ليخالفك عن معرفة. فإن رُفضت محاوراً حر اً فتحول محارباً حتى تعود محاوراً، وإن ظلمت فمنعت من إرسال الكلمة، فانطلق مقاتلاً إلى أن تستطيع إرسالها، وإن أ خرجت بالقوة الظالمة من دارك التي تملك موثقا على أنها دارك، فادفع الفعل بمثله: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ [**البقرة**: ١٩٤]، ﴿**وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ**﴾ [**النساء**: ٩٤].

الحوار هو الأصل: ﴿**ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾ [**البقرة**: ٢٠٨]، وأما سواه - إذ تستخدم القوة المادية - فعرض طارئ شرع للدفع: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا**﴾ [**البقرة**: ١٩٠].

ولا أريد أن أعد ما يمكن أن يدخل في سجل الحوار، وما لا يمكن أن يحتوي عليه هذا السجل، ما دمت قد قلت: إن الإنسان بكل ما يصدر عنه محل حوار. فهل يستعد الإنسان ؟

يا أيها الإنسان: إذا كان المرء بأصغريه قلبه ولسانه، وهما أداتا الحوار،

فليس هو إذا بالجوارح أو بالفتك...

ألم يأن لبني الإنسان أن يعامل بعضهم بعضا كما يعامل الإنسان نفسه حين تخالفه نفسه، و«لا يؤمن أحد كم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(١)، كما قال محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فهل رأيت معتدياً على نفسه حين تخالفه نفسه أو يخالفها ؟ وهل يلجأ هذا إلى القوة فينسف نفسه إذا خالفته ؟ فإن فعل هذا كان منتحرا، وكان عقابه خلودا في نار جهنم، كما جاء في مجمل أدبيات هذا الإسلام، بل الأديان كلها.

وقد يقول قائل: فمن الذي يرعى الحوار حتى لا ينتهي إلى دمار ؟ من الذي يضبطه ؟ ومن الذي يتولى عقاب من اشتطّ من الأطراف؟ مَن؟ من؟

وهذا قول معتبر له حظ من النظر، ونشير في الإجابة إلى وجوب تنصيب قاض حاكم، نرجع إليه مقرين بضرورة الالتزام بحكمه واعتماد قراره، والقاضي يتخذ شكل فرد أو مؤسسة أومنظمة، والمهم هو الإذعان له، والإيمان بضرورته، والعمل على إيجاده، ونأمل اليوم من المنظمات الدولية التي أخذت هذا الدور، أن تلعب الدور بشكل أفضل، وبجدية أكثر، من خلال إلزام أعضائها بمقرراتها: ﴿**فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ**﴾ [**الحجرات**: ٩]، وتعميم حوار ينصب على ضرورة التزام الأعضاء بها، وإلا كانت اسما عائقا عن عمل جاد، وصورة مانعة من فعل حق.

ونرفض اقتراحات معادية للحوار، مثل التي صدرت عن فوكوياما حين قال: «كل الحضارات ستذوب في الحضارة الأمريكية».

وعن هانتنغتون الذي قال في كتابه :الإسلام والغرب آفاق من الصدام: أن الإسلام خطر أخضر، وهو ذاتي التدمير، ويحذر من تحالف الإسلام مع الكونفوشيوسية، ويؤكد على أن هناك صداما بين الحضارة الإسلامية من جهة، والمسيحية واليهودية من الجهة الثانية.

---

(١) أخرجه البخاري.

٦- الحوار إرادة ومسؤولية وتحديات:

ما كان الحوار في يوم من الأيام مجرد تنظيم يصدره قرار، ولا كان محض قضية يشرع بمرسوم، لكنه - أولا وآخرا - إرادة نابعة من الداخل، تتحمل من أجلها الصعوبات: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ**﴾ [**لقمان**: ١٧].

الحوار مسؤولية كلمة، وحصانة كلمة، وسيادة كلمة، لأن الكلمة هي الأصل كما أسلفنا; ولأن الكلمة موقف، ولأن الكلمة مرتكز السلوك; ولأن الكلمة هي كل شيء لدى الإنسان.

الحوار تحد في حلبة الكلمة يؤكد على أطرافه البقاء فيها، وعدم الخروج منها إلى حلبة السيف، أو اللسان، أو البارودة، أو النووي، أو... ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [**البقرة**: ٢٣].

الحوار أمانة لا يراد منه الإدانة. لكنما الكلمة المقنعة هي الغاية المرجوة، ولتظهر على أي لسان من ألسنة الفرقاء المتحاورة شاءت. فنحن في حوارنا لا ندين، ولكننا نسعى إلى إظهار الذي به ندين: «لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن أساءوا أسأنا، ولكن وطنوا أنفسكم على إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا ألا تظلموا»(١).

الحوار إنقاذ من جوع يستفحل، وعطش يتفشى، لأن ثمن الطعام والمياه تحول إلى متفجرة دمرت حاضرا وهددت مستقبلا.

٧- شروط الحوار:

ويمكن تلخيصها بما يلي:

١- تحديد المصطلحات وتبيانها: ولطالما أخفق الحوار لسوء فهم انتاب المفاهيم المتداولة فيه، إذ يتكلم طرف عن مصطلح ما بتعريف قائم في

---

(١) أخرجه الترمذي.

ذهنه، يختلف عن ذاك التعريف الذي قام في ذهن الطرف الآخر، ولو أنهما اتفقا لقطعا شوطا في الوصول إلى المراد.

٢- وضوح الغاية من الحوار: هل الحوار لمجرد الحوار؟ أم إن هناك غاية يراد تحقيقها والوصول إليها ؟ وأخشى ما أخشاه أن يغدو الحوار هواية ووسيلة تسلية، وأن يعزل عن دوره البناء في خدمة المجتمع وتطويره.

٣- تساوي الأطراف من حيث الاعتبار: يجتمع المتحاورون تحت قنطرة الحوار دون سواها، وتسقط سائر الصفات والألقاب، وتتهاوى القوى المسكتة.

٤- احترام المتحاورين بعضَهم: إنه خلاف، وخلاف إنساني، فهل يحوّله الإنسان إلى خلاف وحشي يبتعد عن الإنسان ومساره وطبيعته هل نستبدل بالحوار المغني للإنسان إنساني ته بحوار يقترب من الحيوان؟!

٥- الإنصاف: بإقرار ما هو خطأ، وما هو صواب، وبغياب الإنصاف تغيب حتما الحقيقة وبإرادة الإنصاف تبدو الحقيقة، فالقضية موضوعية، وليست ذاتية.

٦- المرجع المت فق عليه في الحوار: من الحَكم ؟ هذا ما ينبغي توضيحه في عالم الحوار. لقد رضينا شرع الله، وعلى الآخرين أن يبينوا ما يريدون.

٨ - نداء إلى الإنسان وإلى المسلمين:

(أ) نداء إلى الإنسان من أجل حوار جاد يفضي إلى تعايش وسلام:

أيها الإنسان في كل مكان، ادخل السلام والسلم، واعمل على أن يذكرك من بعدك داعي لقاء ووفاق، لا داعي نزاع وفراق، اسع لمستقبل العالم ليكون إنسانيا، أعمل عقلك فيما يبقي لا فيما يفني، وفيما يجمع لا فيما يبلع.

أيها الإنسان، حاور ولا يستخفنك السفاكون، حاور ففي الحوار حياة، وفي الحوار تطور نحو الأفضل.

أيها الإنسان، أمن الناس من جهتك، وقل لنفسك؛ كما تدين تدان،

فاختر العمار على الدمار، أدع، بلِّغ، علّم، فكر، ولكن إياك أن تقتل، وتفتك، وتسفك. لا تمانع من لا يعجبك رأيه من الحديث والنقاش، وجاهد لتسمعه كما تسمع من يثني عليك ويمدحك، والعاقل من أَخذ لا من أُخذ.

أيها الإنسان، إلى متى ستظل مهددا؟ وأنت ترفض الحوار، لا أريد مثالية في الحديث، لكني أرجو الكثير في هذا الشأن لننال من الكثير القليل، ليتابع من بعدنا حتى يغدو القليل كثيرا.

أيها الإنسان:

أنت المحور والقطب والمرتكز والأسّ، فإن صلحت صلح الكون كله، وإن فسدت فسد الكون كله: ﴿**فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾**﴾ [الشمس].

فهل تسعى يا إنسان إليه ؟ وإنا معك ساعون.

(ب) نداء إلى المسلمين من أجل حوار فاعل يحقق تعاوناً على البر والتقوى:

ندعوا المسلمين إلى حوار يقرّب بعد إذ يُعرّف، فالمشكلة في أحكام متخذة حيال بعضنا، لا تستند إلى معرفة موثقة عن بعضنا.

أيها المسلمون:

التقوا على مائدة الحوار، وليجنّد كل منا نفسه ليسمع الآخر حتى يعرفه.

فإلى متى نطرح الحوار أسلوبا جميلا للتغني دون التبني!

وإلى متى سنظل أسرى جرائم التاريخ التي باعدت بعضنا عن بعض!

وإلى متى سنبقى نردد المصالحة باللسان، ونسلك سبيل المسالحة بالفعل والميدان!

وإلى متى سنتوارى عن ساح المسامحة، لنظهر في قعر المسافحة!

وإلى متى سنعيش الفرقة قد را ننسج خيوطه بدمائنا المسترخصة منا!

وإلى متى سيلاحقنا الماضي المرفوض، ليغدوا الواقع والحاضر المفروض!

لقد سامنا كل مفلس، وانتزعت مهابتنا من قلب عدو نا، حتى صارت خطوط التاريخ أقوى في تكويننا من نصوص القرآن، وذبذبات السياسة في ملف الزمن السابق أقوى وأعظم أثرا فينا من معاني السنة المشرفة، الداعية إلى الوحدة والاعتصام.

لقد استبدلنا بالنصوص الأساسية بعض التطبيقات البشرية الخاطئة، ونهلنا منها أحكام علاقاتنا، وآداب لقائنا، ورفض حوارنا، حتى لكأن السنة والشيعة، والصوفية والسلفية - هكذا مفر قين - قدر محتوم، لا يمكن أن تقاومه آيات القرآن المكلفة لهؤلاء جميعا بالتوحيد والاتحاد.

أملي أن نحسم الخلاف بيننا بحوار جاد فاعل، قبل أن يحسم علينا، إن لم نقل أن نحسم في وجودنا.

يا مسلم:

حاور المسلم ولا تحاربه: فإذا اتفقتما فتعاونا.

وإذا اختلفتما فقد أغنيتما إسلامكم.

وتعاونا، وهل التعاون - في النهاية - إلا وليد الحوار، فأين فريضة التعاون وتعاونوا، وأين قبلها فريضة الحوار (لتعارفوا) فالمسلم أخو المسلم.

ولنلتق دون ألقاب، أفلا يكفينا الإسلام!

خاتمة:

الحوار للسلام، والسلام مطلوب الإسلام الأول من المجتمعات الإنسانية على اختلاف عقائدها وأفكارها ومذاهبها ومبادئها، وهو مطلوب الثقافة الجادة، فالحضارة الخيّرة، وما لم يحقق الإسلام السلام فليس هو بدين حق آتٍ من الله السلام، وكذلك الثقافة إن أفضت إلى غير السلام فهي السفسطة القاتلة، وأما الحضارة فإن لم تنشر في ربوعها السلام، فهي تقدم مادي يحمل في طياته إنذارات شر واضطراب وقلق، والحوار هو السبيل دائماً، لأنه وسيلة سلمية (إسلامية)، والسلام الغاية يقتضي ويستلزم ذريعة

وطريقاً يتصف بمثل ما اتصفت به الغاية.

والسلام المنشود ذو مستويات:

- فهو سلام الفرد مع ذاته، فلا تشديد ولا قسوة ولا عنف ولا انتحار، فللنفس حق علينا وللزوجة حق علينا، وللجسد حق علينا، فلنعط كل ذي حق حقه.
- وهو سلام الإنسان مع الآخر: أياً كان:

(أ) فإن كان الآخر مثلك، فلا يؤمن أحدنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وكل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، وسب المسلم فسوق وقتاله كفر.

(ب) وإن كان غير مسلم فكان ذمياً من أهل الكتاب فهو في حصن وأمان، من آذاه فقد آذى النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، ومن جار عليه فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله.

(ج) وإن لم يكن من أهل الكتاب فكان معاهداً أو معاقداً، فمن ظلمه أو انتصفه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم خصمه يوم القيامة.

(د) وإن كان الآخر - أخيراً - محارباً، فآداب الجهاد، وهي إنسانية كلها، فلا مباغتة، ولا غدر، ولا مبادرة بالاعتداء، ولا اعتداء على مسن أو امرأة أو طفل أو شجرة أو حيوان، وكل ذلك منشور مبثوث في كتب الفقه والشريعة، فهل أنتم منصتون.

والسلام الذي نعنيه في النهاية، هو ضمان الحياة والحرية الشخصية، وحرية التعبير، وصيانة المال والأعراض، والدعوة إلى الكلمة الطيبة بشكل عام، وعدم بخس الناس أشياءهم.

وعند الوداع كلمة:

السلام أصل، والحرب عارض، لأنه مكروه، وهيهات أن يكون المكروه أصلاً.

والسـلام اسـتـراتيـجـيـة الاسـتـراتيـجـيـات، والحـرب دواءٌ لأمـر طارئ ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فإلى الحوار مختارين، لنصل إلى السلام آمنين.

وإلى الحـرب مـضطرين، والضـرورة تقـدر بقـدرها، لنصل إلى السـلام آمنين.

وإلى الإسـلام والثقافـة والحضارة، فإن رفض الأول، فما أظن عـاقلاً يرفض الثاني، وكذلك إن رفض الثاني فلن يرفض الثالث.

وكلها: الإسلام والحضارة والثقافة تدعو إلى السلام عبر طريق الحوار. فـهل من المسلمين والمثـقـفين وذوي الحـضـارة من مـجـيب؟؟ والسـلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

موانع الحوار.. بين عقيدة الضعف وعقدة القوة
(سنة الحوار.. والمزاج المنحرف)

بقلم:
د. محمد عبد النبي
جامعة الجزائر

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

يُفترض أن يكون الحوار بين العقلاء سنة ماضية بين البشر، لا يعكر عليها مزاج يشذ، ولا يشوش على السير فيها أفهام عليلة، وما من نبي أو رسول إلا وكان له مع المعارضين حوار، يبتغي به إقناع من خالف أوعارض، ولأن الدين برسالاته لا يُكره أحدا على اعتناقه، ولوكان الأمر كذلك ما لبث نوح في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وما آمن معه إلا قليل، ولأن الإكراه بتعارض مع التكريم المنصوص عليه، ويتنافى مع إرسال الرسل، فالإكراه يستتبع العقاب العاجل، ولا يستدعي كل ذلك الجهد المبذول من الرسل لإنقاذ من بُعثوا إليهم.

لقد فُسح في المجال لمن توعّد بالإضلال، بعد حوار بين الله وبين الشيطان، تمرّد فيه على الأوامر، وذكر القرآن هذا الموقف منه في أكثر من موضع، ويتلوه كل من يقرأ إلى يوم الدين.

والقرآن نفسه لا يوجه إلى الحوار فحسب في قوله: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [**العنكبوت**: ٤٦]. وإنما يلفت الأنظار إلى القواسم المشتركة، التي ينبغي أن ينطلق منها المتحاورون. ويرشد الأتباع إلى التواضع في أثناء اللقاء، فيعلمهم أن يقولوا: ﴿ .. **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [**سبأ**: ٢٤].أي أن الحوار هوالذي يوصل إلى الحقيقة، أما قبله فيفترض أن يتأدب الجميع بآدابه، بل يذهب إلى أبعد من ذلك في تعليم التواضع مع الخصم، وعدم ذكر ما من شأنه أن يصد عن الحوار، فيقول: ﴿**قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [**سبأ**: ٢٥]. ولا شك أن الإشعار بالتواضع وعدم احتكار الحقيقة يؤنس الخصم، ولا يستفزه إلى الانسحاب المبكر، أوعدم القبول بإجراء اللقاء أصلا، وهوموقف

يدل على الثقة والثبات، بخلاف من يتبجح بامتلاك الحقيقة، فموقفه أقرب إلى الضعف والهشاشة.

يقل صاحب الظلال: «وهذه غاية النصفة والاعتدال والأدب في الجدال، أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمشركين: إن أحدنا لا بد أن يكون على هدى، والآخر لا بد أن يكون على ضلال، ثم يدع تحديد المهتدي منهما والضال، ليثير التدبر والتفكر في هدوء، لا تغشى عليه العزة بالإثم، والرغبة في الجدال والمحال..» وينبه سيد قطب إلى نقطة في غاية الأهمية حين يقول:" ..فإنما هوهاد ومعلم، يبتغي هداهم وإرشادهم، لا إذلالهم وإفحامهم، لمجرد الإذلال والإفحام، الجدل على هذا النحوالمهذب الموحي، أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين، المتطاولين بالجاه والمقام، المستكبرين على الإذعان والاستسلام، وأجدر بأن يثير التدبر الهادئ، والاقتناع العميق.. ثم يختتم التعليق باستخلاص العبرة من هذه الآية، يوجهها إلى الدعاة فيقول: « .. وهونموذج من أدب الجدل، ينبغي تدبره من الدعاة».(١)

لا أجد نفسي معنيا-ولا المحور يسعف-بالدخول في متاهات التعريف بالعولمة والحوار، كمصطلحين سيتكرر ذكرهما كثيرا في هذا المجال، فالشروع في هذا الأمر قد يستغرقنا، فلا نحسن التخلص منه، وقد يغرقنا، فلا نكاد نصل إلى مبتغانا إلا بعد جهد جهيد، وإن كنت أعتقد أن العولمة هي وصف لتيار جارف وحالة عامة، تتحكم فيها مجموعة من الآليات الموضوعية والتاريخية، أكثر من كونها علما له أصول، أوفنا يخضع لمواصفات معينة، وضوابط محددة.

تقوم العلاقات الدولية منذ أمد على طرفين، على غني يقوده غناه إلى التقوِّي والاستقواء، وفقير يشغله فقره عن مزاحمة الكبار، بل قد يكون ضحية لمغامراتهم وأطماعهم، وقد درج الضعيف على ترقب الجديد يدهمه، وفي نفسه استعداد للرفض يُشهره، ذلك أن التوجس منه يولد حالة من

---

(١) سيد قطب في ظلال القرآن - دار الشروق - (٢٩٠٥/٥)

التحفز، يرد بها كل جديد يفد عليه، وفي اعتقاده أن المقصود بذاك الاختراع إنما هودينه وعقيدته، وكذلك كان الأمر مع المذياع ومع التلفاز، والزمن هوالذي يخفف من حدة موقف، قد يلجئه إلى التنازل، والتفريق بين ما يجوز وما لا يجوز، أوبين ما تشتد حرمته فيجتنب، وما تخف الملامة فيه أوتنعدم، فلا يتحرج في قربانه، وغالبا ما يتم التراجع الكلي أوالجزئي تحت إكراهات الواقع، ثم يُكسى برداء الإباحة أوالجواز، وليس نتيجة اقتناع حادث، أوتأصيل يستجد.

ولكن القوي لا يلتفت إلى المحاذير، ولا يتحسب للتأثيرات الجانبية، لأن الجديد هوالذي يخترعه، ولأن القوة التي يتسم بها تمكنه من التحكم فيما ينشئ ويخترع، والتقليلِ مما يمكن أن تحدثه، مما لا يرغب فيه أولا يناسبه.

أثبتت الأحداث أن الضعيف لا يمكنه أن يبقى بعيدا عما يحدث، أوأن يُحكم الحصار على نفسه، فلا يستقبل أي جديد، وبعض الدول التي فعلت ذلك، أوسعت إليه عانت شعوبها الأمرين، ولما أُزيح الستار أقبلت تلتهم بنهم كل ما مُنع عنها أوحُبست عنه، هذا في الوقت الذي كان يمكن فيه إحكام الطوق أوصناعة العزلة، أما مع الفورة التكنولوجية الحالية فتكاد تنعدم فرص التعتيم أوالحجب.

لدى القوي الذي يملك المنجز والمخترع إغراءات للقوة، تدفعه دوما للحفاظ على قوته، وللتوسيع من مجال يُكتسب، هذا إذا لم يكن لديه إلا العامل الاقتصادي يدفعه، أما إذا دخل العامل العقدي أوالأيديولوجي، فتوحي هذه القوة بإمداد هذا المجال بما يعتقده، وحينها يغدوالتوسع غطاء رساليا يمده بالتبرير والتشريع، لتجاوز الحرج الذي ينشأ عن كسر المبادئ أوتحطيم القواعد التي أشرف عليها القوي نفسه.

وللضعيف أيضا مخاوفه، بل هواجسه، تجعله يفسر معظم الظواهر بعقلية التخطيط المسبق أوالتآمر، وبعض هذا الكلام صحيح، لكن بعضه الآخر توحي به نفسية المغلوب المتوجس دوما من الأغيار، والضعفاء أيضا

يحتاجون إلى الغطاء، يبررون به التخوف، ويمنعون به الاتصال أوأي شكل من أشكال الحوار، بعضهم يتحجج بما يزعمه أمنا قوميا يخشى عليه الانكشاف، وآخرون يتعللون بالخيرية والحق اللذين يمنعان «التنازل» بقبول إجراء الحوار.

إن نفسية القوي أومزاج القوة لديه يمنعانه من تصور التكافؤ والندية مع الضعيف، فلا يسمح بحوار جدي أوحقيقي، فضلا عن المشاركة، والحوار إن جرى فهومحكوم بمجالات معينة من الناحية الموضوعية، أوحدود من الناحية الإجرائية لا ينبغي أن تتجاوز، وازدواجية المعايير- بل تعددها - إذ يمارسها، فهومن وحي هذه القوة، ومن تأثير المزاج المذكور، ولا يتقيد بالمبادئ إلا حين تخدمه، أما حين تحرجه أوتضايقه-فضلا عن أن تحاججه-فلا يجد أدنى حرج في تأويلها لصالحه، إن كان هناك مجال لتأويل يناور به، أويتجاوزها أصلا، دون أن يرف له جفن، فالعقاب - في مثل هذه الحالة - لا يطال إلا الصغار.

ينقل تشومسكي عن وثيقة من وثائق الخارجية الأمريكية سنة ١٩٤٨: «... ومهمتنا الحقيقية في الفترة القادمة اختراع نمط علاقات يسمح لنا بالحفاظ على موقف الشقاق هذا... ومن أجل تنفيذ هذه المهمة فلا بد لنا من أن نتخلى عن مشاعرنا، ونتخلى عن أحلام يقظتنا، ويجب أن نركز انتباهنا على أي مكان له صلة بأهدافنا القومية المباشرة...يجب عاينا أن نتوقف عن الحديث عن الغموض والأهداف غير الحقيقية، مثل حقوق الإنسان، ورفع مستوى المعيشة، وغرس الديموقراطية، ولن يكون بعيدا ذلك اليوم الذي لا بد لنا أن نتعامل فيه بمفاهيم القوة بشكل مباشر...» يبدوأن جيلنا يعيش ذلك اليوم فعلا!(١)

ومنطق القوي أومزاجه يقابله - في الجانب الآخر - قوة «الحق» أو«صواب» الأيديولوجيا، والقوالب العقدية التي يصنعها احتكار الحق المطلق والصواب تجعله يترفع بل يتكبر، ويحتقر الأغيار، متلبسا «بعزة» يفصِّلها على

---

(١) نعوم تشومسكي ما الذي يريده العم سام حقا- ترجمة:د.موسى برهوم-دار الفكر للنشر والتوزيع - عمان - الأردن - الطبعة الأولى١٩٩٣- ص:١٢ .

المقاس، والخوف المستتر الناشئ عن الضعف المادي يجعله يحوط النفس بسياج من الأحكام، أغلبها احتياطي، أومختلف فيه، فتمتزج قوة «الحق» لديه، مع ضعف الواقع، في صنع واقع معقد، ورسم لوحة سريالية لا تكاد تُفك، وتعبر في الغالب عن نفس معلولة، ويكاد يستحيل إزاء هذا الوضع القبول بحوار أولقاء، إلا أن يكون تحت الضغوط والإكراه، وسنرى بأن القبول الذي ينشأ تحت هذا الظرف قد يكون قبولا حقيقيا تزامن مع لحظة الإلجاء، وقد يكون تكتيكيا يزول بزوال اللحظة المذكورة.

إن الأمة التي يعاني ثمانون بالمائة من أفرادها من العقد النفسية-حسب بعض الإحصاءات-لا يمكنها أن تتصر فكرة أوأن تحمل مشروعا بمثل هذه الأدواء والعلل، والإرث الذي تعاني منه يصعب إزالة آثاره أوالتخفيف من وقعه بين عشية وضحاها، لتأهيلها لتحمّل مشروع النهضة ورعايته، مع أن الكثيرين فكروا أوسعوا لحمله وقيادته.

يقول رئيس المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية: «لا يمكن أن يخضع مجتمع بكامله للعلاج, ولكن نستطيع أن نساعده (إذا أقررنا بهذه النتيجة) على التحرر كي يتوصل إلى مستوى من المسؤولية، ومن الوعي الذاتي، يمكنه من حل مسائله الشائكة، وتكمن مسؤولية المفكر العربي في أن يحرر ذاته أولاً من رواسب الموروث الثقافي النرجسي, لكي ينقل رسالته ثانياً إلى مجتمعه، في إطار علمي قابل للجدل».(١)

الموانع الفكرية..وهواجس الضعيف

إن مما يزيد من تشوش فكر الضعيف أن الأحكام المطلقة التي يعتنقها لا يقتصر الأمر فيها على العدوالكافر، بل تشمل عدوا داخليا تصنعه هذه الأحكام أوالأوهام، وتلتمس له الأدلة، فيرتد وزرها إلى داخل الصف ذاته، بدعوى التخلية تمهيدا للتحلية، حفاظا على صفاء الأفكار والعقائد، وقد

---

(١) صحيفة الحياة اللندنية-١٠-٠٤-٢٠٠٤ .

يُلجأ في هذا السياق إلى إلحاق بعض المسائل العبادية بالعقائد، لإقصاء أكبر قدر ممكن ممن يظنون أنفسهم على سبيل نجاة، وهم ليسوكذلك ! والنتيجة أن الفوز في الدنيا والآخرة يختص بفئة محدودة أومعدودة، ويلتحق الآخرون بمن ضل، على أحسن تقدير.

ومن عوائق المسار التي تحجب عنا الحياة الكريمة وتمنع العطاء- ولوتحت غير الظلال التي نبغي-أن نحبس النفس والفكر على رؤية لا نرى في غيرها ميدانا لصواب، أومجالا لحراك، يتلوالنظر-ضرورة-أن يُعتقد بأن لا سبيل إلى نجاة إلا بإزاحة "الباطل"، والقفز على كرسيه ليغدوالحقَّ المطلق الذي لاحق سواه.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التكفير أوالتبديع كان يماثله في فترات سابقة «التخوين» أوالاتهام بالرجعية والعمالة، وذلك بغرض الإقصاء، وتبرير الاحتكار، ولكل مرحلة أومجتمع مصطلحاته وطرق للتفرد يسلكها.

وكلما ازداد الضعيف ضعفا كلما ازداد احتماء بالقوالب التي يصنعها، وهروبا إلى الهواجس التي تنطوي عليها جوانحه، وحينها لا يفكر إلا في الوسائل التي يقارع بها "العدو" ولوبعد حين، ومما يزيد من تأزم الحالة إكراهات الداخل والخارج، وغلق دوائر الحراك، إذ كيف يُصدّق القوي في دعاوى الحوار التي يعلنها، وشعارات الديموقراطية والتعددية التي يرفعها، وتجليات قوته تطال البشر والمقدسات، في هذا البلد، أوفي ذاك.

إن استعراضات هذه القوة مع الإحساس بالغبن والظلم والتآمر لا تدع مجالا للتفكير الحر المتزن، وهذا ليس تبريرا للسلوك الخاطئ، بقدر ما هوتشخيص لواقع أليم تختلط فيه أخطاء جميع الأطراف، مع بعض الحق أوالصواب الذي يحمله الجميع أيضا، ولوبنسب متفاوتة أومتقاربة، وهوأيضا ليس تمييعا للمواقف بقدر ما هوتحديد لبعض الأدواء، وتوزيع للمسؤوليات التي يُفترض أن تُتحمل.

ومن ضمن ما يلجأ إليه الضعيف خطيئة التعميم، وهوأن يلجأ أحدنا

إلى تقييم شخص فيعامله ككتلة صماء-إن كان يكرهه-ماضيه كحاضره، لا يلتمس له عذرا في موقف يلتبس، ولا يجد لكلامه محملا، في قول تتعدد فيه المحامل، فإن أحبه خلع عليه من أوصاف الجمال ما يستر كل عيب، ومن المحامد أجملها، وإذا جيء إلى فترة-فيها ما يُعرف منها وما يُنكر-لم تُحتسب إلا المساوئ ترجح، في ميزان يُخسر الخصيم، ويستوفي للحبيب.

ومن ذلك أن يضع جميع الأقوياء-ممن ليسوعلى دينه-في سلة واحدة، ولا يملك الوقت ولا الإرادة ولا الإمكانية النفسية للتنظير والتفريق بين أنواع "الأعداء" ولا يريد أن يعرف فيما إذا كان بعضهم أوغلَ في العداوة، أوأكثر تفهما، كما أن الضعيف-بالمواصفات المذكورة والظروف المشار إليها-لا يفرق بين السلطة المعادية وبين مواطنيها، ومن هؤلاء طوائف قد تناصر قضية، أوتشايع موقفا.

إن منطق التعميم لا يؤمن بالنسب، ويتشبث بدلا من ذلك بالثنائيات، فالناس ما بين عدوأوحليف، والمتفهم من ضمن «الأعداء» يزعجه، وكثرة الألوان تشوش عليه، بينما يحتاج التمييز والتصنيف إلى إعمال العقل وإجهاد الذهن، فهذا متعاطف، وذاك متفهم، وثالث قد يتبنى همومك إلخ..

ولما كان التشدد «ملة» واحدة، ولما كان الانغلاق أهمَّ أسبابه، فقد يلتقي بعض المتدينين مع من سبق، في اختصار الألوان كلها إلى لونين لا ثالث لهما، ونسبة الخصم أوالعدوإلى الشر المطلق، فالغرب كله ملة واحدة، لا يبغون الخير لمسلم، يردد بعضهم هذه القولة المشهورة، ويتجاهلون التصنيف الرائع الذي ورد ذكره في القرآن عن اليهود: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ...** ﴾ [**آل عمران**: ٧٥].

ويلاحَظ كيف أن القرآن بدأ بذكر الصفة الإيجابية، ثم ذكر ما يقابلها.

وقال تعالى - في بيان موقف اليهود والنصارى من المسلمين -: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا**

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

إننا نرى الكثير منا يعجز عن تقديم يد العون في فلسطين، في حين يموت بعض الغربيين، وهم يعلنون تضامنهم الفعلي مع الفلسطينيين، ويبدوأن البعض منا يتعبه البحث والتدقيق في التفاصيل، وقد لا يجد حلا لبعض الظواهر، فيلجأ إلى التعميم، تخدمه في ذلك ظروف القهر والإذلال، ولا يفرق بين الحكومات التي تغلّب المصالح على المبادئ، وبين الشعوب التي لا يلتفت بعض أفرادها - قلوا أوكثروا - إلى المنطق الذي يقود المسؤولين فيها، ونجدةُ بعض الأحرار ينبغي أن تُدرج في هذا الإطار.

يتميز الخطاب القرآني بدقة تثير الإعجاب، فحين يحكي عن فسوق اليهود والنصارى أوعن تمردهم نراه ينص على القلة فيهم بأوصاف"الفريق" والطائفة" ومن ذلك قوله في سورة البقرة: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وقال: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وقال: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وقال: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٨١].

وقال: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ

إلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ من شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء: ١١٣].

ولا يقل القوي شذوذا عن الضعيف في هذا المجال، فله قوالبه التي يصنعها ويسوقها، وله أحكامه المطلقة التي يرسلها، فالمعتدل عنده والمتشدد سواء، وهوفي ذلك أيضا يبتغي التبسيط، ولا يخدمه التمييز أوالتصنيف، فإهمال الجميع - في المراحل الأولى من التعامل - لا يكلف شيئا، والتسفيه أو التجريم - في المراحل اللاحقة-تسويق دعائي- يمهد لما بعده، وليست له أثمان، وحين ينتفي العدوالحقيقي ويُبحث عن عدوموهوم- يُقنع المواطنين بالتراجع عن الحقوق الفردية والجماعية، ويبرر الفعل ورد الفعل - فلن يكون القوي بحاجة إلى تمرير سياسة، أو تبرير تصرف، أوإقناع حليف.

ويختلف القوي عن الضعيف في أن القوي يملك يدا باطشة تضرب حيث تشاء، وفي الوقت الذي تشاء، وبالقدر الذي تراه أنسب للردع، أوأجلب للطاولة، أوأدفع للاستسلام.

لن يضارَّ القوي بشيء أكثر من أن تُسحب منه مبررات الفعل أو رد الفعل، يملك التصرف فيها دوما، وكلما صرخ المغبون أمده بما يضاعف من صراخه، ولوخفَت الصراخ، وحُوِّلت طاقته إلى عمل هادئ لانتفض، ولا أزال أعتقد أن من بين ضحايا أحداث سبتمبر هوالعمل المنظم الذي شرعت في انتهاجه الأقليات العربية والإسلامية، وأخشى أن أجازف فأقول: بأن من أهداف هذا الحادث هوالوجود الإسلامي ذاته، وما يلحن به بعض قادة الغرب - ويسارع «الطيبون أوالخبثاء» للتخفيف من آثاره مراعاة للموقع وعملا بواجب التحفظ-يصرح به مثل «لوبان»، الذي حذر صراحة من هذا الوجود، الذي سينحاز حتما - حسب قوله - إلى بلده الأصلي، في حال قيام أي نزاع مسلح أوحرب، كما صرح شارون بأن السبب في تنامي الشعور «ضد السامية» هوهذا الوجود الإسلامي.

موانع التأويل..والهوى المتبع

ويُقصد بها الموانع التي تنشأ من خلال التعامل مع النصوص، حيث يتم في هذا التعامل إقحام الحالة الوجدانية والنفسية على النص، للخروج بالرأي الأوحد إن كان النص ظني الدلالة، والإيحاء - بمختلف الطرق - بأنه الحق الذي لا ينبغي أن يُعدل عنه، أوأن يُبتغى عنه بديلا.

لقد جرى النظر في بعض الآيات مثلاً من خلال رأي واحد، واستبعدت آراء أخرى بحجة ضعفها تارة، أومرجوحيتها تارة أخرى، وذلك لأن التفسير المختار يوافق النهج الذي اختير في السعي للإصلاح، وفي الطرف الآخر استبعد ظاهر النص عند القائلين به لمعارضته الصريحة للنهج الذي اختطّه أصحابه لأنفسهم في عدم الخوض فيما سوى الأمور العلمية، ذلك أن الوفاء للفكرة يسبق الوفاء للمبدأ حين تعترضه عقبات تفضي للحرج .

ففي قوله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ والظالمون، والفاسقون. [**المائدة**: ٤٤]

قال القرطبي: «نزلت كلها في الكفار، ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء: وعلى هذا المعظم، فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة، وقيل فيه إضمار، أي ومن لم يحكم بما أنزل الله رداً للقرآن، وجحداً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام فهوكافر، قاله ابن عباس ومجاهد، فالآية عامة على هذا، قال ابن مسعود والحسن: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار، أي معتقداً ذلك ومستحلاً له، فأما من فعل ذلك وهومعتقد أنه مرتكب لمحرّم فهومن فساق المسلمين، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له .

وقال ابن عباس في رواية: ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلاً يضاهي أفعال الكفار.

وقيل: أي ومن لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهوكافر، فأما من حكم

بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلم يدخل في هذه الآية .

والصحيح الأول، إلا أن الشعبي قال: هي في اليهود خاصة، واختاره النحاس، قال: ويدلّ على ذلك ثلاثة أشياء: منها أن اليهود قد ذُكروا قبل هذا في قوله: (للذين هادوا) فعاد الضمير عليهم، ومنها: أن سياق الكلام يدل على ذلك، ألا ترى أن بعده (وكتبنا عليهم) فهذا الضمير لليهود بإجماع، وأيضاً فإن اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص .

فإن قال قائل: «من» إذا كانت للمجازاة فهي عامة إلا أن يقع دليل على تخصيصها؟ قيل له: «من» هنا بمعنى «الذي» مع ما ذكرناه من الأدلة، والتقدير: واليهود الذين لم يحكموا بما انزل الله فأولئك هم الكافرون، فهذا من أحسن ما قيل في هذا .

وقيل: الكافرون للمسلمين والظالمون لليهود والفاسقون للنصارى، وهذا اختيار أبي بكر بن العربي...

قال طاووس وغيره: ليس بكفر ينقل عن الملّة ولكنه كفر دون كفر، وهذا يختلف إن حكم بما عنده على أنه من عند الله، فهوتبديل له يوجب الكفر، وإن حكم به هوى ومعصية فهم ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في «الغفران للمذنبين...»(١)

وبالرغم من هذا التعدد في الأقوال والتفسيرات إلا أن الفكر الإسلامي أوبعضه ضاق بها، واقتصر على الرأي القائل بالتعميم مع الاحتفاظ بخصوص السبب، لحفظ الفرق وتبرير الاختلاف في الحكم، مع أن الرأي القائل بأن الآيات الثلاثة كلها في الكفار وُصف بأن عليه المعظم، ومع أن الرأي الآخر القائل بأنها في اليهود استُدلّ له بأدلة قوية، ووصفه القرطبي بأنه من أحسن ما قيل في هذا .

وحتى التعميم الذي اختير جُرد من قيوده، حيث وصفه أصحابه بأنه كفر دون كفر، أوأن ذلك مشروط بالجحود والاستحلال، ولم يُكتفى بالحصر

---

(١) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن - دار الكتب العلمية:(٦/١٩٠-١٩١) .

المعنوي، بل تعدّى ذلك إلى الحصر المادي، فقُصر الإعراض عن الحكم بما أنزل الله على الحكم بمعناه المعاصر، واستبعد الأفراد من التعميم، مع أن أصل السبب يدرجهم بطريق الأوّلية، أما الأولوية المشهرة فلم تراع الفروق والقيود التي عبّر عنها بعضهم مستتكراً بالأقواس التي تلُحق بالنص، وقد أصرّ البعض على هذا الرأي لمآل مناقض للمقاصد التي روعيت من قبِل من تحفّظ على الإطلاق، لأنه يتعارض مع فكرة عدم الخروج إذا أدت إلى الفتن، فيُحتمل عندها الضرر الأخفّ لتلافي المنكر الأشدّ المتوقع .

إن هذا الفكر الذي أصرّ على الرأي الوحيد لم يظهر خطؤه فقط للإخفاق الذي لازمه أوالويلات التي جرّها، ولكن لتراجع في الفكر حصل، وانحسار لخيار رُفع لواءه بقوّة، فتهاوى أيضاً بسرعة، واتخذ الغلوّ خندقاً آخر في بعض الحالات ليسقط في تداعيات لا علاقة لها بمشروع أوصحوة، وفي أحسن الأحوال كان التراجع في مسألة العلاقة مع الحكام، فبعد أن دُمغوا بما دمغوا به فترات طويلة من الزمن رُدمت الفجوة بعد ذلك-في بعض البلاد- في إطار نهج جديد لتجسير العلاقة، وهوتراجع وُسم بالعقلانية، لولا أنه استُغلّ أحياناً للتأصيل لرأي، أولتبرير موقف لا يخلومن شبهة.

لقد كان من النتائج الوخيمة للرؤية الوحيدة هوجر أكبر قدر من الناس إلى ساحتها عن طريق الإكراه النفسي والوجداني الذي تحدثه نصوص تساق لتأكيد فهم معيّن، واستُغلت بعض المقدمات الصحيحة للوصول إلى نتائج غير مسلمة، فقاعدة «من لم يكفر الكافر فهوكافر»: مقدمة صحيحة، لكنها في الكافر الذي لا شكّ في كفره، ممن وُلد ونشأ عليه، ولا تنطبق بالضرورة على غيره ممن يعيش في مجتمع إسلامي، وتبدر منه بوادر في الوصف مشابهة، ولا يزول عنه وصف الإسلام إلا بأدلة قاطعة ، غير أن نفراً أدرجوه ضمن القاعدة ليوسّعوا من دائرة المشمولين بالحكم، وأغرتهم مثل هذه القواعد في تعميم الأحكام بعد ذلك على الرعية نفسها، ليسهل في نظرهم البناء على أسس جديدة.

إن أصحاب هذا الطريق يتوسلون بالأحكام المطلقة، لا يقفون عند قيد، ولا يلتفتون إلى تخصيص، ولذلك تزعجهم التفاصيل، أوتحرجهم عند الحجاج، والحكم عندهم يتلوه حكم، والتكفير تتبعه الاستباحة، ومن تردد أوتأنى فلاستشعار الحرج، ومن كفر «الولاة» سبيلا لإزالة الغبش، استبطأ النصرة والنصر، فكفر الأنصار، ولذلك تراهم يعيشون في أزمة مع أنفسهم، أشد وأعتى من تلك التي يعيشونها مع مجتمعهم، وبعض من سعى للعلاج غدا جزءا من السقم، وبعض من جاهد من أجل البراء شعارا أعطى الولاء اظطرارا.

إن الترتيب الذي يحرِّم الالتزام بالشُعب الأدنى، أويخليه من الجدوى ترتيب لا يفتقد إلى الشرعية فحسب، بل يضاعف من العنت الذي قد يؤول بأصحابه يوما إلى التحلل، وأغرت الأحداث بمقارنات بين مرتد مفترض وكافر أصيل، أغفلت كل الفروق، لتُفسح الطريق لاستنتاج لا يرى في غير الخروج حلا، قد كانت أُولى مراحله وأسهلُها استباحة لمحرمات الأنفس والأعراض، تريد النيل من الهدف السهل، يُزاح من الطريق ابتداء، للوصول إلى من تترّس، وهيهات.

بعض التجارب في العالم الإسلامي (التجربة الماليزية) لا تسمح لهذا الوهم أن يستمر، بل تدفعه للتأسي، وإقامة ما أمكن من الشُّعب - في ظل الممكن والمتاح - هوالذي يخفف من أحمال النظريات وزحام الاظطرار، الذي يحيل الحياة أشبه بجحيم لا يحتمل، حتى ولوأُريد التخفيف من سطوته بالحلول الجزئية، أوبالوعود التي يستحيل الوفاء بها، وإن التعود على التعايش-في ظل مثل هذه التجربة - يقضي على أوهام التفرد، وادعاء احتكار الحق والصواب، وغناء التراث الذي ورثناه كفيل بإقناع من تردد، إذ لم تحفظ حضارة حقوق الأقليات فيها كما فعلت الحضارة الإسلامية، والمناصب التي تقلدها البعض من هؤلاء تسبق كل القوانين التي يتبجح بها قتلة الأطفال والشيوخ قديما وحديثا.

يفترض أن يرحب العقلاء بأي أوبة تجب ما قبلها، وتؤسس لسير جديد، ويفترض أن يُشجعوا بتوسيع آفاق الحوار البيني، وفتح مجالات للمشاركة، ويُفترض فيمن يؤوب أن لا يجعل من التجارب الخاطئة إرثا له يفاخر به، أورصيدا يسعى به لتسنّم أوتقلد ما لم يستطعه في الحقب الفائتة.

نعم، هي تجارب ينبغي أن تُفيد منها الأجيال الجديدة، لتجنب الأخطاء الفادحة، وتكرار المآسي التي تجعل من العداوات البينية عائقا أمام التنمية الحقيقية، التي يُرجى منها أن تنقذ الأمة من الوهدة السحيقة التي تتخبط فيها.

مرة أخرى نقول: من الفضائل أن يرجع من أخطأ عن ذنبه، وأن يقر بذلك -بغض النظر عن الأسباب المباشرة وغير المباشرة - فيغيِّرَ من أسلوب أضر بالدعوة والدعاة، ولكن أن تتم العودة بنوع من التبرير يعيد الاعتبار، أكثر مما يشير إلى الجناية، فهوإقرار شكلي يلتف صاحبه عليه، وينسب محمدة إلى النفس قد لا يستحقها.

فمن مقدمة «المراجعات» التي أُعلنت، يقول كاتبها مخاطبا من يتوقعه يعترض على اجتهاد جديد يُتنكّر فيه لما سبق: «... ونرجوألاّ يصدهم عن هذه الدراسة أن يقول قائل: لماذا غيرتم اجتهادكم وفتواكم اليوم في بعض المسائل (إذن هواجتهاد - حتى ولوكان المجتهد من ذوي التخصصات العلمية - فيستحق صاحبه الأجر حتى وإن تسبب اجتهاده في المآسي والفتن؟ ولا تظنوا أنه في النهج كله، بل هوفي بعض المسائل، فلا يصدُق عليه وصف الانقلاب الشامل) نقول لمثل هذا السائل:إن المعصوم الوحيد هوالرسول صلى الله عليه وسلم، وإن كل إنسان يؤخذ من قوله ويرد، سوى المعصوم صلى الله عليه وسلم (أي فلسنا أول ولا آخر من أخطأ) وإن الحق أحق أن يُتبع..وأن من هم خير منا من أئمة السلف قد غيروا اجتهاداتهم وفتاواهم (أي فلسنا في الأئمة بدعا في ذلك) فهذا الشافعي يغير بعض اجتهاداته وفتاويه (كذا) بعد قدومه إلى مصر،وأصبح له مذهبان: القديم والجديد (ونحن كذلك، فاعتبروا هذا التغير في المواقف من هذا القبيل، ولا يضر أن مذهبه القديم

لم تترتب عليه فتنة ولا دماء كمذهبنا)وهذا الإمام العظيم أحمد بن حنبل له في بعض المسائل عدة أقوال، كل قول ينقله إمام من تلاميذه عنه، ولم يغير هؤلاء الأئمة اجتهاداتهم عن هوى أوشهوة، ولكنهم غيروها على أسس علمية سليمة، وقواعد شرعية ثابتة (وهكذا أصبح مذهب هؤلاء هوالذي يحتاج إلى تزكية، وعلى أيدي أصحاب المراجعات) فالمجتهد له أن يغير فتواه إذا رأى المصلحة في ذلك، وهذا دليل قوة، وليس دليل ضعف..»[1] وهكذا يراد للإقرار أن يكون ذريعة لاستعادة القوة، وليس البريقِ فقط، وسيرى القارئ أن العنوان يندرج ضمن هذا الإيحاء، فلا يزال العمل الذي يخضع للمراجعة يحمل اسم الجهاد.

إن الرضى عن بعض من دين بالردة، وخلعَ أوصاف الشهادة على من قُتل، بعد أنهار من الفتن والدماء يقتضي الانسحاب والتوبة، ولا ينبغي أن يكون طريقا لتسنم مواقع عليا في الاتجاه المعاكس، وينبغي أن تسود ثقافة الاعتراف بالخطأ، والإقرار بالخطيئة، بديلا لثقافة الإصرار وعدم التنازل، ومع ذلك كله ينبغي أن يُدرج هذا الأمر- بالرغم من المؤاخذات - ضمن الحوار البيني، إذا أُريد لساحة تُشرِّع أبوابها أن تستوعبه.

الموانع الوجدانية..والتأصيل للفصام

من الموانع التي أسست لرفض اللقاء أوالحوار خلاف فقهي يبتغي التأصيل لأصل العلاقة بين المسلم والكافر في العصور الحاضرة، امتد ليأخذ بعدا فكريا، شاركت فيه كتابات تنتمي للصحوة، غلبت عليها إكراهات الواقع ووجدان جريح، أكثر مما غلب عليها النظر الشرعي الفسيح.

لقد ذهب البعض إلى القول بأن أصل العلاقة إنما هوالحرب، وأن السلم استثناء يؤكد القاعدة، مستندين في ذلك إلى آيات القتال، وإلى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، في حروبه وغزواته، وإلى عالمية الإسلام التي

---

(١) حمدي عبد الرحمن عبد العظيم وآخرون - تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء - مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة - الطبعة الأولى - ٢٠٠٢م ص: (٢٠).

تقتضي نشر الدعوة، وإزالة ما يعترض طريقها من كل من عاند أوتسلّط، وإلى ترجيح ما رجحه بعض المفسرين من إحكام في آية السيف، نسخت ما يُستنبط منه ترجيحا للرأي الآخر، ومن لم يقل بالنسخ قال بالمرحلية، أي أن هذه الآيات تختص فقط بمرحلة الاستضعاف، أما في مرحلة القوة والتمكين فالأصل هوالغزووالفتح، لنشر الإسلام في كل بقاع الأرض، يقول سيد قطب رحمه الله: «...والمهزومون الذين يحاولون أن يلووا أعناق النصوص ليا، ليخرجوا من الحرج الذي يتوهمونه في انطلاق الإسلام وراء حدوده الأولى، ليحرر البشر في الأرض كلها من العبودية لغير الله، ينسون هذه الحقيقة الكبرى، وهي أن هناك منهجا ربانيا، العبودية فيه لله وحده، يواجه مناهج بشرية، العبودية فيها للعبيد..» وكان قبل ذلك بأسطر قد ذكر بأنه في هذه الحالة «.. يصبح من حق المنهج الإلهي أن يجتاز الحواجز البشرية، ويحرر البشر من العبودية للعباد، ويتركهم أحرارا في اختيار العقيدة التي يختارونها في ظل الدينونة لله وحده».(١)

وكان قد قال عن المرحلية المشار إليها: «إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعا معينا، وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة، وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية، لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام، ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المنى، وأن هذه هي نهاية خطوات هذا الدين.. إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قدما في تحسين ظروفها، وفي إزالة العوائق من طريقها، حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في السورة الأخيرة، والتي كانت تواجه واقعا غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية».(٢)

لقد ساعد على هذا الرأيَ أجواءُ القهر التي أشاعها الاستعمار

---

(١) سيد قطب - الظلال: (٣/:١٥٨٢).
(٢) المرجع نفسه: (١٥٨١/٣) .

والاستغلال بمختلف أشكالهما، وهورأي لم يغفل أصحابه عن الآيات أخرى، وإنما قالوا بنسخها، أوتأولوها.

ومن أشهر تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾** ﴾ [**الممتحنة**]. وأكثر أهل التأويل على أن هذه الآية محكمة، كما قال القرطبي[1] بخلاف من ذهب إلى نسخها بآية السيف.

ومن فقه هذه الآيات ما استنبطه القرطبي من جواز صرف صدقة الفطر وصدقة التطوع على أهل القرابة من المشركين، وعلى أهل الذمة، قال: «.. وقد يجوز صرفها إلى غير المسلم في قول من جعلها سُنّة، وهوأحد القولين عندنا، وهوقول أبي حنيفة على ما ذكرنا، نظراً إلى عموم الآية في البرِّ وإطعام الطعام وإطلاق الصدقات، قال ابن عطيّة: وهذا الحكم متصوّر للمسلمين مع أهل ذمتهم ومع المسترقِّين من الحربيّين، قلت: وفي التنزيل ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** ﴾ [**الإنسان**: ٨]. والأسير في دار الإسلام لا يكون إلاَّ مشركاً، وقال تعالى: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ** ﴾ [**الممتحنة**: ٨]. فظواهر هذه الآيات تقتضي جواز صرف الصدقات إليهم جملة..»[2]

وقد ذهب القرطبي وابن العربي في تفسير الإقساط مذهبا غير الذي يوحي به اللفظ، وقد يكون ثانويا، مع بقاء ما يتبادر منه عند الإطلاق، قال القرطبي: «﴿ **وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ** ﴾ أي تعطوهم قسطاً من أموالكم على وجه الصلة، وليس يريد به من العدل، فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل، قاله ابن العربي.»[3] وذكر القرطبي أيضا «أن إسماعيل ابن إسحاق

---

(١) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن: (٥٩/٨).
(٢) المصدر نفسه: (٣٣٧/٣).
(٣) المصدر نفسه: (٥٩/٨).

القاضي دخل عليه ذِمِّي فأكرمه، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك، فتلا هذه الآية عليهم.»

وقد ركز القرآن على ملحظ العدوان والإخراج من البيوت والأوطان في أكثر من موضع من آيات الكتاب، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة].

إن عدم المبادرة بالقتال من قبل الكفار، وعدم إخراج المؤمنين من ديارهم قيد لا يسمح إلا بالرد على العدوان، والقرآن إذ يوجه إلى ذلك ينص على الظروف المحيطة، فيذكر العدوان والإخراج، والمظاهرة عليه، وقد لا تكون كل هذه العوامل مرادة بالانفراد، ولكنه تنصيص كاشف على مبلغ العدوان الذي يمارسه العدو، وعدم التحرك للرد إزاء هذا الوضع مناف لطبائع الأشياء، ومع ذلك كله يحذر القرآن من ممارسة التجاوز في أثناء اللجوء إلى حق الدفاع عن النفس.

كما نهى القرآن عن مقاتلة الكفار في المسجد الحرام ابتداء، جزاء كفرهم، وإنما أباح لهم ذلك فقط في حال الدفاع عن النفس، وحفاظا على حرمة البيت، حتى لا يقال إن المسلمين هم أول من انتهك البيت الحرام.

وملحظ الإخراج ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]. وفي موضع آخر يستحث فيه مَن ظُلم نبيَّه أن يأذن له بالرد على العدوان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا

أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

والرسول إذ يخشى عليهم من التقاعس وعدم الاستجابة للأمر بالقتال، يجيبه الأتباع بأن هناك دافعا آخر للجهاد، وهوالإخراج من البيوت والأولاد، وفي الآية إشارة إلى صعوبة القتال على النفس،بل إلى كره النفس له- كما في الآية الأخرى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ..**﴾ [البقرة: ٢١٦] من خلال التحذير من عدم الاستجابة، ومن خلال التذكير بمظلمة الإخراج، وهذا الأمر يوحي بأن الجهاد ليس نزهة يمارسها المسلم كل حين، بل إن تقييده بما قُيِّد به-بالرغم من ظروف القهر والإخراج حينها- يوحي أيضا بالاستثناء فيه.

وفي آية أخرى يسعى القرآن إلى إقناع المسلمين بالرد على العدوان، ويستخدم المبررات لذلك فيقول: ﴿**أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ١٣] وفي هذا الإلحاح دليل آخر على نفور النفس من القتال، ولوردا للعدوان، ويستحثهم القرآن على ذلك بأن الكفار نكثوا الأيمان، وهم من بدأ بالقتال، وهموا بإخراج الرسول، فكيف لا تقاتلونهم؟ وإن كنتم تخشون بأسهم، فالله أحق وأولى وأجدر أن تخشوه فيما لوأعرضتم وأدبرتم.

والآية التي قبله أيضا ربطت القتال بذلك، قال الله تعالى: ﴿**وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ**﴾ [التوبة: ١٢].

إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تبين بما لا يدع مجالا للشك بأن القتال ما جاء إلا بعد الإخراج من الديار والأوطان، ومحاولات الاغتيال، ونكث العهود والمواثيق.

وسواء اختلف الناس في هذه النقطة مع صاحب الظلال أم لم يختلفوا، وسواء كان رأيه راجحا أم مرجوحا، فإن له كلاما آخر أقل حدة، وأوفق مع مقاصد الإسلام، وإن كان المحبون والمتعاطفون لم يشهروا غير المقاطع التي

يريدون، قال رحمه الله في تعليقه على آيات الممتحنة: «إن الإسلام دين سلام، وعقيدة حب، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله، وأن يقيم فيه منهجه، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين، وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله، فأما إذا سالموهم فليس الإسلام براغب في الخصومة، ولا متطوع بها كذلك، وهوحتى في حالة الخصومة يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة، انتظارا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضووا تحت لوائه الرفيع، ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم الذي تستقيم فيه النفوس، فتتجه هذا الاتجاه المستقيم.»(١)

ويستدل الشيخ الشنقيطي على إحكامه بمفهوم آية أخرى، وبمراعاة المقاصد الشرعية بما يُرجى من الإحسان إلى الكفار المسالمين، قال: «.. وكذلك كلام الشيخ رحمة الله تعالى عليه عند قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾ بأن ذلك رخصة في حالة الخوف والضعف، مع اشتراط سلامة الداخل في القلب، فإن مفهومه أنها محكمة وباق العمل بها عند اللزوم، ومفهومه أن المؤمنين إذا كانوا في حالة قوة وعدم خوف وفي مأمنٍ منهم، وليس منهم قتال، وهم في غاية من المسالمة فلا مانع من برهم بالعدل والإقساط معهم، وهذا مما يرفع من شأن الإسلام والمسلمين، بل وفيه دعوة إلى الإسلام بحسن المعاملة وتأليف القلوب بالإحسان إلى من أحسن إليهم، وعدم معاداة من لم يعادهم..»(٢)

وقد ذهب بعض المعاصرين إلى أن التقسيم التقليدي المعروف بدار الحرب ودار الإسلام ليس تقسيما نصيا، وإنما هوتقسيم فقهي أملاه الواقع، ودعت إليه حاجة العصر آنذاك، «.. وترتبت عليه أحكام فقهية ليس من بينها حكم واحد يجيز العدوان، أويبيح بغير سبب ما حرمته الشريعة،

---

(١) سيد قطب - الظلال: (٣٥٤٤/٦)
(٢) الشنقيطي - أضواء البيان: (٣٣٢/٨)

وهوتقسيم لا يعلي من شأن عنصر أوجنس، على حساب سائر العناصر والأجناس..»(١)

إن هذا الكلام-في مجمله - يقطع الطريق على من يجعل الأصل في العلاقة الحرب، ويسعى لاستئصال من يخالف، ويؤسس لشرعية الحوار، ويعيد الفكرة الإسلامية إلى سعتها ورحابتها، ولكنه لا يلغي الحق في مقاومة الهيمنة ورد الاعتداء، كما هوديدن البعض اليوم، الذين يمنعون على الأمة حقا كفلته المواثيق الدولية نفسها، والغلومن جانب من يمتشق "العلمانية"سيفا هوالذي يدفع إلى غلومقابل، فيضيع الفكر المعتدل بين نزعة قهر تنشئ فكرا يرى العالم كله ساحة حرب، يُقتل فيها العدوأويذعن، وبين دعوة إلى المسالمة، لا تستثني أحدا، حتى وإن غَزى أوسَلب، يستلهمون تجربة غاندي، على وجاهة فيها قد لا تُنكر، ويديرون الظهر لسيرة تعطي الحق في دفع المعتدي، وترتب الأجر الجزيل على الشهادة دون الأرض والعرض، وحتى الأعراف الدولية التي يتنكر لها الآن، تعترف بحق في المقاومة، ينكره علينا من يدعي السبق أوالتجديد.

الموانع الاجتماعية..أوالتربية العرجاء

قد يكون بعض الدعاة للمواقف المتقابلة رهائن لتنشئة متعارضة، يخضع طوائف منهم فيها لتربية قاسية تارة، ومتزمتة تارة أخرى، يختلط فيها شظف العيش بتأويلات في الدين ما أنزل الله بها من سلطان، وآخرون يعيشون بأجسامهم بين المسلمين، ووجدانهم سليب، يلعنون أمتهم صباح مساء، يتكلمون مع أولادهم بغير لغة الآباء والأجداد، ويأنفون من سيرة تذكر محمدا وصحبه، أوتستذكر مظالم المحتلين والمستغلين، فإذا سمعت للأوائل خشيتَ من أن ينقضوا عليك، لشدة انقباضهم، وعبوس وجوههم، وغرابة ما يطرحون، وإذا سمعت للآخرين أحسست بالاختناق والغربة، لهجانة

---

(١) (محمد سليم العوا - الفقه الإسلامي في طريق التجديد - المكتب الإسلامي - بيروت - دمشق - الطبعة الثانية - ص: ١٩٧).

منطقهم، وضحالة فكرهم.

إن استمرار هذه الثنائية - وإن كانت ضرورية لصنع مشهد تعددي - إلا أنها قد تضر إذا استمرت وحدها في استقطاب واستنفار الأتباع، لصالح هذا الرأي أوذاك.

لقد استطاعت بعض الفضائيات أن تفتح الفضاء لمناقشات جادة، وأن تصرف بعض الكبت والقمع المزمنين، ومع ذلك قد يقف الأمر عند هذا الحد، إن لم يُتدارك بتربية واعية، يشترك في التأسيس لها الفكر المعتدل في كل الأمة، ولوكان من اتجاهات متعددة.

يستوقفني بعض أبنائي بسؤال عمن يحالفه الصواب ومن يجانبه، وهم يلاحظون الصخب الذي يرتفع في بعض البرامج الحوارية، فأجيبهم بأن كل واحد منهما يملك جزءا من الصواب، حتى أصرفهم عن حتمية الانحياز المطلق لطرف دون طرف، وقد أكون - من حيث الجملة - مع طرف معين، لكن هذا لا يمنع من أن أقتطف فكرة جميلة، أوملاحظة قيمة، أوطريقة تجذب، من الطرف المقابل، وقد تعودنا أن نقف بالمطلق مع من يرفع الشعار الذي نحب، حتى ولو أساء إليه.

إن من علامات هذه التربية العرجاء أن يُختصر الدين في الممنوعات تُلقى جزافا، يضيِّق من فسح المباح، وحين تُبنى دعوة على مثل هذا الأمر تمهِّد لمسالك الاضطرار، الذي يفضي غالبا إلى أنواع من العنف لا تُحمد، ومن ذلك ما نلاحظه من مواقف البعض تجاه قيمة الجمال، فبعض من يتصدى للدعوة يعادي كل ما يتعلق به، يبتدئ بالممنوع منه اتفاقا، ليشمل «تحريمه»ما لم يُتفق عليه احتياطا، وقد يوجد منهم من لا تستوقفه لوحة منه في الكون، تستجلب الإعجاب، فيُستثار قلب، يتبعه لسان، يلهج بذكر مَن برأ، ويستشعر بجمال الخلق جمالَ الخالق، ومثل هذا الموقف ينبئ عن ظلمة في النفس تُؤلف، فيزعجها الضياء، ولا تفرح بمن يحمله، أويدعوإليه.

إن الجمال قيمة في الكون تستل إعجاب السوي في لمح البصر، ولا

تُنظره حتى يُدركه، ومن يتصنعه لإثارة الإحساس به متكلف يستدر الإشفاق، أومتاجر بالقيم يفسد الأذواق، وقد ينحر الجمالَ دعيّ يُخل بأعراف الناس فيه، أوشقي ينكر على الخلق تذوق ما أبدع الخالق، فيجده باصطناع القطيعة بين جمال في التشريع ننعم به، وإبداع في الكون يسوقنا إليه.

حين يستوقف الناسَ وجه جميل يُسرون به إعجابا أويعلنونه، وحين تأخذهم شمس الأصيل تغوص على عجل في صفحة البحر، تؤذن بالأفول، تزينها حمرة في الأفق، أوحين تطرب نفس لمعنى تبدعه قريحة في بيت شعر تحيله إلى مَثَل، أوفي ريشة رسام يحاكي لوحة في الكون، يحكي بها للناس قدرة تستوقفه، وجمالا يصوره وينقله، حين يُعجَب الناس بذلك أوبغيره لا يقترفون منكرا من القول أوالفعل، بل يبينون عن نفس جبلت على حب الجمال وتذوقه في صحائف الكون الجميل.

المسكن النظيف نأوي إليه توحي أناقته بالجمال، والتناسق بين متاع فيه يُنتقى ينطق بالجمال، والكسوة التي تُلبس، خالية من الأعلاق، بعيدة عن التنافر تنبئ عن جمال، والنظام الذي ينشئه احترام قوانين السير جمال، والسواقة المتعقّلة فن، والناس تحب ذلك كله وتتحدث به، وحين تعم الفوضى ولا يبقى احترام لشيء من ذلك يغدوالتقيد بما هوأكبر أشق وأعسر.

لقد كان جرير بن عبد الله البجلي جميلا فائق الجمال، وكان يقال له يوسف الأمة، وقال بعض الشعراء يمدحه: لولا جرير هلكت بجيلة نعم الفتى وبئست القبيلة.

وقال رجل واصفا حبه للجمال ومبينا عن فطرة لا يحيد عنها إلاّ مكابر: إني أحب الجمال حتى في شِرِع نعلي.

ولما حذر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين من الكبر صرفه بعضهم- خوفا من الوقوع فيه أوالتلبس به - إلى ما يُلبس وما يُنتعل بالقول: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة» فصرفهم النبي عن الفهم السقيم أوالحرج البارد، بوضع الأمور في نصابها، فقال: «إن الله جميل يحب

الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس.»[١]

والذين يدفعهم الاحتياط للتسوية بين الأشكال والصور دون التفات إلى النوايا والقصود: يسيئون إلى دين يفرق بين الشُّعب في الأوامر، ويميز بين الآثام في الدرجة، ويغفر اللمم، ويعفوعن كثير.

وليس كل من تمتع بما يملك خفيف الموازين، ولا كل أشعث أغبر لوأقسم على الله لأبره، والحديث يعرض لاستثناء لا يلتفت إليه الناس، قد يكون صاحبه في أعلى درجات القبول، وجاء التعبير عنه بما يفيد التقليل، وليس المراد أن النهج المحمود في ذلك هو سلوك هذا السبيل .

إنّ من كانت نفسه بغير جمال، لا يرى في الكون شيئا جميلا، والعكس صحيح، الأول يسعى للانتقام، وإن رفع لغيره شعارا، والثاني يبني على الموجود، يخشى عليه التلف، وبعض من ادعى الإصلاح الشامل هدم المعبد على من فيه، فلا الإصلاح تحقق، ولا المكاسب المحققة استمرت.

إن من تسوء علاقته بالجمال المبثوث في الكون، يكتسب حدة في مزاج، يسلمه بدوره إلى الأحكام المطلقة التي لا يقبل فيها النقاش، وهذه تؤدي بالضرورة إلى مزلق آخر لا يقل خطورة عما سبق، فأصحاب هذا المسلك يسدّون كل باب للحوار، ويوصدون أي منفذ للتفاهم، فالحق النهائي الذي يعتقدونه بجانبهم، والصواب المطلق الذي يدّعونه، يمنعانهم من أنصاف الحلول، التي يوصل إليها الحوار، ويحجزانهم عن أي قاعدة يجتمع عليها المختلفون.

ولئن كان هذا موقفهم من الحوار مع من الموافق، فالحوار مع المخالف في الدين لا جدوى تُرتجى منه، وعقيدته حينئذ - وليس اعتداؤه - هي التي تبيح دمه، أوتستوجب قتاله، وأدنى اقتراب منه يثير الشك، وقد يؤدي إلى التبرؤ، وحين لا يُقدر عليه، ترتد السهام على من يليه، ذلك أن هذا الفكر يخشى من الهدوء، أوالمهادنة، وإعلان العنف أوإشهاره هوالذي يرفع ذكره، ويبقيه صانعا للحدث، ولوفي الظاهر، يغطى به على من يُهاب حقيقة جانبه.

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب تحريم الكبر- (٧٤/٢) دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٩٩٢،

إن في التجارب الإسلامية القريبة تراثا قد لا يلتفت إليه الكثيرون، وبعضهم يخدمه أن يُحجب أوأن يُطمس، فالدعوة النورسية - مثلا - مزيج من الفكر والتأمل والتربية، ولبديع الزمان النورسي نظرات في بعض القضايا سبق بها بعض من يماثله، ممن حمل هموم الأمة، وأحسب أنه عالج بعض الأدواء بالنفاذ إلى أسبابها، وحاول أن يقضي على بعض الظواهر بالتربية الطويلة النفس، وكان له في الجمال - الذي يعاديه بعضنا-كلاما بديعا، وهوإذ يفعل ذلك لا يكتفي بتأمل الجمال طريقا يتوسل به إلى صفات الجلال والكمال، بل يضيف إلى ذلك القبح نفسه، فينسب إليه فضيلة الدلالة على الجمال، يقول: «وتعال تأمل في هذا الجمال الزاهي، والحسن الباهر، ضمن هذا الانتظام والنظافة والميزان، بحيث جعل هذا الكون العظيم على صورة مهرجان في منتهى الجمال والبهجة، وعلى صورة معرض بديع، في منتهى الزينة والروعة، وعلى صورة ربيع زاه تفتحت أزاهيره تواً، وجمّل الربيع كزهرة عظيمة واسعة، تغطي وجه الأرض بمئات الألوف من أزاهيره الجميلة، وكل زهرة منها في أروع زينة وأبدع جمال، بل جعله كسندانة زاهية وباقة زهر لطيفة أمامنا...

وهكذا فهذا الحسن المحيط الجاذب، وهذه النظافة العامة الخارقة، وهذا الميزان الحساس المهيمن الشامل، وهذا الانتظام والانسجام المعجز المحيط بكل شئ، حجة قاطعة على الوحدانية، وعلامة واضحة على التوحيد، أسطع من ضوء الشمس في رابعة النهار.»(١)

وحين يُنبَّه إلى أن هناك شرورا وقبحا في العالم لا تخطئه العين، وقد يشوش على الصورة الزاهية التي يرسمها لمن حوله، يجيب من غير تردد بأنه لولا صور القبح ما تجلّت صور الجمال: «إن قبحاً يكون سبباً لإنتاج أنواع من الجمال، أوسبباً لإظهارها، يعدّ كذلك جمالاً، وإن انعدام قبحٍ يؤدي إلى إخفاء

---

(١) النورسي:بديع الزمان - الشعاعات - ترجمة إحسان قاسم الصالحي- دار سوزلر للنشر - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٩٢: (٣٦/٤).

كثير من الجمال، والى عدم ظهوره، لايعدّ قبحاً واحداً، بل أضعافاً مضاعفة من القبح.»(١)

ويعرض في موضع آخر لحكمة التقابل بين القيم المتضادة فيقول: «.. إن تقابل الخير والشر في هذا الكون، واللذة والألم، والنور والظلام، والحرارة والبرودة، والجمال والقبح، والهداية والضلالة، وتداخل بعضها ببعض إنما هي لحكمة كبرى، لأنه ما لم يكن هناك الشر فلا يفهم الخير، وما لم يكن هناك الألم فلا تُعرف اللذة، والضياء من دون ظلام إزاءه لا يبين جماله، ودرجات الحرارة تتحقق بوجود البرودة، وتصبح حقيقة واحدة من الجمال ألفاً من الحقائق بوجود القبح، بل يكتسب آلافا من أنواع الجمال ومراتب الحسن، ويختفي الكثير من لذائذ الجنة بعدم وجود جهنم، فقياسا على هذا يمكن أن يعرف كل شئ من جهة بضده، وبوجود الضد يمكن أن تثمر حقيقة واحدة حقائقَ عدة».(٢)

يُفترض فيمن يتأمل الجمال ويتذوقه، في تربية تعلي من قدره ولا تحقّره، أن يعتدل له مزاج يغلبه في الرضى وفي الغضب، وأن تطبع أفعالَه السماحة واليسر، وأن يكون ألين جانبا، وأعدل حالا ومقالا، وأقبل على النقاش والحوار، وأرضى بما يفضي إليه من نتائج، يزهوبرجحان رأيه، ولا يغتم إذا أُزيح أورُجح.

لعل من أهم الأسباب المباشرة لرفض الحوار اعتقاد جازم بامتلاك ناصية الحقيقة، وعدم التسليم - بلسان الحال أوالمقال - بالوقوع في الخطأ، وكثير من الحركات تتأبى على النقد، تحسبه انتقاصا من قدر، أونيلا من كرامة، وأكثر ما يظهر هذا الانحياز المطلق - الجالب للتعصب، والمستثير للعنف المادي أوالمعنوي-حين الكلام على الحق الذي بحوزتنا، أوعلى الرجال الذين حملوه، ممن نحب ونقدر.

---

(١) المرجع نفسه: (٣٧/٤).
(٢) المرجع نفسه: (٢٩٠/٤).

يذهب النورسي - في التجربة المشار إليها- إلى أصل هذا الداء، ليضع الإصبع عليه، ويحذر من خطورته: «.. إن أهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا (أنا) فهويجوب بهم في وديان الضلالة، فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلاّ بترك (أنا) وحتى لوكانوا على حق وصواب في استعمالهم (أنا) فعليهم تركه، لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم أنهم مثلهم يعبدون النفس، لذا فان عدم ترك (أنا) بخس للحق تجاه خدمة الحق.»[1]

ويرشد إلى كيفية تطبيق هذه القاعدة فيقول: «عندما تعلم أنك على حق في سلوكك وأفكارك يجوز لك أن تقول: (إن مسلكي حق أوهوأفضل) ولكن لا يجوز لك أن تقول: (إن الحق هومسلكي أنا فحسب) لأن نظرك الساخط وفكرك الكليل لن يكونا محكاً ولا حكماً يقضي على بطلان المسالك الأخرى..»[2]

ولما كان ادعاء احتكار الحقيقة أصلا لكثير من الشرور، فقد ربط بينه وبين ما يحدث من عداوة بين المؤمنين، وأرشدهم إلى الأولويات المتاحة في هذا المجال، فقال: «إن كنت تريد أن تعادي أحدا فعاد ما في قلبك من العداوة، واجتهد في إطفاء نارها واستئصال شأفتها، وحاول أن تعادي من هوأعدى عدوك وأشدّ ضرراً عليك، تلك هي نفسك التي بين جنبيك، فقاوم هواها، واسع إلى إصلاحها، ولا تعاد المؤمنين لأجلها، وإن كنت تريد العداء أيضا فعاد الكفار والزنادقة، فهم كثيرون، واعلم أن صفة المحبة محبوبة بذاتها جديرة بالمحبة، كما أن خصلة العداوة تستحق العداء قبل أي شئ آخر.»

ولا يكتفي بالنهي عن ذلك، بل يرشد إلى الفعل الذي من شأنه أن يشل حركة الخصم، فمن طبيعة الخصومة أنها تغري بالمزيد، ومن شأن المتحفز لها أن يترقب أدنى خطأ أواستفزاز، يبرر به ردا مساويا في العنف أويفوق، فيقطع النورسي الطريق على ذلك كله ويقول: «.. وإن أردت أن تغلب

---

(١) النورسي: بديع الزمان - المكتوبات: (٣٤٢/٢).
(٢) المرجع نفسه

خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فبه تخمد نار الخصومة، أما إذا قابلت إساءته بمثلها فالخصومة تزداد، حتى لواصبح مغلوباً- ظاهراً - فقلبه يمتلئ غيظاً عليك، فالعداء يدوم، والشحناء تستمر، بينما مقابلته بالإحسان تسوقه إلى الندم، وقد يكون صديقاً حميماً لك، إذ إن من شأن المؤمن أن يكون كريماً، فإن أكرمته فقد ملكته، وجعلته أخا لك، حتى لوكان لئيماً - ظاهراً - إلا انه كريم من حيث الإيمان..»(١)

إنّ من أُولى الشرور التي يؤدي إليها مسلك امتلاك الحقيقة أن يسعى مدّعيها إلى فرضها بالإكراه، الذي يمثل مظهرا من مظاهر العنف المقيت، ويجعل النورسي من نفسه مثالا في التواضع والتسامح، فيقول: «نعم! إن الفضيلة المتسمة بالإيمان، كما لا تكون وسيلة للإكراه، لا تكون سبباً للاستبداد قطعاً، إذ الإكراه والقسر والتسلط على الآخرين، رذيلة ليس إلا، بل إن أهم مشرب لدى أهل الفضيلة هوالاندماج في المجتمع، بالعجز والفقر والتواضع...»(٢)

ويعرض لهذا الأمر ضمن مصطلح كثيرا ما أغوت مضامينه، لكنه يتقصد هذا الربط ليؤكد موقع «الجهاد» الحقيقي في دعوته، فيقول: «أما الجهاد الخارجي فنحيله إلى السيوف الألماسية للبراهين القاطعة للشريعة الغراء، لأن الغلبة على المدنيين إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه، كما هوشأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئاً.»(٣)

ويعرض لتفاصيل الخلاف بين السنة والشيعة-الذي لا يزال يثير الإحن والأحقاد، بل لا يزال إلى يوم الناس هذا يسيل الدماء - ويذكر في آخره أنه «لا خير في الإفراط والتفريط في كل شيء..»(٤) ثم يخلص إلى توجيه نداء للطرفين بضرورة رفع هذا النزاع، وسد الطريق على من يستغله، لضرب

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) النورسي:بديع الزمان - اللمعات: (٢٥٩/٣).

(٣) النورسي:بديع الزمان - صيقل الإسلام: (٥٢٧/٨).

(٤) النورسي:بديع الزمان - اللمعات: (٣٧/٣).

أحدهما بالآخر، ويقول: «فيا أهل الحق الذين هم أهل السنة والجماعة، ويأيها الشيعة الذين اتخذتم محبة أهل البيت مسلكا لكم (يلاحظ هاهنا أن النورسي ينسب إلى كل فريق أهم ما يميزه عن الآخر، أوما يحب أن يُذكر به): «ارفعوا فوراً هذا النزاع فيما بينكم، هذا النزاع الذي لا معنى له ولاحقيقة فيه، وهوباطل ومضر في الوقت نفسه، وإن لم تزيلوا هذا النزاع فان الزندقة الحاكمة الآن حكماً قوياً تستغل أحدكما ضد الآخر، وتستعمله أداة لإفناء الآخر، ومن بعد إفنائه تحطّم تلك الأداة أيضا.»(١)

إن لفت الأنظار إلى مسألة الاستغلال فيها من الحرص بقدر ما فيها من ذكاء، ذلك أن أهل السياسة لا يزالون يستعملون هذه «الورقة» لخدمة هذا الغرض أوذاك، يظهرون المودة لطرف يوما، ثم يقربون الخصم الآخر في اليوم التالي، ولوالتزمت الأطراف المدعوة بفحوى هذا النداء - من النورسي ومن غيره - لعُصمت دماء كثيرة أُزهقت، وجهود كبيرة أُهدرت.

ويؤصل للخلاف، ويفرق بين ما يُحمد منه وما يُذم، حين يُسأل عن حديث يتكرر ذكره بين الناس (اختلاف أمتي رحمة) والذي يوحي ظاهره بأن الاختلاف - في حد ذاته - محمود، وبالذات «.. لضعفاء الناس من العوام، إذ ينقذهم من تسلط الخواص الظلمة، الذين إذا حصل بينهم اتفاق.. اضطهدوا هؤلاء الضعفاء..» فيجيب-مبينا آداب الخلاف - بالقول: «إن الاختلاف الوارد في الحديث هوالاختلاف الإيجابي البنّاء المثبت، ومعناه: أن يسعى كل واحد لترويج مسلكه، وإظهار صحة وجهته وصواب نظرته، دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين، أوالطعن في وجهة نظرهم وإبطال مسلكهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلاً. أما الاختلاف السلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا النوع من الاختلاف مردود أصلا في نظر الحديث، حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأي عمل

---

(١) المرجع نفسه: (٣/٣٨) .

إيجابي بناء.»[١] ومبعث هذا النوع الثاني من الاختلاف المذموم: الأغراض الشخصية في التسلط والاستعلاء، «.. وإشباع نفوس فرعونية..فلا تتلمع بارقة الحقيقة في هذا النوع من بسط الأفكار، بل تتولّد شرارة الفتن..»[٢]

خصال القوة..واللهاث خلف المصالح

لقد كان يُظن أن القوة التي ورثت النفوذ البريطاني والفرنسي-بالزحام والمغالبة-لن تلجأ إلى أساليب الهيمنة المتبعة من قبل من سبق، وبخاصة أنها وقفت مع استقلال وتحرر بعض الشعوب العربية، وكان يُظن بأن الدساتير الدولية والمواثيق الأممية ستقف حائلا أمام الأطماع الاستعمارية، أوستحدّ منها كثيرا، وأن عهودا جديدة قد أقبلت مع إدبار المد الإمبراطوري في الدولتين المذكورتين، كما كان يُعتقد بأن استعمال القنبلة الذرية كان ردا مشروعا - ولومفرطا - في زمن الحرب، وأن الحرب على فيتنام كانت استثناء، سرعان ما زال بزوال الحرب، وكان يُعتقد - من بعض مثقفينا على الأقل - بأن وقوف أمريكا مع الكيان الإسرائيلي يمكن أن يخفف من وطأته مزاحمة اليهود على كسب النفوذ، في بلد مفتوح كأمريكا، من خلال السعي الحثيث لتشكيل ما يسمى باللوبي، وشراء الولاءات - إن أمكن - لتأليف القلوب!

غير أن كل هذه الظنون كانت في غير محلها، وكانت تنبئ عن تمنيات أكثر مما كانت تنبئ عن واقع فعلي، ولا يبعد أنها كانت إثما أصر البعض على اجتراحه وترداده، وذلك بنفي البعد الاستراتيجي في العلاقة المذكورة، والسخرية من الملمح العقائدي أوالأيديولوجي فيها.

لم تكن تلك الأفعال والتصرفات استثناء، وإنما كانت إشعارا بالشروع في المد الإمبراطوري، والمآل إليه محتوم، تفضي إليه آليات القوة الشاملة، ومزاج الظفر المتوالي، وهذا المد والمزاج إن لم يسخر من دعوات الحوار التي يطلقها الضعيف، فلن يلقي لها بالا، وإن تظاهر بالاهتمام، أوأبدى الاستعداد.

---

(١) النورسي: بديع الزمان - المكتوبات:٢(/٣٤٧-٣٤٨).

(٢) النورسي: بديع الزمان - اللمعات: (٣/٢٠٤-٢٠٥).

إن الدولة التي تقوم على أنقاض شعب أعزل، تقصيه لتعيش، وتبيده لتهنأ، ستظل تأثيرات هذا السلوك تحكم مشاعرها وأفعالها، وستظل ظروف النشأة النفسية والواقعية توجه سياستها، ولا يمكنها أن تفتح مع الآخرين حوارا جادا، فضلا عن تسمح بالمشاركة الفاعلة.

يقول «نك كولاكاوسكي:».. وفرضت الحكومة الأميركية، ولعقود عديدة، سياسة الاستيعاب والدمج على قبائل الأميركيين الأصليين، فأُجبر الأطفال على تبني اللغة الإنكليزية واللباس الغربي، كما تم حظر الاحتفالات التي تقام بها الطقوس القبلية مثل احتفال «رقصة الأشباح» لقبيلة السيوكس، إن مثل هذا الدمج والاستيعاب أمر مروّع كما ترى كارين بيرد-أولوسون الأستاذة في جامعة ولاية كاليفورنيا في مدينة نورث بريدج، وتنتمي هي ذاتها إلى قبيلة آسينبوان - ويناندوت .Assinoboine-Wyandot تقول: إنه استعمار، نحن وببساطة ضحايا الاستعمار الداخلي، فالناس ينسون جذورهم عبر سياسات الدمج، ويخامرهم الشعور بالعار إزاء هويتهم الحقيقية، لدينا أعلى معدل للانتحار بين الشباب بسبب أزمة الهوية»(١)

والدولة التي اعتُبر سجلها نظيفا بعدم لجوئها إلى احتلال بلدان الآخرين - بل هي التي وقعت ضحية للاحتلال - وببعض المبادئ التي عُرفت بها ونسبت إلى زعمائها، ذُهل عن حقيقة قيامها على أشتات الشعوب الأوروبية، التي لا تعتبر تقاليد الهيمنة والسيطرة غريبة عنها.

إن حياة الرفاه والكفاية التي حققتها الأرض الجديدة لهؤلاء (متوسط الدخل الأمريكي ٣٥ ألف دولار سنويا) والتطرف الجغرافي للموقع - بالإضافة إلى ما سبق - كل ذلك يعزل مواطنيها عن الشعوب الأخرى، وعن الاهتمام بهم، أوالإحساس بمعاناتهم، وما يشيع عن جهل هذا الشعب أوجهالته يفصله عن محيطه الأقرب في البلدات والولايات الأخرى، وينأى به عن شواغل السياسة الخارجية، وهذا يجعله يسلم قياده فيها لآلة الإعلام

---

(١) (موقع: - himag.com مايو- ٢٠٠٤).

ذات الوجه التعددي، والتي تصنع له رأيه، وتوجهه حسبما تريد.

جاء في دراسة تناولت الشخصية الأمريكية وما يتمتع به الفرد الأمريكي من حرية تهمل الآخر الذي في الداخل - فضلا عن ذاك الذي في الخارج - إلى حد الجهل: «فإذا أردنا أن نعطي مثالا على اللامبالاة والتحرر من قيود الآخر فإننا نأخذ المقابلة التي أجريت مع الرئيس بوش الابن عندما كان مرشحا، ففي تلك المقابلة الشهيرة كان بوش نموذجا للمواطن الأمريكي العادي الذي لايهتم بما لا يعنيه، ومن هنا فشله في الإجابة على أسئلة من بديهيات السياسة، وهوفشل فضائحي بالنسبة إلى مرشح لرئاسة القطب العالمي الأوحد، ومن الأمثلة أيضا ذلك الإحصاء الذي بين أن ٨٠٪ من الأميركيين يعتقدون أن باكستان وإيران هي دول عربية! وقس عليه.»(١)

إن الدولة التي تُبنى على القوة في نشأتها، وتلوّح بها أوتفاخر، عبر إنتاجها التلفزيوني والسينمائي لن تحاور ضعيفا، أوتنصر مظلوما، أوتندد بظالم، وكيف تفعل ذلك إذا كانت هي من يتلبس بالظلم من أول نشأته، ثم يزوِّر التاريخ لصالحه، وينتظر البعض منا أن يستعيد حقه عن طريق هذا المغتصب، يقول «"كولا كاوسكي»:.. تعتبر الروايات التاريخية التي ترويها أفلام رعاة البقر القديمة بشأن تاريخ الهنود الحمر غير صحيحة في سردها للحقائق، فالسكانُ الأصليون خسروا معظم أراضيهم وحريتهم في نهاية المطاف، وفي أغلب الأحيان بشكل سِلمي عبر التوقيع على اتفاقيات جائرة، حينما أراد المستوطنون البيض الاستيلاء على نفط أو مواد طبيعية أخرى في أراضي الهنود، فلقد كانوا يقومون وبكل بساطة بإرغام رئيس القبيلة على التوقيع على ورقة لا قيمة لها، ثم يقومون وفقا لهذه الورقة بإبعاد القبيلة كلها من أرضها، وقد وصف بلاك هوك زعيم قبيلة سوك Sauk، الذي عاش في أوائل القرن الـ١٩، ذلك التآمر على نحوبليغ مُعَبِّرا عن غضب السكان الأصليين إزاء ما كان يحدث لهم حينما قال متفجّعا ونادبا حظه:كل ما فعلته

---

(١) (موقع: - himag.comمايو - ٢٠٠٤).

هوأنني لمست الورقة بريشة إوزة دون أن أعرف أنني وبتلك الفعلة كنت أوافق على التنازل عن قريتي».[1]

وتاريخ العنف في أمريكا بتاريخ الاستيطان، ويُذكر من تعذيب وعنف في أبوغريب وغيره ليس استثناء، كما يحاول المسؤولون الأمريكيون أن يؤكدوه، ففي مقالة لها «بالواشنطن بوست» بتاريخ: ١٠-٠٥-٢٠٠٤) ذكرت الكاتبة آن أبيلبوم أن ممارسات الجنود الأمريكيين هي إفراز طبيعي للواقع السياسي الأمريكي، وقد استشهدت بكتاب »سفاحوهتلر الطيبون«، الذي صدر في الولايات المتحدة قبل سنوات، وربط بين معسكرات الموت النازية والشخصية القومية الألمانية، وأشارت إلى الرأي الذي ربط بين التسلط والشمولية في الاتحاد السوفييتي، وبين التقاليد الروسية القديمة لعبادة القيصر...»[2]

وفي نفس المقال نقول عن تشومسكي في كتابه «الغزومستمر» ومما جاء فيه أن «أولئك المستوطنين اتخذوا من «فرجينيا» قاعدة انطلقوا منها للنهب والسلب، ولإبادة «البهائم الأجلاف» و«عبدة الشيطان»، وهم الهنود الذين كانوا قد استقبلوا المستوطنين الأوائل ورحبوا بهم، وبفضل كرمهم تمكنوا من البقاء أحياء. «ويضيف:».. أنهم استخدموا أكثر الوسائل خسّة ووحشية في إبادة الهنود، فقاموا باصطيادهم بالكلاب المتوحشة، وذبحوا نساءهم وأطفالهم وأتلفوا محاصيلهم وتعمدوا نشر مرض الجدري المميت بينهم من خلال توزيع بطانيات حاملة للعدوى عليهم(!)...»[3]

إن المجتمع التي تملك القلة فيه معظم الثروات، والشركات التي تكتسح العالم باستثمارات مهولة ومشبوهة، كل هذا وغيره يورث جبروتا وطغيانا يمنعان من الالتفات إلى الآخرين، إلا على أساس أنهم متسولون، يُرمى إليهم ببعض الفتات بين الحين والآخر، أوكسالى يستأهلون الفقر والفاقة التي يعانون، وبلدانه ليست جديرة بالثروات الطبيعية التي تتمتع بها، وغالبا ما يُعبر

---

(١) (المرجع السابق).
(٢) مقال لفهمي هويدي. بالأهرام المصرية بتاريخ: ١٨-٠٥-٢٠٠٤
(٣) المقال نفسه.

عن ذلك بأخطاء الجغرافيا، والاستيلاءُ عليها - بطريق مباشر أوغير مباشر- تصحيح لهذا الخطأ، ألم تقل صوفي بسيس - في سياق حديثها عن الغرب كله كوحدة واحدة - بأن أوروبا «ومن خلال تأسيسها للتطهير والإقصاء العرقي في الأندلس[1] والاكتشاف للعالم الجديد، تجسد تحركها بقيادة إسبانيا في المراحل الأولى عبر ثلاثة عناوين: الدين (المسيحية)، والنقاء العرقي، والتفوق العرقي، وقد استخدمت هذه المسوِّغات لتبرير غزوالعالم والسيطرة عليه.»[2]

وينقل نعوم تشومسكي عن مذكرة وضعتها وزارة الخارجية الأمريكية سنة ١٩٤٩ قول معدّها أومعدِّيها: «على العالم الثالث أن يحقق وظيفته الرئيسية كمصدر للمواد الخام، وسوق للمجتمعات الرأسمالية الصناعية»[3]

إن الفكر الذي تبرر الغاية فيه الوسيلة، وينتفي عنه الوازع الأخلاقي، تصبح المصلحة فيه بديلا عن أي وازع أخلاقي، وحتى لو وُجد مثل هذا الوازع فسيُضحّى به على الفور إن تصادم مع المصلحة المذكورة، ومن هنا تأتي إشكالية الجانب العنصري في القيم التي يرفعها القوي، فهويحرص عليه حين تكون في بلده، ولمصلحة شعبه، ولكنه يدوس عليها إذا كانت خارج بلده، واضطرته المصلحة لتجاوزها.

صحيح أن الدول الأوروبية أقرب إلى العالم الثالث، من حيث تفهم بعض قضاياه وانشغالاته، وصحيح أنها شعوب تملك تاريخا حافلا وإرثا حضاريا عريقا، تبدوالولايات المتحدة أمامه كالطفل المولود توا، وصحيح أيضا أنها تخلت عن إرثها الإمبراطوري طوعا أوكرها، ولكن الصحيح أيضا أنها هي الأخرى قامت على الإقصاء والإبادة، ما يجعل الغرب بشقيه الأوروبي والأمريكي يشترك في مواصفات النشأة، وفي ذلك تقول صوفي بسيس:

---

(١) «قال اثنان من كبار المستشرقين الهولنديين: إن المعاناة التي يعيشها المسلمون في الغرب اليوم والتي دفعتهم إلى إخفاء إسلامهم خوفا من الملاحقات الأمنية، تبدوأشبه بالمعاناة التي واجهها من قبلهم الموريسكيون (مسلموالأندلس خلال القرن الـ١٦) حين تعرضوا للتهجير وللمحاكمات والملاحقات.» عن موقع: (islamonline.net).

(٢) صوفي بسيس- (الغرب والآخرون :قصة تفوق) عرض وتلخيص: (aljazeera.net).

(٣) (نعوم تشومسكي - ما الذي يريده العم سام حقا - ص: ١٥).

«كان تزاوج المسيحية الأوروبية مع العرقية هوالذي شكل طبيعة الانتماء المزدوج الذي جعل غزوأميركا مشروعاً، ولإنجاح هذا الغزوالاستيطاني، ارتكب الأوروبيون أول إبادة بشرية في التاريخ، ففي أقل من ٣٠ سنة أبادوا ما بين ٨٠٪ إلى ٩٠٪ من سكان الأنتيل الكبرى، مما أدى في منتصف القرن السادس عشر إلى انقراض شبه كلي للسكان الأصليين.»(١)

وعن الإقصاء تقول: « .. وتبعاً لهذه الأسطورة، فإن أوروبا وريثة الإغريق وروما هي حصراً مسيحية، ولا يوجد أي نفوذ آخر «ليلوثها»، ومن هنا فقد دأب المفكرون في عصر النهضة الأوروبية على اصطناع نسب مباشر مع أثينا، لتجاهل الوسيط الحضاري الإسلامي (الثري) في توريث أوروبا التراث اليوناني، وكان طرد الإسلام من أوروبا قد توافق وإقصاء الفكر الإسلامي من المجال الثقافي الأوروبي, هذا رغم الدور المميز للأندلس - لا سيما عبر فكر ابن رشد - ليس فقط في إيصال ولكن في إعادة قراءة الفلسفة الإغريقية، ولولا الإسلام الذي هيأ لها الظروف اللازمة لما تمكنت النهضة الأوروبية من مد خيوط نسب مميزة مع ذلك الإرث التي تدعي صلتها المباشرة به, وذلك في توكيد صارخ للقراءة الغربية الانتقائية للتاريخ. وفضلاً عن ذلك فإن الأوروبيين لم ينكروا فقط دور الحضارة الإسلامية في نقل وشرح التراث اليوناني، بل دمروا ما شيدته في الأندلس، فعقب طرد المسلمين واليهود منها حول الأوروبيون الأندلس المسلمة التي كانت معقل التسامح والعلم في أوروبا، إلى معقل للتطهير العرقي من خلال استحداث تعبير »نقاء الدم». فكان على كل من يتقدم لوظيفة عمومية أن يثبت نقاء عائلته من الإسلام واليهودية وذلك منذ أربعة أجيال على الأقل، وهذه القاعدة القانونية لم يتوقف العمل بها في إسبانيا إلا في ١٨٦٥ ».(٢)

كما أن أوروبا لا تزال تنظر إلى مستعمراتها السابقة بنفس النظرة الاستعمارية

---

(١) صوفي بسيس - (الغرب والآخرون:قصة تفوق) عرض وتلخيص: (aljazeera.net)
(٢) صوفي بسيس- (الغرب والآخرون: قصة تفوق) عرض وتلخيص: (aljazeera.net)

السابقة، وتعتبر أراضيها مجالا حيويا لها، لا ينبغي أن يزاحمها فيه أحد، ويظهر ذلك جليا حين الأزمات، أوحين تشتم رائحة الغريب المنافس.

لقد أضحى العامل الاقتصادي في العلاقات الدولية من الأهمية بمكان، والدول الكبرى لا تتسامح مع من يهدد مصالحها، أوينتقص من حقها فيها، وقد رأينا كيف أُطيح ببعض الزعماء الذين هددوا المصالح النفطية لبعض الدول الكبرى، ورأينا كيف يُضحى بالديموقراطية، وتغدوشعارا باليا تتقاذفه الرياح حين تتعارض مع المصالح الاستراتيجية لتلك الدول.

لقد تراجع العامل الديني الذي كان سائدا أيام الحروب الصليبية، ولكن قوانين العلمانية أضحت بديلا قويا، وقوتها مرادة لاعتبارات كثيرة موضوعية وواقعية، ولكنها تُستغل-كما تستغل آليات الديموقراطية - لتحقيق ما لا يستطيع العامل الديني أن يحققه، فتغدوالعلمانية-في بعض المراحل أوحين تكون شاملة بتعبير الدكتور المسيري[١] - ذراعا من أذرع الدين الذي حاربته، فقانون الحجاب الأخير في فرنسا يحمل طابعا عنصريا، إذ يخفي في طياته الإساءة للفرنسيين أنفسهم، من خلال التعامل مع بعضهم على أساس الدين، وليس على أساس المواطنة، وإن كان شعارها هوالذي تتم به خدمة الأجندة التي تحملها بعض القوى المؤثرة.

وتشير بعض الدراسات الحديثة إلى هذا التخبط، فتقول «صوفي بسيس»: « .. في خضم هذا التآكل عاد من جديد منطق نحن وهم حتى داخل الدول الغربية ذاتها، ففرنسا مثلاً لا تعتبر المسلمين من مواطنيها أجانب، كما لا تعتبرهم فرنسيين، فكان أن ابتدعت تعبير «الجيل الثاني» من الجالية المسلمة المغاربية أساساً..»[٢]

إن القوى الكبرى حين تحرجها الضغوط أوالمصالح يبدوسلوكها مشابها لسلوك الضعيف الذي يعتمد الإكراه لإنجاز أهدافه، ففرض «نزع» الحجاب

---

(١) يقول المسيري: «العلمانية الشاملة مغرقة في المادية، وهي دين يؤمن بالمادة، ورؤية شاملة تعبر عن نفسها في كل مناحي الحياة..» حوار في الشرق الأوسط بتاريخ: (٠٥-٠٣-٢٠٠٤)

(٢) صوفي بسيس- (الغرب والآخرون:قصة تفوق) عرض وتلخيص: (aljazeera.net)

بالطريقة الفرنسية لا يختلف - على المستوى الحقوقي - عن فرض النقاب بالطريقة الطالبانية، غاية الأمر أن الأول ارتبط بدولة متقدمة قوية، سوّق الإعلام - التابع للقوي - قانونها في إطار العلمانية، ولوبالإكراه، والثاني ارتبط بالتخلف والضعف، وسوّق نفس الإعلام قانونها في إطار ديانة تتنامى "شيطنة" أتباعها كل حين.

كلنا نتذكر الحملة الإعلامية الضخمة للحفاظ على الآثار البوذية في أفغانستان، وكيف أن الناس والقادة والعلماء استُنفروا للضغط على الحكومة القائمة لثنيها عن تدمير تلك الآثار، ولكن العراق دُمِّر أكثر من مرة، بمن يحمل، وما يحمل، وتعرض في الحرب الأخيرة-بالإضافة إلى التدمير- لأكبر عملية سرقة آثار في التاريخ، ولا يظهر الاستنكار إلا خافتا أوحييا أوخائفا من قبل البعض، ذلك أن الذي يدمر هذه المرة هوالقوي، فإذا احتُج عليه انتفض، وقد يعاقِب، أما في"باميان" فمن نوى التدمير، أومن قام بالقليل منه الذي لا يكاد يظهر: فالضعيف الذي لا حول له ولا قوة ولا إعلام.

من الإجراءات الأخرى الفاضحة لازدواجية المعايير، ذلك السيف المسلط على رقاب كل من يتعرض بالنقد والتشكيك لما بات يعرف بالمحرقة، أوالهولوكست، وقد رأينا كيف أن بعض الأحرار في العالم لا ينفون حصولها، ولكنهم يشككون في أعداد الذي أحرقوا، ويناقشون استحالة حصول الرقم المشهور بأسلوب علمي بحت[١]، مستعينين في ذلك بالأرقام والوقائع والتصريحات، ومن أشهر هؤلاء المفكر الفرنسي «وجيه غارودي»[٢]، ولكن القوى اليهودية وغيرها ممن يؤثر في الحياة السياسية في فرنسا لم يرقها التشكيك حتى على هذا المستوى، الذي لا يطال حقيقة الواقعة ذاتها، ولكنهم

---

(١) انظر في هذا السياق:تقرير لوشتر-ترجمة أيمن علي- مكتبة الشروق -القاهرة - الطبعة الأولى - (٢٠٠٠م) .

(٢) روجيه غارودي يُحاكم بسبب مناقشة قضية تاريخية في إطار حرية البحث العلمي، وسلمان رشدي الذي يطعن في ديانة أكثر من مليار مسلم يُستقبل من طرف الرئيس الأمريكي، ورئيس الوزراء البريطاني، وهوالشخص الذي لم يكن يسمع به أحد؟ كيف يتأتى لنا أن نمرر هذه المفارقة لأجيال الصاعدة، كي يقبلها الوجدان الجريح.

يخشون من فتح النقاش أصلا خوفا من أن يؤدي إلى فضح الكثير من الأسرار، والتغطية على المجازر الأبشع التي ارتكبت في الحروب العالمية وفي غيرها[١] وتابعوا الرجل في القضاء حتى هزموه، وكذلك فعلوا مع المؤرخ الإنجليزي ديفيد إرفنج، وبعض هؤلاء لم يشكك لا في الواقعة ولا في الأرقام والأعداد، ولكنه أخذ على الصهاينة استغلالهم للحدث، لتبرير كل ما يقدمون عليه من أعمال غير إنسانية في حق العرب والفلسطينيين، فكل ما يريدونه هوالوفاء" للضحايا" وعدم استغلال ذكراهم في قضاء مآرب دنيئة، وكأنهم يغلقون الباب أصلا لمن يشكك في الحدث، وفي كل ما يتعلق به، وهوبذلك يؤكدونه بأقوى مما يفعله من يناور به ويستغله.

لقد تفنن هذا القوي في اختراع الأعداء، واستغلالِ ذلك الاختراع في تحقيق ما يصبوإليه، من عقاب بالحصار أوبالحرب، كما برع في صناعة «الطابوات» التي تلامس المحرم دينيا، ومن هنا سمى فينكلنشتاين نورمن كتابه بصناعة الهولوكوست» :Finklestein Norman: the Holocaust Industry وتحدث عن المتاجرة بها أيضا، ومما قاله في هذا المجال: «لا أستطيع السماح لأحد باستغلال عذابات والديَّ والمتاجرة بهما مهما كان الهدف من ذلك.» علما بأنه يهودي، وقد تعرض والداه للاعتقال.

ومما كشفه من هذه الصناعة الجالبة للتأييد والمبررة لكل المظالم أن «... التسويق المخطط لصناعة الهولوكوست بلغ درجة أن الهولوكوست النازية - حسب قول الباحث - هي المرجع التاريخي الأوحد تقريبا الذي يتجاوب

---

(١) يقول جارودي في هذا المجال: «إنها كارثة إنسانية - يقصد المحرقة - ولكنها مع الأسف لم تكن بلا سابقة، ذلك أن هتلر طبق على البيض ما طبقه الاستعمار الاستيطاني الأوروبي، طيلة خمسة قرون، على الملونين، ولنبدأ بالهنود الحمر، حيث أُبيد منهم ستون مليون إنسان، من أصل ثمانين مليون، ماتوا بسبب الأعمال القسرية الشاقة، والأوبئة التي فتكت بهم أكثر مما فتك السلاح، أما في إفريقيا فقد هُجِّر عشرون مليون إفريقي إلى أمريكا، كان النخاسون يقتلون عشرة أفارقة، كي يتمكنوا من احتجاز إفريقي واحد، وهكذا نجد أن تجارة الرقيق الأبيض كلفت إفريقيا من مائة إلى مائتي مليون قتيل، لكن الخرافة حملت العالم كله مهمة الحديث عن «أكبر عملية إبادة في التاريخ، كانت هذه الخرافة تلائم المستعمرين الأوروبيين أيضا، فهي تحول الأنظار عن جرائمهم - استئصال الهنود الحمر، تجارة الرقيق الأبيض، استعباد الأفارقة - كما تمحوأعمال ستالين القمعية الهمجية..» روجيه غارودي-الخرافات المؤسسة للسياسة الإسرائيلية - دار هومة - الجزائر - ص: ١٤٨)

معه طلاب الجامعات الأميركية اليوم، حيث تشير الاستطلاعات إلى أن عدد الأميركيين الذين يمكنهم أن يعينوا هوية الهولوكوست يفوقون أولئك الذين يمكنهم أن يعينوا حادثة بيرل هاربور أوقصف اليابان بالقنابل النووية.»[١]

كما أن «معاداة السامية» التي كانت ورقة تُشهر في وجه كل من ينتقد سلوكا أوتصرفا للدولة العبرية، قد غدت قانونا وقعه الرئيس الأمريكي الرئيس الأمريكي جورج بوش، وذلك «لإحصاء الأعمال المعادية للسامية حول العالم، وتقويم مواقف الدول من هذه المسألة، هذا القانون كان الكونغرس قد مرره وبغالبية الأصوات بناء على طلب من النائب اليهودي توم لانتوس، وبدعم من عدد آخر من القادة اليهود، وهويطالب وزارة الخارجية الأميركية بإدراج كافة الأنشطة والممارسات التي تنتقد أوتتعرض لليهود في أي بقعة من بقاع الأرض ضمن تقرير سنوي حول حقوق الإنسان.»[٢]، وهذا يعني أن من يتعرض للكيان الإسرائيلي فقد تعرض لليهود، وأساء إلى السامية، مع أن العرب أيضا ساميون، وبهذا يكون الساميون اختُصروا في اليهود، واليهود اختصروا في «دولة إسرائيل» مع أن بعض اليهود غير راضين عن قيام دولة لليهود أصلا.

وبهذا القانون يكون الاتجاه إلى تجريم كل من يتجرأ على المراجعة قد «وصل إلى ذروته» وليس بقانون فابيوس[٣] رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق، كما اعتقد الدكتور المسيري، وهومعذور في ذلك، إذ لم يكن يدور في خلده أن يصل القمع في هذه المسألة إلى هذه الدرجة.

إن شريعة القوة هي التي تسود منذ أمد بعيد، ويزداد القوي شراسة وشراهة كلما ازداد ضعف الضعيف، وبخاصة في الظرف الذي تتمحض فيه القوة للظلم، ألم يقل تشومسكي: « ... إن أضعف الدول وأفقرها هي

---

(١) (البيان الإماراتية في عرض موجز للكتاب - الإثنين ١٩ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ ٢٩ يوليو٢٠٠٢ -العدد ٢٢١
(٢) (عن موقع: aljazeera.net)
(٣) هذا القانون تبناه النائب الفرنسي الشيوعي «جيسو» ويحرم هذا القانون التشكيك في الجرائم المقترفة ضد الإنسانية، وهوالذي حوكم بموجبه روجيه غارودي: عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ - دار الشروق - ١٩٩٧- ص: ٩٧)

التي تستثير الهستيريا العظمى للولايات المتحدة.»[١]

إن الانفراد بالهيمنة والصدارة هما اللذان يمنعان التدافع ، ويضيِّقان على الآخرين هوامش المناورة ، ولا تكتفي هذه القلة من البشر بالاستئثار بالقوة حتى تضيف إليها الثروة، لإحكام طوق النفوذ على باقي البشر.

إن هذا التوصيف من قبل الضعيف تزداد صدقيته حين يقول به غربي لا يعاني من عقدة الاضطهاد، ولا من هاجس نظرية المؤامرة، وعناوين بعض الكتب تشير إلى أن عقدة التفوق عند الغرب تتحكم في سياسته، ومع ذلك تعلق الجناية بالضعيف، ويُتهم برفض الآخر، ورفض الحوار معه، وهذه العقدة ليست مسألة تاريخية حتى يقال بضرورة تجاوزها ونسيان الماضي، بل تُرى ماثلة للعيان، في أكثر من بلد عربي يعاني من الاحتلال، ومن أبشع ممارساته، وعلى الهواء مباشرة، لتزداد عقدة الاضطهاد، تتوارثها أجيالنا جيلا بعد جيل، ولا يكتفي القوي بممارسة تفوقه، حروبا يشنها على الضعيف (هوالمسلم تحديدا)، في عصر العولمة وما بعد الحداثة، ولا يكتفي بأن يدع قوانين العولمة - إن كان لها قوانين، وبعضهم يتردد بين كونها عولمة أوأمركة، ألم يقل روزفلت: «إن أمركة العالم هي مصير وقدر أمتنا؟»[٢] تفعل فعلها، وتنشر فكرها، وتعلي قيمها، بل يسخِّر قوته لتعديل مناهج هذا الضعيف، التي يعتبرها من أسباب تمرده عليه، وعلى قيمه.

يشير الباحث الإنجليزي توماس ماك إفيلي، Thomas MC Evilley في كتابه: «الهويات الثقافية في أزمة» إلى «أن الهوية الثقافية الغربية ذاتها تعاني من أزمة تعود إلى عامِلَين: أوَّلُهما كونها مسكونة بعقدة التفوُّق

---

(١) نعوم تشومسكي - ما الذي يريده العم سام - ص: ٢٦

(٢) «..لم يكن جون فايسك - فيلسوف التاريخ - هوأول من عبر عن طموح الولايات المتحدة مجسدا في رسالتها الخالدة التوسعية، وإنما عبّر عنها آخرون من رجال الدولة والزعماء السياسيين، مما يؤكد أنها جزء من ثقافة اجتماعية سائدة، وإن صيغت الرؤية في عبارات متباينة، ذلك أن فكرة: الأمريكيون هم شعب الله المختار عبّر عنها صراحة توماس جيفرسون في خطابه الرئاسي الأول عام١٨٠١، وسبقه أيضا جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة، إذ قال في خطاب رئاسته: إنه موكل بمهمة عهدها الله إلى الشعب الأمريكي..»: شوقي جلال-العقل الأمريكي يفكر-مكتبة مدبولي- القاهرة -٢٠٠٠م ص: ٢٢٧)

والاستعلاء على ما سواها من الهُويات الثقافية الأخرى، وثانيهما أن هذا الاستعلاء يتمازج مع إحساسَيْن شقيَّيْن: إحساس بذنب مقترف في حق دول العالم المُستعمرَة سابقا، (وحاليا؟) وما ترَتَّبَ عنه من آثار سيئة على ثقافاتها، وإحساس بما أدَّت إليه الحداثة، من خلال مظاهرها المتجلية في التقدم العلمي التكنولوجي والصناعي، من إخلال بالقيم الأخلاقية لتلك الثقافات»[1] ومن إخلال بالبشر أيضا.

إن الإحساس بالقوة وعقدة التفوق هذه - المرتبطة بالحضارة الغربية نفسها-هي التي تقود إلى نفي وإعدام الآخر، وحمايةُ وجود إسرائيل وأمنها ما هوإلا تكفير عن محاولات الإبادة والإبعاد، واليهود يعلمون ذلك ويوظفونه لصالحهم، يقول المسيري: « .. ولكن العنصر الحاسم في تصورنا في ظهور النزعة الإبادية هوالرؤية الغربية الحديثة للكون، وهي رؤية يمكن وصفها بإيجاز شديد بأنها رؤية مادية واحدية، تعود جذورها إلى عصر النهضة في الغرب، وقد اتسع نطاقها وازدادت هيمنتها إلى أن أصبحت النموذج التفسيري الحاسم مع منتصف القرن التاسع عشر، عصر الإمبريالية والداروينية والعنصرية...»[2]

ويقول جارودي: «أعطى الغرب الاستعماري منذ خمسة قرون - والعرض مستمر - مثال التطرف الأكثر فتكا، وهوالادعاء بامتلاك الثقافة الوحيدة الحقيقية، الدين العالمي الوحيد، نموذج التنمية الوحيد، مع نفي أوتدمير الثقافات الأخرى، الديانات الأخرى، النماذج الأخرى للتنمية.»[3]

لا يعني سعينا لكشف هذه الموانع إحكام إغلاق الأبواب من جانبنا على أي نقاش أوحوار، أوالتمهيد لإعلان الرفض المسبق، أمام عوائق يتعسر التسلل من بينها لإثبات العكس، وإبداء حسن النية، فالحوار في ثقافتنا

---

(١) (عبد الرزاق الدواي - الحوار بين الثقافات: الأخلاقيات والشروط الغائبة - المركز العربي للدراسات المستقبلية - (mostakbaliat.com).

(٢) أيمن علي- تقرير لوشتر - ص:١٤ نقلا عن المسيري: ص: ٢٦ .

(٣) (روجيه جارودي - حفاروالقبور- دار الشروق - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٩٩ - ص:٢٢) .

حقيقة وممارسة، بل مبدأ ومنهج، قبل أن يكون وسيلة تُسلك إذا تجاوب الخصم أوالمنافس، أوتغلق حين يدبر أويصر على الخصومة.

وبالرغم من كل هذه العوائق المشار إليها فلا مناص من الإقرار بجدوى الحوار والعدل مع الأغيار، والمبدأ في ذلك قول الله تعالى: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...**﴾ [**العنكبوت**: ٤٦] وقوله ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [**المائدة**: ٨]

صحيح أن طوائف منا «تركز على نقاط الخلاف بيننا وبين الآخرين، وتضخمها تضخيما مضاعفا، مع أن الإنسان محكوم بالنسبية، ونقاط الخلاف عندما تُنسب إلى نقاط الاتفاق تأخذ حجمها الطبيعي، وعند إهمال نقاط الاتفاق تصبح نقاط الخلاف وحدها في الصورة، وتعمل عملها في تشويه الصورة حتى تصبح قاتمة تماما.»(١)

لكن إغفال الواقع وإهمال تلك العوائق يضعنا مع المخالف أمام طريق مسدود، فالجامعي الأمريكي إذا أراد أن يحاور وهو محمّل بقناعة تاريخية - كقناعته حول المحرقة - قد يدمجها مع قناعاته الدينية، أويرقى بها إلى مصاف القضايا التي يُمنع حولها النقاش: لا يمكن الذهاب معه في النقاش بعيدا.

والمتشبع بالرؤية الإسرائيلية للصراع يصعب أن يُفتح معه نقاش حول قضية فلسطين، وحين تحتضن مراكز الدراسات في أمريكا أوبعضها الرواية الصهيونية، وترهن السياسة الأمريكية ضمن هذه الرؤية أوالرواية:فمعنى أن ذلك أن فرص الحوار الحقيقي تضيق جدا أوقد تكاد تنعدم.

يقول عبد الرزاق الدواي: «لم يعُد خافيا، أن أشهر هؤلاء المُنظرين الغربيين المعاصرين، لا يترددون اليوم، في التصريح جهرا بأن المنتمين إلى الحضارة العربية الإسلامية بصفة خاصة، مُعادون في جوهرهم لقيم

---

(١) (عبد الحليم أبوشقة - نقد العقل المسلم: الأزمة والمخرج - دار القلم -الكويت - الطبعة الأولى - ٢٠٠١- ص ١٩٧-١٩٨).

الحداثة، بسبب تطرُّفهم وميلهم الطبيعي إلى العنف، وبالتالي فالصراع ضدهم واقع وحتمي لا محالة، وفي هذا السياق عاد المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما، في مقال له حديث العهد، ليُكَرِّرَ القول إن «الإسلام هوالحضارة الوحيدة التي ما زالت عصية على الاحتواء الغربي وعلى «الحداثة»، وعلى نفس المنوال والنغمة، يعزف مفكر أمريكي آخر ذائع الصيت، هوصامويل هنتجتون، ويكتب «إن الصحوة الإسلامية هي رد فعل ضد الحداثة والتحديث والعولمة.»[١]

إن المشاعر الإنسانية نفسها قد ترجح كل ما عداها، ولن نعدم عاقلا هنا، أوحرا هناك، وبالرغم من ضخامة أحداث سبتمبر الشهيرة، وما جلبته للعرب والمسلمين من إهانات وتضييق، وانتهاك لبعض الحقوق طال الحياة الأمريكية نفسها، فإن بعض التعاطف الذي لقيه البعض منهم في خضم موجة الكره يقضي على التعميم المتبع، ويوجّه إلى ضرورة التفريق والتمييز.

إن بعض المثقفين تعلوأصواتهم بنقد السياسات الجارية، في الغرب عموما، وفي أمريكا على وجه الخصوص، وهؤلاء هم الذين ينبغي أن تقام معهم الجسور، وأن تُفتح معهم قنوات الحوار.

بعض الغربيين يملكون أفقا واسعا، وصدرا رحبا يتسع للحوار، ولا يضيقون بالمخالف، وقد يقرون بالخطأ، فهؤلاء أقرب إلينا من بعض من يرفع لواء العلمانية من أبناء جلدتنا، يخاصم بها بني جلدته، ويقاطع بها الدين والتراث، ولا يحتمل أن يُناقَش أوأن يُخالَف.

هناك تزمت يمنع الحوار، ويسد أبوابه، وهناك أيضا "تحلل" من الدين يأبى أصحابه أن يلتفتوا إلى الآخر، ولاإشكال في البحث عن كلمة سواء، نلتقي فيها مع الآخر المتعقل، تظللها أجواء السماحة والاعتدال، يقل المسيري:".. . وإنني كمسلم ليس عندي إشكال مع العلمانية الجزئية، وإنما إشكاليتي

---

(١) (عبد الرزاق الدواي – الحوار بين الثقافات: الأخلاقيات والشروط الغائبة – المركز العربي للدراسات المستقبلية – mostakbaliat.com

الرئيسية مع العلمانية الشاملة، التي تُسقط القيمة وتتمحور حول المادة، إضافة إلى دعوتي لاكتشاف القاعدة الأخلاقية المشتركة بين الأديان والاتجاهات الإنسانية في الغرب، التي تتمثل في حركات مناهضة العولمة وأحزاب الخضر وبعض الاتجاهات الإنسانية الفلسفية، الذين اكتشفوا أن الكرة الأرضية غير قادرة على تحمل الحداثة الداروينية التي تقودها أميركا.»[١]

لقد برزت طائفة من الكتاب الغربيين، والأمريكيين على وجه الخصوص تنقد التطرف في الجانب الآخر، ويعتبر نعوم تشومسكي من أشد الفاضحين للسياسات الأمريكية-قديما وحديثا- والذي يطالع مقالاته وكتبه يخرج بانطباع أن هذه السياسات الحالية ليست إلا نتاجا طبيعيا لفكر وسلوك يعتمد على القوة، وينتهج أساليبها في الهيمنة والسيطرة على الآخرين، وأن سلوك الإدارة الأمريكية اليوم - من خلال المتدينين والمحافظين الجدد-ما هوإلا استمرار لنهج ثابت بغطاء إيديولوجي.

بل صرح الرجل بهذا الأمر حين قال في ندوة أقامتها جامعة مانشستر البريطانية السبت ٢٢-٥-٢٠٠٤: «إن السياسة الخارجية الأمريكية الحالية لا تختلف كثيرا عن تلك السياسات التي انتهجتها الإدارات المتعاقبة منذ الأربعينيات...» وأضاف: « ... إن سر اختلاف الإدارة الأمريكية الحالية يكمن فقط في أن سياستها غبية ومتكبرة ومعلنة، هذا هوكل الفرق»[٢] مشيرا إلى أنها تتعامل مع العالم من منطلق أنها القوى العظمى الوحيدة في العالم، خاصة بعد زوال الاتحاد السوفيتي السابق.

ثم وجدت أن الرجل يذهب أبعد من ذلك حين يصف ثقافة الشعب الأمريكي ذاتها بالتطرف، فيذكر أنها «.. واحدة من أكثر الثقافات الأصولية الدينية تطرفا في العالم، ولا أقصد هنا ثقافة الدولة، بل الثقافة الشعبية.»[٣]

---

(١) حوار في صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ: ٠٥-٠٣-٢٠٠٤ .

(٢) عن موقع: (islamonline.net الإلكتروني).

(٣) نعوم تشومسكي - الحادي عشر من أيلول: الإرهاب والإرهاب المضاد -ترجمة: ريم منصور الأطرش - دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى - ٢٠٠٣- (ص:٤٢) .

وقد حملت إلينا الأخبار أن رئيس مجلس الكنائس الإنجيلية في ألمانيا- فولفغانغ هوبارت حذّر من تنامي نفوذ المسيحيين اليمينيين المتعصبين في الولايات المتحدة، وقال إنهم يعطون شرعية لحسم النزاعات والخلافات بالعنف وقوة السلاح، وما حدث في العراق دليل واضح على خطهم السياسي المتطرف.. وحسب متابعته للأوضاع فان التيارات المسيحية المتطرفة هي التي تنموفي الولايات المتحدة على حساب استقرار الكنائس الأميركية، والسبب في ذلك أن تمرير التوجهات المتطرفة والأصولية أسهل في ظل مجتمعات معقدة، عدا عن ذلك فان كلمة الأصولية مرجعها أميركي ويعود إلى عام ١٩١٥، يومها كانت تروج مجموعة مسيحية متعصبة على صفحات صحيفة تحمل اسم The Fundamentals أفكارها وتوجهاتها وتحديد من هوالمسيحي الحقيقي.»(١)

إن مما تشير إليه هذه النقول هوالبساطة والغباء في الإدارة الأمريكية، وما ذهب إليه أخيرا بوب هربرت بصحيفة النيويورك تايمز يُعدّ أصرح وأخطر، فقد قال: « .. ومثلما هي الحال بالنسبة للعصابات التي يشكلها بعض الشباب، يكون الإخلاص هوكل شي، بالتأكيد، الفارق الكبير هوأن إدارة بوش أخطر بكثير من أي عصابة مراهقين..» وأضاف: « .. مع مراقبتي للنتائج الكارثية التي ترتبت عن سياسات بوش، لا في العراق وحسب بل داخليا أيضا، أشعر بالصدمة لدرجة عدم النضج التي تتمتع بها هذه الإدارة، بغض النظر عن عمر المسؤولين المعنيين فيها، وكأنما الأطفال فيها قد استولوا على دفة القيادة ودفعوا الراشدين فيها لمغادرة مناصبهم.»(٢)

قد يتوجب علينا أن نقرأ لهؤلاء، وأن ندفع الأجيال للوقوف على إنتاجهم، ليس بغرض الترف أوالتفكه، أو«للتضلع» من الكره للآخر، وإنما بهدف الإلمام بما يكتبه الأحرار عن مجتمعاتهم، فهم أدرى بمداخلها

---

(١) عن موقع: (إيلاف الإلكتروني - ١٦-١١ -٢٠٠٤).
(٢) صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ :٢١-١١-٢٠٠٤ .

ومخارجها، وأدعى لأن يُسمع منهم، ويُقرأ لهم، وبغرض الاجتماع على كلمة سواء يُضغط بها على الفكر المتشدد أيا كان مصدره، وعلى اعتراض طريق المطامع التي يسعى القوي دوما لاقتناصها والظفر بها.

الحضارة الإسلامية وجريمة العبث بالتاريخ

اعداد:
محمد سعيد رمضان البوطي

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله. وبعد:

بين يدي الآن محاضرة ألقاها أنطوني ليك، مستشار الرئيس الأمريكي السابق كلينتون، لشؤون الأمن القومي، في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأوسط، بحث فيه عن شيء مما تتهم به الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي عموماً، على ألسن القادة الأمريكيين اليوم، فلم أجد في كلامه إلا نقيض ما نسمعه من خَلَفَ كلينتون اليوم.

وعدت إلى مذكرات كيسنجر، وهو اليهودي الذي لم يخف عاطفته اليهودية يوماً، وإن كان، ولا يزال، يدعي عدم التزامه بمذهبه الديني، فلم أجد فيها شيء مما يؤيد التُّهَمَ العجيبة التي تلصق بالإسلام وحضارته، في البيت الأبيض اليوم.

وبحثت هنا وهناك مطولاً عن كلمة «الإرهاب» التي غدت هي حيثية الحكم على الإسلام بالإعدام. فلم أجد لها ذكراً قط.

إنني أفهم كيف يتطور المستقبل من حال إلى حال .. ولكني لا أفهم كيف يتطور الماضي هو الآخر، بعد أن جمدت واستصلبت وقائعه، وأغلق عليها في مخزن التاريخ.

بالأمس كانت الحضارة الإسلامية، فيما يؤكده البيت الأبيض، علمية في نشأتها، إنسانية في غايتها. واليوم: كانت الحضارة الإسلامية همجية في نشأتها، عدوانية في غايتها، فيما يؤكده المصدر ذاته!..

تلك هي المصيبة الكبرى التي تحيق بالتاريخ، عندما يغدو ورقة يتقاذفها فيما بينهم تجار السياسة وسماسرتها. وإني لأجزم بأنه ليس في الجرائم كلها ما هو أشنع من جريمة توظيف التاريخ لخدمة أطياف السياسة، واستنطاقه بما يهواه تجارها، على اختلافهم في المذاهب والأهداف.

عندما أخرج صموئيل هنتنجتون كتابه «صدام الحضارات» كان طيف السياسة الأمريكية يقتضي آنذاك تكذيبه فيما اتهم به الحضارة الإسلامية وتاريخ الإسلام. فلما وقعت حادثة ١١ أيلول عام ٢٠٠١ اختلف الأمر، فقد اقتضى اللون الجديد للسياسة الأمريكية تصديقه في كل ما زعم!..

وهكذا نشهد كيف آلت الحقيقة في عصرنا إلى وهم، لا يجسّده إلا قوالب السياسة والأهواء المتصارعة .. بل إننا لنشهد كيف حلت " الذرائعية " محل قدسية الصدق الذي يجب أن يسري بين اللسان والواقع، وكيف انتصرت نبوءة وليم جيمس المبشرة بإخضاع الحقيقة الكونية للرغبة بدلاً من إخضاع الرغبة لها(١).

ترى ما الفائدة المرجوة إذن من بيان الحقيقة والدفاع عنها ؟ وفيم الخوض إذن في الحديث عن الحضارة الإسلامية وتاريخها وموقع الحرية الإنسانية فيها ؟

ألم تُذَوَّبِ الحقيقة أياً كانت في أسيد السياسة ؟

والجواب أننا لا نطمع في حديثنا عن الحقيقة والكشف عنها، بتحويل أنظار ساسة الغرب الأمريكي إليها، وتبصيرهم بها. ولكنا نرمي من وراء التنبيه إليها وإقامة البراهين على وجودها، أن لا ينخدع الأغرار من أبناء جلدتنا بالغيوم السياسية الداكنة التي تمتد على صفحتها. إن في هؤلاء الأغرار من أنستهم الصراعات السياسية وقائع التاريخ ووضعتهم منها أمام البدائل الكاذبة.

وعلى كل، فإن كان في الناس اليوم من يركلون التاريخ بأقدامهم في سبيل السياسة، فإن قدسية الحقيقة تدعونا إلى أن نركل السياسة في سبيل الإبقاء على حقائق التاريخ.

يقول التاريخ: إن نسيج الحضارة الإسلامية إنما تكامل من خلال

---

(١) انظر كتاب (إرادة الاعتقاد) لوليم جيمس، تجد فيه المنهج الفكري للسياسة الأمريكية.

الالتزام بتعاليم الدين الإسلامي بدءاً من عقائده، إلى عباداته، فسائر شرائعه وأحكامه.

فكيف تم انتشار الإسلام ديناً، في الأقطار والمجتمعات المترامية الكثيرة، التي تتفيأ اليوم ظلال الإسلام، حتى أعقبها على إثر ذلك ظهور ما يسمى بحضارة الإسلام؟ وهل كان لسياسة القسر والإرغام أثر في ذلك؟

إن الذي يجيب عن هذا السؤال، معنى التكليف الذي خاطب الله به عباده عن طريق الرسل والأنبياء. وقد عرف العلماء التكليف بأنه توجه الخطاب من الله بالأمر والنهي إلى عباده(١).

ولا بد لتوجه هذا الخطاب إليهم من توفر العناصر التالية:

أولاً: الإعلام الذي هو ثمرة توجه خطاب الله إلى الإنسان. إذ لولاه لما تحقق لدى الإنسان العلم بأنه مكلف، ومن ثم لما استقر لديه أي موجب من موجبات التكليف.

ثانياً: التمكن من القيام بالمطلوب، تصوراً وفهماً في المعتقدات، وممارسة سلوكية في التروك والأفعال.

ثالثاً: توفر الخيار لدى الإنسان في أن يستجيب أو لا يستجيب للأمر الصادر إليه من الله عز وجل. ذلك لأن الانقياد للأمر لا يكون إلا عن طواعية ورضا. فمن لم يدرك أنه يتمتع بالحرية، أي القدرة الذاتية على أن يستجيب أو لا يستجيب للأمر الصادر إليه، فإن معنى الاستجابة أو عدمها للتكليف لا يمكن أن يتحقق فيه(٢).

إذن فمن الثابت أن التكاليف التي خاطب الله بها عباده، لا تتأتى الاستجابة لها إلا في مناخ الحرية التامة إذ يملكها الإنسان، إذ هي التي تشعره بأنه متمكن من أن يفعل أو أن لا يفعل ما طلب منه.

ومن هنا يتجلى الفرق بين ما يسميه العلماء بأوامر الله التكوينية

---

(١) أصول الدين للبغدادي : ٢٠٧ .

(٢) انظر تفصيل القول في هذه العناصر شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع لابن السبكي: ١/ ٤٠ .

وأوامره التكليفية. فالتكوينية منها هي المقرونة بالخلق المباشر دون وساطة اختيار في نفس المأمور، كسائر إبداعات الله الكونية وكسلسلة مخلوقاته في عالم الجماد والنبات والحيوانات.

أما التكليفية منها فهي التي اتجهت من الله تعالى إلى الثقلين الإنس والجن، تخاطب في كل منهما وعيه، من خلال القوة التي بثها فيه والاختيار الذي متعه الله به .. وذلك كي يكون انقياده لأوامر الله تعالى مقروناً باختيار ذاتي منه يستأهل عليه الأجر إن أحسن ويستحق العقاب إن أساء.

ونظراً إلى هذا الفارق الكبير بين كل من أوامر الله التكليفية والتكوينية، فقد كانت أوامره التكوينية كلها منفذة على أتم وجه دون عصيان، على حين تواجه أوامره التكليفية اختيارات المكلفين ورغباتهم، فمن خاضع مستجيب لها، ومن متأبٍّ عليها معرضٍ عنها. ذلك لأن طبيعة الأولى قائمة على الإجبار والتسخير، ولأن طبيعة الثانية قائمة على الاختبار والامتحان؟.

فما الحصيلة التي ننتهي إليها من بيان هذه الحقيقة؟

إنها تتمثل في أن عنصر الحرية لا بد أن يصاحب دائماً واقع التكليف، وإن إدراك هذه الحقيقة ذو أهمية كبرى.

إذن فمهمة الداعي إلى الله (والدعوة إلى الله جذع الجهاد ومصدر تنوعاته وأحكامه) أن يبصّر الناس بهوياتهم وبأنهم مكلفون من قبل الله بأداء واجبات ووظائف محددة في نطاق الاعتقاد أولاً والسلوك ثانياً، وأن يتركهم بعد ذلك أحراراً في اتخاذ القرار الذي يشاؤون، على أن نذكرهم بعقاب الله الذي ينذر به المستكبرين والجاحدين.

ذلك لأنهم لو سيقوا إلى الانقياد لأوامر الله قسراً، لما استحقوا على هذا الذي سيقوا إليه أي مثوبة من الله عز وجل، إذ لا يدخل سلوكهم القسري في معنى الدينونة لله عز وجل.

ومن هنا ندرك أن قول الله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [**البقرة**: ٢٥٦] جملة

خبرية وليست كلاماً إنشائياً كما يظن البعض. إذ معناه: لا يتأتى الإكراه على الدينونة الحقيقية لله عز وجل، إذ هي لا تتحقق إلا طوعاً. ومن المعلوم إن إخبارات الله تعالى لا يتأتى فيها النسخ، كيف وإن نسخ البيان الخبري لا بد أن يكون نتيجة خطأ أو كذب، وكلاهما يستحيل على الله عز وجل.

وانطلاقاً من هذا القرار الإعلامي في هذه الآية، يحدد الله وظيفة رسوله صلى الله عليه وسلم في أمر الدعوة التي بعث بها، بالوقوف عند حدود الإبلاغ والتذكير وإقامة الحجج وإزالة الشبهات، دون أن يتجاوز شيئاً من ذلك إلى أي قسر أو إكراه. يتجلى هذا التحديد في مثل قوله تعالى: ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ** ﴾ [**الغاشية**: ٢١] وقوله: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ** ﴾ [**الشورى**: ٤٨].

فإذا تقرر هذا فلنتذكر أن الجهاد القتالي ليس إلا متفرعاً عن واجب الدعوة إلى الله وحماية الأوطان والحقوق، مقيداً بالمعنى الذي ذكرناه وضمن الحدود التي بينها الله عز وجل. أي إن الجهاد القتالي لم يكن يوماً ما سعياً إلى إكراه الناس على الإسلام، وإلا لناقض الفرع أصله. وشريعة الله مبرأة من ذلك.

وكتاب الله يفيض بالأدلة الناطقة بذلك. ومن أجلاها هذا الأدب الإنساني الرفيع الذي ألزم الله به رسوله وأصحابه، تقريراً لحرية الاختيار والرأي، وذلك أثناء معمعة القتال. إذ يقول الله عز وجل: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾ [**التوبة**: ٦]. إن من الواضح أن الجهاد القتالي، لو كان مشروعاً لإرغام الناس على الإسلام، لجاء الكلام في هذه الآية متهافتاً مع مبدأ القسر والإرغام. وجل بيان ربنا سبحانه وتعالى عن أن يلحقه خلف أو تهافت.

ولقد استقصيت وقائع الجهاد القتالي الذي التحم فيه المسلمون مع غيرهم، منذ صدر الإسلام إلى أواسط العصر الذهبي للحضارة الإسلامية،

فلم أجد إلا أحد دافعين حمل المسلمين عليه: درءاً لبغي واقع، أو قضاء على خطة لبغي متوقع.

أما الإسلام فقد شهد تاريخه الغابر، كما يشهد واقعه اليوم، أنه إنما سلك سبيله إلى العقول قناعة ويقيناً، ثم إلى القلوب تعلقاً وحباً. ولا أعلم أن بلدة أو قرية أو محلة في غابر التاريخ أو حاضره، أرغم أهلها على الإسلام وهم له كارهون .. وقد علمنا أن الحضارة الإسلامية هي الثمرة التي لا بد أن تحملها شجرة الإسلام حيثما وجدت، وأينما استُنْبِتَتْ، ذلك لأن الحضارة إنما هي ثمرة التفاعل الذي يتم بين الإنسان والكون والحياة .. وهل الإسلام في مضمونه إلا المنهج الأمثل الذي يرسمه القرآن للتفاعل الذي يجب أن يتم ما بين الإنسان والكون والحياة، فكيف يتصور أن يصادم الإسلام نفسه أو أن تصادم الحضارة الإسلامية ذاته ؟

نعم .. لقد ضاقت ذرعاً قيادات وجماعات في عهود شتى بالإسلام وهديه، ولاحقت الدعوة الإسلامية القائمة على المسالمة والحوار، بالمحاربة والتضييق، وتوجست خيفة من ضياء الحضارة الإسلامية الذي لا بد أن ينتشر في أعقاب بزوغ فجر الإسلام، فآثرت تلك القيادات من جانبها المقاومة والصدام .. ولكن المسلمين القائمين بأمر الدعوة إلى الإسلام والتعريف به لم يرغموا أحداً على عقيدة أو دين. وإنما وقفوا موقف الدفاع عن حرية الكلمة وقدسية الحوار. فكانت عاقبة ذلك أن انتعش الإسلام وأشرقت حضارته؛ لا من خلال قهر وصدام، بل من خلال التلاقي، فالتعارف، في ساحة الحرية والحوار.

وإن لنا في قصة انتشار الإسلام، فالحضارة الإسلامية، في بقاع آسيا وأوربا، خير شاهد يجسد هذه الحقيقة ويؤكدها .. هل في الناس من قال: إن الحضارة الإسلامية فرضت نفسها هناك بالقهر والصدام؟.. بل هل في المؤرخين من قال: إن قطرة دم واحدة أريقت في بلدان جنوب شرقي آسيا، أو في ربوع إسبانيا، بين يدي تحرر هذه الثانية من ظلمات التخلف الأوربي،

ويقظتها على أشعة شمس الإسلام؟

وهل في المؤرخين من يجهل أن الحضارة الإسلامية لم تكن حيث ظهرت وانتشرت إلا مائدة تفيض بكل ما يغذي الإنسانية ويمدها بأسباب الرفاهية والمعرفة، يدعى إليها المسلمون وغير المسلمين على السواء؟

هاهو التاريخ يحدثنا أن غرناطة التي اعتنقت الإسلام عن طواعية وحب، كان فيها ما لا يقل عن خمسين مشفى تستقبل المسلمين والنصارى واليهود على السواء، دون أي امتياز أو تفريق .. وكان فيها ما لا يقل عن عشرين جامعة ومعهداً للعلوم المتنوعة، تعج بالمسلمين وغيرهم على السواء ..

وفي الوقت الذي كانت ليالي أوربا غارقة في الظلام، وكانت أزقتها مفروشة بالوحل، كانت جدران الشوارع والأزقة في غرناطة وما حولها تتألق بالمصابيح الثابتة عليها، وكانت أزقتها وشوارعها مفروشة بالحجارة الملساء، كان الناس كلهم: مسلمين ونصارى ويهوداً يتفيئون ظلال هذه الحضارة الإسلامية، وينعمون بثمارها دون تفاوت أو تمييز.

إذن فإن كلمة الإرغام والقسر، أو الصدام، أو التربص، كانت غريبة ولا تزال عن قاموس الحضارة الإسلامية. إنها كانت ولا تزال إنسانية في جذورها الراسخة وأغصانها الصاعدة، وثمارها العامة للجميع.

ربما قيل إن هذا الوضع المجامل لغير المسلمين إنما كان في أوربا، حيث الكثرة الغالبة من النصارى واليهود .. ولعل الأمر لم يكن على هذه الشاكلة، من التعامل مع غير المسلمين، في البلاد العربية حيث مشرق الإسلام .. إذن فلنصغ إلى ما يذكره جل المؤرخين عن الواقع التاريخي في هذه البلاد.

يروي ابن عساكر وزيني دحلان، في كتابه (الفتوحات الإسلامية) أن الكثرة الغالبة من سكان القدس وسكان سورية الطبيعية، ظلت ممن ينتمون إلى الديانة المسيحية، فلما وقعت الحروب الصليبية أصبح المسلمون على أعقابها هم الكثرة الغالبة.

وسبب ذلك أن الغزاة الصليبيين خيّروا المسيحيين العرب بين الوقوف مع بني دينهم الوافدين أو الوقوف مع بني قومهم المسلمين. ونظراً إلى أن الكثرة الساحقة فيهم اختاروا الحل الثاني، فقد دارت دائرة السوء عليهم، وغدا الغزو الصليبي وبالاً على المسيحيين العرب بمقدار ما كان وبالاً على المسلمين، من حيث كان المفروض أنه سيكون لصالحهم. وهذا هو السبب الذي جعل المسلمين هم الكثرة الغالبة في ديار الشام(١).

أليس في هذا الواقع ما يجيب عن هذا السؤال المطروح بأبلغ بيان؟

ما الذي جعل المسيحيين العرب في القدس والشام وما حولها يقفون مع بني قومهم المسلمين في خندق واحد ضد بني دينهم الصليبيين، لو لم تكن صلة ما بين أولئك المسيحيين وبني قومهم المسلمين قائمة على أحسن ما يمكن أن يُتصور من حسن الجوار ورعاية الحقوق وامتداد جسور البر والتعاون بين الجماعتين؟!..

ثم ما الذي قضى ببقاء المسيحيين هم الكثرة الغالبة إلى أن بدأت سلسلة الحروب الصليبية، في ظل الإسلام المهيمن بنظامه وحكمه، لو لم يكن الإسلام حارساً على حرية الاعتقاد آمراً بالتلاقي على ميزان العدل والمساواة، ساهراً على حقوق الجميع أن تكون محفوظة عن الحيف والانتهاك؟..

إذن، هذا هو تاريخ حضارتنا الإسلامية الغابرة، وهذا هو واقعها المشرف الحاضر. فإن كانت الخطط الكيدية التي تواجهنا اليوم من الصليبية المتهودة، تهدف إلى ملاحقة الإسلام فالحضارة الإسلامية بالتضييق ثم الخنق، فإننا لنعلم مما ينطق به التاريخ ومنطق الأحداث أن هذا ليس أول مرة نُرِي العالم كله منا وجه المكرمة والتعاون الإنساني، دون تفريق ولا تمييز، ويرينا الغرب منه وجه الإرهاب والعنف.

---

(١) بوسعك أن تطلع على هذا الواقع فيما كتبه كثير من المؤرخين المسلمين من أمثال ابن عساكر وزيني دحلان، ولكن يطيب لي أن أحيلك في وصف هذا الواقع وتأكيده إلى كتاب (من يحمي المسيحيين العرب ؟) لفيكتور سحاب صفحة: ١٣و١٤ وصفحة ١٩و٢٠ .

إذا كان في عزم الغرب الأمريكي أو غيره أن يعلن الحرب على إسلامنا وحضارته، فذلك شأنه، وطبيعي أن يتخذ من الإرهاب الذي يمارسه الأداة المسخرة له، ولربما أمكنته قوته المتميزة وسلطته القاهرة من الوصول إلى بعض ما يريد .. ولكننا نجزم بأنه لن ينال أي نجاح في أن يلبسنا ثوب إرهابه هذا، وفي أن يرمينا بدائه الذي يرعب العالم به، ليحاكمنا فيحكم علينا بالجرم الذي هو ضالع فيه.

وبعد فإني لا أكشف سراً إن قلت: إن ما نفاجأ به في هذه السنوات الأخيرة، من تهمة الإرهاب التي ألصقت بنا وبإسلامنا على حين غرة، إنما هو وقود يراد إشعال المنطقة العربية بواسطته، ليصار من ذلك إلى إيقاد حرب عالمية جديدة تنطلق من بؤرة المشكلة العراقية والفلسطينية، ثم تُوسَّع، ثم تُستجر إليها مواقع أوربية، أملاً في القضاء على المشروع المعروف بـ«أورو - آسيا» الذي يسعى كل من أوربا وآسيا سعياً حثيثاً إلى إنجازه، والذي يهدف فيما يهدف إلى إنشاء شبكة من الطرق البرية السريعة بين أوربا من جهة وكل من الصين واليابان من جهة أخرى. ومن شأن هذا المشروع إن تم أن يستولد في العالم كتلة اقتصادية عظمى متحررة من النفوذ الصهيوني وربما من الهيمنة الأمريكية أيضاً.

ولكن ما الذي يدبره الله؟ بل ما الذي دبره في مكنون غيبه؟ هذا ما ستكشف عنه الأيام، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

صفحة أبيض

الموقف الإسلامي
من
نزعة صراع الحضارات

تقديم:

د. محمد عمارة مصطفى عمارة

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

١- سبع ملاحظات:

في بداية الحديث عن طبيعة العلاقة بين الحضارات وهل هي حوار.. وتعارف.. وتفاعل.. وتعايش؟ أم صراع.. وصدام؟ لابد من التنبيه على عدد من الملاحظات ومنها:

١- أن حديثنا هذا سينصب - أساساً - على العلاقة بين الحضارة الغربية وبين الحضارة الإسلامية فذلك هو المشكل الملح والمطروح على دوائر الفكر في الحضارتين معاً - الآن ومنذ قرون - وهو الذي يدور حوله الجدل وتعقد له المؤتمرات بل والذي نعاني من تداعياته وآثاره في الممارسة والتطبيق.

٢- أن حديثنا عن الغرب والحضارة الغربية لابد أن يميّز - في هذا الغرب - بين مكونات أساسية ثلاث:

- فهناك «الإنسان الغربي» ولا مشكلة لحضارتنا الإسلامية مع هذا الإنسان.. ولا مشكلة لهذا الإنسان الغربي مع حضارتنا الإسلامية.. بل إن هذا الإنسان الغربي عندما تُعرض عليه قضايانا العادلة، بل وديننا الإسلامي، عرضاً موضوعياً ومنطقياً، كثيراً ما يتفهمها بل ويفتح لها عقله وقلبه.. وما تزايدُ انتشار الإسلام في الغرب - رغم العقبات المتزايدة - إلا دليل على ذلك.
- وهناك «العلم الغربي» وخاصة في جوانبه الطبيعية والدقيقة والمحايدة وتطبيقات هذه العلوم وتقنياتها - وحضارتنا الإسلامية - ككل الحضارات - تسعى للتتلمذ على هذا العلم الغربي، كما حدث ذلك في طور نهضتنا الإسلامية الأولى.. وكما حدث للغرب عندما تتلمذ على حضارتنا الإسلامية - في هذه العلوم - إبان النهضة الأوربية الحديثة.. فالحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها..

ومن العلوم والمعارف ما هو «مشترك إنساني عام» كالماء والهواء، ليس له وطن، ولا تحده حدود.

- أما المكوّن الثالث من المكونات المتمايزة في الحضارة الغربية، والذي يثير الإشكالات ويمثل التحديات في هذا الموضوع - موضوع طبيعة العلاقة بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية - فهو «مشروع الهيمنة الغربية» الساعي تاريخياً - إلى استعمار العالم الإسلامي - ضمن سعيه للسيطرة على كل العالم - فمؤسسات هذه الهيمنة الغربية الاقتصادية.. والسياسية.. والدينية.. والفكرية.. والثقافية.. والإعلامية - هي التي تمارس تاريخياً - نهج الصراع والصدام مع كل الحضارات غير الغربية.. وهي قد مارست وتمارس هذا النهج الصراعي مع حضارتنا الإسلامية منذ ظهور الإسلام.. حتى ليقول القائد الإنجليزي - والكاتب - الجنرال «جون ناجوت» (جلوب باشا) [١٨٩٧-١٩٨٦م]: «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»!! أي أن مشكلة الهيمنة الغربية مع الشرق الإسلامي قد بدأت بظهور الإسلام.

٣- أن مشروع الهيمنة الغربي هذا، إنما يبتغي من وراء هيمنته - أولاً وقبل كل شيء - الاستيلاء على الأرض لينهب الثروات.. ثم هو يتوسل بالأفكار والعقائد والفلسفات و«الايديولوجيات» وبالدين لتغليف مقاصده «الإمبريالية» ولإقناع شعوبه كي تضحى في صراعاته الاستعمارية لتحقيق هذه الأهداف.. كما يتوسل بالفلسفات و«الايديولوجيات» لتغريب عقولنا.. وأحياناً بالدين لتنصير شعوبنا.. ليس فقط لكراهيته لديننا وعقائدنا وفلسفاتنا، وإنما لأن إسلامنا ومنظومة القيم والمبادئ والأفكار التي أفرزها الإسلام هي الرابط الذي يوحد أمتنا، والباعث المحرض على مقاومة المسلمين لمشروع الهيمنة هذا بقيم الحرية، والعزة، والجهاد، والتميّز الحضاري، والاستقلال الوطني.

٤- أن الجهد الفكري الذي يبذله العقل المسلم في هذا الميدان - ميدان العلاقات الصحية بين الحضارات - يجب أن يتوجه أساساً على الإنسان الغربي - الذي هو ضحية للنزعات الأيديولوجية التي تفرزها المؤسسات الفكرية والدينية لمشروع الهيمنة الغربي - تلك «الأيديولوجيات» التي كونت - على مر تاريخ العلاقة بين الغرب والإسلام - مخزوناً من «ثقافة الكراهية السوداء» للإسلام وأمته وحضارته.. فنحن مطالبون بالحوار الموضوعي والصبور مع الإنسان الغربي، لتوضيح موقفنا الحقيقي من طبيعة العلاقات التي يجب أن تسود بين الحضارات - وبين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية على وجه الخصوص - وذلك لتحرير عقل هذا الإنسان الغربي من سجن «ثقافة الكراهية السوداء» للإسلام وحضارته، تلك التي أشاعتها مؤسسات الهيمنة الغربية عبر قرون طويلة في المجتمعات الغربية. كما أننا مطالبون بفتح نوافذ فكرنا هذا - حول موقفنا من طبيعة العلاقة بين الحضارات - على الحضارات غير الغربية - وخاصة حضارات الشرق والجنوب الصينية.. والهندية.. واليابانية.. وذلك لإقامة قدر من التساند بين حضارتنا وبين هذه الحضارات.. التي تعاني، هي الأخرى، بشكل أو بآخر في علاقاتها بالغرب.. وذلك خروجاً من المأزق الذي أراده ويريده مشروع الهيمنة الغربية.. مأزق عزلنا عن هذه الحضارات لمصارعتنا أولاً.. ثم الدوران عليها للخلاص منها بعد ذلك، والانفراد بالهيمنة على العالم كله. فالجهد الفكري الذي يبذله العقل المسلم في هذه القضية، يجب أن يتوجه إلى الإنسان الغربي أولاً.. وإلى دوائر الفكر والثقافة والسياسة في الحضارات الشرقية أيضاً.

٥- أن إمكانات التساند المتاحة أمام حضارتنا الإسلامية - في معركة التصدي لمشروع الهيمنة الغربي، وممارساته المعاصرة لصراع الحضارات - ليست قائمة وموجودة فقط في حضارات الشرق والجنوب.. بل إن لنا في قطاعات واسعة من الفكر الغربي أنصاراً قد أبدعوا في إنصاف

الإسلام وحضارته إبداعات عظيمة، هي شهادات شهود من أهل تلك الحضارة الغربية، يجب أن نتوسل بها لتحرير عقل الإنسان الغربي من «ثقافة الكراهية السوداء» الموجهة نحو الإسلام.. فلربما كانت هذه الكتابات الغربية المنصفة للإسلام وحضارته أفعل في إزالة الأوهام الفكرية التي سادت المجتمعات الغربية - إزاء الإسلام - لعدة قرون[1].

٦- أن ترتيب البيت العربي والإسلامي، والبدء بإقامة قواعد الحدود الدنيا والضرورية للتضامن والتكامل في ميادين: الاقتصاد.. والثقافة.. والتشريع.. والتعليم.. وكذلك الترتيب والتعظيم «لأوراق» الإمكانات والطاقات الطبيعية والبشرية في وطن العروبة وعالم الإسلام.. وبعث الحياة والحيوية في منظماتنا الإقليمية: الجامعة العربية..ومنظمة المؤتمر الإسلامي هو واحد من أمضى أسلحة تصحيح صورة ديننا وأمتنا وحضارتنا في عيون الآخرين.. وفعالية هذا السلاح أقوى بكثير من مئات - بل وآلاف - المؤتمرات التي تعقدها لتحسين الصورة، ولصد طوفان «ثقافة الكراهية السوداء» الذي يصبه الغرب الاستعماري على الإسلام والمسلمين.

إن ترتيب البيت العربي والإسلام، وتعظيم الإمكانات المادية والبشرية للمسلمين، هو الذي سيجبر مؤسسات الهيمنة الغربية على إعادة النظر في طموحاتها وأطماعها المجنونة للسيطرة على عالم الإسلام ومن ثم يجبرها على التقليل من معدل الاندفاع على طريق الصراع والصدام.. الأمر الذي يعدّل - ولابد - في الخطاب الغربي تجاه الإسلام.

٧- إننا يجب أن نتخلص من وهم النظر إلى «نزعة صدام الحضارات» التي دار الحديث حولها كثيراً، منذ مقال «صامويل.ب. هانتجتون» سنة ١٩٩٣م باعتبارها مجرد: «معركة فكرية» بين دعاة حوار الحضارات وبين الداعين لصدامها.. ذلك أن هانتجتون لم يكن في مقاله الذي تحول إلى

---

(١) انظر كتابنا : (الإسلام في عيون غربية : بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء) طبعة القاهرة - دار الشروق سنة ٢٠٠٤م.

كتاب داعياً ومبشراً بصدام الحضارات وإنما كان في حقيقة الأمر كاشفاً عن الواقع التاريخي لصدام الحضارات كما تمثل في علاقة المغرب بالإسلام ثم كان مع ذلك مشيراً على صاحب القرار الأمريكي أن يحيد الحضارات غير الإسلامية ويبدأ صراعه مع حضارتنا ثم مع الحضارة الصينية الكونفوشيوسية ليعود بعد كسر شوكتيهما إلى احتواء الحضارات الأخرى المستعصية على الأمركة والتغريب.

فصدام الحضارات هو فكر يعبر عن واقع ويبرر للممارسات القائمة ومن ثم فإن الوقوف فيه عند أطروحات «هانجنتون» و«لافوكوياما» - حول «نهاية التاريخ» هو اجتزاء بعزل فكر هذا الطور المعاصر لهذه النزعة الغربية عن جذورها التاريخية والحديثة.. كما أن الوقوف في رؤية «ممارسات» هذه النزعة الغربية عند مآسي الواقع المعاصر في فلسطين.. والعراق.. وأفغانستان.. وأمثالها هو اجتزاء بعزل هذه الممارسات والمآسي المعاصرة عن سابقاتها وجذورها التاريخية.

٢- الممارسات الغربية لصراع الحضارات:

فعلى مستوى «ممارسات» الغرب إزاء الشرق يجب أن يعي العقل المسلم أن الغرب قد مارس الصراع والصدام والهيمنة - أو سعى إلى ذلك وحاوله - على امتداد سبعة عشر قرناً من جملة قرون تاريخ الاحتكاك بيننا وبينه - البالغة أربعة عشر قرنا!!.

لقد احتل الغرب - الإفريقي.. والروماني.. والبيزنطي - الشرق، وقهره سياسياً ودينياً وحضارياً.. ونهبه اقتصادياً، عشرة قرون من «الأسكندر الأكبر» [٣٥٦ -٣٢٣ق.م] في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى «هرقل» [٦٧- ٦٤١م] في القرن السابع للميلاد عندما ظهر الإسلام، وحررت فتوحاته الشرق من هذا الاستعمار الغربي القديم.

ومنذ ذلك التاريخ، بدأت في الفكر الغربي - الديني.. والسياسي..

والثقافي - نزعات تشويه الإسلام، والافتراء على رسوله - صلى الله عليه وسلم - والازدراء بشعوبه وحضارته..وذلك لشحن الوجدان الغربي «بثقافة الكراهية السوداء» التي تحرض على إعادة اختطاف الشرق من الإسلام.

فكانت دعاوى الغرب أن المسلمين إنما يعبدون ثالوثاً!! هو:

١- أبو للين APOLLIN

٢- وتير فاجانت TERVAGANT

٣- ومحمد MOHMED(١)

وأن «محمداً - صلى الله عليه وسلم - كان رجلاً عاش حياة داعر، وتجاوز خبثه كل حدود الدناءة والانحطاط.. ولم يتورع خيالهم عن الادعاء بأن رسول الإسلام كان في الأصل كاردينالا كاثوليكيا، تجاهلته الكنيسة في انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفة ملحدة في الشرق انتقاماً من الكنيسة.. واعتبرت أوربا المسيحية، في القرون الوسطى محمداً المرتد الأكبر عن المسيحية، الذي يحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية!»(٢).

أما أكبر فلاسفة الكاثوليكية - القديس «توما الأكويني» [١٢٢٥-١٢٧٤م] فإنه يتحدث عن رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - فيصوره للثقافة الكاثوليكية بقوله:

«لقد أغوى محمد الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية.. وحرّف جميع الأدلة الواردة في التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التي كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالته إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون في البادية»!!(٣).

أما رأس البروتستانتية «مارتن لوثر» [١٤٨٣- ١٥٤٦م] فهو القائل عن القرآن الكريم:

---

(١) هوبرت هيركومر، وجير نوث روتر: (صورة الإسلام في التراث الغربي) ص ٢٥، ٢٦، ترجمة : ثابت عبد الكريم، د. محمد عمارة، طبعة القاهرة، دار نهضة مصر، سنة ١٩٩٩م.

(٢) المرجع السابق. ص ٢٣، ٢٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٢، ٣٣.

«أي كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن، الملئ بالأكاذيب والخرافات والفظائع؟!!

وهو القائل عن رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم -:

«إنه خادم العاهرات وصائد المومسات!!.. وعلى القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزاد المسيحيون عداوة له، وايضاً ليقوى إيمانهم بالمسيحية! ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم في الحرب - ضد الأتراك - ويضحوا بأموالهم وأنفسهم»!!(١).

هكذا تأسست في الثقافة الأوربية أكاذيب الكراهية السوداء، ضد الإسلام وكتابه ورسوله عليه الصلاة والسلام.. على الرغم من التكريم والتعظيم الذي جاء به الإسلام عن رموز النصرانية وغيرها من الشرائع السماوية!!..

أما صورة شعوب الأمة الإسلامية في هذه الثقافة الغربية، فإنها تلك التي صنعتها الخيالات المريضة والمغرضة.. وأشاعتها بين العامة والدهماء بواسطة الملاحم الشعبية.. وبنص عبارة المستشرق الفرنسي «مكسيم رودنسون» [١٩١٥-٢٠٠٤م] :

«فلقد حدث (في نظر الأوربيين في مطالع العصور الوسطى) تحّول في القوى والأقسام البعيدة من الشرق، وقام شعب هائج (هم العرب أو الراسنة) (البدو)، عُرف بالسلب والنهب.. قام هذا الوباء الموجع فأجتاح وضرب أراض واسعة وانتزعها من قبضة المسيحية...

كما حدث أن الكتاب اللاتين الذين أخذوا بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٤٠ على عاتقهم إشباع حاجة الإنسان العامي، يوجهون اهتمام العامة نحو حياة محمد، دون أي اعتبار للدقة، فأطلقوا العنان «لجهل الخيال المنتصر».. فكان محمد - في عرفهم - ساحراً، هدم الكنيسة في أفريقيا وفي الشرق

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١.

عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية.. فهو كبير آلهة الراسنة.. والصنم الرئيسي في الثالوث الذي يعبده المسلمون.. تصنع تماثيله من مواد غنية وذات أحجام هائلة»!!(١).

وغير شهادة «مكسيم رودنسون» تشهد المستشرقة الألمانية «سيجريد هونكة» على فظاعة الصورة التي صنعها الغرب للعرب والمسلمين ودينهم ورسولهم – صلى الله عليه وسلم – ليشحن بها وجدان العامة في الصراع ضد حضارة الإسلام.. فتقول:

«لقد استقر في أذهان السواد الأعظم من الأوربيين: الازدراء الأحمق الظالم للعرب، الذين يصمهم – جهلاً وعدواناً – بأنهم:

رعاة الماعز والأغنام، الأجلاف، لابسو الخرق المهلهلة.. عبد الشيطان، ومحضّروا أرواح الموتى، والسحرة، وأصحاب التعاويذ وأعمال السحر الأسود، الذين حذقوا هذا الفن، واستحوذ عليهم الشيطان، تحرسهم فيالق من زبانيته من الشياطين، وقد تربع على عرشهم الصنم الذهب «لماهومد» «مخيميد»، وقد ركعت تحت أقدامه قرابين بشرية، يذبحها أتباعه قرباناً وزلفى إليه».

فهم خلق غريب، غير متحضرين، متطفلون على الحضارة الهللينية الإغريقية، مستبعدون من العالم الهلليني، وأقصى القول: هؤلاء المحمديين الدنيئين: أنهم ديدان صغيرة.. وسفلة أوغاد.. أعداء الله.. وأعداء المسيح، لأنهم يعبدون الدرك الأسفل من الشياطين.. وعالمهم هو عالم الخرافات والأساطير.. وبلادهم بلاد الأضاحي البشرية من أجل صنم ذهب، اسمه محمد، تسهر على سلامته عصبة من الشياطين..»!!!(٢).

---

(٦) مكسيم رودنسون : (الصورة الغربية الدراسات العربية الإسلامية) بحث منشور بكتاب (تراث الإسلام) بإشراف " شاخت " و " بوزورث " القسم الأول، ص ٢٧، ٢٨، ٣٤، ٣٥، ترجمة د. محمد زهير السمهوري، تعليق وتحقيق : د. شاكر مصطفى، مراجعة د. فؤاد زكريا، طبعة الكويت سنة ١٩٧٨م.

(٧) سيجريد هونكة : (الله ليس كذلك) ص ٨، ١٢، ١٣، ١٤، ١٩ / ٢٣. ترجمة : د. غريب محمد غريب. طبعة القاهرة، دار الشروق، سنة ١٩٩٥م، و(العقيدة والمعرفة) ص ١٦١، ١٦٢، ٩٩. ترجمة : عمر لطفي العالم، طبعة دمشق، دار قتيبة، سنة ١٩٨٧م.

تلك هي الصورة التي صنعتها مؤسسات الهيمنة الغربية للإسلام وأمته ورسوله وعالمه، وشحنت بها - كما تقول المستشرقة الألمانية «سيجريد هونكة» - «أذهان السواد الأعظم من الأوربيين».

وهي صورة لا تزال بقاياها حية في الكتب المدرسية الأوربية والغربية.

وفي الإعلام الغربي حتى القرن الواحد والعشرين!.

وإذا كانت الملاحم الشعبية قد مثلت في العصور القديمة - ما يمثله الإعلام في عصرنا الأوسع في الانتشار والأشد في التأثير.. فإن «ملحمة رولاند» التي نظمها الشاعر القسيس «كونراد» «ريجنز بورج» سنة ١٣٠٠م قد أشاعت في أذهان الجماهير الأوربية لعدة قرون الصورة التي تصف المسلمين بأنهم:

الشعب الذي لا يُروى تعطشه لسفك الدماء، والذي لعنه رب السماء، فهم كفرة وكلاب.. وخنازير فجرة.. وهم عبدة الأصنام التي لا حول لها ولا قوة.. لا يستحقون إلا أن يُقتلوا وتطرح رممهم في الخلاء، فهم على جهنم بلا مراء.

وفي هذه الملحمة، يخاطب الشاعر القسيس الشعب المسلم، فيقول:

«إن فحمت.. قد أرسلني إليك لأطيح رأسك عن كتفيك، وأطرح للجوارح جثتك، وأمتشق برمحي هامتك، ولتعلم أن القيصر قد أمر أن كل من يأبى أن تعمده الكنيسة، ليس له إلا الموت شنقاً، أو ضرباً، أو حرقاً.. فهم جميعاً دون استثناء حزب الشيطان اللؤماء، خسروا الدنيا والآخرة، وحل عليهم غضب الله، فبطش ربهم روحاً وجسداً، وكتب عليهم الخلود في جهنم أبداً»!![1].

تلك لمحة خاطفة من «ثقافة الكراهية السوداء» التي صنعتها وأشاعتها مؤسسات الهيمنة الغربية للإسلام ورسوله وأمته، في صراعها الصليبي ضد عالم الإسلام والحضارة الإسلامية.

وإذا كانت الإمبريالية الغربية.. في العصر الحديث، قد ورثت الأطماع الاستعمارية الغربية في ثروات الشرق، فإنها قد توسلت في صراعها ضد

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤.

الإسلام وحضارته بالكثير من الأكاذيب التي صنعها أسلافها الصليبيون للإسلام والمسلمين.

ويشهد على ذلك المستشرق الفرنسي «مكسيم رودنسون» فيقول:

«لقد كانت الظاهرة التي لعبت الدور الأكبر في تحديد طبيعة النظرة الأوربية إلى الشرق، وخصوصاً بعد منتصف القرن التاسع عشر، هي الإمبريالية.. وكان من المحتم أن يؤدي ذلك إلى تشجيع التمركز حول الذات، وهي صفة طبيعية في الأوربيين، كانت موجودة دائماً، ولكنها اتخذت الآن صبغة تتسم بالازدراء الواضح للآخرين».

لقد نسب المبشرون - (المنصرون - الأوربيون) - نجاحات الأمم الأوربية إلى الدين المسيحي، مثلما اعزوا إخفاق العالم الإسلامي إلى الإسلام، فصورت المسيحية، على أنها بطبيعتها للائمة التقدم، وقرن الإسلام بالركود الثقافي والتخلف، وأصبح الهجوم على أشد ما يكون، وبعثت حجج العصور الوسطى بعد أن أضيف إليها زخارف عصرية.. وبفضل الصحافة والأدب الشعبيين وكتب الأطفال، أخذت هذه النظرة تتسرب إلى عقول الجماهير الغفيرة من الأوربيين، ولم تخل من تأثير على العلماء أنفسهم، وخصوصاً حين كانوا ينبرون لتقديم النصح إلى أولئك الذين كانوا يوجهون سياسات الحكومات الاستعمارية»(١).

هكذا ورثت الإمبريالية الغربية - في صراعها مع حضارة الإسلام - أكاذيب العصر الصليبي.. وغدا هذا الميراث الكاذب «علماً» يقدمه «العلماء» الذين خدموا وزارات المستعمرات، لأساطين السياسة الاستعمارية الغربية في العصر الحديث.. عصر العلم والعقلانية والتنوير!!.

ومع «مكسيم رودنسون» يشهد على ذلك، العالم الإنجليزي «نونتجمري واث» عندما يقول:

لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة (موده) تقديم القرآن للقارئ

---

(١) مكسيم رودنسون: (السورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية) مصدر سابق، ص ٨٣، ٨٦.

الأوربي باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية، بالإضافة لقليل من الزيادة المحددة. ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة.

والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التي سادت فترة الحروب الصليبية، عندما كان على أوربا الغربية - التي كانت ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام - أن تقوى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام»(١).

وهكذا استمر التزييف الثقافي سلاحاً غربياً في الصراع الحضاري الغربي ضد الإسلام، عبر تاريخ هذا الصراع.. ويشهد على ذلك طوفانه الذي انهال على الإسلام وأمته وحضارته، بصحبة الحرب الصليبية - الإمبريالية الجديدة»، التي شنت على الإسلام وعالمه، عقب قارعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م في أمريكا.

لقد صنعت أوربا - في عصورها الوسطى - كل ذلك الافتراء على الإسلام ورسوله وقرآنه وأمته وحضارته، لتأجيج نزعة الصراع وثقافة الصدام التي تشحن الوجدان الغربي، وتجيش الجيوش للحملات الصليبية [٤٨٩ -٦٩٠هـ - ١٠٩٦ - ١٢٩١م] - التي دامت قرنين من الزمان - والتي لم تفلح لغتها الدينية في إخفاء مطامعها المادية ومقاصدها الاقتصادية.. حتى في خطاب البابا الذهبي «أوربان الثاني» [١٠٨٨ - ١٠٩٩م] - الذي أشعل تلك الحروب - والذي وجهه إلى فرسان الإقطاع اللاتين وقال فيه:

«يا من كنتم لصوصاً كونوا الآن جنوداً.. لقد آن الزمان الذي فيه تحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن.. هي في حق الله عينه.. وليست هي لاكتساب مدينة واحدة.. بل هي أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزائنها العديمة الإحصاء!

---

(١) منتجمري واث: (الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر) ص ٩٨. ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. طبعة القاهرة - مكتبة الأسرة - الهيئة العامة للكتاب.

فاتخذوا لحجة القبر المقدس، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبنا وعسلاً.. ومدينة.. أورشليم هي قطب الأرض المذكورة، والأمكنة المخصبة المشابهة فردوساً سماوياً.

أذهبوا وحاربوا البربر - [يقصد المسلمين] - لتخليص الأراضي المقدسة من استيلابهم..ابقوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية - [مفاتيح الجنة التي صنعها لهم البابا!!] - واكتسبوا بها لذواتكم خزاين المكافآت السماوية الأبدية. فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم، فالملك الشرقي يكون لكم قسماً وميراثاً..

وهذا هو الحين الذي فيه أنتم تفون عن كثرة الاغتصابات التي مارستموها عدوانا.. ومن حيث أنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلماً، فاغسلوها بدم غير المؤمنين [أي المسلمين]»(١).

لقد أعطى البابا الذهبي «الفرسان اللصوص» مفاتيح الجنة ليحاربوا المسلمين، وليغسلوا أيديهم المصطبغة بالدماء في حروبهم الإقطاعية يغسلوها ويطهروها بدماء المسلمين.. وليمتلكوا كل أقاليم آسيا الخصبة، التي تدر لبنا وعسلا، والتي تشبه - في الخصب - فردوسا سماويا..وذات الخزائن التي تعز على الإحصاء!!!.

هكذا غلفت «ثقافة الكراهية السوداء» - الصليبية - الأطماع الاستعمارية، في الصراع الغربي ضد الإسلام وحضارته وعالميته.

ولم تنته هذه : النزعة الصراعية «لدى مشروع الهيمنة الغربية بهزيمة الجيوش الصليبية، وإزالة قلاعها الحربية وكياناتها الاستيطانية من الشرق الإسلامي [٦٩٠هـ - ١٢٩١م] وإنما استمرت في صور متعددة: صليبية.. وإمبريالية فمنذ إسقاط «غرناطة» في سنة ٨٩٧هـ/ يناير سنة ١٤٩٢م..

---

(١) مكسيموس مونروند: (تاريخ الحروب المقدسة في الشرق، المدعوة حرب الصليب) المجلد الأول، ص ١٣، ١٤ ترجمة : مكسيموس مظلوم، طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.

بدأت حملات الالتفاف حول العالم الإسلامي، تمهيداً لضرب قلبه - الوطن العربي - لاحتواء عالم الإسلام..

فكرس ستوفر كولمبس [١٤٥١ - ١٥٠٦م] بجمع الذهب من «الدنيا الجديدة» القارة الأمريكية يتطلب من البابا «اسكندر السادس» [١٤٩٢ - ١٥٠٣م] تجييش «خمسين ألفاً من الجنود المشاة / وخمسة آلاف فارس، لفتح الديار المقدسة»[١].

كما يطلب - هذا الذي نعلمه لأبنائنا باعتباره مجرد مكتشف جغرافي !!.. يطلب من ملكي أسبانيا الصليبيتين، اللذين اقتلعا الإسلام من الأندلس، واجتثا جذوره بالقتل والحرق والتنصير.. يطلب «كولمبس» من «فرديناند» [١٤٧٩ - ١٥١٦م] و«إيزابيلا» [١٤٧٤ - ١٥٠٤م] تجييش حملة صليبية لانتزاع بيت المقدس من جديد.. فهدفه - كما قال - «هو فتح الديار المقدسة، خلال ثلاث سنوات، لاسترداد الضريح المقدس بمدينة القدس»[٢].

و«فاسكو دي جاما» [١٤٦٩ - ١٥٢٤م] بعد التفافه حول إفريقيا يذهب لمحاربة المسلمين على شواطئ الهند [٩١٠هـ - ١٥٠٤م] معلناً: «إننا جئنا لهدفين اثنين : المسيحية.. والتوابل»!!

و«ماجلان» [١٤٨٠ - ١٥٢١م] الذي تُعلّم الثقافة المغشوشة أبناءنا أنه مجرد رحالة ومكتشف جغرافي - هو الذي قُتل على شواطئ الفلبين [٩٢٧هـ - ١٥٢١م] وهو يحارب المسلمين.. لتبدأ منذ ذلك التاريخ حلقات تنصير الفلبين المسلمة، والتي كانت عاصمتها «مانيلا» اسمها يومئذ «أمان الله».

ثم تأتي حملة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على مصر والشرق [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] لتبدأ مسلسل ضرب قلب العالم الإسلامي.. وهو المسلسل الذي تتبدل في مراحله القيادات والامبراطوريات الغربية مع بقائه حلقات متوالية ومتصلة في هذه الممارسات الصراعية الغربية ضد عالم الإسلام وحضارته.

---

(١) أحمد عبد المعطي حجازي : صحيفة (الأهرام) - القاهرة في ٢٨-٤-٢٠٠٤م.

(٢) د. حاتم الصحاوي: (وثيقة نادرة: بعد غرناطة جاء دور القدس) - مجلة (العربي) الكويت - عدد ٥٣٢ - مارس ٢٠٠٣م.

٣- وفي العصر الحديث:

إذن.. فنحن أمام تاريخ غربي قديم لإنكار الآخر الديني.. والحضاري.. وللتمركز حول الذات.. وأمام مخزون رهيب من «ثقافة الكراهية السوداء» يغلف ويبرر للممارسات الصراعية الاستعمارية الغربية ضد الشرق الإسلامي.

ولسنا بإزاء مجرد «بدعة» اخترعها مفكر يهودي اسمه «صامويل هانتنجتون» كما يريدوننا أن نتصور المثقفون المتغربون.

فقبل «هانتجنتون» بأكثر من قرن ونصف من الزمان.. كتب المستشرق الإنجليزي «باركر» (سير ارنست) Sir Ernest Barker [١٨٧٤ - ١٩٦٠م] عن تجذّر هذه النزعة الصدامية في علاقات الغرب بالإسلام.. ورجوعها إلى تاريخ ظهور الإسلام.. فقال:

«إن الصدام الذي حدث بين بيعة الغرب المسيحية وشعوبه ومدنيته وبين دين الإسلام ومدنيته وشعوبه هو من أعظمها وأكبرها خطراً، وربما جاز لنا القول إنه بدأ بهزيمة» هرقل «[٦١٠- ٦٤١م] (أول الصليبيين) في موقعة اليرموك (٦٣٦م) أمام قوات الخليفة عمر بن الخطاب»!!

فالصدام الصليبي مع الإسلام بدأ - برأي «باركر» منذ ظهور الإسلام وتحريره الشرق من هيمنة الرومان.

ثم يتحدث «باركر» عن استمرارية هذا الصدام بين الحضارتين.. بل ويتساءل: هل له نهاية؟! فيقول:

«لكن من يدلنا على تاريخ نهاية ذلك الصدام؟! لقد كان في وقت من الأوقات دينيا بالدرجة الأولى، وفي وقت آخر ذا مسحة سياسية غالبة. كان نضالاً بين شعوب مختلفة.. ولكنه بقي على الدوام صراعاً مختلطاً اشتركت فيه حضارتان بصورة رئيسية. وكانت الحروب الصليبية صفحة من صفحات ذلك النزاع، بدأت في سنة ١٠٩٦ وانتهت في سنة ١٢٩١ إذا ما حددنا ختامها بفقدان الصليبيين آخر معقل مسيحي في أرض صوريا. أما إذا نظرنا إلى

الآثار المتخلفة عن بواعث الحروب الصليبية، فقد يصح لنا القول إنها استمرت حتى ظهور الملاحة البرتغالية واكتشاف كولمبس العالم الجديد»[١].

فبواعث هذا الصراع وهذا الصدام - الذي بدأ بظهور الإسلام - مستمرة كما يقول «باركر» حتى الغزوة الصليبية التي بدأت بإسقاط غرناطة.. وهي الغزوة التي لا يزال العالم الإسلامي يواجه تحدياتها حتى هذه اللحظات!!

وفي «مؤتمر كولورادو» الذي انعقد بأمريكا سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م لتنصير كل المسلمين تعلن المؤسسة الدينية البروتستانتية عن تجذّر تناقضاتها وعدائها للإسلام.. فتقول:

«إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً..ونحن بحاجة إلى مئات المراكز لفهم الإسلام، ولاختراقه في صدق ودعاء!! ولذلك لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين !! وإنه بينما يوافق المنصرون على أن التحول إلى دين آخر لا يجب ولا يمكن أن يتم بالقوة فإنهم مازالوا يشعرون أيضاً بأننا ينبغي أن نجبرهم على الدخول في النصرانية!!

ولكي يكون هناك تحول إلى النصرانية، فلابد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس - أفراداً وجماعات - خارج حالة التوازن التي اعتادوها وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعي المتدني وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية! ولذلك فإن تقديم العون لذوي الحاجة قد أصبح أمراً مهماً في عملية التنصير! وإن إحدى معجزات عصرنا أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل

---

(١) باركر: (الحروب الصليبية) - بحث منشور بكتاب (تراث الإسلام) - بإشراف أرنولد - ص ٧٩، ترجمة : جرجس فتح الله - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

التنصيري، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى!!»[1].

هكذا أعلنت المؤسسة البروتستانتية الغربية: إنه لابد من «اختراق الإسلام في صدق ودعاء لتنصير كل المسلمين، وطي صفحة الإسلام من الوجود، اعتماداً على «معجزات الكوارث المصنوعة» حينا وبالقوة في حين آخر.

أما المؤسسة الكاثوليكية.. فلقد رفعت في الربع الأخير من القرن العشرين شعار: «أفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م».

فلما خيب الله آمالها، ولم تتحقق أطماعها،، أخرت تاريخ تنصير إفريقيا إلى سنة ٢٠٢٥م!!

وإمعاناً في «أدبيات» النزعة الصراعية الغربية إزاء الإسلام وحضارته يعلن الكاردينال «بول بوبار» مساعد بابا الفاتيكان، ومسؤول المجلس الفاتيكاني للثقافة:

«أن الإسلام يشكل تحدياً بالنسبة لأوروبا والغرب عموماً وأن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيراً ضليعاً لكي يلاحظ تفاوتاً متزايداً بين معدلات النمو السكاني في أنحاء معينة من العالم، ففي البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكاني بشكل تدريجي، بينما يحدث العكس في البلدان الإسلامية.. وفي مهد المسيح، يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجاً بشكل ما؟!

إن التحدث الذي يشكله الإسلام يكمن في أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، في حين أن المسيحيين في أوربا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع ويتناسون الصيام الذي يفرضه عليهم دينهم، وفي الوقت نفسه ينبهرون بصيام المسلمين في شهر رمضان»[2].

ويأتي الكاردينال «جاكومو بيفي» أسقف مدينة بولونيا بإيطاليا ليعلن

---

(١) (التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامي) - أبحاث ومناقشات مؤتمر كولورادو ص ٤٥٢، ٢٢، ٢٣، ٢٧٧، ٢٤٢، ٨٢٦، ٨٢٧، ٤٦٩، ٣٦٤، ١٤٧. طبعة مالطا سنة ١٩٩١م.

(٢) من حديثه إلى صحيفة «الفيجارو» الفرنسية - والنقل عن صحيفة (الشرق الأوسط) لندن في ١-١٠-١٩٩٩م.

في رسالته يوم ١٣-٩-٢٠٠٠م : إنه لا تعايش بين المسيحية والإسلام:

فإما أن تتحول أوربا إلى مسيحية فوراً، وإلا ستكون إسلامية مؤكداً(١)

فلما جاء الرئيس الأمريكي - والمفكر الاستراتيجي - «ريتشارد نيكسون» في ثمانينات القرن العشرين - إذا به - في كتابه (الفرصة السانحة) يذكرّنا بفاسكو دي جاما (١٤٦٩- ١٥٢٤م) الذي أعلن - في القرن السادس عشر الميلادي - أن أهداف الغرب في الشرق هي «المسيحية» و«التوابل»!.. جاء نيكسون في أواخر القرن العشرين ليعلن: «إنه ليس لنا في الشرق إلا البترول وإسرائيل».

«وأن الأصوليين المسلمين» الذين يحركهم حقدهم الشديد ضد الغرب، مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضي، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وينادون بأن الإسلام دين ودولة، وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار».

وهو يدعو كل الغرب الأمريكي والأوربي.. البروتستانتي والكاثوليكي والأرثوذكسية الروسية إلى التحالف ضد هذه الأصولية التي تريد بعث الحضارة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، وجعل الإسلام منهاجاً ضد هذه الأصولية التي تريد بعث الحضارة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، وجعل الإسلام منهاجاً شاملاً لكل ميادين الحياة.

ثم يدعو هذا الغرب إلى مناصرة العلمانية في العالم الإسلامي «ونموذجها تركيا الاتاتوركية التي تسعى إلى ربك المسلمين بالعالم المتحضر (الغرب) من الناحية السياسية والاقتصادية».

ولا يخجل «نيكسون» من التصريح بأن «السياستان الأمريكية والغربية هما اللتان ستلعبان الدور الرئيسي في تحديد الخيار الذي تختاره الشعوب المسلمة»!!.

---

(١) صحيفة (العالم الإسلامي) مكة في ٦-١٠-٢٠٠٠م.

فهم الذين سيحددون لنا «الخيار العلماني» ومع ذلك يسمونه «خيارا تختاره شعوبنا المسلمة»!!.

ولا ينسى «نيكسون» أن يذكّرنا - في نهايات القرن العشرين - بأن صورتنا عند أغلب الأمريكيين هي ذات صورتنا في الثقافة الصليبية في العصور الوسطى! فيقول:

«إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.. ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين، وأن سبب اهتمامنا بهم هو أن بعض زعمائهم يسيطرون بالمصادفة على بعض الأماكن التي تحوي ثلثي النفط الموجود في العالم.. وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة حتى بالنسبة للصين الشيوعية في ذهن وضمير المواطن الأمريكي عن العالم الإسلامي»(١).

فهل نستغرب - بعد قراءة هذا الذي كتب عن الإسلام والمسلمين وحضارتهم في الثقافة الغربية وعن صورتنا في الذهنية الغربية والأمريكية - قبل الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م - أن يأتي استطلاع رأي الأمريكيين - في ديسمبر سنة ٢٠٠٤م - محبذا من قبل ٤٠٪ من الأمريكيين - حرمان المسلمين في أمريكا - حتى المواطنين منهم، من الحقوق المدنية التي هي مفخرة أمريكا والأمريكيين؟!.

٤- إعلان الإسلام عدوا:

وفور سقوط المنظومة الماركسية - وانهيار أحزابها وحكوماتها وأخلافها سنة ١٤١١هـ/١٩٩١م «يعلن» الغرب عن أن الإسلام هو العدو الذي حل محل «امبراطورية الشر الشيوعية».. ومصطلح «الشرق» هذا هو مصطلح ديني توراتي - من مزامير داود - أطلقه اليمين الديني الأمريكي المحافظ برئاسة الأمريكي «ريجان» (١٩١١-٢٠٠٤م) على الشيوعية.. ثم جاء الرئيس «جورج بوش» الصغير

---

(١) نيكسون : (الفرصة السانحة) ص ٢٨، ١٤٠، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١. ترجمة : أحمد صدقي مراد. طبعة القاهرة. دار الهلال - سنة ١٩٩٢م.

ليطلقه على الإسلام والمسلمين، بعد وصفهم «بالأصولية» و«الإرهاب».

وعن اتخاذ الغرب للإسلام عدواً، حل محل امبراطورية الشر الشيوعية، كتبت مجلة (شؤون دولية) الصادرة في «كمبردج» بانجلترا - عدد يناير سنة ١٩٩١م مقالة هذا (الإعلان الغربي) فقالت :

«إن الفكر الغربي المعاصر، الذي يميل إلى جعل الحضارة المسيحية - اليهودية / الغربية هي الحضارة المهيمنة، وجعل أفكارها مطلقة - وليست مجرد ثقافة بين ثقافات عديدة يعج بها العالم. قد شعر الكثيرون من أبنائه بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتي.. وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز في التناول!.

إن الحساسيات الإسلامية مقترنة بالقومية العربية تعتبر بصفة عامة الخطر السياسي الرئيسي الذي يواجه الدول الغربية التي تسعى للقيام بدور نشط في الشرق الأوسط وبالإضافة إلى ذلك فإن صعود الأحزاب التي تصف نفسها بأنها إسلامية في السياسة الداخلية لطائفة عريضة من البلدان الإسلامية وبصفة خاصة تلك الأقرب إلى أوربا أمر مرجح أن يؤثر على العلاقات بين تلك البلدان والغرب..

ولذلك كان الإسلام بين الثقافات الموجودة في الجنوب، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي لمجتمعات يسودها مذهب اللا أدري وفتور الهمة واللامبالاة وهي آفات من شأنها أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات مادياً فضلاً عن هلاكها المعنوي.

لقد أصبح الدين يقتحم الشؤون الدولية بصورة متزايدة أو بالأحرى يعيد إدخال نفسه فيها وأن أوربا التي اعتادت أن تعرّف نفسها من خلال تحديد الآخر كان لابد من أن نبحث عن آخر جديد يحل محل الاتحاد السوفيتي والمعسكر الشرقي بعدما انهارت أيديولوجيته وكان هذا الآخر هو الإسلام أو بمعنى أدق العالم الإسلامي القريب من أوروبا.

والقضية هي ما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني من خلال صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام في المجال السياسي والاجتماعي يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحي الغربي الذي يميّز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعوّل عليها في ديمقراطية علمانية؟؟..»(١).

فاستعصاء الإسلام على العلمنة، أي على الاستسلام في صراع الغرب ضده وضد حضارته قد جعله بنظر الغرب العدو الذي يمثل التحدي الحقيقي له من بيان ثقافات الجنوب ولذا كان الإعلان عن أنه هو العدو الذي حل محل امبراطورية الشر الشيوعية.

كل هذه الممارسات الصراعية والصياغات الفكرية المفصحة عن النزعة الصراعية في الحضارة الغربية سابقة على وجود صامويل هانتجنتون كما تضح بجلاء فيما قدمنا من إشارات.

فلما جاء هانتنجتون ليتحدث عن صدام الحضارات في مقاله الذي نشر سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م قال:

إن الحضارة هي كيان ثقافي وليس ثمة حضارة عالمية واحدة بل عالم من الحضارات المختلفة وفي العالم سبع أو ثمان حضارات كبرى، هي:

١- الحضارة الغربية.

٢- والصينية الكونفوشيوسية.

٣- واليابانية.

٤- والإسلامية.

٥- والهندية.

٦- والأرثوذكية السلافية.

---

(١) مجلة (شؤون دولية) كمبردج - انجلترا - عدد يناير سنة ١٩٩١م. وانظر كتابنا (الغارة الجديدة على الإسلام) ص ١٥-٣١ طبعة القاهرة / دار الرشاد - سنة ١٩٩٨م

٧- والأمريكية اللاتينية.

٨- وربما الأفريقية.

وهي حضارات تتمايز عن بعضها البعض باللغة والتاريخ والثقافة والعادات وأهم من ذلك الدين.

وأبناء هذه الحضارات المختلفة لديهم آراء مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان والفرد والجماعة والمواطن والدولة والآباء والأبناء والزوج والزوجة وكذلك آراء متباينة عن الأهمية النسبية للحقوق والمسؤوليات والحرية والسلطة والمساواة والتنظيم الهرمي.

وهذه الاختلافات هي نتاج قرون ولن تختفي في القريب العاجل إذ أنها أكثر جوهرية من الاختلافات بين الأيديولوجية السياسية والنظم السياسية».

وبعد هذا التحليل العميق بل والعبقري الذي قدمه هانتنجتون لتعدد الحضارات العالمية وتمايزها ومقومات هذا التمايز.. تحدث عن الموقف الغربي المنحاز لفلسفة الصراع بين الحضارات لا كموقف ذاتي اختاره هانتنجتون ليدعو إليه ويبشر به وإنما كحتمية واقعية للموقف الغربي تجاه الحضارات غير الغربية فهو مجرد واصف لتاريخ وممارسات هذا الصراع الغربي مع الحضارة الإسلامية وذلك عندما يقول:

«إن الصراع على طول خط الخلل بين الحضارتين الغربية والإسلامية يدور منذ ١٣٠٠ عام، وعلى كلا الجانبين يُنظر إلى التفاعل بين الإسلام والغرب على أنه صدام حضارات».

وهو بالنسبة للمستقبل - مستقبل العلاقات بين الغرب والحضارة الإسلامية - يفصح عن المخططات التي تعلنها كثير من دوائر صنع القرار الغربي، ومراكز الفكر الاستراتيجي الغربي وهو مديراً جد تلك المراكز بجامعة هارفارد الأمريكية - يفصح - ولا يخترع عن ما هو معلن من أن الإسلام هو الخطر الأخضر الذي حل محل الخطر الأحمر وامبراطورية

الشر الشيوعية، فيقول:

«إن البـؤرة المركـزية للصـراع، فـي المسـتقـبل القـريب، سـوف تـكون بين الغرب والدول الإسلامية والآسيوية..».

وبعـد هـذا: «الإفـصـاح» الـذي يشـكر الـرجل عليـه عـن «واقع المـوقف الغربـي» من صـراع الحضـارات تاريخياً.. ومستقبلاً.. يأتي دور «هـانتـجنتون» كمفكر استراتيجي يهودي الديانة ليشير على حضارته الغربية، وقيادتها الأمريكية، بكيفية إدارة هذا الصراع الحضاري مستقبلاً، ومراحل هذا الصراع وأولويات المعارك فيه.. فيشير بضرورة تقسيم مراحل الصراع الحضاري الغربي، ضد الحضارات غير الغربية إلى مرحلتين:

الأولى والقريبة هي مرحلة المدى القصير وفيها ينصح: هانتنجتون الغرب بتوحيد عالمه الحضاري وتجييش كل أدوات الصراع من آلة الحرب إلى الاقتصاد إلى السياسة إلى الثقافة إلى القيم إلى المؤسسات الدولية وتركيز الصراع ضد الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية.. فيقول:

«إنه على المدى القصير من مصلحة الغرب أن يعزز تعاونا أكبر وتوحيداً في نطاق حضارته، وعلى وجه الخصوص بين مكونيها: الأوربي والأمريكي الشمالي:

١- وأن يدمج مجتمعات شرق أوربا وأمريكا اللاتينية في الغرب، وهي مجتمعات ذات ثقافة قريبة من ثقافة الغرب.

٢- وأن يعزز علاقات التعاون مع روسيا واليابان ويحافظ عليها.

٣- وأن يحول دون تصعيد الصراعات المحلية بين الحضارات إلى حروب كبرى بين الحضارات.

٤- وأن يحد من توسع القوة العسكرية للدول الآسيوية والإسلامية.

٥- وأن يخفف من تقليص القدرات العسكرية الغربية.

٦- وأن يحافظ على التفوق العسكري شرق وجنوب غرب آسيا.

٧- وأن يستغل الخلافات والصراعات الغربية في الحضارات الأخرى.

٨- وأن يقوي المؤسسات الدولية التي تعكس وتسوّغ المصالح والقيم الغربية، وتضفي عليها الشرعية.

٩- وأن يروج لاشتراك الدول غير الغربية في هذه المؤسسات».

تلك هذه معالم خطة هانتجنتون للمدى القصير والمرحلة الأولى من صراع الغرب الحضاري ضد الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية وهي معالم قد أصبحت برنامجاً يضعه الغرب بقيادة أمريكا في الممارسة والتطبيق وخاصة بعد سنوح الفرصة عقب قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م في أمريكا وليست كما يحلو للمنافقين المتغربين مجرد خرافة أطلقها هانتجتون حول ما يسمى بصراع الحضارات.

إننا نحترم العدو الذي يعلن عن واقع العداء أكثر من المنافق الذي يسعى إلى ستر عورات الأعداء.

أما المرحلة الثانية من هذا الصراع الغربي ضد الحضارات غير الغربية مرحلة المدى الطويل فهي بتعبير هانتجتون مرحلة الاحتواء الغربي للحضارات غير الغربية التي نجحت في تحديث واقعها لكنها احتفظت بذاتيتها وهويتها الحضارية غير الغربية أي أنها أنجزت لوناً من التحديث غير الغربي فأقلعت من مرحلة التخلف لكن ليس إلى فضاء الذوبان في التغريب.

فبعد المرحلة الأولى من هذا الصراع الحضاري مرحلة كسر شوكة الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية تأتي هذه المرحلة الثانية مرحلة احتواء الغرب للحضارات التي حيّدها إبان المرحلة الأولى من هذا الصراع وبعبارات هانتجتون التي يخطط فيها لصانع القرار الأمريكي والغربي.

« ... أما على المدى الطويل فسيكون اتخاذ إجراءات أخرى أمراً مطلوباً فالحضارة الغربية هي حضارة غربية وحديثة معاً وقد حاولت الحضارات غير الغربية أن تكون حديثة دون أن تصبح غريبة وحتى يومنا هذا لم تنجح

في هذا المسعى إلا اليابان وسوف تواصل الحضارات غير الغربية محاولاتها للحصول على الثروة والتكنولوجيا والمهارات والمكنات والأسلحة التي تمثل جزءاً من كون الحضارة حديثة كذلك ستحاول تلك الحضارات أن توائم هذه الحداثة مع ثقافتها وقيمها التقليدية أما قوتها الاقتصادية والعسكرية فسوف تزيد بالنسبة للغرب ومن ثم يتوجب على الغرب على نحو متزايد أن يحتوي تلك الحضارات الحديثة غير الغربية التي تقترب قوتها من قوة الغرب لكن قيمها ومصالحها تختلف إلى حد كبير عن قيمة الغرب ومصالحه وسوف يستلزم ذلك من الغرب أن يحتفظ بالقوة الاقتصادية والعسكرية اللازمة لحماية مصالحه فيما يتعلق بهذه الحضارات»(١).

هكذا عبر وأفصح «صامويل. ب.هانتجتون» عن الرؤية الغربية للمستقبل الحضاري في العالم الذي نعيش فيه.

فالغرب يتصور حضارته منفردة بالعرش الحضاري العالمي وهي متمركزة حول ذاتها لا تعترف بحق الحضارات الأخرى في مشاركتها النفوذ والخيرات في هذا العالم.. بل أنها تريد تغريب العالم وعولمة نموذجها على العالمين.. فهي المركز والمنهاج والطريق الذي يجب على الآخرين تقليده أو اللحاق به لتبنيه.. حداثة كان هذا النموذج أو ما بعد الحداثة.. لأن الليبرالية الرأسمالية هي بالنسبة للعالم كله هي نهاية التاريخ «القدر الغربي» الذي ليس منه فرار.

ولنا هنا أن نسأل: من الذي يستحق منا التقدير والاحترام:

- صامويل هانتجتون الذي انحاز إلى التعددية الحضارية في عالمنا ثم أفصح عن الموقف الغربي من هذه التعددية الحضارية؟ فأعلن ما يفكر فيه الغرب ويضعه في الممارسة والتطبيق؟
- أم هؤلاء الذين يخدعوننا عندما يتحدثون عن وحدة الحضارة العالمية

---

(١) لقد اعتمدنا في أفكار «هانتجتون» على دراسته التي نشرت سنة ١٩٩٣م بعنوان «صدام الحضارات» The Clash Of Civilization مجلة الشؤون الدولية الأمريكية ترجمة عبد المنعم محفوظ - مجلة (الحرس الوطني) السعودية - الرياض - عدد ذي القعدة / ذي الحجة ١٤١٦هـ / مارس/ أبريل ١٩٩٦م.

ثم يخدرون أعصابنا عن الواقع المر، بالحديث عن خرافة صراع الحضارات جاعلين من الآمال في حوار الحضارات ستاراً يحاولون به حجب هذا الواقع عن العقول والأبصار؟

أعتقد والله أعلم أن صامويل هانتجتون هو الجدير بالاحترام!

ثم إن علينا أن ندرك وأن ننبه على أن في الغرب قوى أخرى انتقد بعضها تاريخ الغرب في مصارعة الحضارة الإسلامية وانتقد التصورات المشوهة التي قدمها وكرسها الغرب الاستعماري عن الإسلام ورسوله وأمته وحضارته ولقد أشارت هذه الدراسة واستشهدت بفكر عدد من هؤلاء العلماء الغربيين.

كما أن بعض هذه القوة الغربية الشريفة ومعها جماهير واسعة من الذين يعانون في الغرب من ويلات حروب الصراعات الحضارية والذين يدفعون الأثمان الباهظة للحروب الاستعمارية إنما يقفون معنا في خندق الرفض لفلسفة صراع الحضارات.

وكما سبق وأكدت هذه الدراسة فإن المشكلة في هذه الآفة هي مع مشروع الهيمنة الغربية وليس مع الإنسان الغربي بحال من الأحوال.

أما «فوكو ياما» المفكر الاستراتيجي الأمريكي فلقد دعا في سياق فكر النزعة الصراعية الغربية ضد الإسلام إلى فرض النموذج الغربي على العالم باعتباره نهاية التاريخ كما دعا إلى شن حرب داخل الإسلام تجعله إسلاماً أمريكياً وذلك لنزع سلاح مقاومة الإسلامية لممارسات الهيمنة الأمريكية وتطويع هذه الأمة لقبول الحداثة والعلمانية الغربية. فقال:

«إن الحداثة التي تمثلها أمريكا وغيرها من الديمقراطيات المتطورة ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية وإن المؤسسات التي تجسد مبادئ الغرب الأساسية ستستمر في الانتشار عبر العالم وهذه القيم والمؤسسات تلقى قبولاً لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية إن لم نقل جميعها لكن السؤال الذي نحتاج إلى طرحه هو:

هل هناك ثقافات أو مناطق في العالم ستقاوم؟ أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث هذه؟

ثم يجيب «فوكوياما» عن هذا التساؤل الذي طرحه الإجابة التي تحمل أخطر الدلالات في هذه القضية.. قضية صراع الحضارات بل وحرب الحضارات !! فيقول :

إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة فالعالم الإسلامي يختلف عن غيره من الحضارات في وجه واحد مهم فهو وحده قد ولد تكراراً خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة ترفض لا السياسات الغربية فحسب وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة التسامح الديني والعلمانية نفسها.

وإنه بينما تجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكي وأفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية وتود تقليدها لو أنها فقط استطاعت ذلك فإن الأصوليين المسلمين يرون في هذه الاستهلاكية دليلاً على الانحلال الغربي.

لذلك فإن المسألة ليست ببساطة حرباً على الإرهاب كما تظهرها الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم(؟!) وليست المسألة الحقيقية كما يجادل الكثير من المسلمين هي السياسة الخارجية الأمريكية في فلسطين أو نحو العراق.. إن الصراع الأساسي الذي نواجهه لسوء الحظ أوسع بكثير وهو مهم ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من الإرهابيين بل لمجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الديني جميع القيم الأساسية الأخرى.. إن الصراع الحالي ليس ببساطة ضد الإرهاب ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحداثة الغربية وإن التحدي الذي تواجهه الولايات المتحدة اليوم هو أكثر من معركة صغيرة ضد الإرهاب.. إنه يشكل تحدياً أيديولوجيا هو في بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية.

وإن التطور الأهم ينبغي أن يأتي من داخل الإسلام نفسه، فعلى المجتمع

الإسلامي أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمي مع الحداثة الغربية خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الإساسي حول الدول العلمانية»[١].

هكذا وضحت تماماً (إعلان الحرب) هذا أن رفض الإسلام للقيم الحداثية الغربي وبالذات للعلمانية هو السبب الأول في هذا الصرع الحضاري الغربي الأساسي ضد الإسلام !! وأن استعصاء الإسلام على العلمنة ورفض المسلمين لها هو سبب الصراع لأنه رفض للذوبان في النموذج الغربي والتبعية الحضارية له.. أما الحديث عن الإرهاب فهو ستار لحجب حقيقة الخلاف وأسباب الصراع وحتى الحرب الشرسة التي تتعرض لها بلاد إسلامية هي نتيجة وليست السبب في هذا الصرع.

ومرة أخرى نذكّر بأن مجلة (شؤون دولية) قد كتبت سنة ١٩٩١م : أن السبب في اتخاذ الغرب الإسلام عدواً هو استعصاء الإسلام على العلمنة ومن ثم تمثيله التحدي الثقافي الوحيد للغرب.. وها هو «فوكو ياما» يكتب في (النيوزويك) الأمريكية بعد أحد عشر عاماً من ذلك التاريخ أن سبب الحرب على الإسلام هو أنه «وحده الرافض للمبدأ الأكثر أساسية للحداثة الغربية والقيم الأمريكية مبدأ العلمانية».

ولقد كان «هانتجنون» صريحاً كل الصراحة عندما خير - عقب قارعة سبتمبر ٢٠٠١م - بين قبول «حرب داخل الإسلام تجعله إسلاماً ليبراليا حداثياً يقبل العلمانية والمبدأ المسيحي : دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» وبين «حرب على العقيدة الإسلامية الأصولية الرافضة للعلمانية» لأن هذا الرفض للعلمانية هو «أخطر من الشيوعية».

وعلى الذين يستغربون وضع الرفض الإسلامي للعلمانية في مستوى أكثر خطورة من الشيوعية - بالنسبة لأمريكا الغرب - أن يتذكروا أن الشيوعية مع خلافها الأيديولوجي في المسألة الاجتماعية مع الليبرالية الرأسمالية إلا أنهما معا إفرازات للحضارة الغربية ويشتركان معاً -

---

(١) فوكوياما : مجلة (النيوزويك) الأمريكية، العدد السنوي ديسمبر ٢٠٠١م/ فبراير ٢٠٠٢م.

الشيوعية والليبرالية - في العلمانية التي هي كما قال «فوكوياما» المبدأ الأكثر أساسية في الحداثة الغربية.

وعلينا جميعاً أن نتذكر ما قاله «هانتجنون» من أن الحضارات تمايز بينها «الثقافة» فخلاف الإسلام مع الحداثة الغربية هو بالفعل أكثر أساسية من ذلك الشقاق - الشيوعي الليبرالي - الذي حدث داخل الحضارة الغربية والذي طويت صفحته سنة ١٩٩١م.

٥- أمركة الإسلام

في منتصف القرن العشرين كتب الشهيد سيد قطب (١٣٢٤-١٣٨٦هـ / ١٩١٦-١٩٦٣م) : «إن أمريكا تريد إسلاماً أمريكانياً يمكن أن يستفتى في منع الحمل، وفي نواقض الوضوء، ولكنه لا يستفتي أبداً في أوضاعنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظامنا المالي أو أوضاعنا السياسية والقومية أو فيما يربطنا بالاستعمار من صلات.. تريد إسلاماً لا يقاوم الاستعمار ولا الطغيان.. وإنما يقاوم فقط الشيوعية.. وهي لا تريد للإسلام أن يحكم لأنه حين يحكم سينشئ الشعوب نشأة أخرى وسيعلمها أعداء القوة لمحاربة الاستعمار والشيوعية معاً، لأنهما كليهما وباء واعتداء»[١].

وعقب قارعة سبتمبر بأمريكا كتب «هانجنتون» يدعو إلى«حرب داخل الإسلام حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية والعلمانية والمبدأ المسيحي فصل الدين عن الدولة»[٢].

وفي ذات التاريخ كتب «فوكوياما»: «إن هناك بعض الأمل في ظهور فكر إسلامي أكثر ليبرالية بسبب المنطق الداخلي للعلمانية السياسية»[٣].

وفي سنة ٢٠٠٤م أصدرت مؤسسة راند الأمريكية وهي واحدة من مؤسسات الدراسات الاستراتيجية - أصدرت تقرير - قدمته إلى صانع

---

(١) سيد قطب مجلة (الرسالة) القاهرة السنة العشرون المجلد الأول عدد ٩٩١ ص ٧١٣-٧١٥.
(٢) عدد (النيوزويك) السنوي ديسمبر ٢٠٠١م/ فبراير ٢٠٠٢م
(٣) المرجع السابق. نفس العدد.

القرار الأمريكي فصّلت فيه خطة «إعادة بناء الإسلام» بالتعاون بين أمريكا والحداثيين والعلمانيين في العالم الإسلامي مع الاستفادة من بعض التقليديين لهزيمة الأصولية الإسلامية والأصوليين.

وفي هذا التقرير (خطة أمريكية لتحديث الدين الإسلامي) الذي فصّلت فيه مؤسسة راند ما دعا إليه إجمالاً كل من «هانجنتون» وsفوكوياما» نقرأ بالنص:

«إن الإسلام المعاصر هو في حالة تصعيد حيث يدخل في صراع داخلي وخارجي على قيمه وهويته ووضعه في العالم».

وإن الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الصناعي الحديث والمجتمع الدولي بأسره سوف يفضل عالماً إسلامياً يأتلف مع باقي النظام العالمي والغربي».

ولذلك لابد من تشجيع عناصر داخل الخليط الإسلامي ممن يكونون أكثر توافقاً مع الحداثة الغربية.

والمسلمون مختلفون في طريقة التصرف حيال هذا الوضع:

- فالأصوليون يرفضون قيم الثقافة الغربية المعاصرة.
- والعلماء التقليديون يريدون مجتمعاً محافظاً وهم في ريبة من الحداثة والتغيير.
- والعلمانيون يريدون أن يقبل العالم الإسلامي الفصل بين الدين والدولة واستنساخ سلوك الديمقراطيات الغربية مع إرجاع الدين على نطاق الحياة الخاصة بين كل شخص وربه.
- أما الحداثيون فإنهم يريدون العالم الإسلامي جزءاً من الحداثة العالمية وهم يريدون تحديث الإسلام كي يواكب العصر.

والحداثيون والعلمانيون هم الأقرب إلى الغرب في ضوء القيم والسياسات.

ولذلك يجب علينا :

أولاً: دعم الحداثيين فهم من بين كل الجماعات الأكثر إخلاصاً في تبني قيم وروح المجتمع الديمقراطي الحديث علينا دعمهم وذلك:

١- بنشر وتوزيع أعمالهم في شرح وطرح الإسلام بتكلفة مدعمة.

٢- وتشجيعهم على الكتابة للجماهير والشباب.

٣- وتقديم آرائهم في مناهج التربية الإسلامية المدرسية.

٤- وإعطائهم منصات شعبية للتواصل مع الجماهير.

٥- وجعل آرائهم وأحكامهم في القضايا الكبيرة للتأويل والفهم الديني متاحة للجمهور حتى يمكن أن تنافس آراء وأحكام الأصوليين والتقليديين.

٦- وتيسير وتشجيع الوعي بالتاريخ السابق على الإسلام والثقافة اللاإسلامية.

٧- وتشجيع تأويلهم للنص الديني الحرفي الذي نعتبره تاريخاً وأسطورة.

ثانياً: دعم العلماء التقليديين ضد الأصوليين فالتقليديون هم قوة مفيدة ومضادة للأصوليين وهم يتمتعون بشرعية واسعة وعامة في أعين الشعوب الإسلامية وهم منفتحون يسعون للحوار بين الأديان ولذلك فإن علينا تشجيعهم بواسطة :

١- نشر نقد العلماء التقليديين للعنف والتطرف.

٢- وتشجيع الخلافات بين التقليديين والأصوليين.

ثالثاً: مواجهة ومعارضة الطرح الأصولي للإسلام : فالأصوليون هم الأكثر رفضاً وبشكل أساسي وكلي للديمقراطية والقيم الإساسية للمجتمع المدني الحديث.

رابعاً: دعم العلمانيين بشكل انتقائي - أي باستثناء العلمانيين القوميين واليساريين المعادين للولايات المتحدة الأمريكية.. فالعلمانيون هم حلفاؤنا الطبيعيون في العالم الإسلامي وذلك عن طريق:

١- تثبيط التحالف العلماني مع القوى المضادة للولايات المتحدة الأمريكية.

٢- وتشجيع إدراك أن الأصولية هي العدو المشترك.

٣- ودعم فكرة أن الدين والدولة يمكن أن ينفصلا في الإسلام أيضاً وأن هذا لا يهدد العقيدة الإسلامية.

أما الهدف من وراء كل ذلك فهو إعادة بناء الدين الإسلامي في ضوء العصر الإسلامي الجديد ليأتلف مع باقي النظام العالمي والغربي وليكون أكثر توافقاً مع الحداثة الغربية.

إن الإسلام ليس أكثر حصانة من الأديان الأخرى الكبرى في العالم وإن الإجماع بين الحضارات قادر على تغيير القيم بما فيها قيم الإسلام»(١).

هكذا فصّلت مؤسسة راند ما أجمله «هانتجتون» و«فوكويام» وغيرهما من دعاة شن الحرب داخل الإسلام في الثقافة الإسلامية والكتب المدرسية وتأويل الإسلام ليقبل قيم الحداثة الغربية.. والعلمانية الغربية.. أي ليذوب النموذج الحضاري الغربي مستسلما في معركة صراع الحضارات!

وهكذا نجد أنفسنا بإزاء قضية هي أعقد مما يتصور الكثيرون.. وأمام «نزعة صراعية وصدامية» تكونت وتراكمت وتكرست على مر تاريخ الاحتكاك الاستعماري الغربي بالشرق الإسلامي.. لتكون الغلاف الفكري والثقافي المبرر للممارسات الصراعية والصدامية التي تمثلت في مشروع الهيمنة الغربي ضد الشرق منذ ما قبل الإسلام وعلى امتداد تاريخ الإسلام.

وليس صحيحاً أننا أمام مجرد نزوة فكرية ابتدعها وطرحها مفكر

---

(١) مؤسسة راند (خطة أمريكية لتحديث الدين الإسلامي) ص ١٣-٢٠، ٢٤، ٧١، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٩٣، ٩٤ ترجمة: د. محمد يحيى طبعة القاهرة، المكتب المصري الحديث، سنة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

استرتيجي هو صامويل.ب. هانتجتون ثم انبرى الكثيرون في الشرق والغرب لنقدها والإدعاء بأنهم قد طووا صفحتها.

إننا حيال نزعة صراع الحضارات بإزاء أمر لا نؤمن به ويرفضه إسلامنا وتكرهه أمتنا ولكنه مثل القتال قد كتب علينا مع كراهتنا إياه ونحن نتمنى أن يقلع أهل هذه النزعة الصراعية عنها فلا نلقاهم في ميادينها وساحاتها لكن الواقع المفروض شيء والتمنيات شيء آخر.

ويزيد من خطورة هذا الأمر وجديته أن هذه النزعة الصراعية الصدامية قد تجلت في النظريات الأساسية التي ميزت مشروع النهضة الأوربية والحداثة الغربية وهي نظريات :

١- الماكيافيلية نسبة إلى «ماكيا فيلي» Machiave (١٤٦٩-١٥٢٣م) في السياسة والتي تعني أن القوة وليس العدل هي المقصد من السياسة والدولة وهي الروح السارية في الحضارة الغربية وفي علاقات هذه الحضارة بالآخرين.

٢- والهيجلية نسبة إلى «هيجل» Hegel (١٧٧٠-١٨٣١م) في فلسفة التاريخ والتي تعني أن كل عصر جديد إنما يقوم على نسخ العصر القديم وذلك عبر الصراع مع مكوناته والمحو لها والحلول محلها.

٣- والدارونية نسبة إلى «دارون» Darwin (١٨٠٩-١٨٨٢م) في فلسفة النشوء والإلغاء وهي التي قامت على صراع الأحياء ونسخ ومحو الأقوى للأضعف والضعيف لأن الأقوى بإطلاق هو الأصلح بإطلاق ومن ثم فهو الأحق بالبقاء.

٤- والصراع الطبقي سواء في الماركسية نسبة إلى «ماركس» (١٨١٧-١٨٨٣م) أو في الليبرالية الرأسمالية والتي تعتمد النزعة والفلسفة الصراعية في علاقات الطبقات الاجتماعية.. فالطبقة الوليدة والجديدة تصارع الطبقة القديمة لتقهرها وتزيحها وترثها وتنفرد

بكل الثمرات والامتيازات والسلطات البورجوازية في الليبرالية والبروليتاريا عند الماركسيين.

فهذه النظريات الأساسية التي طبعت النهضة الأوربية الحديثة بطابعها قد غدت مصدر التبرير الفكري للممارسات الصراعية الغربية ضد الآخرين حتى لقد مارس الغرب ولا يزال يمارس هذا الصراع والصدام بضمير بارد، وقلب مستريح راحة الأموات! وذلك بحسبان أنه إنما يؤدي رسالة نبيلة عندما يدمر الهويات والمواريث الحضارية للآخرين ليحل محلها هويته وقيمه ونمطه في العيش والتفكير، باعتبار أن نمطه هذا مثل «الحداثة.. والعلمانية» هو الأقوى ومن ثم فهو الأصلح والأحدث، والبديل الطبيعي والأحق بأن يحل محل الهويات والمواريث التي امتلكتها الحضارات الأخرى التي لا يعترف الغرب بمشروعية وجودها، ومن ثم لا يعترف بحقها في التميز واقتسام العالم الذي يريده الغرب امبراطورية لاستغلاله الامبريالي.

٦- مستجدات.. وتحديات:

وإذا كانت هذه هي حقائق هذه القضية - قضية طبيعة العلاقة بين الحضارات العالمية والنزعة الصراعية التي مارسها الغرب الاستعماري عبر تاريخه مع الحضارات غير الغربية.. ومع الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص.. فإن هناك مستجدات طرأت في إطار هذه القضية يجب على العقل المسلم أن يضعها في الحسبان..

ذلك أن الغرب الصليبي طوال عصوره الوسطى كان يواجه الإسلام فقط، بالجيوش وفرسان الإقطاع الأوربي، ولم يكن لديه فكر يمكن أن يبشر به في ديار الإسلام ويغري به عقول المسلمين.. حتى لقد وصف الأمير الفارس أسامة بن منقذ (٤٨٨-٥٨٤هـ - ١٠٩٥ -١١٨٨م) وهو الذي خبر الصليبيين حرباً وسلماً.. وصفهم فقال : «إنهم بهائم ليست لديهم سوى فضيلة القتال»[1].

---

(١) أسامة بن منقذ (كتاب الاعتبار) ص ١٣٢ تحقيق : د. فيليب حتى. طبعة جامعة برنستره - الولايات المتحدة سن ١٩٣٠م.

ولذلك عزلت كل آثار الحملات الصليبية القديمة فور هزيمة جيوشها وهدم قلاعها والاستيلاء على كياناتها الاستيطانية في بلاد الإسلام (٦٩٠هـ - ١٢٩١م).

بل أن الصليبيين هم الذين تأثروا حضارياً بحضارة الإسلام.

أما الغرب الامبريالي الذي جائتنا غزوته الحديثة منذ حملة (بونابرت) على مصر والشرق (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م) فإنه قد جاء إلينا مسلحاً مع المدفع والبارود وأدوات القتال الحديثة بفكر عصر النهضة الأوربية ونظرياتها وفلسفاتها الوضعية والعلمانية.

وحتى لا يكون مصير غزوته الحديثة هذه كمصير غزواته الصليبية القديمة عندما تجلى وطنيتنا جيوشه فنحرر الأرض ونستخلص ثرواتنا المنهوبة منه حتى لا يحدث ذلك المصير لغزوته الحديثة فلقد أراد هذه المرة احتلال العقل المسلم أيضاً وذلك ليتأيد ويتأبد احتلاله للأرض ونهبه للثروات.. لقد أراد بتغريب عقولنا أن يكون نموذجه قبلتنا فيضمن تبعيتنا دون نفقات.

ولقد كانت العلمانية الغربية سلاحه الفكري الأول الذي أراد به كسر شوكة الإسلام وتحويله عن منهاجه الشامل للدين والدنيا، والدولة والاجتماع، والقيم والقانون، والفرد والمجموع، والآخرة والأولى.. أراد الغرب - بالغزو الفكري العلماني - تحويل الإسلام إلى صورة من النصرانية التي تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.. فلا بأس على الغرب الاستعماري من وجود «إسلام يهتم فقط بخلاص الروح ومملكة السماء والعبادات الفردية والزهد والرهبنة ويدع دنيا المسلمين وعالمهم وثرواتهم للقيصر الغربي!!».

لكن الغرب قد أفاق في العقود الأخيرة من القرن العشرين على حقيقة لا تزال تزعجه وتقض مضاجعه حتى الآن.. حقيقة أن قرنين من جهوده المحمومة في سبيل علمنة الإسلام وأمته قد ذهبت هباء.. فها هي الصحوة الإسلامية قد أصبحت أعظم ظواهر العصر في عالم الإسلام، وهي تدعو

إلى إقامة الإسلام كمنهاج شامل لكل ميادين الحياة.. وها هي الأحزاب العلمانية ونظريات التغريب التي رعاها الغرب وأنفق عليها بسخاء تفلس وتسقط على امتداد عالم الإسلام حتى لقد قالت مجلة (شؤون دولية) في يناير سنة ١٩٩١م عن هذه الحقيقة المدهشة جدا.. والتي أزعجت الغرب:

«إن النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع والتي تقول إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يقوّض الإيمان الديني صالحة على العموم فلقد تناقص التأثير السياسي والسيكلوجي للدين عملياً في كل المجتمعات وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة.

لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جداً من هذا فلم تتم أي عملية في عالم الإسلام.. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هي سيطرة قوية وهي - بطريقة ما - أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت إن الإسلام مقاوم للعلمية والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحاً في ظل مختلف النظم السياسية.. الراديكالية والتقليدية والنظم التي تقف بين هذين النوعين»!!(١).

ومع إفلاس العلمانية في عالم الإسلام وخروج الإسلام من معركته معها أصلب عوداً وأشد مراساً حدث النجاح الكبير والخطير لهذه العلمانية في المجتمعات الغربية إلى الحد الذي هزمت فيه المسيحية هناك وحولتها إلى هامش هزيل ومجرد تراث.

ففي أوربا لا يتجاوز الذين يؤمنون بوجود إله ١٤٪ ولا يتجاوز الذين يذهبون إلى الكنائس مرة في الأسبوع ١٠٪ وفي أمريكا الأكثر تدينا لا يتجاوز زوار الكنائس ٤٠٪ من السكان!! بل أن الكثيرين من المتدينين هناك قد تخلوا عن أهم ما في الدين، تخلوا عن منظومة القيم والأخلاق فلم يبق منه سوى «العصبية والطقوس» حتى لقد خانت كنائس غربية كثيرة قيم مسيحيتها

---

(١) د. محمد عمارة (الإسلام والآخر، من يعترف بمن ومن ينكر من ؟) ص ١٤، ١٤٧ طبعة القاهرة مكتبة الشروق الدولية سنة ١٤٢١هـ/١٩٩٩م.

عندما أخذت تجذب الناس بقيم ما بعد الحداثة والسلوكيات المنحلة والماجنة من الحفلات الصاخبة والموسيقى الملهية وحتى تزويج الشواذ!!.

لقد هزمت العلمانية والمسيحية في الغرب وأصبحت كثير من المجتمعات الأوربية «فراغاً دينياً»..

ولأن العلمانية قد عجزت - هي الأخرى - عن ملء الفراغ الذي كانت تملؤه المسيحية، وعن الإجابة على الأسئلة الطبيعية للإنسان.. فلقد تطلع الإنسان الأوربي إلى العقائد الروحية التي تلبي احتياجاته وتملأ له هذا الفراغ.. وكان الإسلام في مقدمة الديانات التي أخذت تتمدد في هذا الفراغ الغربي.

وبشهادة القس الألماني - عالم الاجتماع - «جوتفرايد كونزلن»

«فلقد مثلت العلمانية تراجع السلطة المسيحية وضياع أهميتها الدينية وتحوّل معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية.. والفصل النهائي بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة وسياسة بلا دين».

ولقد كان من نتائج العلمانية فقدان المسيحية لأهميتها فقدانا كاملاً وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم بل وزوال أهميته أيضاً كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس وللحياة بشكل عام.. فسلطة الدولة «وليس الحقيقة» هي التي تضع القانون وهي التي تمنح الحرية الدينية.

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها ديناً حل محل الدين المسيحي يفهم الوجود بقوى دنيوية هي العقل والعلم.

لكن.. وبعد تلاشي المسيحية سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة عن أسئلة الإنسان التي كان الدين يقدم لها الإجابات.. فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين.. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة بنفسها بل وتفكك انساقها العقلية والعلمية عدمية ما بعد الحداثة فدخلت الثقافة العلمانية في أزمة بعد أن أدخلت الدين المسيحي في أزمة فالإنهاك الذي

أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلماني الحديث وتحققت نبوءة «نيتشه» (١٨٤٤-١٩٠٠م) عن إفراز التطور الثقافي الغربي لأناس يفقدون نجمهم الذي فوقهم ويحيون حياة تافهة ذات بعد واحد لا يعرف الواحد منهم شيئاً خارج نطاقه وبعبارة « ماكس فيبر» (١٨٦٤-١٩٢٠م): «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم»!!.

ولأن الاهتمام الإنساني بالدين لم يتلاش بل تزايد وفي ظل انحسار المسيحية انفتح باب أوربا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة.. من التنجيم على عبادة القوى الخفية والخارقة والاعتقاد بالأشباح وطقوس الهنود الحمر وروحانيات الديانات الآسيوية والإسلام الذي أخذ يحقق نجاحاً متزايداً في المجتمعات الغربية»(١).

وعندئذ بلغ الانزعاج الغربي من الإسلام ذروة غير مسبوقة في تاريخ العلاقات الصراعية بين الغرب والإسلام.

لقد سبق الفتوحات الإسلامية في القرن الهجري الأول أن حررت الشرق من الهيمنة الغربية فتحول هذا الشرق إلى قلب للعالم الإسلامي بعد أن كان قلب العالم المسيحي لعدة قرون.

ثم كانت أغلب حروب الغرب ضد الإسلام إنما تقوم وتتم على أرض الشرق الإسلامي وبعيداً عن الأرض الغربية.

أما الآن فإن الإسلام يتمدد في معدة المجتمعات الغربية ذاتها وتنفتح أمام هديه الفطري عقول وقلوب الأمر الذي جعل كبار الكرادلة في الغرب يرون في ذلك «فتحاً إسلامياً جديداً لأوروبا» يهدد بتحويلها عن أن تكون قلب العالم المسيحي - كما كانت لعدة قرون - إلى جزء من عالم الإسلام!!.

وبشهادة المونسنيور «جوزيبي برناrديني» في حضرة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني في سنة ١٩٩٩م:

---

(١) جوتفرايد كونزلن : (مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا) ص ٢٢ - ٣٦ تقديم د. محمد عمارة، طبعة القاهرة، دار نهضة مصر سنة ١٩٩٩م.

«فإن العالم الإسلامي قد أخذ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط وهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية سيما في ذلك روما عاصمة المسيحية فكيف يمكننا ألا نرى في ذلك برنامجاً واضحاً للتوسع وفتحاً جديداً»؟!(١).

ولهذه الوقائع والحقائق المستجدة أعلن الغرب بقيادة اليمين الديني في أمريكا الحرب الصليبية الجديدة على الإسلام مرة أخرى.. رابطاً بين الإسلام والإرهاب.. وجاعلاً من كل مسلم متهماً ومشبوهاً يُقبض عليه دون سبب معروف! ويحاكم ويحكم عليه دون اتهامات معلنة أو أدلة معروفة ! ويحرم من الحقوق المدنية فيصبح حاله في الغرب أسوأ مما كان عليه حال الزنوج!! حتى لقد تحققت عبارات المستشرق الفرنسي «جاك بيرك» (١٩١٠-١٩٩٥م) التي قال فيها:

«إن الإسلام الذي هو آخر الديانات السماوية الثلاث والذي يدين به أزيد من مليار نسمة في العالم والذي هو قريب من الغرب جغرافياً وتاريخياً وحتى من ناحية القيم والمفاهيم قد ظل ويظل حتى هذه الساعة بالنسبة للغرب ابن العم المجهول والأخ المرفوض والمنكور الأبدي والمبعد الأبدي والمتهم الأبدي والمشتبه فيه الأبدي»(٢).

إذن.. فنحن - بسبب انتصار الإسلام على العلمانية - وبسبب هزيمة المسيحية الأوربية أمام العلمانية وبسبب تمدد الإسلام في عقر دار الغرب.. أمام تصعيد - كيفيّ وكميّ - جديد في الممارسات الصراعية الغربية ضد الإسلام.. وهو تصعيد كانت " قارعة سبتمبر ٢٠٠١م «في أمريكا» مناسبة له.. ولم تكن «السبب» فيه - كما يحسب الكثيرون -!

٧- موقف الإسلام من صراع الحضارات:

وإذا كان هذا هو مبلغ تعقّد هذه القضية التي يسطحها الكثيرون قضية

---

(١) صحيفة (الشرق الأوسط) لنجن في ١٣-١٠-١٩٩٩م.

(٢) من حديث لجاك بيرك في ٢٧-٦-١٩٩٥م انظر صحيفة (الشرق الأوسط) لندن في ١-١١-٢٠٠٠م.

طبيعة العلاقة بين الحضارات الإنسانية.. وهل هي الصراع والصدام؟ أم الحوار والتعارف والتفاعل والتعايش؟ فإن العقل المسلم مطالب ببلورة رؤيته لهذه القضية.. ومطالب بإدارة أوسع الحوارات حولها مع العقول الحضارية المختلفة، ومع العقل الحضاري الغربي على وجه الخصوص مستفيدين في ذلك الحوار من منطق هذه الرؤية الإسلامية ومن تمثيلها طوق نجاة الإنسانية كلها من هذا المسلسل الصراعي المدمر الذي شقيت وتشقى به الأمم والشعوب في مختلف الحضارات وايضاً مستفيدين من تحقيق هذه الرؤية الإسلامية فالتوزان المصالح وليس توازن القوى لجميع شعوب تلك الحضارات.

إن الإسلام - ومعه المسلمون - يرفضون مبدأ صراع الحضارات وصدامها.. يرفضون ذلك من حيث المبدأ وليس فقط للمضار والكوارث التي جرتها عليهم هذه النزعة الصراعية عبر تاريخهم الطويل مع الغرب الاستعماري.

صحيح أن الكوارث والحروب والقهر الاستعماري والنهب الاقتصادي الذي عانى منه المسلمون ولا يزالون بسبب سيادة هذه النزعة الصراعية في علاقة الحضارة الغربية بالإسلام وأمته وعالمه وحضارته كافية وحدها في جعل المسلمين من باب المصلحة والمنفعة يرفضون ويعادون هذا النهج في العلاقات بين الحضارات.

لكن الموقف الإسلامي المبدئي والعقدي والفلسفي هو الآخر رافض ومعاد لمبدأ الصراع بتعميم وإطلاق سواء أكان هذا الصراع حضارياً أم دينيا أم فكرياً أم عرقياً أم طبقياً.

وإذا كانت القضية الأولى التي تمايز بين العقائد والفلسفات والأيديولوجيات هي رؤية الإنسان للكون والوجود التي تعتمدها هذه العقائد والفلسفات والأيديولوجيات فإن الرؤية الإسلامية للكون والوجود تقود المسلم إلى رفض مبدأ الصراع وفلسفة الصدام رفضاً مبدئياً وبتعميم وإطلاق.

ذلك أن هذه الرؤية الإسلامية ترى أن الوحدية والآحدية هي فقط للذات الإلهية أما كل من عدا الذات الإلهية وجميع ما سواها فإنه يقوم على

التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف.

والإيمان بهذا التنوع والتمايز والاختلاف في هذه الرؤية الإسلامية يتجاوز كونه حقاً من حقوق هذه المخلوقات إلى كونه قانونا كونياً وتكوينياً وسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل.

ولأن الصراع يعني الانتهاء إلى أن يصرع طرف الطرف الآخر فيلغيه ويهلكه ليستأثر بما كان لدى هذا الآخر ولينفرد بالميدان ويستغنى عن الآخرين كان هذا الصريح هو العدو اللدود للتنوع والتمايز والتعدد والاختلاف وكان مرفوضاً إسلامياً من حيث المبدأ وبتعميم وإطلاق لأنه مناقض ومناهض لسيادة السنة الإلهية في تنوع سائر المخلوقات والحضارات والشرائع والفلسفات والمذاهب والقوميات.

ولقد استخدم القرآن الكريم مصطلح الصراع بهذا المعنى..معنى الهلاك والإهلاك في سياق الحديث عن قوم ثمود وقوم عاد ﴿ **فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ** ﴾ [الحاقة: ٥]، ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ (٨)** ﴾ [الحاقة: ٦ – ٨].

فدل هذا المصطلح في القرآن الكريم على إفضاء الصراع إلى نهاية الخصم وهلاكه وزواله من الوجود إلى التفرد والانفراد والاستغناء وفي الاستغناء وفق المصطلح القرآني المفضية إلى الطغيان ﴿ **كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)** ﴾ [العلق].

وفي كل ذلك مصادمة ومخالفة لسنة الله سبحانه وتعالى في التنوع والتمايز بسائر عوالم الخلق وميادينها.

إن الوجود بأسره فيه (الحق) واجب الوجود و(الخلق) ممكن الوجود.. ووحده (الحق) سبحانه وتعالى وأحديته في الرؤية الإسلامية تبلغ الذروة والمنتهى في تصورات العقل الإنساني للتنزيه والتجريد ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)**

اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [**الإخلاص**]

﴿ **فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١]. وكل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك.

أما سائر عوالم الخلق في الإنسان والحيوان والنبات والجماد وكذلك في العقائد والشرائع والفلسفات وفي الألوان والأجناس والألسنة واللغات والقوميات وفي المناهج والثقافات والمذاهب والحضارات وفي الأمم والقبائل والشعوب..الخ.. الخ فجميعها قائمة على قانون التنوع وسنة التمايز والاختلاف.

ففي الإنسانية الواحدة تنوع واختلاف ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [**الحجرات**: ١٣].

وفي الديانات تنوع واختلاف ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾ [**هود**: ١١٨، ١١٩].

وفي الشرائع والمناهج أي الثقافات والمذاهب والحارات تنوع واختلاف ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [**المائدة**: ٤٨].

وكذلك الحال - حال التنوع والتمايز والاختلاف.. في الألوان والأجناس والألسنة واللغات أي القوميات ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الروم: ٢٢] ﴿ **وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾** ﴾ [**الليل**]. ﴿ **وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [**البقرة**: ١٤٨].

وإذا كان الصراع يفضي إلى الانفراد بالساحة فإن التعدد والتمايز والاختلاف هو الباعث على التنافس بين المختلفين، وعلى التسابق على طريق

الخيرات ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وانطلاقاً من هذا التأسيس القرآني لقانون التنوع والتمايز وسنة التعدد والاختلاف قال العلماء في تفسيرهم لهذه الآيات القرآنية: إن اختلاف طبيعة في المخلوقات وأنه هو علة خلق هذه المخلوقات فالحسن البصري (٢١-١١٠هـ - ٦٤٢-٧٢٨م) ومقاتل بن سليمان (١٥٠هـ - ٧٦٧م) وعطاء بن رباح (٢٧-١١٤هـ - ٦٤٧-٧٣٢م) يقولون إن الإشارة في قوله تعالى (ولذلك خلقهم) هي إلى الاختلاف أي «وللاختلاف خلقهم».

وحتى الذين يقولون: إن الإشارة إلى الرحمة مثل ابن عباس (٣٠ ق هـ - ١٨هـ - ٦١٩-٦٨٧م) ومجاهد (٢١-١٠٤هـ -٦٤٢-٧٢٢م) وقتادة بن دعامة السدوسي (٦١-١١٨هـ - ٦٧٩-٧٣٦م) والضحاك (١٠٥هـ - ٧٢٣م)(١) فإن الجمع بين رأيهم هذا والرأي الأول ليس ببعيد.. فالتنوع والاختلاف في إطار الوحدة الإنسانية هو رحمة من الخالق سبحانه وتعالى لأنه الباعث على التسابق على طريق الخيرات ومعروف الفارق الجوهري في العربية والإسلام بين (الخلاف) المذموم لأنه في الأصول وبين (الاختلاف) المحمود أنه في الفقهيات والفروع.

ومن العلماء الأئمة الذين أكدوا على هذه الحقيقة حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ - ١٠٥٨-١١١١م) وأبو حيان التوحيدي (٤٠٠هـ - ١٠١٠م) والطباطبائي محمد حسين (١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م) والشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ -١٣٥٤هـ - ١٨٦٥ - ١٩٣٥م)..

فالغزالي يتحدث عن سنة الاختلاف بين الناس فيقول: «وكيف يجتمعون على الإصغاء (لرأي واحد) وقد حكم عليهم في الأزل بأنهم لا يزالون مختلفين.. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم»(٢).

---

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) جـ٩ ص ١١٤، ١١٥ طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة.

(٢) الغزالي - أبو حامد (القسطاس المستقيم) ص ٦١ ضمن مجموعة عنوانها (القصور العوالي في رسائل الإمام الغزالي) طبعة مكتبة الجندي، القاهرة، بدون تاريخ.

والتوحيدي، هو القائل في جدلية الاختلاف بإطار الوحدة: «... فالناس في أصل جبلتهم، وبدء خلقتهم، قد افترقوا مجتمعين، واجتمعوا مفترقين، واختلفوا مؤتلفين، وائتلفوا مختلفين[1].. وليس يجوز أن يكون الناس مختلفين في ظاهرهم ولا يختلفون في باطنهم وليس يجوز في الحكمة أن يكثروا ولا يختلفوا وليس يجوز أيضاً أن يُضمّ الجنس والنوع ولا يأتلفوا..»[2].

وعند الطباطبائي - محمد حسين.. «فإن اختلاف الطبائع المنتهية إلى اختلاف البنى أمر لا مناص منه في العالم الإنساني.. ذلك أن التركيبات البدنية مختلفة في الأفراد مما يؤدي إلى اختلاف الاستعدادات البدنية والروحية.. وبانضمام اختلاف الأجواء والظروف إلى ذلك يظهر اختلاف السلائق والسنن والآداب والمقاصد والأعمال النوعية والشخصية في المجتمعات الإنسانية التي لولاها لم يعش المجتمع الإنساني»[3].

أما الشيخ رشيد رضا.. فإنه هو القائل : «والذي دل عليه الكلام من مشيئته تعالى في الناس خلقهم مستعدين للاختلاف والتفرق في علومهم ومعارفهم وآرائهم وشعورهم، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم، ومن ذلك الدين والإيمان والطاعة والعصيان فالاختلاف طبيعي في البشر وفيه من الفوائد والمنافع العلمية والعملية ما لا تظهر مزايا نوعهم بدونه.. وقد شرع الله لهم الدين لتكميل فطرتهم والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بكتاب الله الذي لا مجال فيه للاختلاف»[4].

كذلك جعلت الرؤية الإسلامية وأوجبت أن تكون العلاقة بين الفرقاء المختلفين والمتمايزين هي (التوازن) أي العدل الذي هو الوسط والخيار الذي

---

(١) التوحيدي، أبو حيان (المقايسات) ص ٨٣ تحقيق محمد توفيق حسين، طبعة بيروت سنة ١٩٨٩م

(٢) التوحيدي، أبو حيان (الإمتاع والمؤانسة) جـ٣ ص ٩٩ تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٤م.

(٣) الطباطبائي - محمد حسين (الميزان في تفسير القرآن) جـ ١١ ص ٦٠ طبعة بيروت سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٣٢م.

(٤) رشيد رضا (تفسير المنار) جـ١٢ ص ٢٢،١٩ طبعة بيروت، دار المعرفة.

أراده الله سبحانه وتعالى لأمة الإسلام (جعلاً إلهياً) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا التوازن الوسط العدل في العلاقات بين الحضارات وفي العلاقات الدولية هو (توازن المصالح) وليس (توازن القوى) بين الحضارات والأمم والشعوب.

لكن.. ماذا إذا اختل التوازن بين الأمم والشعوب والحضارات أو الطبقات هل يكون الصراع هو السبيل لعلاج هذه الأمراض؟

كلا. لأن سلوك سبيل الصراع الذي ينهى التنوع والتعدد ليس العلاج لهذه الأمراض لأنه أشبه ما يكون بإعدام المرضى وخاصة الضعفاء الذين يهلكهم هذا الصراع.

لذلك، فإن الإسلام يقوم (فلسفة) وآلية (التدافع) سبيلاً لإصلاح الخلل، ورفع الظلم وإعادة العلاقات بين المختلفين والمتمايزين على مستوى العدل المتوازن والتوازن العادل.. فالدفع والتدافع هو حراك اجتماعي وفكري وحضاري وهو وسط بين الصراع الذي ينهى التعددية وبين السكون الذي يكرس المظالم والاختلالات.. حراك اجتماعي يعدل المواقف مع الحفاظ على بقاء سنة التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف بين الفرقاء.

إنه السبيل لتصحيح الخلل والمظالم في علاقات الطبقات والحضارات وهو الحراك الفكري الذي تمثله الاجتهادات في عوالم الأفكار.. به تعود العلاقات بين الفرقاء المختلفين إذا اختلت إلى مستوى التوازن والعدل وبه تكون حوافز المنافسة وبواعث التسابق على طريق الخيرات وهذا هو معنى قول الشهيد سيد قطب (١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ - ١٩٠٦ - ١٩٦٦م).

" إن من طبيعة الناس أن يختلفوا لأن هذا الاختلاف اصل من أصول خلقتهم يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن في الأرض والاختلاف في الاستعدادات والوظائف بدوره اختلافاً في التصورات والاهتمامات

والمناهج والطرائق ولقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ولولا أن طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع فتنفض عنها الكسل والخمول وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة وتظل أبدا يقظة عاملة مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء، فالعقيدة في حادة على الدفع عنها وأماكن العبادة لا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض وهي قاعدة كلية لا تتبدل مادام الإنسان هو الإنسان».

ثم يشير سيد قطب إلى أن هذا التدافع وهذا التنوع والاختلاف إنما يتم في إطار جامع لفرقائه فهو ليس الصراع الذي لا ضابط له ولا سقف يحكمه والذي يفضي إلى إنهاء التنوع والاختلاف فيقول:

«على أنه لابد أن يكون هناك ميزان ثابت يفئ إليه المختلفون وقول فصل ينتهي عنده الجدل ومشروع واحد لبني الإنسان ثم تختلف التفصيلات بعد ذلك وفق حاجات الأمم والأجيال»(١).

ولم يكن هذا الاجتماع لعلماء الأمة الإسلامية على اختلاف مذاهبهم وتوالي أجيالهم على هذه الفلسفة.

التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف في كل عوالم المخلوقات كسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل وليس التمركز حول الذات مع الإنكار للآخرين ولمشروعية اختلافهم وتميزهم.

والتدافع كطريق وسط للعراك الاجتماعي والفكري يعدل المواقف إذا اختلت علاقات العدل والتوازن بين الفرقاء المختلفين لإعادة هذه العلاقات إلى مستوى العدل المتوازن والتوازن العادل وليس الصراع الذي يصرع فيه وبه القوى الضعفاء فينهى التنوع والتعدد والاختلاف.

لم يكن هذا الاجتماع لعلماء الأمة الإسلامية على هذه الفلسفة المؤسسة

---

(١) سيد قطب (في ظلال القرآن) ج ١ ص ٢١٥، ١٧١ ج ٤ ص ٢٤٢٥ طبعة بيروت سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٧م.

على رؤية المسلم للكون والوجود مجرد «فكر إسلامي» حتى يكون من مناطق الاجتهادات والمتغيرات وإنما هو «دين ثابت» ومنهاج بلورة الوحي الإلهي في القرآن الكريم باعتباره سنة من سنن الله سبحانه وتعالى في الاجتماع الإنساني حاكمة للعلاقات بين الأفكار والشرائع والملل والأقوام والحضارات.

فالله - سبحانه وتعالى - عندما يخاطب رسوله - صلى الله عليه وسلم - فيقول له ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت] يعلمنا الله سبحانه معالم هذا المنهاج فالتدافع لا يتغيا صرع الآخر وإلغاءه وإنما تحويل موقفه وموقعه من العداوة التي تجعله من أهل السيئات على موقع وموقف لولي الحميم الذي يجعله من أهل الحسنات فيتم الحراك بواسطة التدافع مع بقاء تعددية الفرقاء المتمايزين.

بل لقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه السبيل الإسلامية سبيل التدافع لا الصراع باعتبارها الحافز الذي يدفع الحياة والعمران إلى الارتقاء دائماً وابداً فقال ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالصراع الحضاري ونقيضه السكون الحضاري ليس سبيل التقدم والصلاح والإصلاح، وإنما سبيل التقدم هو وسطية التدافع والتنافس والتسابق على طريق التقدم والنهوض والخيرات.

وعندما أذن الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بالقتال، قتال الذين أخرجوهم من ديارهم وقاتلوهم وفتنوهم في الدين، جاء الحديث عن التدافع لتكون غايات القتال الذي فرض على المسلمين وهو كره لهم هي تعديل مواقف المشركين من مواقع العداء المشرك المعتدي إلى مواقف السلام فهي حراك لا نفي وإهلاك ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ

﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ
بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا
وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا
الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

[الحج].

فـفلسـفـة التـدافـع الحـضـاري هـي البـديل الإسـلامي لفلسـفـة الصـراع الحضاري الغربية ولذلك ازدهرت في دولة الإسلام وحضارته وأمته التعددية في الملل والنحل والشرائع واللغات والقوميات والعادات والأعراف.. فعاشت الديانات الكتابية والوضعية ومؤسساتها ومقدساتها في ظلال حضارة الإسلام.

كما قنن الفقه الإسلامي منذ صدر التاريخ الإسلامي وتبلور الحضارة الإسلامية للعلاقات الدولية، قنن لاحترام العهود والمواثيق ولمعاملة الأسرى ولاحترام المقدسات بل وللرفق بالنبات والطبيعة أثناء القتال وعلمنا في النظر إلى الآخرين وفي التعامل معهم «منهاج ليسو سواء»!.

كل ذلك انطلاقاً من البلاغ القرآني ومن البيان النبوي لهذا البلاغ القرآني.

على حين شقيت الحضارات وخاصة حضارة الإسلام من الممارسات الظالمة للنزعة الصراعية في الحضارة الغربية ومن الفكر العنصري المتمركز حول الذات والمنكر لحق الآخرين في الوجود المتميز.. ذلك الذي برر الغرب الاستعماري به تلك الممارسات الظالمة عبر تاريخ غزواته للشرق وحتى هذه اللحظات.

إننا في هذه القضية أمام واقع غربي مارس ويمارس ضدنا صراع الحضارات ولسنا أمام نزوة اخترعها مفكر هو صامويل.ب. هانتجنتون الذي كشف عن واقع الموقف الغربي من صراع الحضارات.

ولذلك فإن ترتيب البيت العربي والإسلامي لتعظيم إمكاناتنا المادية

والبشرية و«ترتيب العقل العربي والإسلامي» ليبلور فلسفة الإسلام إزاء هذه القضية.. وإدارة الحوارات الموضوعية والصبورة، مع الإنسان الغربي.. ومع حضارات الشرق والجنوب.. هي السبيل لرفع هذا «البلاء» الذي مارسه الغرب الاستعماري ولا يزال يمارسه انطلاقاً من هذه النزعة الشريرة «صراع الحضارات».

والله أعلم.

المصادر والمراجع

أحمد عبد المعطي حجازي — الأهرام، القاهرة في ٢٨-٤-٢٠٠٤م.

أسامة بن منقذ — (كتاب الاعتبار) تحقيق د. فيليب حتى طبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية، سنة ١٩٣٠م.

باركو (سير إرنست) — (الحروب الصليبية) بحث منشور بكتاب (تراث الإسلام) بإشراف «أرنولد» ترجمة جرجس فتح الله، طبعة بيروت سنة ١٩٣٣م.

التوحيدي، أبو حيان — (المقاسات) تحقيق محمد توفيق حسين، طبعة بيروت سنة ١٩٨٩م.

جوتفرايد كونزلن — (مأزق المسيحية والعلمانية في أوربا) تقديم د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

د. حاتم الطحاوي — (وثيقة نادرة: بعد غرناطة جاء دور القدس) مجلة (العربي) الكويت مارس ٢٠٠٣م.

رشيد رضا — (تفسير المنار) طبعة دار المعرفة، بيروت

سيجريد هونكه — (الله ليس كذلك) ترجمة د. غريب محمد غريب، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

(العقيدة والمعرفة) ترجمة عمر لطفي العالم، طبعة دمشق سنة ١٩٨٧م

سيد قطب — (في ظلال القرآن) طبعة بيروت سنة ١٤٠٧هـ /١٩٨٣م.

مجلة (الرسالة) السنة العشرون، المجلد الأول عدد ٩٩١.

الطباطباني - محمد حسين — (الميزان في تفسير القرآن) طبعة بيروت سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

الغزالي - أبو حامد — (القسطاس المستقيم) ضمن مجموعة (القصور العوالي في رسائل الإمام الغزالي) طبعة مكتبة الجندي، القاهرة.

فوكو ياما: مجلة (النيوزويك) الأمكريكية العدد السنوي ديسمبر ٢٠٠١م - فبراير ٢٠٠٢م.

القرطبي: (الجامع لأحكام القرآن) طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

مؤتمر كولورادو: (التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامي) وثائق ومناقشات طبعة مالطا سنة ١٩٩١م.

د. محمد عمارة: (الغارة الجديدة على الإسلام) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨م.

(الإسلام والآخر : من يعترف بمن ومن ينكر من) طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.

(الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء وانصاف العلماء) طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٤م.

د. محمد يحيى/ مترجم: (خطة أمريكية لتحديث الإسلام) تقرير مؤسسة «راند» الأمريكية طبعة القاهرة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

مكسيم رودنسون: (الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية) بحث منشور بكتاب (تراث الإسلام) بإشراف «شاخت» و«بوزورث» ترجمة د.محمد زهير السمهوري تحقيق وتعليق د. شاكر مصطفى مراجعة د. فؤاد زكريا طبعة الكويت سنة ١٩٧٨م.

مكسيموس مونردند: (تاريخ الحروب المقدسة في الشرق المدعوة حرب الصليب) ترجمة مكسيموس مظلوم، طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.

منتجمري وات: (الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر) ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ طبعة القاهرة. مكتبة الأسرة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

نيكسون ريتشارد: (الفرصة السانحة) ترجمة أحمد صدقي مراد طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

هانتنجتون صامويل.ب (صدام الحضارات) ترجمة عبد المنعم محفوظ، مجلة (الحرس الوطني) الرياض مارس- أبريل سنة ١٩٩٦م.

مجلة (النيوزويك) الأمريكية العدد السنوي ديسمبر ٢٠٠١م - فبراير ٢٠٠٢م.

هوبرت هيركومر (صورة الإسلام في التراث الغربي) ترجمة ثابت عيد، تقديم د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

دوريـــــات

- (الأهرام) القاهرة
- (الحرس الوطني) الرياض
- (الرسالة) القاهرة
- (شؤون دولية) لندن
- (الشرق الأوسط) لندن
- (العالم الإسلامي) مكة المكرمة
- (العربي) الكويت
- (النيوزويك) أمريكا

أبيض

مستقبل الحوار بين الحضارات والثقافات..
رؤيــــة إســــلاميــــة(١)

اعداد:

د. مصطفى تسيريتش

رئيس العلماء والمفتي العام في دولة البوسنة والهرسك

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في أكتوبر ٢٠٠٣م، مع شيء من التغيير والتعديل في مكتبة الإسكندرية بجمهورية مصر العربية أمام عدد كبير من المفكرين من الشرق والغرب.

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

عجلة الحضارة الإسلامية

إنه من الممكن أن ننظر إلى الحضارة الإسلاميّة على أنها عجلة تدور حول محور الرسالة الإلهيّة المستمرّة، وذلك منذ عهد آدم أبي البشر إلى زمن خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم. إن هذا المحور الإلهيّ للحضارة الإسلاميّة مستمر دون أدنى تغيير، لأنّه يمتلك ذات المعنى للروح الحيّة، ولأنه يمثل نفس المنطق للحقيقة المطلقة. إن هذا المحور يتمتع بنظام يجعله قادرا على تحريك عجلة الحضارة الإسلاميّة في مختلف الاتّجاهات، مع بقائها غير بعيدة عنه. وكما هو معلوم فإن سرعة دوران حافة العجلة تكون أكبر من سرعة دوران مركزها. ومحور الحضارة الإسلاميّة إن هو إلا هبة إلهيّة تكشف عن نفسها من خلال استمرارية الحياة والتّاريخ، وعجلة الحضارة الإسلاميّة أيضا هبةٌ إلهيّة، لكنّ حركتها تعتمد على اتّجاه البشر وسرعتهم في الحركة.

فالسّؤال إذن: إلى أين ستتجه عجلة الحضارة الإسلاميّة؟ وبأي سرعة سوف تسير؟

حرّيّة الرّوح وقوّة العقل

قبل الإجابة عن هذين السّؤالين، اسمحوا لي أن أقول إن الحضارة شيء أوسع من حالة الرخاء المدنيّة. إنني أعتقد أن الحضارة مجهودٌ تقدمه الروح البشريّة لكي تحقق توازنا بين ذكريات الماضي وذكريات المستقبل، ولكي تعبر عن مفهوم الحياة، و تقدم طبيعة الرّوح البشريّة في آمالها ومخاوفها.

في الحقيقة، الحضارة هي حالة للعقل البشري يسميها ابن خلدون (العصبيّة)، أي الولع بحياة إنسانية رقيقة تتطور من مرحلة لأخرى بغرض تحقيق ذاتها عبر التّاريخ. ومن أكثر قوى الولع بالحياة البشرية أهمية، حرّيّة الرّوح البشريّة، وقوّة العقل البشريّ.

الاستمرارية والتغيير في الحياة والتاريخ

إن وصف الحضارة "بالإسلاميّة" ينبغي أن يقودنا إلى مفهوم التعايش بين الاستمرارية والتّغيير في كل من التّاريخ والحياة. وأنا أعتقد أن هذا التعايش يمثل النّقطة الحاسمة التي حددت مسار الحضارة الإسلاميّة في الماضي، أي قدرتها على فهم الاستمرارية الضرورية للتراث، مع إمكانية تغيير التاريخ. وهو على ما أرى - في هذا التّحدّي المستمر والمتمثل بتثمين استمرارية التراث وقبول التغييرات في التّاريخ - اختبار حقيقيّ لمستقبل الحضارة الإسلاميّة، سواء في ثباتها الرّوحيّ أو في إبداعها الفكريّ. وفي الحقيقة، فإن فكرة التعايش بين الاستمرارية والتّغيير هي الفكرة الرّئيسيّة التي مكنت الحضارة الإسلاميّة من تحقيق ذلك النجاح غير المسبوق في تاريخ العالم. وتكمن قوّة هذه الفكرة في مفهومَيّ إيجابية التّاريخ (التصديق)، ونشأة الإنسان الخالي من الذّنب (البراءة).

التاريخ الإيجابي (تصديق لا تجديد)

إن التاريخ الإيجابي يمثل أكثر البراهين حجة على أن القرآن الكريم يمثل ذروة الرسالة الإلهية الشاملة، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله للعالمين. وبعبارة أخرى، فإن القرآن لم يأت فجأة، ولم ينكر ما سبقه من أحكام تجلب الخير لبني البشر، ولم يبدأ رسالته من الصفر:

﴿ **وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [**الأحقاف**: ١٢]

﴿ **الم** ﴿١﴾ **اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴿٢﴾ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ** ﴿٣﴾ **مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ** ﴾ [**آل عمران**: ١ - ٤]

النبي محمد صلى الله عليه وسلم مصدق

إذن، فالنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم ليس أول الرسل، وإنما خاتم

أنبياء الله ورسله. والتاريخ لم يبدأ برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم ينته التاريخ بموته: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن ثوريًا متمرّدًا يلغي كل شيء جاء قبله. إن اللّه سبحانه وتعالى أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا، (مصدّقا لما بين يديه)، أي مؤكدا على كلّ الأمور الصحيحة التي سبقته، وكذلك أرسله الله تعالى لتعليم الناس كيف يتجنبون الأمور السّيّئة في الحياة والتّاريخ، والتي خَبِرَتْها القرون الأولى من الشعوب والأمم.

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠].

التاريخ الشامل

لقد أثرى مفهوم التّاريخ الشامل المسلمين بفكرة الأسلوب الشّامل في التعامل مع التّاريخ كوحدة متكاملة، وتبعا لذلك، فقد حرّر هذا المفهومُ التّاريخَ الإسلاميَّ من أن تستأثر به فئة واحدة. إنه من الطبيعي للمسلمين أن يضطلعوا بدورهم الهامّ كورَثة للتّاريخ بجدية كبيرة، لكنهم وهم يؤدون هذا الدورَ لم ينكروا دور الآخرين أبدًا، ولا سيما دور أهلِ الكتاب، من اليهود والنصارى.

القرآن الكريم والنقد

لا بد للمسلم، أثناء تلاوته للقرآن الكريم، من أن يُحِس بوجود أهل الكتاب في كلّ صفحة منه تقريبا. كما أنّ اليهود والنصارى لا يمكنهم أن يقرؤوا أيّ كتاب ذي قيمة عن تاريخ العالم، دون أن يتعرفوا على وجود المسلمين في كافة ميادين الحياة البشريّة.

ومن المؤكد أن القرآن ينتقد بعض اليهود والنصارى، ولكنّه يفعل نفس الشيء مع بعض المسلمين أيضًا. وباعتقادي، فإن المسؤوليّة الأخلاقيّة تفرض على المسلمين عدم اتخاذ نقد القرآن الكريم للآخرين وسيلة لتغطية عيوب

المسلمين أنفسِهم، وبما أنّ القرآن الكريم، بصفته كلام اللّه تعالى، فريد في تقدير وتثمين صلاح أتباع الدّيانات الأخرى، ولا سيما اليهود والنصارى، فيجب على المسلمين أن يطبقوا روح التسامح في وسطٍ من تعدّد الأديان، وما أكثر ما أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى، فيقول الله عزّ وجل:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ٦٢].

التعدّد الدّينيّ

إنه من السذاجة بمكان أن يحكم أحدنا بعدم وجود اختلافات بين الإسلام والدّيانات الأخرى، ولا سيما اليهوديّة والنصرانية. وليس المقصود هنا فكرةً غامضةً عن الإطراء والتملُّق الهزيل، أو الدّعاية الدّينيّة الرّخيصة، بل إن المقصودَ هو قناعةٌ صادقة تقوم على أساس أهمّ مصدرٍ إسلاميٍّ يعلّم المسلمين كيفية التصرف مع التّعدّديّة الدّينيّة من جهة، وكيف يقدِّرون حقيقة أن هذا العالم غير مكوّن من دين واحد أو أمة واحدة فقط، لأنّه لو أراد اللّه سبحانه وتعالى للعالم أن يكون كذلك لفعل، ولكن قضت إرادته وحكمته أن يكون البشر في هذا العالم متعددين في دياناتهم وأممهم، فيتنافسون فيما بينهم في فعل الخير.

التنافس في فعل الخير

إن فكرة التنافس في فعل الخير، تتعلق بشكل خاصّ، بهذه الدّيانات السماوية الثّلاث: اليهوديّة، والمسيحيّة والإسلام، وسبب ذلك لا يعود فقط إلى تراثهم السماوي المتشابه، بل يعود أيضًا إلى تراثهم في التفاعل التاريخيّ الفريد الذي لا يمكن التغاضي عنه فيما مضى، وفي مسؤوليّتهم التّاريخيّة التي لا يمكن تَجَاهُلها في المستقبل. وبالرغم من أنني أرى الأمل معقودا على عدم إمكانية إغفال الدور التّاريخيّ لليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، لكنّني أيضًا، أشعر بنوع من الخوف. وبالرغم من صمت الإحسان في أغلب

الأحيان، فإن أملي يستند إلى طيبة القلب عند الغالبية المخلصة من اليهود والنصارى والمسلمين، الذين يبحثون عن سلامتهم في هذا التشابه الدّيني بدلاً من النزاع.

التشابه والاختلافات

من المؤسف كثيرا، أن نجد بين أبناء هذه الديانات الثلاث أقلّيّة عالية الصوت جدًّا ترى في تشابه اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام سّببا وجيها جدا لإثارة النّزاعات بدلاً من السّلام. وغالبا ما يقودنا هذا الموقف إلى استنتاج أنّ التّشابه يثير النّزاع، بينما يجلب الاختلافُ الاحترامَ المتبادل. وليس غريبا علينا تاريخ النقاش الحاد بين المجوعات الدينية المتشابه، ذلك النقاش الذي كثيرًا ما تحوّل إلى نزاع شديد العنف. وما تزال في مخيلتي صور بعض النزاعات التاريخية بين السنّة والشّيعة داخل الدّين الإسلامي، والنّزاعات بين الكاثوليك والبروتستانت في المسيحية، وأنا متأكّد من وجود أمثلة كهذه في اليهوديّة أيضًا.

إن منطق النّزاع بين المتشابهين، مهما كان شكله، يكمن في المفهوم الخاطئ القائل: لكي أحافظ على نقاء ديني، فلا بد من إبراز الاختلاف العميق عند الآخر ممن يشبهني، لكن وفي نفس الوقت، فإن اختلافه معي أمر لا يمكن التسامح معه. وفي رأيي، فإن المسألة الحقيقيّة للعلاقة بين اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام تتمثل اليوم في تشابه جذورهم الروحية، لا في اختلافها، وفي أملهم لا في خوف بعضهم من بعض، وفي حبّهم لا في كره بعضهم بعضا، وفي عدلهم بين بعضهم البعض لا في ظلم بعضهم بعضا.

التفاعل الثقافي

أظنني غير مضطرٍ للتذكير بأن الحقبة العظيمة للحضارة الإسلاميّة كانت في الوقت الذي تفاعلت فيه تلك الحضارة مع الحضارات الأخرى. إن فكرة العزلة غريبة على الحضارة الإسلاميّة، لأنّ النبيّ محمدا صلى الله عليه

وسلم أُرْسِلَ إلى الناس كافّة، ولذلك فهو الشّاهد على العالم كله من حيث أنه جلب إليه الرّحمة بَدَلَ الشقاء ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [**الأنبياء**: ١٠٧].

فمن الواضح إذن، أنّ المسلمين في الماضي كانوا قدعرفوا كيف يتفاعلون مع الآخرين، الذين كانوا يشبهونهم ويختلفون عنهم في معتقداتهم وفي توقعاتهم من الحياة والتاريخ. لقد كان المسلمون يهتدون بالإيمان القويّ (بالتصديق) بدلاً من (التكفير) والإدانة، وبالإيمان (بالمشاركة والمساهمة) بدلاً من الإيمان (بالتفرد). إضافة إلى ذلك، فقد عرف المسلمون كيف يقدّرون التجارب المختلفة داخل صفوفهم، واضعين نصب أعينهم الطريق الواحد نحو مجد الحضارة الإسلاميّة باعتبارها إنجازا مشتركا للأمة كلها.

توازن الذكريات

بما أننا لسنا أبناء اللحظة، فيجب علينا أن نكون قادرين على خلق التوازن بين ذكرى الماضي الفائت، وذكرى المستقبل القادم. وأنا أرى أنّ صعوبة حاضر المسلين تكمن في عدم قدرتهم على خلق هذا التوازن بين ذكرى الماضي الفائت وذكرى المستقبل القادم. وبعبارة أخرى، يجد المسلمون، من جهة أولى، صعوبة في تحرير أنفسهم من الشعور بالذنب بسبب بعض الأحداث التّاريخيّة السّابقة، وفي مواجهة تحديات المستقبل بروحانيّة نضرة وعقلانية مبدعة، من جهة ثانية.

إننا ولدنا أحراراً

هل يجب علي أن أُذَكِّر أن فكرة أصل الإنسان الخالي من عقدة الذّنب (البراءة) هي إحدى أهمّ أفكار ما يسمّى بالعصريّة، والتي قادت العالم نحو تحقيق التقدّم الفكريّ والروحيّ، أي إلى الإنسانيّة والنهضة؟ إن الشعار القائل: "نحن وُلِدْنَا جميعًا أحرارا، والناس كلهم سواسية أمام اللّه"، يمثل ردّ فعلٍ على فكرة أن الناس جميعا يولدون وهم يحملون على كاهلهم وزر خطأ أبيهم آدم، وأنّ بعضهم يولدون أسيادا، بينما يولد بعضهم الآخر عبيدا. لقد

احتاجت أوروبا قرونا طويلة، وخاضت حروبا دموية كثيرة لكي تتغلب على هاتين الفكرتين العامّتين: فكرة الذّنب المحتوم، وفكرة العبوديّة المقدّرة.

إنني أعتقد أن أحد أسباب تقدم العالم الإسلامي على باقي أجزاء العالم يكمن في حقيقة أن الإسلام قد حرّر البشريّة من عقدة الذنب، ورسخ مبدأ تساوي الفرص للجميع لِيُظهروا جدارتهم التّاريخيّة.

القلق الثقافي

إن الأزمة الحاليّة للحضارة الإسلاميّة قد تُرَى في نقص الثّقة بالنّفس الذي جاء نتيجةً للقلق الثّقافيّ الذي ترافق مع زمن فقدان الإيمان بالتحرر من الذّنب والإيمان بتساوي فرص النجاح في الحياة والتاريخ. وبالتّالي، فإن أجيالا متلاحقة من المسلمين فقدوا الجرأة الرّوحيّة والإبداع الفكريّ. وبدلاً من ذلك فإننا نرى عندهم نوعا من الخجل الرّوحيّ الذي يقود الحضارة الإسلاميّة نحو العزلة، كما نرى اقتباسا فكريّا يوشك أن يفضي بالحضارة الإسلاميّة إلى الذوبان والانصهار.

وهنا تكمن الإجابة الممكنة عن السّؤال: هل ستمضي عجلة الحضارة الإسلاميّة قُدُما؟ أو هل يجب لها الانطلاق من هنا؟ هل ستسير نحو العزلة أو الذوبان والانصهار؟ أم أنها ستسير نحو التّفاعل والتّعاون؟

ليس العزلة أو الانصهار والذوبان، بل التعاون الحضاري

إن الحضارة الإسلاميّة لم تُصْنَع للعزلة أو للانصهار والذوبان، بل إنها صُنِعَت للتّفاعل والتّعاون. ولكي تمضي الحضارة الإسلامية في هذا الاتّجاه، ينبغي لها أن ترفض فكرة الذّنب التّاريخيّ. لقد فُرِض في هذه الأيّام على المسلمين الإحساسُ بوجوب أن يقوم الجيل الحاليّ من الشباب بتصحيح كافة أخطاء الأجيال السّابقة، قبل أن يفكّر في تصحيح المستقبل القريب والبعيد للأمة.

بعبارة أخرى، ينبغي للجيل المعاصر أن يتمسّك بقوة بالإيمان بالتحرر من

أخطاء الماضي، وبذلك يتحمل المسؤوليّة عن مستقبل العالم، ليس بالسير على طريق الانعزال أو الانصهار والذوبان، وإنما بالسير على طريق التّفاعل الثّقافيّ المتساوي والتعاون الحضاري. إن الأرضية المتوسطة للتفاعل التّاريخيّ والتّعاون العقلاني، هي الطريق الصحيح للحضارة الإسلامية كي تخرج من ضيق العزلة وخطر الانصهار.

آن أوان التفاعل الثالث

بعد أن جرّبت الحضارة الإسلامية التّفاعل في صدر الإسلام، ومن ثم في زمن التأثير الإسلاميّ العظيم في التغيير الفكريّ والرّوحيّ في الغرب. فقد آن الأوان لها للتفاعل التّاريخيّ الثّالث مع باقي العالم، ولا سيما مع العالم الغربيّ. ولكن الوضع اليوم يختلف نوعًا ما عن سابقيه، لأنّ الغرب لا يشعر بالحاجة لتعلّم أي شيء من الشّرق، كما اعتاد أن يكون حاله في السابق.

بل على العكس من ذلك، فإن الغرب يعتقد بوجوب أن يقلِّدَهُ الشّرق في كل الأمور، حتّى في السلوك الأخلاقيّ الغريب، والمخالف للحشمة الإنسانيّة والإنتاج (التناسل) الإنساني. ولكن لا ينبغي لمثل هذا الوضع أن يثني عزيمة المسلمين عن التّفاعل مع الغرب، بسبب بما يوجد من اتكال متبادل ودّائم بين العالَمين - الشّرق والغرب - ذلك الاتكال المتبادل الذي لم يبدأ بالأمس، ولن ينتهي في الغد.

دعني الآن أطرح السؤال الثّاني: بأي سرعة سوف تنطلق عجلة الحضارة الإسلاميّة؟ هل بسرعة مركزها؟ أم بسرعة حافتها؟

المركز والحافة

لكن، وقبل كل شيء، هل يوجد مركز للإسلام؟ نعم، هناك مركز للإسلام، ولكنّه ليس مركزا جغرافيّا متماسكا، أو منتَجا اقتصاديا، أو تأثيرا سياسيا على التطور العالمي، بقدر ما هو هوية عالمية، وتوجّه في الزمان والمكان نحو الكعبة - قبلة المسلمين - وتضامن بين عامة المسلمين في

مختلف أرجاء العالم يقوم على الإيمان. وستبقى هذه الميزات المعنوية لفكرة مركز الإسلام قويّةً لأنّ رسالة القرآن قويّة في شموليتها ومصداقيّتها في إنقاذ البشرية.

إذن، فالعبرة هنا، ليست في النِعَمِ الواضحة التي تجود بها السماء، بل في حسن أو سوء استخدام البشر لتلك النعم. فكما يقول ريشارد بولييه Richard Buliet:

«لا يمكن لأحد أن ينكر عصر السعادة في عهد النّبيّ محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن لأحد أن ينكرا أمجاد الخلافة، أو عَظَمَةَ العثمانيين، أو التأثير التحويلي لأوروبّا الحديثة ... وإن الخلفاء والسّلاطين - أو على الأقلّ بعضهم - يستحقّون تلك الشهرة المنسوبة إليهم ... وفوق كلّ شيء، فإن سيرة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم والرعيل الأول من الصحابة والتابعين كانت العامل الأساسي في تحديد الهويّة الإسلاميّة على مدى أربعة عشر قرنا».

ويواصل قائلا:

«إن النظر من المركز يطرح أسئلة كثيرة جدًّا لا أجوبة عنها. من أين كلّ هؤلاء المسلمين؟ لماذا نجحوا في تطوير مثل هذه الثقافة أو الحضارة المترابطة، بينما كانت أوروبّا - رغم تجانسها المسيحيّ - متفككة ومختلفة إلى هذا الحد الكبير؟

إن النظرة من المركز تبدي التاريخ الإسلاميّ وكأنه ينمو من نواة واحدة، أو من بقعة حبر منتشرة في جميع الاتجاهات وعليها بطاقة 'الخلافة'. لكنّ ما هو الشيء - عدا هذه البطاقة السياسية - الذي يجعل الإسلام مجتمعا؟ ولماذا تماسكه السّياسيّ الذي تبخر بعد قرنين من الزمان لا يعود من جديد؟

إن النظرة من الحافّة تظهر احتمال طرحِ مثلَ هذه الأسئلة. إن الأمر يبدأ من حقيقةِ أن معظم المسلمين خارج شبه الجزيرة العربيّة لا ينحدرون من أصول عربية ... لقد تعلم معظمهم الإسلام بعد أن دخلوا في المجتمع

المسلم، وليس قبل ذلك؛ وإن ما تعلّموه لم يكن أبدا يفترض سمة متجانسةً، وبالرغم من ذلك فإنه منذ القرن الرّابع عشر كانت هناك رغبة قويّة نحو التّجانس المعياريّ».(١)

إضافة إلى ذلك، لا يمكن لأحد أن ينكر الدور المركزيّ للعرب والفرس والأتراك في الاتجاه السّائد لتاريخ الحضارة الإسلاميّة. لكنّ لا يمكن لأحد أيضا أن يتجاهل حقيقة أن حِملَ الحضارة الإسلاميّة الثّقيل في القرنين الآخرين قد ألقي على كاهل العرب، وأنه منذ فترة قصيرة فقط بدأت حوافّ العالم الإسلامي وأطرافه في التجمع وإبراز بعض علامات الاحتشاد حول المركز منتظرة منه أن يجيء بمبادرة لتقوية الروابط داخل الأمة على المستوى العالميّ.

يجب على المركز أن يتحرك بسرعة أكبر

لقد كاد صبر أطراف العالم الإسلام ينفَد وهي تنتظر من المركز اتخاذ خطوة عملية، هذا إذا كان المركز مدركًا فعلاً أنه مركز العالم الإسلامي اليوم، وذلك فيما يتعلق بترجمة الثراء الروحي الفريد للإسلام الذي يمكن أن يُرَى في وحدة العقيدة، ووحدة الهدف، ووحدة العبادة، ووحدة القدر. إن أطراف العالم الإسلامي لا يمكنها أن تفهم هذا البطء في حركة المركز نحو معالجة الكثير من القضايا المعاصرة التي تقف عقبة أمام التطور الأخلاقي والسياسي والاقتصادي للأمة بأسرها. إنّه من الصعب أن تُبيِّن لأجيال الإنترنت سبب فشل المسلمين في تحديد موعد موحد ليوم عيدهم مقدّمًا؛ كما يصعب أيضا أن تبيّن للعقلانيين أن سياسة المسلمين العالميّة مازالت قائمة على أساس القاعدة القائلة بضرورة أن يخسر أحد أعضاء الأمة لكي ينجوَ عضو آخر؛ كما يصعب على النّاس المحترمين أن يؤمنوا بأن المسلمين لا يملكون استراتيجيّة للاقتصاد العالميّ يمكنهم بها تقليل الفقر وزيادة التّعلّم بين المسلمين الذين ما زالوا يعانون - حسب كافة المعايير - من هذين المرَضَيْن الاجتماعيّين أكثر من معاناة أيّة جماعة دينيّة أخرى في العالم.

---

(١) Richard W. Bulliet, Islam: the View from the Edge, Columbia University Press, New York, 1994, pp. 7-8.

البحث عن التآلف

إنني أعتقد أنّه ليس أمام المسلمين اليوم خيار دون إدراكهم أن مستقبلهم يعتمد على قدرتهم في تحقيق التآلف بين ذاكرتهم الماضية والتّاريخ المستقبليّ، مما ينجم عنه تعاون داخليّ لجميع جوانب النِّعَم الرّوحيّة الغنيّة والثمار الفكريّة، وكذلك تفاعل خارجيّ لكافة إمكانيّات تقدُّمِ الحياة البشريّة التي تقدم المعرفة البشريّة الإيجابية للفرد وللمجتمع.

احترام الذّات والثقة المتبادلة

إلى جانب ذلك، يجب على المسلمين اليوم أن يصلوا إلى نقطة احترام أنفسهم، لكي يحظوا باحترام الآخرين لهم، ويجب عليهم أن يعرفوا أن العالم اليوم يقوم على أساس الثّقة المتبادلة التي يحتاج بناؤها وقتا أكثر بكثير من الوقت اللازم لهدمها.

خمسة أمور غير مفهومة عن الاسلام في الغرب

أوّلا: القرآن الكريم - الناس في الغرب لا يريدون أو لا يستطيعون أن يفهموا ان القران الكريم عند كافة المسلمين الكلام المنزّل من عند الله غير قابل للتغيير والتبديل ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق:].

ثانيا: الشريعة - الغرب لا يدرك أن الشريعة الاسلامية للمسلمين هي التشريع الديني والدنيوي في نفس الوقت. ولعل سوء الفهم للشريعة الاسلاميّة في الغرب يأتي بسبب سوء التجربة الغربيّة التاريخيّة مع الكنيسة الكاثولكيّة التي كانت تطبق القانون الكنيسي بدعوى أنه القانون الإلهي على طريقة سيّئة.

ثالثا: محمد رسول الله - الغرب المسيحي واليهود فيه كما يشهد ستيفان شوارتز (Stephen Schwartz): «لا يقبلون محمدا على أنه رسول أرسله الله بدين يخافون منه. اليهود ينكرون بأن عيسى عليه السلام هو المسيح، ولكن الكثيرين منهم يقبلونه على أنه معلم ديني كبير. وهم لا يظهرون حتى ولو نذرا يسيرا من هذا الاحترام تجاه محمد، بل على العكس

من ذلك، فـإن ذلك الرسـول العـربي يُعـامَل بـالسـخـرية والازدراء، بحـيث أن اليهود يتجاهلونه والنصارى يذكرونه بالتجريح والذمّ. إن معظم الغربيين يعتبرون الإسلام عقيدة كريهة عدوانية تعصبية متعطشة للدماء، وغير المسلمين يظهرون محمدا على أنه ضالٌّ وشرس ومخادع. وبهذه الآراء المسبقة المشوهة أبدع اليهود تصورات سيئة عن المسلمين في العالم. وبنفس الأسلوب نجد النصارى المتعصبين ينشرون الأضاليل عن أن الله الذي يعبده محمد ليس نفس الإله الذي يؤمن به اليهود والنصارى»(١).

رابعا: الجهاد - إنّ الغرب يفهم من كلمة الجهاد شيئا واحدا فقط: العنف والإرهاب والحرب ضد الغرب ومؤسساته السياسيّة والاقتصاديّة. ومهما يحاول بعض المسلمين أنْ يبيّنوا أنَّ لكلمة الجهاد معاني نبيلة لتربية النفس الإنسانيّة، فالغرب لا يريد أن يستمع إلى تلك البيانات، بل يردّ عليها بكلمته المشهورة ألا وهي كلمة الصليبيّة (Crusade) والتي يفسّرها الغرب بأنّها تعني الحريّة والديموقراطيّة، ولكنها بالنسبة للمسلمين تعني شيئا واحدا فقط ألا وهو الحرب ضد الإسلام والمسلمين.

خامسا: وضع المرأة - الغرب لا يفهم أن المرأة عند المسلمين حَرَمٌ بمعنى أن لها ذاتها وشخصيتها الإنسانيتين. نعم، هناك بعض الناس من المسلمين الذين يعاملون النساء معاملة سيئة ولكن هذا ليس ناجما عن تعاليم الإسلام، بل هو بالعكس بسبب عدم تطبيقهم لتعاليم الإسلام: فالعفة، والحياء الذي هو نصف الإيمان، والحجاب والإنفاق على النساء ومعاملتهن بالمعروف، وإنقاذ البنات من الوأد ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [**التكوير**]، كل هذا جاء مع الإسلام، حين لم يكن الغرب يُذكر وحين كانت المرأة فيه تذكر بالسوء ليلا ونهارا.

خمسة أمور غير مفهومة عن الغرب في الشرق

اوّلا: الحريّة - الشرق، الذي نعني به هنا العالم الإسلامي عموم

---

(١) Stephen Schwartz, The Two Faces of Islam,2002, pp. 2-3,

لايرفض فكرة الحرية كمبدأ نحو التقدم البشري والتاريخي، ولكن الشرق لا يفهم الحرية على أنها اتجاه نحو الشر مثل الخمر والمخدرات والشذوذ الجنسي والإباحية وغير ذلك من الشرور الاجتماعية التي تسعى بعض الدوائر في الغرب إلى تبريرها باسم الحرية، بل إن الشرق - انطلاقا من القيم الشرقية السامية والعريقة - يفهم الحرية بمعنى «حرية اختيار الخير بدلا من أي شر».

ثانيا: الديموقراطيّة - الشرق ما زال يتردد في قبول النظام الديموقراطي القائم على أسس شرعية السلطة التي تبنى على حق المواطنين بالتصويت، فالشرق لا يريد أن يفهم أن الشعوب المسلمة قد بلغت درجة من النضج تمكنها من حُسن اختيار ممثليها الذين سيقودونها نحو مجتمع أصلح وعدل اجتماعي أفلح. وجدير بالذكر هنا ما أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه المشهور (السياسة الشرعية) حين قال:

سئل الامام أحمد: عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، أحدهما قويٌ فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يُغزى؟ فقال: أمّا الفاجر القويّ، فقوّته للمسلمين، و فجوره على نفسه، و أمّا الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، فيُغزى مع القويّ الفاجر (ص: ١٧)

ثالثا: المؤسّسة - الشرق لا يفهم أهمية المؤسسات في الغرب، وما يزال الشرق يستند في كبريات قضاياه السياسية والاجتماعية وحتى الدينية إلى الأفراد، بعيدا عن المؤسسات التي تضمن له استمرارية الحياة والتاريخ، وانتقال المسؤوليات السياسية والاجتماعية بصورة سلمية، وكما يقال: لا يمكن تحقيق الخير في التاريخ البشري بدون إنسان صالح، ولكن لايمكن للخير أن يبقى دوما في التاريخ إلا بالمؤسسات.

رابعا: حقوق الانسان - لا حاجة لي هنا ان أذَكّر بأن الغرب يستخدم دعوى الدفاع عن حقوق الإنسان ذريعة للتدخل المباشر في شؤون الشرق سياسيا واقتصاديا وعسكريا، ولكن هذه الحقيقة المرة عن تعامل الغرب مع

الشرق باسم الدفاع عن حقوق الإنسان لا تعفي الشرق من مسؤوليته عن تلاعبه بحقوق الإنسان في الشرق، بل يجب على الشرق أن يبادر برعاية حقوق الإنسان، لا ليبرئ نفسه أمام الغرب، بل ليطبق ما أمر به الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وفي سنة رسوله الأمين من احترام لحقوق الإنسان لأنها أولا وآخرا حقوق الله الذي خلق الإنس والجن لا لشيء إلا ليعبدوه، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [**الذاريات**: ٥٦]، فجوهر معنى حقوق الإنسان هو أن يكون الإنسان حرا في عبادته لله وأن لا يكون عبدا في تقديسه لمخلوقات الله.

خامسا: السياسة - أن المسلمين لا يفهمون سياسة الغرب تجاه المسلمين عموما، وتجاه القضية الفلسطينية على وجه الخصوص. ومن المؤكد أن السياسة باعتبارها تعبيرا عن تفوق البعض تكنولوجيا وعسكريا، يمكنها أن تهدد بخرق حقوق الآخرين من المتخلفين تكنولوجيا والعاجزين عسكريا عن مقاومة الظلم والاضطهاد. ومن المؤسف أنه إذا أضيفت إلى ذلك الأفكارُ الدينية المسبقة المصحوبة بسوء النوايا والتصورات الثقافية الخاطئة عن قوم ما، فإن سياسة المتفوق لا تمتلك أعينا ترى بها حقوق المُسْتَضْعَفِ، وفي تلك الحالة تسود قاعدة المتكبر السياسية حيث الغاية تبرر الوسيلةَ دون الالتفات إلى معاناة المستضعف، وهنا يسود الهدف السياسي الذي يتألف من مصلحة المتفوق بالسيطرة على ثروات المستضعف المعنوية والمادية. وهذا ما لا يفهمه المسلمون من غايات سياسة الغرب: حيث أن غاياته السياسية والعسكرية والثقافية والدينية تبرر استخدام كل أنواع الوسائل بما فيها تعذيب السجناء وقتل الأسرى.

وفي الختام نود أن نقول أنه لا جدوى من أن ينتظر المسلمون الغرب حتى يفهمهم ويفهم قيمهم الدينية والسياسية والاقتصادية، بل ينبغي على المسلمين أن يؤمنوا بالله إيمانا صادقا، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يقرر مصير التاريخ البشري رغم كل ما يدبره الغرب أو الشرق. فلذلك يجب

عليهم ويحق لهم أن يقتبسوا من الغرب كل ما ينسجم مع المجتمع المسلم في الأمور الخمسة السابقة الذكر، ألا وهي القرآن والشريعة والرسول والجهاد والمرأة.

فإلى الله قصد السبيل، ومنها جائر. صدق الله العظيم.

أبيض

الحوار والتعايش الإنساني
في
ضوء الخطاب الإسلامي

إعداد:

المستشار الدكتور

مطيع الله بن دخيل الله الصرهيد الحربي

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

أحمدك ربي وأشكرك، وأثني عليك الخير كلّه لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، وأصلي وأسلم على عبدك وحبيبك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.. وبعد:

فإن الله سبحانه وتعالى قد كرّم بني آدم، وحملهم في البر والبحر، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [**الإسراء**: ٧٠]، وجعلهم شعوباً وقبائل؛ ليتعارفوا، ومن آياته فيهم اختلاف ألسنتهم وألوانهم، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [**الحجرات**: ١٣].

وقد جعل: اللغة أرقى وسائل الاتصال بين البشر، فبواسطتها يتواصل الناس ويتبادلون الأفكار.

ثم طور الناسُ -عبر العصور- أساليب التواصل وأشكال التفاهم فيما بينهم، وقد ارتبط ذلك بمدى رقيّهم الحضاري وتمدنهم، فكلما ازداد الناس تحضراً، وأوغلوا في التمدن تنوعت أساليب الاتصال بينهم وارتقت.

ومن أساليب التواصل والتفاهم التي عرفت في كثير من المدنيات القديمة: أسلوب الحوار الذي يعد من أرقى أساليب التواصل، والتفاهم من أجل التعايش الإنساني التي عرفها الناس.

وفي عصرنا الحاضر زاد الاهتمام بالحوار، وأصبحت له مراكز ومنتديات في الدول المتقدمة؛ إدراكاً منها لأهمية الحوار في تحقيق التفاهم، والتواصل بين الناس، والتعايش الإنساني بين البشر، واعتمدوه وسيلة لحل المشاكل، وتقريب وجهات النظر المتباينة، وتوثيق الصلات بين مختلف الأطراف.

وقد تنوعت أشكال الحوارات في عصرنا الحاضر، من حوار سياسي

إلى حوار اقتصادي، واجتماعي إلى حوار ثقافي، وديني إلى غير ذلك من أشكال الحوار.

وتكمن أهمية الحوار في أنه وسيلة فعّالة لتبادل الرأي في موضوعات محددة؛ يسهل بواسطته الوصول إلى نتائج مثمرة، كما أنه يوفر فرصة مناسبة لتقريب وجهات النظر بين أطراف مختلفة، وإيجاد قواسم مشتركة بين المتحاورين.

وبذلك فهو يسهم في تبادل المتحاورين أفكار بعضهم البعض؛ مما يمكنهم من إثراء موضوع الحوار من خلال إبداء الرأي فيه.

كما أن الحوار يولّد الأنس بين المتحاورين، ويزيل سوء الظن، ويمهد الطريق إلى قبول رأي المخالف واحترامه.

ويأتي التأكيد على ضرورة دفع الحوار الحضاري والثقافي قُدماً على المستوى الدولي والعالمي لأجل التفاهم بين الناس وتحقيق التعايش الإنساني الذي صار مطلباً مُلِحاً في عصرنا الحاضر بعدما ازدادت الصراعات والنزاعات الدولية وطغت لغة القوة وظهرت من بعض القوى الدولية الرغبة في الهيمنة والسيطرة.

وأصبح من الضروري أمام هذا الوضع المتفجر: أن يتكاتف العقلاء من أجل تشجيع الحوار، والدعوة إلى التعايش بين الناس في سلام.

ويتوجب على المسلمين في هذا العصر أن يسهموا بفاعلية في الدعوة إلى الحوار من أجل التعايش من خلال تقديم المباديء الإسلامية السامية، التي فيها الخير والفلاح للبشرية جمعاء لينعم العالم في ظلها بالسلام والأمان، فالإسلام كان سباقاً في الدعوة إلى التعايش الإنساني، والحوار كان أسلوباً متميزاً من أساليب الخطاب الإسلامي كما تدل على ذلك الشواهد الكثيرة من الكتاب والسنة.

وبمناسبة انعقاد المؤتمر الخامس الذي تنظمه رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة تحت عنوان: (الحوار الحضاري والثقافي) يسعدني أن أقدم

بحثاً يؤصل لفكرة الحوار والتعايش الإنساني في الإسلام بعنوان: (الحوار والتعايش الإنساني في ضوء الخطاب الإسلامي) وقد جعلته في فصلين إضافة إلى مقدمة، وفصل تمهيدي وخاتمة.

المقدمة: بينت فيها أهمية الحوار؛ كأسلوب من أرقى أساليب التواصل، والتفاهم البشري من أجل التعايش الإنساني بين البشر.

والفصل التمهيدي: جعلته في الدعوة إلى الحوار من أجل التعايش، ورفض منطق القوة.

والفصل الأول: الحوار في الخطاب الشرعي، ويتضمن أربعة مباحث:

المبحث الأول: في مفهوم الحوار، والفرق بينه وبين ما يتصل به من ألفاظ.

المبحث الثاني: في بيان أصول الحوار وآدابه.

المبحث الثالث: نماذج من الحوار القرآني والحوار النبوي.

المبحث الرابع: وظيفة الأسلوب الحواري في الخطاب الإسلامي.

الفصل الثاني: التعايش الإنساني في الإسلام ومرتكزاته، ويتكون من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : التعايش الإنساني في الإسلام حقيقة ثابتة وليست شعارات جوفاء.

المبحث الثاني: مرتكزات التعايش الإنساني في الإسلام.

المبحث الثالث: السلام العالمي بين الفكر الغربي والإسلام.

الخاتمة: وتضمنت أهم نتائج البحث.

وهذا أوان الشروع في المقصود، والله الهادي إلى سواء السبيل .

صفحة أبيض

فصل تمهيدي

الدعوة إلى الحوار من أجل التعايش ورفض منطق القوة

صفحة أبيض

(الدعوة إلى الحوار)

لقد كثر الحديث في السنوات الأخيرة عن ضرورة تغليب لغة الحوار من أجل الوصول إلى تعايش إنساني في العالم لجميع الأمم والحضارات ومختلف الثقافات.

وقد جاء هذا التوجه، والرغبة العالمية في الحوار من أجل التفاهم والتعايش الإنساني رداً على غطرسة القوة والرغبة في الهيمنة لدى بعض الدول العظمى، والتي بدأت ملامحها تظهر في شكل غزو مباشر لبعض الدول المستقلة تحت مسمى الحرب الاستباقية، أو الحرب ضد الإرهاب كما تروّج لها بعض أجهزة الإعلام الغربية.

وهذا النزوع إلى الصراع، والإفراط في استعمال القوة والتهديد بها ممن يتفرد بها أقلق العقلاء في العالم، ورأوا فيه نذير شؤم يبشر بحقبة جديدة تزداد فيها الصراعات، وتكثر فيها الحروب، ويعبّر عن فشل ذريع للمجتمع الدولي في مجال الوصول إلى تعايش سلمي وإنساني بين دول العالم.

ويرى بعض المحللين للأحداث الحالية: أن بعض الدول العظمى تسعى إلى تحقيق مشروع إمبراطوري تفرض من خلاله هيمنتها على بقية العالم تحت شعار نشر الديمقراطية، على غرار ما فعلته الدول الاستعمارية بالأمس عندما كانت تزعم أنها تسعى لإخراج الشعوب المستضعفة من التخلف والهمجية، وإلحاقهم بركب الحضارة والتقدم، في حين كان هدفها الأساسي استغلال مقدرات الشعوب والاستيلاء على ثرواتها، واستغلال طاقاتها في بناء المجتمع الصناعي في الغرب.

ولقد تفاءل العالم بانتهاء الحرب الباردة، ورغب العقلاء في استبدال منطق القوة بمنطق العقل على مستوى العلاقات بين الدول، غير أنه لم تَمْضِ إلا سنوات قليلة حتى عاد منطق القوة يعلو من جديد على منطق

العقل، وأمام هذا الوضع تنادى العقلاء فزعين بضرورة تغليب لغة الحوار ونبذ لغة القوة من أجل التعايش الإنساني؛ لأن استخدام القوة ما جلب إلا الخراب والدمار للعالم، ولا أدل على ذلك من حربين عالميتين أزهقت أرواح ملايين البشر، وتركت آثاراً مدمرة بقيت عشرات السنين ولا زالت انعكاساتها على المستوى السياسي قائمة إلى هذا اليوم.

وفضلاً عن هذا فإن الإعداد للقوة العسكرية، والانفاق على التسلح صار يأكل مدخرات الشعوب، ويؤثر بشكل مباشر على التنمية الاقتصادية فيها مما يتوجب السعي معه إلى الحيلولة دون سيادة منطق القوة.

ومن بين الجهود الحثيثة التي بذلت في المناداة بتغليب لغة الحوار والتعايش بين الحضارات، والثقافات على المستوى الدولي نذكر جهود الجمعية العامة للأمم المتحدة، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وبعض الهيئات الدولية فقد أصدرت قرارات عدّة ترفض منطق القوة، وتدعو إلى الحوار من أجل التعايش الإنساني.

أولاً: قرارات الأمم المتحدة:

صدرت قرارات عديدة من الأمم المتحدة تندد باستعمال القوة، وترفضها وتدعو إلى الحوار والتعايش، ومنها:

- قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٢٢/٥٣ الذي أعلنت فيه أن عام (٢٠٠١م) سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات، وأعربت عن عزمها على تيسير الحوار بين الحضارات وتشجيعه، ودعت فيه الحكومات ومنظومة الأمم وغيرها من المنظمات الدولية وغير الحكومية ذات الصلة إلى تخطيط وتنفيذ برامج ثقافية وتعليمية واجتماعية ملائمة لتعزيز مفهوم الحوار بين الحضارات(١).

- قرار الأمم المتحدة رقم ٢٣/٥٥ الذي أعادت فيه التأكيد على بذل جهد

---

(١) الدورة الثالثة والخمسون (البند ١٦٨)للجمعية العامة للأمم المتحدة يوم ١٩٩٨/١١/٤م .

جماعي لتعزيز العلاقات الودية بين الأمم المتحدة، وإزالة التهديد للسلام، وتعزيز التعاون الدولي في حلّ القضايا الدولية ذات الطابع الاقتصادي، والاجتماعي والثقافي والإنساني، تعزيز الاحترام العالمي لحقوق الإنسان، والحريات الأساسية للجميع، وتشجيع نشر ثقافة تقوم على السلام والحوار بين الحضارات واحترام الإنسان لأخيه الإنسان على اختلاف المعتقدات والثقافات واللغات.

وتدعو الحكومات إلى تشجيع أفراد المجتمع على المشاركة في الترويج للحوار بين الحضارات، وتقرر إدراج البند المُعنّون (سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات) في جدول الأعمال المؤقت لدورتها السادسة والخمسين.

- قرارها الذي تدعو فيه جميع الحكومات ومؤسسات التمويل، ومنظمات المجتمع المدني، والقطاع الخاص إلى التبرع للصندوق الاستثماري الذي أنشأه الأمين العام سنة (١٩٩٩م) لتعزيز الحوار بين الحضارات[١].

ثانياً: قرارات منظمة المؤتمر الإسلامي:

أصدرت منظمة المؤتمر الإسلامي قرارات عديدة ترفض فيها منطق القوة،

وتندد بها، وتدعو إلى الحوار والتعايش، منها:

- قرار رقم ١٣-٢٦ث بشأن الحوار بين الحضارات المعاصرة الذي أعلن فيه: أن الحوار بين الحضارات المعاصرة هو المخرج الوحيد المتاح أمام البشرية للتعاون المشترك على إيجاد نظام جديد يستند إلى القيم الأخلاقية العليا المشتركة فيما بينها[٢].
- قرار رقم ١٤/٩ث (ق.إ) حول الإعلان العالمي للحوار بين الحضارات، وذكّرت فيه بإعلان طهران الصادر في ١٢/١٩٩٧م عن مؤتمر القمة الإسلامي

---

(١) الدورة الثالثة والخمسون (البند ٣٢) الجمعية العامة للأمم المتحدة .

(٢) الدورة السادسة والعشرون للمؤتمر الإسلامي لوزراء الخارجية (دورة السلام والشراكة من أجل التنمية) المنعقد في (كينا فاسو) من ٥ إلى ١٨ ربيع الأول ١٤٢٠هـ الموافق ٢٨/يونيو إلى ١/يوليو/١٩٩٩م .

الثامن المتضمن التأكيد على أن الحضارة الإسلامية تقوم على أسس ثابتة - وعلى مدى التاريخ- على التعايش السلمي، والتعاون بين الديانات والأفكار الأخرى، والتأكيد أيضا على ضرورة قيام تفاهم، وتفاعل بين الثقافات بما يتفق مع التعاليم الإسلامية المتمثلة في التسامح والعدل.

- وكذلك يؤمن بأن الحوار الفعلي والصادق بين الحضارات: يكرّس الثقة بين الأمم، ويضع أسس متينة للتفاعل السلمي فيما بينها، يؤدي إلى رفض الإدعاءات التي تروج للصراع بين الحضارات، ويعرب عن إيمانه الراسخ بالإسهام الكبير للثقافة الإسلامية على مدى العصور في التراث الإنساني في جميع المجالات، وقدرتها على مواصلة تفاعلها، وإثرائها لغيرها من الحضارات الإنسانية المعاصرة؛ لاسيما في عصر العولمة وثورة تكنولوجيا الاتصال[(١)].

- قرار رقم ٢٨/٣ث بشأن الإعلان العالمي للحوار بين الحضارات، صدرت بموجبه الموافقة على وثيقة الإعلان العالمي حول الحوار بين الحضارات، ورحب القرار بتكليف الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي بتكليف (الإيسيسكو) بإصدار كتاب أبيض وثائقي عن الحوار بين الحضارات باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية[(٢)].

ونحن المسلمون إذْ نثمّن ونشكر هذه الجهود العالمية المبذولة من أجل الحوار والتعايش الإنساني بين الناس ننبه إلى أن الحوار مبدأ أصيل في الخطاب الإسلامي، وإن التعايش الإنساني مطلب شرعي أكد عليه الإسلام منذ خمسة عشر قرناً.

ونقول للعالم اليوم إنه يمكنه الاستفادة من التراث الإسلامي في مجال تفعيل الحوار من أجل التعايش الإنساني؛ فالحضارة التي بناها الإسلام حضارة حوار، وتفاهم وتعايش بين الأمم والشعوب.

---

(١) الدورة التاسعة لمؤتمر القمة الإسلامي (دورة السلام والتنمية وانتفاضة الأقصى) المنعقدة في الدوحة بقطر يومي ١٦و١٧/شعبان/١٤٢١هـ الموافق ليومي ١٢و١٣/نوفمبر/٢٠٠٠م .

(٢) الدورة الثامنة والعشرون للمؤتمر الإسلامي لوزراء الخارجية (دورة السلام والتنمية - انتفاضة الأقصى) المنعقدة في (ياماكو- مالي) خلال الفترة من ٤-٦/ربيع الثاني/١٤٢٢هـ الموافق ٢٥-٢٧/يونيو/٢٠٠١م .

الفصل الأول

الحوار في الخطاب الإسلامي

ويتكون من أربعة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الحوار، والفرق بينها وبين ما يتصل به من ألفاظ.

المبحث الثاني: أصول الحوار وآدابه في الإسلام.

المبحث الثالث: نماذج من الحوار القرآني والنبوي.

المبحث الرابع: وظيفة الأسلوب الحواري في الخطاب الإسلامي.

صفحة أبيض

المبحث الأول

مفهوم الحوار، والفرق بينه وبين ما يتصل به من ألفاظ

أولاً: مفهوم الحوار:

١- تعريف الحوار لغة:

الحوار في اللغة مأخوذ من الحَوْرِ، والمراد به: الرجوع.

- **يقول ابن فارس:** (حَوَرَ) الحاء والواو والراء، ثلاثة أصول أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دوراً.

وأما الرجوع، فيقال حار، إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ**﴾ [**الانشقاق**: ١٤].

- **والعرب تقول:** «الباطل في حَوْر» أي رجع ونقص، وكل نقص ورجوع حَوْر.

والحوْرُ: مصدر حار يحور حوراً: إذا رجع، تقول: «نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر» وهو النقصان بعد الزيادة(١).

- **ويقول ابن منظور:**

كلّمته فما رجع إليّ حَوَاراً، وحِوَاراً، ومحاورةً، وحويراً، ومحورةً: أي جواباً.

والاسم من المحاورة: الحوير، تقول: سمعت حويرَهما وحوارَهما، والمحاورة: المجاوبة، والتحاور والتجاوب(٢).

- **ويقول الزبيدي:**

والمحاورة: المجاوبة، ومراجعة النطق والكلام في المخاطبة، وتحاوروا: تراجعوا في الكلام بينهم(٣).

---

(١) معجم مقاييس اللغة ، مادة حور ، ص ١١٥ - ١١٧ .

(٢) لسان العرب ، مادة حور ٢١٨/٤ .

(٣) تاج العروس ، مادة : حور ١٦٢/٣ .

ومما سبق يتضح لنا: أن الحِوَار والمحاورة تطلق على معانٍ عدّة هي:

١- الرجوع والمراجعة عن الشيء وإليه.

٢- النقصان: بعد الزيادة، وهو رجوع عن الزيادة إلى النقصان.

٣- المجاوبة في الكلام ومراجعة النطق.

والمعاني الثلاث للحِوَار والمحاورة لا تخرج عن الرجوع والمراجعة، فالنقصان بعد الزيادة معناه الرجوع عن الزيادة إلى النقصان.

والمجاوبة في الكلام وفي النطق: معناها إرجاع الجواب إلى المحاور، أو ردّه على المتكلم بكلام يماثله.

وإذا كان معنى الحوار يدور على الرجوع والمراجعة: فإنه لا يتصور وجوده إلا من طرفين على الأقل، يتبادلان الحديث ويتناوبان الكلام، يتكلم أحدهما فيجيبه الآخر بحديث مماثل.

وبذلك يكون المقصود بالحوار والمحاورة في اللغة: هو تداول الحديث، وتناوب الكلام بين طرفين فأكثر في موضوع معين.

٢- تعريف الحوار اصطلاحاً:

إن المتتبع لمعنى الحوار في الاصطلاح: يجد أنه لا يكاد يخرج عن معناه اللغوي، ومن أهم هذه التعريفات ما يلي:

١- الحوار: عبارة عن محادثة بين شخصين أو فريقين، حول موضوع محدد لكل منهما وجهة نظر خاصة به، هدفها الوصول إلى الحقيقة، أو إلى أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر، بعيداً عن الخصومة أو التعصب، بطريق يعتمد على العلم والعقل، مع استعداد كلا الطرفين لقبول الحقيقة، ولو ظهرت على يد الطرف الآخر(١).

٢- الحوار هو: مراجعة الكلام وتبادله بين طرفين متخالفين في وجهات

---

(١) ذكر هذا التعريف بسام داود عجك في كتابه (الحوار الإسلامي المسيحي) ص٢٠ .

النظر، ينتصر كل منهما لرأيه، ويقدم دليله على معتقده؛ رغبة في أن يظهر الحق لأحدهما، ويلتقي الطرفان على رأي واحد يجمعهما(١).

٣- الحوار: عبارة عن مسار سجالي، ووسيلة لكشف الوجود بالخطاب العقلي، ينطلق من الرغبة إلى المعرفة الموصلة إلى جوهر(٢).

(مناقشة التعريفات)

إذا تأملنا هذه التعريفات نجدها متقاربة؛ فهي تصور الحوار على أنه سجال بين طرفين لكل منهما وجهة نظر خاصة، ويهدفان للوصول إلى الحقيقة، أو توافق الرأي في موضوع محدد.

ومن خلال هذا التصوّر للحوار يمكن القول بأنه يقوم على أربعة أركان أساسية هي:

١- وجود طرفين:

والمقصود به وجود شخصين، أو طرفين فأكثر، ولا يتصور حوار بوجود طرف واحد، كما أن الحوار لا يقتصر على شخصين، بل قد يكون مع مجموعتين من الأشخاص أو أكثر.

٢- اختلاف الطرفين في وجهة النظر:

لابد أن يكون لكل من طرفي الحوار: وجهة نظر مختلفة عن الطرف الآخر، فكل طرف من الطرفين له رؤيته الخاصة؛ لأنه إذا كان هناك توافق حول موضوع الحوار فلا حاجة للحوار عندها.

٣- وجود موضوع محدد للحوار:

الركن الثالث في الحوار: هو وجود موضوع محدد، أو موضوعات للحوار، فلا يكون الحوار مطلقاً دون تحديد موضوع معين للحوار، بل لابد أن يتحدد الحوار حول موضوع معين قبل البدء في التحاور.

---

(١) عرفه الدكتور محمد سيّد أحمد المسيّر في كتابه (الحوار بين الجماعات الإسلامية) ص١٣ .
(٢) عرفه الدكتور خليل أحمد خليل في كتابه (معجم المصطلحات الفلسفية) ص٦٨ .

٤- الرغبة في معرفة الحقيقة أو الوصول إلى اتفاق:

الركن الرابع في الحوار: هو الرغبة في معرفة الحقيقة، أو الوصول إلى الاتفاق، وهو هدف الحوار أو المقصود من الحوار، ولا فائدة من حوار بلا هدف، أو مقصد أو غاية؛ لأنه أمر لا معنى له؛ فالمقصود من الحوار: هو معرفة حقيقة الموضوع الذي من أجله عقد الحوار، أو قد يكون الغرض منه الوصول إلى اتفاق في وجهات النظر؛ بمعنى إقرار كل طرف للآخر بوجهة نظره المختلفة حول الموضوع مع الاتفاق على ما يجمع بين الطرفين، فهذه الأركان الأربعة التي سبق ذكرها لا يتصور حوار بدون واحد منها.

(التعريف المقترح للحوار)

بناءاً على ما أوضحته في أركان الحوار، يمكن صياغة تعريفٍ جديدٍ للحوار، فأقول الحوار: هو حديث بين طرفين فأكثر، اختلفت نظرتهماً حول موضوع محدد، يقصدان به معرفة الحقيقة، أو التوصل إلى اتفاق.

فقولنا: حديث بين طرفين فأكثر: يشمل شخصين أو أكثر، أو مجموعتين أو أكثر، ويخرج الطرف الواحد سواء كان شخصاً واحداً، أو مجموعة واحدة.

وقولنا: اختلفت نظرتهما: يخرج الحديث الذي اتفقت فيه وجهة النظر، فهو لا يسمى حواراً، وقولنا: حول موضوع محدد: يخرج به ما ليس له موضوع محدد، حيث لا يسمى حواراً.

وقولنا: يقصدان معرفة الحقيقة أو التوصل إلى اتفاق: يخرج به ما خلا عن قصد معرفة الحقيقة،أو ما لا يهدف منه إلى اتفاق فلا يسمى حواراً، وإنما هو جدال.

ثانياً: الألفاظ ذات الصلة بالحوار والفروق بينها وبينه:

توجد مصطلحات عدة لها صلة بالحوار، يقتضي الحال ذكرها، مع بيان معانيها في اللغة والاصطلاح، وإيضاح وجه الصلة بينها وبين مصطلح الحوار، ثم إظهار الفروق بينها وبين الحوار.

وأهم المصطلحات التي لها صلة بمصطلح الحوار هي: الجدال، المناظرة، النقاش أو المناقشة.

(معنى الجدل، والفرق بينه وبين الحوار)

- **معنى الجدال في اللغة:** مأخوذة من جَدَل يَجْدِلُ الحبل: بمعنى أحكم فَتْلَه[1].

ويقال جدَلَ الرجل جَدْلاً، فهو جَدِلٌ: إذا اشتدت خصومته[2].

ويقال: جَادَل مُجَادلة، وجِدَالاً: إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق[3].

والجِدَالُ، أو الجَدَل معناه: شدة الخصومة والقدرة عليها، والمجادلة معناها: المخاصمة[4].

- **معنى الجدل في الاصطلاح:** عرّف الجدل بتعريفات عدّة منها:

- الجدل: هو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله؛ بحجة أو شبهة، أو بقصد تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة[5].

- الجدل عند فلاسفة اليونان المتأخرين يطلق على معنيين:

الأول: القدرة على الاستدلال الصحيح[6].

الثاني: المراء المتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها والتفنن في إيراد ما لا نفع فيه من البيانات الدقيقة[7].

وبهذا يكون الجدل في التعريف الأول هو: مدافعة بين طرفين، أحدهما يسعى لإبطال وإفساد قول خصمه، والآخر يرده ويدفعه، وهو بهذا المعنى

لا يخرج عن كونه خصومة بين طرفين يسعى كل من الطرفين فيها إلى الانتصار لنفسه، والتغلب على خصمه في الكلام.

---

(١) انظر : مادة جدل في القاموس المحيط ، ص١٢٦١ .
(٢) انظر : مادة جدل في المصباح المنير .
(٣) المصباح المنير : مادة جدل ، ص١٢٨ .
(٤) انظر : لسان العرب مادة جدل ٢/ ٢١٢ .
(٥) التعريفات ، للجرجاني ، ص٥١ .
(٦) المعجم الفلسفي ، للدكتور جميل صليبا ، ص٣٩٣ .
(٧) المعجم الفلسفي ، ص٣٩٣ .

وفي التعريف الثاني يكون الجدال عند بعض فلاسفة اليونان: بمعنى الاعتماد على قوة المهاترة، والإلحاح على حساب التفكير، والحجة الواضحة(١).

- **وجه الصلة بين الحوار والجدال:**

تظهر الصلة بين الحوار والجدال في أمرين هما:

- وجود طرفين مختلفين يتبادلان الحديث بينهما.
- موضوع معين يختلفان عليه يسعيان للفصل فيه.

(الفروق بين الحوار والجدال)

يفترق الحوار عن الجدال بأمرين هما:

- عدم وجود خصومة بين الطرفين في الحوار، بخلاف الجدال فالخصومة فيه واضحة.
- الهدف والغاية في الحوار تختلف عنه في الجدال؛ ففي الحوار قصد الوصول إلى الحق ظاهر، بينما في الجدال لا يوجد هذا القصد، وإنما توجد رغبة في التغلب على الخصم وإسكاته عند كلا الطرفين.

(معنى المناظرة، والفرق بينها وبين الحوار)

- **معنى المناظرة في اللغة:**

المناظرة في اللغة مشتقة من النظير أو من النظر(٢).

- **معنى المناظرة في الاصطلاح:**

- عرفها صديق قنوجي بأنها: «علم باحث عن أحوال المتخاصمين؛ ليكون ترتيب البحث بينهما على وجه الصواب حتى يظهر الحق بينهما»(٣).

فالحوار يختلف عن المناظرة لأنه لا يقوم على وجود متضادين أو متخاصمين كالمناظرة.

---

(١) انظر: المنطق الحديث ومناهج البحث لمحمود قاسم، ص١٣، وانظر: فلسفتنا، لمحمد باقر الصدر، ص١٩٠.
(١) انظر: مادة نظر في لسان العرب ١٤/١٩١، القاموس المحيط ٢/١٤٤.
(٣) أبجد العلوم ١/٤٧.

المبحث الثاني

(أصول الحوار وآدابه)

أولاً: أصول الحوار:

إذا أردنا النجاح للحوار فلابد من مراعاة أصوله، وما لم يكن المحاور على دراية بهذه الأصول ومراعياً لها: فإنه لن يحقق التقدم المرجو من الحوار.

وأهم الأصول التي يستلزم توفرها في الحوار ما يلي:

١- مخاطبة المحاور حسب مستواه العلمي والفكري، وبقدر ما يفهمه؛ الأمر الذي يتطلب معه الإلمام بنفسية المحاور، ومستواه الفكري والعلمي، وقدراته الذهنية والثقافية على الفهم والإدراك.

٢- تمكين المقابل من إبداء وجهة نظره كاملة، وإظهار رأيه بوضوح؛ مما يقتضي معه عدم مقاطعته أثناء العرض.

٣- حسن الإصغاء والاستماع للآخرين، وتفهم ما يقولون تفهماً تاماً.

٤- الالتزام بحدود الموضوع المطروح للنقاش، وعدم التطرق إلى غيره حتى يفصل فيه، أو يؤجل البحث فيه.

٥- تجنب إحراج المقابل، أو إرباكه، أو استفزازه عن طريق اللجوء إلى بعض الأساليب الاستفزازية، أو الغمز في الكلام، أو سوى ذلك مما هو معروف.

٦- الانطلاق من مبدأ: أن الحق والصواب ليس حكراً على شخص دون آخر.

٧- البعد عن اللجاج في الكلام، أو المغالبة فيه؛ برفع الصوت والتهديد، والتحذير بقصد قمع المحاور.

٨- عدم الحكم - مسبقاً- على آراء المقابل بأنها باطلة ومرفوضة.

٩- أن يكون الهدف من الحوار: هو الوصول إلى الحق، والتعرف على الرأي الآخر؛

مهما كان الخلاف معه، ومحاولة تقريب وجهات النظر في الموضوع ما أمكن.

١٠- احترام المقابل وعدم الحط من شأنه، وتوجيه النقاش لما يحمله من أفكار، وليس لشخصه، أو ما يعتقده ويؤمن به.

١١- تحديد الهدف الخاص للحوار، ومحاولة الوصول إلى النتيجة، وإلا ضاعت فائدة الحوار(١).

ثانياً: آداب الحوار:

للحوار آداب يجب أن يلتزم بها المتحاورون؛ لجعل الحوار ودياً وهادفاً، الأمر الذي يساعد على إنجاحه وتفعيله، وتحقيق النتيجة المرجوة منه، ومن أهم هذه الآداب ما يلي:

١- التحلي بالهدوء ولزوم السكينة، وتجنب الإثارة والانفعال؛ لأن ذلك يتيح المجال لتوارد الأفكار وتوالدها؛ ويؤدي إلى إثراء الموضوع وإغنائه.

٢- البعد عن التنطع في الحديث، والتكلف فيه، والتشدق في الكلام، وتجنب الثرثرة؛ لأن ذلك أمور مكروهة في الحوار، ومذمومة في جميع الأحوال، ومنهي عنها شرعاً يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً الثرثارون والمتفيهقون والمتشدقون»(٢).

٣- الاعتراف بالخطأ والتراجع عنه؛ فالرجوع إلى الصواب فضيلة، وقد ضرب سلفنا الصالح مثلاً طيباً في ذلك.

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم كان خليفة للمسلمين: أراد مرة أن يحدد المهور، فأعلن ذلك على المنبر، فقامت امرأة من المسلمين واعترضت عليه. وقالت ليس لك ذلك يا أمير المؤمنين لقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾ [النساء: ٢٠]، فقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

---

(١) من الكتب النافعة في أصول الحوار: كتاب (في أصول الحوار) الذي أصدرته الندوة العالمية للشباب الإسلامي وطبع طبعات عدة، وكانت الطبعة الأولى عام ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ٤/١٩٣.

٤- التروي والتفكر قبل إبداء الرأي، أو إظهار الاعتراض.

٥- اختيار المؤهلين للحوار: يجب أن يختار المتحاورون ممن لهم نصيب من الحكمة، حتى يضعوا الأمور في نصابها، فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها التقطهما وهي: وضع الشيء في نصابه[١] أو هي:إصابة الحق بالعلم والعقل[٢]، قال تعالى: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [**البقرة**: ٢٦٩].

٦- التواضع للمقابل، وعدم التعاظم والتعالي عليه، والبعد عن ترهيبه أو قهره؛ حتى لا يسلّم دون قناعة صادقة.

فهذا القرآن الكريم يعلم المصطفى صلى الله عليه وسلم: كيف يتواضع في الحوار مع الآخرين حيث يقول الله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾ [**الكهف**: ١١٠].

فقد أمر الله تعالى في القرآن العظيم رسوله الكريم: أن يبين لهم إنما هو بشر مثلهم، ولم يتفضل عليهم إلا بتلك الرسالة، ومهمته التبليغ والبيان والتوجيه.

٧- انتقاء الألفاظ الطيبة، والكلمات المهذبة اللطيفة، ونبذ الألفاظ النابية، والكلمات الجارحة؛ فإن مراعاة ذلك يشجع على استمرار الحوار ويثريه، ويجعل النفوس تنشرح له.

فيجب إلزام المحاورين باختيار الكلام الطيب، وعدم استعمال السيئ منه؛ لأن ذلك يثير حفيظة النفوس،وينشر السخط بين المتحاورين؛ ويقلل من فائدة الحوار.

وقد نبهنا المولى تبارك وتعالى إلى اختيار الألفاظ الطيبة في الحديث العابر، وعدم استعمال السيئ منها؛ لأن الشيطان يستغل الألفاظ السيئة التي تصدر من الناس، ليلقي العداوة والبغضاء بينهم.

---

(١) انظر : مادة حكم في المصباح المنير .

(٢) انظر : المفردات في غريب القرآن للأصبهاني ، ص١٨١ .

وإذا كان الأمر كذلك في الحديث العابر فمن باب أولى الالتزام به في الحوار. يقول الله تعالى: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا** ﴾ [**الإسراء**: ٥٣].

يقول القرطبي: «أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين بحسن الأدب والأناة في القول، وخفض الجناح، واطراح نزغات الشيطان؛ لأنه ينزغ بينهم ويوحي إليهم بالعداوة والبغضاء»(١).

٨- الالتزام بالصراحة في الحوار، وتجنب المداهنة؛ ليكون الحوار مثمراً ونافعاً.

ولا يفهم من ذلك بأن التأكيد على التقيد بآداب الحوار يعني المجاملة والمداهنة، والمجاراة في الحديث، بل المطلوب الالتزام بآداب الحوار لعرض الحقائق كما هي، وبذل الجهد في مناقشة المسائل، وإبداء الرأي فيها بصدق وصراحة ووضوح.

أما إذا تحول التقيد بآداب الحوار إلى مجاملة أو مداهنة: فإن الحوار عندها لا يُنتظر منه فائدة كبيرة، ولا يحقق النتائج المرجوة منه، ولا يغدو في النهاية سوى اجتماع تعارف، وتواصل لا يحقق الأهداف والنتائج المؤمل الوصول إليها.

لذلك وجب التحلي بآداب المحاورة، وتجنب المجاملة - قدر المستطاع - في الحوار، والالتزام بالصراحة والوضوح بين الطرفين، وسلوك أسهل الطرق؛ لإيضاح الحقائق، من خلال الدعوة باللين والحكمة والموعظة الحسنة، والمحاورة بالتي هي أحسن مع الصديق والعدو على حدٍّ سواء.

قال تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [**آل عمران**: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [**النحل**: ١٢٥].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠/٢٧٧.

المبحث الثالث

(نماذج من الحوار القرآني والنبوي)

أولاً: نماذج من الحوار القرآني:

القرآن الكريم مليء بالحوارات المتنوعة؛ سواء من حيث أشخاص الحوار أو موضوعاته.

فمن حيث أشخاص الحوار وتنوع المتحاورين: نجد في القرآن الكريم حوارات بين الخالق وخلقه، ومنها:

- حوارات المولى تبارك وتعالى مع بعض المخلوقات غير العاقلة كالسماوات والأرض.
- حوارات الخالق مع بعض المخلوقات العاقلة؛ كالملائكة والإنس والشيطان.

كما نجد في القرآن الكريم حوارات بين المخلوقات فيما بينها؛ كحوار آدم مع إبليس اللعين، وحوارات بعض الملائكة مع بعض الإنس، وحوارات بعض الإنس مع بعضهم البعض كحوارات الرسل مع أقوامهم.

وأما من حيث موضوعات الحوار؛ فقد تنوعت كثيراً وشملت القضايا العقدية؛ كالدعوة إلى توحيد الله، ونبذ الشرك، والإيمان بالرسل والملائكة، واليوم الآخر. كما شملت الحوارات: قضايا التحريم والتحليل، والتأكيد على أنها من اختصاص الخالق وحده.

وسوف أورد نماذج من الحوارات القرآنية على النحو التالي:

١- أمثلة من حوار الخالق مع بعض خلقه:

(أ) حوار الخالق تبارك وتعالى مع الملائكة حول خلق آدم عليه السلام:

يقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا**

تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

يقول ابن كثير: «وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله - تعالى - ولا على وجه الحسد لبني آدم كما يتوهم البعض، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، ولا يصدر منا شيء من ذلك، فهلا وقع الاقتصار علينا»(١).

(ب) حوار المولى تبارك وتعالى مع بعض رسله عليهم السلام، ومن ذلك حواره تعالى مع نبيه عيسى عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة]

٢- حوار الخالق مع بعض الناس:

- ومن أمثلة ذلك حوار الخالق مع الكافرين بعد الموت:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى

---

(١) تفسير ابن كثير ٦٩/١ .

وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنعام].

٣- حوار الرسل مع أقوامهم:

نقل القرآن الكريم طرفاً واسعاً من حوارات الرسل والأنبياء مع أقوامهم،ومن أمثلة ذلك:

قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

٤- حوار الملائكة مع بعض البشر:

ومن أمثلة ذلك: حوار الملائكة مع مريم عليها السلام.

قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم].

٥- حوارات بعض الناس فيما بينهم:

ومن أمثلة ذلك: حوار قابيل وهابيل.

قال الله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾ [المائدة].

ومن ذلك أيضاً: حوار قارون وبعض الناصحين من قوم موسى عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ﴾ [القصص].

ومن ذلك أيضاً: حوار المستكبرين والمستضعفين عندما يلتقون في العذاب يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ [سبأ].

ومن أمثلة حوارات الناس حوار أهل الجنة فيما بينهم.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ

تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الصافات:].

ثانياً: نماذج من الحوار النبوي:

كان أسلوب الحوار حاضراً في الخطاب النبوي الشريف؛ سواء في دعوته صلى الله عليه وسلم المشركين إلى الإسلام، أو في تعليم المسلمين وإرشادهم فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وقد نقلت كتب السيرة والسنة النبوية: جانباً وافراً من حواراته صلى الله عليه وسلم أذكر منها ما يلي:

١- نموذج من حواراته صلى الله عليه وسلم في مجال الدعوة إلى الله تعالى:

حواره صلى الله عليه وسلم مع عتبة بن ربيعة، عندما أرسلته قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليثنيه عن الدعوة إلى الله.

فقد روى ابن هشام في سيرته أن النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه عتبة بن ربيعة أنصت إلى حديثه كاملاً وبعد أن فرغ من حديثه أوضح له موقفه.

يقول ابن هشام: إن ربيعة جلس إلى رسول الله صلى الله وعليه وسلم فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد أسمع، فقال له عتبة: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا،وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِياً تراه لا يستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد، قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [**فصلت**: ٢ – ٥].

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه؛ ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: «قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك..».

فرجع عتبة إلى قومه وقال: إني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم؛ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم(١).

٢- نموذج من حواره صلى الله عليه وسلم في مجال إقناع بعض المسلمين بحكم شرعي:

فعن أبي أمامة أنه جاء شاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله، إئذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به فقال النبي صلى الله عليه وسلم قربوه. أدن فدنا حتى جلس بين يديه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أتحبه لأمك؟ قال: لا، جعلني الله فداك، قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك؟ قال: لا، جعلني الله فداك، قال: كذلك الناس لايحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك؟ وزاد ابن عوف أنه ذكر العمة والخالة وهو في كل واحدة يقول: لا، جعلني الله فداك، فوضع رسول الله صلى الله عليه

---

(١) السيرة النبوية،لابن هشام، تحقيق مصطفى القا ، ابراهيم الأبياري ، عبدالحفيظ شلبي ٣١٣/١ ، دار القلم – بيروت.

وسلم يده على صدره وقال: اللهم طهر قلبه وأغفر ذنبه وحصن فرجه، فلم يكن شيئاً أبغض إليه منه، يعني الزنا»[(١)].

٣- نموذج من حواره صلى الله عليه وسلم مع أصحابه لتطييب خواطرهم، وتأليف قلوبهم وتهدئة غضبهم:

فقد جاء في قصة (غزوة حنين) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وزع غنائم كثيرة في قريش، وبعض قبائل العرب، ولم يعط الأنصار منها شيئاً فغضب بعضهم وقال: لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه.

فدخل عليه سعد بن عباده فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صغت في هذا الفيء الذي أصبت، فقسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أين أنت من ذلك يا سعد؟)) قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي، قال: ((فاجمع لي قومك في هذه الحضيرة))، فخرج سعد فجمع الأنصار فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: ((يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وجِدة وجدتموها عليّ في أنفسكم، ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم))، قالوا: بلى والله، ورسوله أَمَنّ وأفضل.

ثم قال: ((ألا تجيبونني يا معشر الأنصار))، قالوا: بماذا نجيبك يارسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل، قال: ((أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم، وصُدِّقتم: أتيتنا مُكَذّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألّفت بها قلوبَ قوم؛ ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت إمروء من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ، الحديث (٢٢٢١١) ٥٤٥/٣٦ ، وإسناده (صحيح) كما قال محقق المسند .

وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار))، فبكى القوم حتى أخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً(١).

٤- نموذج من حواره صلى الله عليه وسلم مع بعض أصحابه يرشدهم فيه إلى التوسط والإعتدال:

فعن عبدالله بن عمرو قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كنته فيسألها عن بعلها، فتقول: نِعم الرجل من رجلٍ لم يطأ لنا فراشاً، ولم يفتش لنا كنفاً منذ أتيناه؛ فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: «ألقِني به، فلقيته بعد فقال: كيف تصوم؟ قلت: أصوم كل يوم، فقال: وكيف تختم؟ قلت: كل ليلة، قال: صُم في كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر، قال: قلت أطيق أكثر من ذلك، قال: صُم ثلاثة أيام في الجمعة، قلت: أطيق أكثر من ذلك قال: أفطر يومين، وصم يوماً، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: صُم أفضل الصوم - صوم داود؛ صيام يوم، وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة، فليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذاك أني كبرت وضعفت.

فكان يقرأ على أهله السبع من القرآن بالنهار والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل. وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى، وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق عليه النبي صلى الله عليه وسلم»(٢).

وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول له: «ياعبدالله، ألم أُخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل. صُمْ وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً»(٣).

---

(١) سيرة ابن هشام ١٦٤/٤ .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ١١٥/١٩ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٣٥٦/١٩ .

المبحث الرابع

(أسلوب الحوار في الخطاب الإسلامي)

الخطاب الإسلامي الذي جاء في كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتخذ أسلوباً واحداً؛ بل جاء بأساليب متعددة تتلاءم وتتوافق مع اختلاف أوضاع النفس البشرية، فهو خطاب موجه من خالق البشر إلى النفس البشرية من أجل هدايتها، وإخراجها من الظلمات إلى النور؛ فإذا قبلته وأقبلت عليه راغبة وراهبة فإنها تهتدي به بإذن الله وتتمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

يقول الله تعالى: ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومن أهم الأساليب التي ورد فيها الخطاب الإسلامي: هو الأسلوب الحواري.

فالمتأمل في الأسلوب الحواري يجد أنه أكثر الأساليب إقناعاً فضلاً عن أنه وسيلة جيدة لإطلاع المخاطب على المراد؛ لأن الإبلاغ أو الإعلام، أو مجرد الإلقاء قد لا يثير اهتمام المخاطب، وقد لا يسترعي انتباهه؛ بينما الحوار يؤدي إلى إثارة اهتمام المخاطب، ويشد انتباهه؛ وذلك من خلال اشراكه في تلقي الخطاب، وإسهامه من جهته في محاولة معرفة ما يريده المخاطب(١).

ولا تقتصر إمكانية الأسلوب الحواري في الإقناع على مشاركة المخاطب، وما يتبعه من إثارة اهتمامه بما يسمع فحسب، بل لأن الأسلوب الحواري يتيح فرصة للتآلف بين المتحاورين من شأنها أن تفتح المجال لتقبل ما يطرح من موضوعات، وهذا الأمر يسهم في إقناع المقابل.

---

(١) انظر : لقاء الجماهير (برنامج الحديث الإقناعي وفن توصيل المعلومات) د. أكرم رضا ص١١ .

ومن هنا لا تستغرب عندما تجد في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف استعمالاً ملحوظاً للأسلوب الحواري.

فالخطاب الشرعي يستهدف إقناع العقول، واستمالة القلوب إلى الحق، وأفضل أسلوب يتحقق به هذا الهدف: هو الحوار.

وقد عدد أحد الباحثين تسعة أشكال للحوار، وهي: حوار تذكيري، وحوار تعبدي، وحوار إيماني، وحوار إنساني، وحوار نبوي، وحوار برهاني، وحوار تعليمي(١).

وهذه الأشكال من الحوارات تهدف إلى تهذيب المشاعر، وإيقاظ الوجدان، وتربي العواطف، وتجيب على التساؤلات؛ لأن كل حوار هادف يتناول جانباً أو أكثر من جوانب الموضوع.

---

(١) انظر : التربية بالحوار ، عبدالرحمن النحلاوي ص١٠ ، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ، دار الفكر المعاصر - بيروت.

الفصل الثاني

التعايش الإنساني، ومرتكزاته في الإسلام

ويتكون من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعايش الإنساني حقيقة ثابتة في الإسلام.

المبحث الثاني: مرتكزات التعايش الإسلامي في الإسلام.

المبحث الثالث: السلام العالمي بين الإسلام والفكر الغربي.

أبيض

المبحث الأول

(التعايش الإنساني حقيقة ثابتة في الإسلام)

جاء الإسلام ليحقق عبادة لله، ويرتقي بالإنسان نحو التكامل؛ لذلك جعل قضية التعايش الإنساني بين البشر مبدءً من مبادئه الراسخة التي دعا إليها، ووضع لها تشريعات تضبطها وتحميها، فَطَبَّقها المسلمون قروناً طويلة منذ أن ساد الإسلام على الأرض، إلى أواخر عهد الخلافة العثمانية، وعندما تلاشت الوحدة السياسية للمسلمين؛ ضعفت قوتهم أمام الهجمات الاستعمارية الكبرى على العالم الإسلامي، ومع ذلك ما زالت مبادئ التعايش التي بناها الإسلام على مرّ القرون قائمة في البلاد الإسلامية إلى اليوم بالرغم من الكيد الظاهر والخفي لإثارة النعرات الطائفية، وبث الفرقة بين أبناء الأوطان الإسلامية من قبل الطامعين في خيرات العالم الإسلامي الذين عادوا إلى إحياء شعارهم المعروف أيام الحقبة الاستعمارية (فرّق تفسد) فهم يمعنون في بث الفرقة ويثيرون النعرات، ليس على مستوى أتباع الديانات أو القوميات فحسب، بل على مستوى أتباع الدين الواحد والقومية الواحدة؛ حتى وصل بهم الأمر إلى إحداث النزاع بين أبناء المذهب الواحد، والجماعة العرقية الواحدة، ولن يهدأ لهم بال حتى يُقَطِّعوا دول العالم الإسلامي إلى فرقٍ وشيعٍ، وقوميات متصارعة متعادية، والدلائل بدأت لكل ذي لبّ متبصر.

فقضية التعايش الإنساني التي يلوكها الغربيون، منذ عشرات السنين، ويتباهون بأنها نتاج الحضارة الغربية، أثبتت الأيام: أنها قضية خداعة لم تتعد المجال النظري؛ كغيرها من المصطلحات التي روّجوا لها في المحافل الدولية، ولم نجد لها في الواقع المعاش أثراً يذكر؛ كمصطلح السلام العالمي، وحق الشعوب في تقرير مصيرها، والتعاون الدولي بين الدول والشعوب، بل

- حتى على المستوى النظري - بدأت تظهر شعارات مغايرة ومعاكسة على مستوى بعض القوى العالمية؛ كشعار صراع الحضارات، والحرب الاستباقية، ثم أخذ الأمر ينكشف: أن هذه المصطلحات السامية لها معانٍ ومضامين غير التي يعرفها الناس؛ فهم يقصدون بالسلام في واقع الأمر: السلام بينهم، وخضوع غيرهم لهيمنة القوة العظمى في العالم، ويريدون بمصطلح التعايش: الاستسلام لإرادة الطامعين والمستعمرين.

والتعاون الذي يروجون له ما هو - في واقع الأمر - إلا القبول باستغلال ثروات الشعوب على المستوى الاقتصادي، والخضوع للنزوات السياسية للقوى العظمى على المستوى السياسي، ولا تعني الدعوة إلى حماية حقوق الإنسان سوى حماية حقوق الإنسان الغربي، دون اكتراث لبقية الناس في العالم والدليل على سكوت القوى الغربية على الانتهاكات المتواصلة لحقوق الإنسان هو ما يجري في العالم الإسلامي، وخاصة في فلسطين، والعراق، والشيشان، وكشمير وغيرها من البلدان؛ حيث تتعرض الإنسانية على أيدي بعض القوى الكبرى بإيعاز من الصهاينة إلى انتهاكات لم يعرف العالم لها مثيلاً؛ فيقتل البشر شرّ قتلة بأفتك الأسلحة مرّة باسم الحرب الاستباقية، وأخرى باسم محاربة الإرهاب، وثالثة بدعوى نشر الديمقراطية، وتارة تحت شعار مواجهة القوى الشريرة، إلى آخر ما هنالك من شعارات ومسميات زائفة.

فاليوم يُفَلْسَف الجشع والطمع في ثروات الشعوب، ويتستر على الرغبة الجامحة في التوسع والهيمنة، بشعارات براقة خادعة وزائفة: محاولة لإخفاء الحقائق وإمعاناً في التدليس على الناس إلى حين!!.

وقد حذّرنا المولى عز وجل من مكر الأعداء وما يبطنون.

قال الله تعالى: ﴿ **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [**الأنفال** : ٣٠].

ويقول عز من قائل: ﴿ **وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ**

لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

فأين يجد المستضعفون من البشر: التعايش السلمي بين هذه النفسيات الجشعة التي ترى أن الغاية تبرر الوسيلة؟؟

وحري بالمسلمين أن يقدموا للعالم صور التعايش الإنساني الصحيح الذي أسس مبادئه الإسلام، وطبقة المسلمون في واقع الحياة قروناً طويلة فلم يكن - يوماً ما- شعاراً أجوفاً، وإنما كان حقيقة مشاهدة جاءت استجابة لخطاب رباني مقدس دعا إليه المولى في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم: بأبلغ أسلوب، وأحسن حال.

أبيض

المبحث الثاني

(مرتكزات التعايش الإنساني في الإسلام)

إن التعايش الإنساني الذي دعا إليه الإسلام يستند على مرتكزات أساسية أجمل الحديث فيها على النحو التالي:

أولاً: وحدة الأصل الإنساني:

لقد ذكر القرآن الكريم في مواقع عدّة: أن البشر جميعاً -على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأعراقهم- إنما يعودون إلى أصل واحد: أب واحد هو (آدم) عليه السلام، وأم واحدة هي (حواء) عليها السلام.يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾ [النساء: ١].

ثانياً: الكرامة الإنسانية لجميع البشر:

خلق الله الإنسان من حيث الخلقة في أحسن تقويم، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وكرّمه في مجال الخلقة والفطرة التي فطره عليها.

يقول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [التين: ٤].

ويقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٠].

فهذا التكريم ثابت للإنسانية جمعاء هبة من الخالق عز وجل، لايحق لأي إنسان أن يحتكره دون آخر، ومن هذا المنطلق لا يحق أن يتعالى عرق من الأعراق البشرية على عرق آخر مدعياً أن عنصره أفضل، أو أن جنسه أرقى؛ كما دأب عليه دعاة العنصرية الذين فاضلوا بين البشر على أساس الألوان، والأعراق، وشكل الخلقة والصورة، وفرّقوا - على أساسها - بين الناس على نحو ما يجري في بعض الدول الغربية، وبعض البلدان فكل ذلك مرفوض في الإسلام،

ومحض جهالة؛ لأن صورة الخِلْقة ولونها موكول كله إلى الخالق عز وجل، والإنسان لا دخل له في اختيار صورته أو لونه.

يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)**﴾ [الانفطار].

ثالثاً: اختلاف ألوان البشر وألسنتهم، هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد:

اقتضت حكمة الله تعالى وبديع صنعه أن خلق البشر مختلفين في صورهم، وألوان أبشارهم ولغاتهم، وهذا الاختلاف هو اختلاف تنوع يثري الحياة، ويبهجها، ويجعل لها جاذبية وطعماً من جهة، ويتحقق من خلال هذا التنوع الابتلاء، والاختبار للناس بعضهم ببعض من جهة أخرى.

وانطلاقاً مما ذكر فقد تقرر شرعاً ما يلي:

١- لا تفاضل بين الناس على أساس ألوانهم وأشكالهم، وصورهم.

٢- اختلاف الصور والألوان والأشكال إنما هو للتنوع وليس للتضاد.

٣- نبذ كل أشكال العنصرية والعرقية.

٤- النهي عن التفاخر بالأعراق، والألوان أو التّعيير بها.

٥- الكرامة عند الله لا علاقة لها بلون الإنسان، أو خلقته، أو عرقه أو جنسه، أو صورته، وإنما هي بتقوى الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [**الحجرات**: ١٣].

٦- اختلاف الناس في ألوانهم وألسنتهم هو آية من آيات الله الدالة على بديع صنعه تعالى وعظيم قدرته وبالغ حكمته.

يقول الله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**﴾ [الروم: ٢٢].

وكون الاختلاف في الألوان، والألسن آية من آيات الله تعالى فإن ذلك يستوجب على الناس أن لا يجعلوها أساساً للتفاضل والتفاخر، والتعالي

بعضهم على بعض؛ بل يجعلوا العلاقة الإنسانية بين البشر - مهما اختلفت ألوانهم، وألسنتهم، وأعراقهم - هي الأساس في التعامل.

رابعاً: المطلوب شرعاً من البشرية: التعارف والتواصل، لا التقاطع والتصارع.

سبق أن أوضحت أن حكمة الخالق البالغة اقتضت أن يجعل البشر أمماً وشعوباً، وقبائل شتى؛ حتى يتعارفوا ويتآلفوا ولا يتقاطعوا ويتناحروا.

يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [**الحجرات**: ١٣].

يقول القرطبي: «لما كان فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالاً حتى علا ظهر الكعبة فأذّن فقال عتاب بن أسيد بن أبي العاص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم.

وقال الحارث بن هشام: «ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً».

وقال سهيل بن عمر: «إن يريد الله شيئاً يغيره».

وقال أبو سفيان: " إني لا أقول شيئاً، أخاف أن يخبر به رب السماء فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا، فأقروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، زجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال، والإزدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى وليس على خلافها!!.

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب بمكة فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان، رجل برّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيّن على الله، والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب..»(١).

فالآية السابقة، وهذا الحديث تضمنا نداءً لجميع البشر من خالقهم جلّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٨٧٣٦) وأبو داود في سننه (٥١١٦) والترمذي في الجامع (٣٥٦) وقال: حسن غريب، ونقله القرطبي في أحكام القرآن ٣٤١/١٦، طبعة دار الفكر - بيروت.

وعلا يذكرهم بأنهم من أصل واحد (آدم وحواء) فلا تفاخر بالآباء والأجداد، ولا اعتداد بالحسب والنسب، كلهم لآدم وآدم من تراب، وجعلهم شعوباً وقبائل متعددة؛ للتعارف والتآلف، لا للتناحر والتخالف، أنتم جميعاً إخوة في الإنسانية، وهذا يقتضي التعاون في الحياة[٢].

خامساً: عدم الإكراه في الدين:

لقد بيّن المولى عز وجل الهدف من خلق الإنسان فقال: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [**الذاريات**: ٥٦].

ومع أن الله سبحانه وتعالى هو وحده المستحق للعبادة لكونه المتفرد بخلق المخلوقات، إلا أنه جعل أمر قبول الدين، متروك لاختيار الإنسان؛ بموجب ما أودع فيه من إرادة حرة مختارة، قال تعالى: ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [**الكهف**: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [**البقرة**: ٢٥٦].

وبموجب هذا: نهى الله تعالى عن إكراه الناس على الدخول في الإسلام.

ثم بيّن سبحانه وتعالى - بجلاء - أنه لو أراد لجعل الناس كلهم مؤمنين جبراً واضطراراً، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا**﴾ [**يونس**: ٩٩].

ومن حكمته أن جعل في الكون وفي جميع الخلق من الآيات ما يدل على وحدانيته وعظمته، وقدرته وجلاله، وبديع صنعه، وزود الإنسان بالعقل الذي يميز ويدرك به الأشياء وفطره على الإيمان، وأرسل إليه رسلاً مبشرين ومنذرين وهادين، ثم بعد ذلك ترك له الاختيار.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [**الإنسان**: ٣].

---

(١) انظر: التفسير الواضح الميسر، للشيخ محمد علي الصابوني ص١٣٠٥، الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، الأفق للطباعة والنشر - بيروت .

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨-١٠].

ومن هذا المنطلق عاتب الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم على حرصه الشديد في طلب هداية قومه بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء].

ونبّه المولى تبارك وتعالى نبيه وذكّره بأن مهمته هي دعوة الناس وتذكيرهم، أما هدايتهم فموكولة إلى خالقهم، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

ويؤكد الله سبحانه وتعالى لنبيه أنه وحده الهادي إلى الإسلام قائلاً:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

ومن هنا لا يحق لأي من كان أن يكره الناس على الدخول في الإسلام تحت أي مبرر، ولا يجوز لأي من الناس أن يتخطى هذا النهي الصريح، وإنما الواجب حيال المخالفين في الدين: دعوتهم وتبليغهم به، بالحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

سادساً: وجوب العدل والقسط بين الناس جميعاً، وتحريم الظلم:

العدل بين الناس، والقسط إليهم واجب شرعي ومطلوب التحلي به وأداؤه تجاه جميع الناس؛ مهما اختلفت أديانهم وأعراقهم وأجناسهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

والعدل واجب شرعي ولو كان المعتدي من القرابة، قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

كما أنه مطلوب مع الصديق والعدو، والمحبوب والمكروه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [المائدة: ٨].

وإذا كان العدل واجباً على جميع الناس، فإن الظلم محرّم ومنهي عنه - شرعاً- تجاه أي إنسان كان مهما كان دينه أو عرقه أو جنسه، بل إن الخالق تبارك وتعالى

حرّم الظلم على نفسه فقال عز من قائل مؤكداً هذا الأمر في ثلاث سور مختلفة: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، [سورة الأنفال، آية ٥١]،[سورة الحج، آية ١٠].

وقال تعالى منزهاً نفسه عن الظلم: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال: ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩].

وقد لعن الله الظالمين فقال: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ١٨].

وتوعد الظالمين بقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ثم أكد -سبحانه وتعالى- أنه لا يفلح الظالمون بقوله: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [القصص: ٣٧].

وجاء في الحديث القدسي الذي رواه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ..»(١).

سابعاً: الوفاء بالعهود:

من أهم المرتكزات التي يستند عليها التعايش الإنساني في الإسلام: الوفاء بالعهود .فالمسلمون مأمورون باحترام العهود والوفاء بها فيما بينهم ومع غيرهم من الناس.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه الحديث (٢٥٧٧).

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقد امتدح المولى تبارك وتعالى الموفين بالعهود فقال عز من قائل: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

وإذا كان الشارع الحكيم قد امتدح الموفين بالعهد، وأوجب على المسلمين الوفاء بالعهود، فإنه حرّم عليهم في المقابل نقض العهود، بل لعن الذين ينقضون الميثاق، فقال عزّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

أبيض

المبحث الثالث

(السلام العالمي بين الإسلام والفكر الغربي)

يحتار كثير من العقلاء فيما يحدث في العالم من قبل الدول التي تملك القوة المادية الكبيرة بفرض هيمنتها السياسية والاقتصادية على العالم؛ كيف تعجز عن تحقيق ما تنادي به من سلم عالمي ويستغرب المرء من كثرة ما تعقده من مؤتمرات، وندوات واجتماعات عن السلم العالمي، في حين أن النتائج العملية في هذا المضمار لا تكاد تذكر، بل إن القضايا الولية التي تمثل بؤر التوتر وتؤجج الصراع ما زالت لم تجد طريقها إلى الحل.

والتساؤل الذي يتبادر إلى الذهن أمام هذا الوضع هل الدول الغربية النافذة في العالم عاجزة عن تحقيق السلم العالمي مع كل ما لديها من نفوذ وقوة؟ أم أنها لا تريد للعالم أن ينعم بالسلام والأمن، وبالتالي فإنها تظهر ما لا تبطن ؟ ففي الخفاء تؤجج الصراعات، وفي العلن تنادي بالسلام العالمي، ولو كانت جادة في تحقيق سلام عالمي لما حال دونها حائل، لأنها تملك القوة، وتستطيع استعمالها في أي وقت، وقد فعلت - ذلك - في فترات عديدة.

والإجابة على التساؤل الذي أثرناه نقول: إن هذه القوى تريد سلاماً عالمياً ولكن على مفهومها الخاص؛ فالسلام المقصود عندها هو السلام بينها كما دلت على ذلك الأحداث التاريخية، فكان همّ الدول العظمى هو أن لا يؤدي التنافس على المصالح، والتسابق على بسط الهيمنة، والنفوذ إلى الصدام فيما بينها كما حدث في الحرب العالمية الأولى والثانية، وكاد أن يحدث خلال الحرب الباردة.

ومن هنا يجب أن تتنبه دول العالم الثالث إلى أن السلام الذي تنادي به الدول الكبرى لا يشملها؛ وبذلك فعليها أن تبحث عن السلام خارج المفهوم الغربي للسلام، وسوف تجد المفهوم الصحيح للسلام العالمي في دين الله

الإسلام الذي هو رحمة للبشرية جمعاء.

وحري بالمسلمين أن يقدموا المفهوم الإسلامي للسلام العالمي الذي يجد فيه العالم ضالته المنشودة بإذن الله؛ فقد سئم العالم، وملّ من كثرة ما يقال، ويكتب عن السلام العالمي، وضجرت من تلك: المؤتمرات والاجتماعات، والندوات الدولية عن السلام العالمي، لأنها ترى الدول نفسها المنادية بالسلام تعمل النقض من ذلك فهي تدعم المعتدي، وتعين الظالم بأشد الأسلحة فتكاً ودماراً، وتؤجج الصراعات وتثير الفتن والحروب لتسوّق من خلالها أسلحتها المدمّرة؛ وتأخذ ثمنها من دماء المتقاتلين!!.

ولعله آن الأوان بأن تهرع البشرية إلى السلام الذي قرره خالق البشر على العالم بما يصلحهم وما يفسدهم.

وفي هذا المبحث سوف أعقد موازنة بين مفهوم السلام في الفكر الغربي، ومفهوم السلام في الإسلام، وحتى لا يتشعب الحديث ويطول: أكتفي ببيان أمرين يوضّحين مفهوم السلام في الإسلام، والهدف منه.

أولاً: مفهوم السلام في الإسلام شامل:

إن السلام الذي ينشده الإسلام للبشرية: هو سلام شامل يشمل المسلمين وغيرهم من الناس.

فمن منطلق أن الدين الإسلامي: هو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء، وهو الدين الخاتم للأديان السماوية؛ فقد أراده الله تعالى أن يكون رحمة للعالمين ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [**الأنبياء**: ١٠٧].

فرحمة الإسلام تشمل المسلمين وغير المسلمين؛ وبمقتضاها نعموا بالأمن والطمأنينة في ظل الإسلام.

وقد وصف المؤرخ (أرنولد) حالة السلام والأمن التي نعم بها المسلمون وغيرهم في ظل الإسلام، بقوله: «وكان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم، وممتلكاتهم ناعمين بالتسامح الذي منحهم حرية التفكير

الديني، وتمتعوا بحالة من الرفاهية والرخاء »(١).

وشمولية السلم التي يتفرد بها الإسلام نابعة من مسمى الإسلام فأصل كلمة الإسلام تعود إلى ثلاثة أحرف هي (س، ل، م) كما أنها تتبع أيضاً من دعوة الله سبحانه وتعالى للمؤمنين إلى الدخول في السلم كافة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ [**البقرة**: ٢٠٨].

وتأكيداً على هذا التوجه جاءت التحية الإسلامية (السلام عليكم) متوافقة مع ما يرغب فيه الشارع، ويحث عليه من سلام.

أما السلام في الفكر الغربي فقد ظهر - من خلال تتبع الحوادث والاستقراء - أن المقصود به-عندهم- في الأساس: احلال السلام بين الدول الغربية؛ حتى لا تتناحر وتتصادم.

وتعود فكرة السلام العالمي إلى القرن السابع عشر الميلادي؛ فبعد الحروب الدامية التي استعملت بين الدول الغربية، وأدت إلى استفحال القتل، وانتشار الخراب والدمار، تنادى مجموعة من المفكرين الأوربيين وعلى رأسهم الوزير الفرنسي (دوق سلّيي) (ت.١٦٤٠م) إلى ضرورة حل الصراع القائم بين الدول الأوربية، واقترحوا مشروعاً للسلام، يتم عن طريق تكوين اتحاد مسيحي من دول أوربا،تشرف عليه هيئة عليا تقوم بتسوية المشاكل وتخشى على السلام فيما بينهم(٢).

وفي عام (١٠٥٨هـ-١٦٤٨م) عقد مؤتمر (وستفاليا) الذي برزت فيه فكرة القانون الدولي، وفكرة العائلة الدولية للمحافظة على السلم(٣).

وفي عام (١٢٠٩هـ-١٧٩٥م) نشر الفيلسوف (كانت) كتابه الذي سمّاه من (أجل سلام دائم)(٤).

---

(١) الإسلام وأهل الذمة ، للدكتور علي حسني الخربوطلي ص١٠٥، طبعة عام (١٣٨٩هـ-١٩٦٩م) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

(٢) انظر : التعاون الدولي والسلام العالمي ، للدكتور محمد رفعت ص٣٢ .

(٣) انظر : القانون الدولي العام وقت السلم ، للدكتور حامد سلطان ص١٣.

(٤) انظر : التعاون الدولي والسلام العالمي ، للدكتور محمد رفعت ص٢٣ .

وكل الدعوات والنداءات من أجل السلام التي ظهرت خلال هذه الحقبة لم تتجاوز النظرية إلى التطبيق وكان موجهة للأوربيين وحدهم.

وفي سنة (١٢٣٩هـ-١٨٢٣م) ظهر ما يعرف بمبدأ (منرو) الذي نادى به الرئيس الأمريكي (جيمس منرو) وكان يهدف إلى إحلال السلام في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم توالت مؤتمرات السلام، وبلغت أوجها سنة (١٩٠٧هـ-١٨٩٩م) في مؤتمر سلام (هانغ).

ثم جاء الرئيس الأمريكي (ولسن) الذي أسس السلام العالمي عن طريق إنشاء هيئة تحل المشكلات الدولية، ثم ظهرت عصبة الأمم[1] وأستمر الحال حتى ظهرت منظمة الأمم المتحدة التي جعلت السلام العالمي هدفاً رئيساً في ميثاقها، وقد تعلقت الآمال بها لتحقيق سلام عالمي بعد حربين عالميتين طاحنتين، ولكن هذه الآمال بدأت تتبخر بعد أن ساد القطب الواحد، وشرعت بعض الدول العظمى في العمل على تهميش الأمم المتحدة، وفرضت نفسها على المستوى الدولي.

ثانياً: هدف السلام العالمي في الإسلام تحقيق الأمن المشترك بين الناس:

لقد أسكن الله تعالى الناس على هذه الأرض، وطلب منهم أن يعمروها، قال تعالى: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [**هود**: ٦١].

ولما كانت عمارة الأرض لا تتحقق إلا إذا وجد الناس الأمن على نفوسهم، وما يملكون؛ فقد كان تحقيق الأمن مقصداً من مقاصد الشارع الحكيم، فجاءت شريعة الإسلام الغراء - عبر تشريعاتها - مُحافِظة للمصالح الخمس الكبرى، وهي: الدين والنفس والعقل والمال والنسب، وتحقيقاً لهذا الأمر منعت كل اعتداء عليها، وحمتها من كل مساس بها، ورتبت على منتهكها عقوبات قاسية ورادعة.

والأمن الذي يقيمه الإسلام هو أمن يشمل المسلمين وغيرهم، بل إن

---

(١) انظر : التعاون الدولي والسلام العالمي ، ص٢٨ .

المولى تبارك وتعالى يأمر ببر غير المسلمين والعدل معهم، فضلاً عن تأمينهم، فقال عز من قائل: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ويتجلى حرص الإسلام على الأمن المشترك بين المسلمين وغيرهم: في الوثيقة التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وسكان المدينة وكان يسكنها آنذالك إضافة إلى المهاجرين والأنصار: اليهود والمشركون من أهل المدينة؛ فقد جاء فيها بخصوص تنظيم الأمن في المدينة ما يلي:

«... من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبِرّ دون الإثم...»(١).

هذه مباديء الإسلام التي أسست حضارة التعايش الإنساني على منهج قويم وأسس سليمة، يعيش في ظلها الإنسان آمن على دينه، ونفسه، وعرضه، وعقله، وماله، ومتى ما أعتدى عليه أحد: فإن له الحق في مطالبة المعتدي لمعاقبته على اعتدائه.

وقد حان الوقت للمسلمين أن يقدموا للعالم المبادئ السامية التي جاء بها الإسلام في كل المجالات، ومنها التعايش الإنساني؛ فمشكلة التعايش تتطلب اتخاذ التعامل الخلقي الذي جاء به الإسلام سلوكاً ومنهجاً في الحياة، فالأزمة -في العالم- ليست أزمة أخلاق فقط بل عادات وتقاليد اختلطت بالدين، فأخذت تتحكم في سير كثير من البشر حتى الآن!!.

ولنا في تجربة أوربا عبرة، فلقد قامت الحضارة الغربية في بدايتها على هيكل أخلاقي مسيحي، أتاح لها التماسك، والوثبة الضرورية لازدهارها؛ لكن تطورها قد غير هذا الأساس شيئاً فشيئاً إلى أن صار

---

(١) الأموال، لأبي عبيد ص٩٠، والسيرة النبوية، لابن هشام ١٠٦/٢.

هيكلاً مختلطاً يتمثل فيه التفكير الكاثوليكي والبروتستانتي بالتفكير الحر، والتفكير اليهودي(١).

وعليه فلابد من ميثاق أخلاقي يأخذ وجهة دولية واحدة، فقد جربت الأمم المتحضرة -عبر العصور- حضاراتها المتعددة من رومانية إلى يونانية إلى هندية إلى رأسمالية، إلى اشتراكية إلى غير ذلك من الحضارات؛ إلا أنها لا تزال في أزمة أخلاقية تبحث عن التعايش السلمي الذي جاء به الإسلام، وتعامل به المسلمون مع غيرهم قروناً طيلة حتى طغت العادات والتقاليد والمطامع الشخصية؛ فانحرف مسار كثير منهم، فلماذا لا نترك الفرصة للإسلام، ولنجرب أخلاقه في التعايش السلمي الذي سبق أن طبقه المسلمون؟.

ورحم الله مالك بن نبي، إذْ يقول:

«لو أتيح للشبيبة أن تعتنق مشكلة تكامل الإنسانية اعتناقاً تمنحها معه كل ذكائها وكل قلبها؛ حتى تجعل منها رسالتها، فسوف تحتل مقام الصدارة في الزحف نحو اتجاه جديد، نحو تقرير مصائر الإنسانية »(٢).

ويقول أيضاً:

«إن الثقافة العربية والإسلامية يمكنها أن تقوم بذلك؛ لأنها قامت به في الماضي فعلاً، عندما كانت تهتدي بإشعاعها من مراكزها في القاهرة، وبغداد، وقرطبة، وموكب التقدم الروحي والعقلي، وهي - بهذا- قادرة وجديرة بأن تنهض -اليوم- بدورها بصفتها (ثقافة كبرى) في العالم(٣).

---

(١) انظر : مشكلة الثقافة ، لمالك بن نبي ص١٠٥ بتصرف .

(٢) مشكلة الحضارة ، ص١١٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص١٤٠ .

الخاتمة

(أهم النتائج)

أُجمل أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث فيما يلي:

١- ضرورة تغليب لغة الحوار من أجل التعايش الإنساني على منطق القوة.

٢- على العقلاء في العالم التكاتف من أجل الوقوف أمام غطرسة القوة والهيمنة والتوسع.

٣- بذلت جهود حثيثة على المستوى الدولي من أجل تشجيع الحوار والتعايش السلمي بين الناس، وقد صدرت عدة قرارات دولية من أهمها:

- قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٢٢/٥٣ التي أعلنت فيه سنة ٢٠٠١م سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات.
- قرار منظمة المؤتمر الإسلامي رقم ١٣-٢٦ث بشأن الحوار بين الحضارات.
- قرار منظمة المؤتمر الإسلامي رقم ٩/١٤ث حول الإعلان العالمي للحوار بين الحضارات.

٤- يعد الحوار أهم أساليب التواصل والتفاهم التي عرفها الإنسان.

٥- زاد الاهتمام بالحوار في عصرنا الحاضر وأصبحت له مراكز ومنتديات خاصة.

٦- استخدم الحوار وسيلة ناجحة لتقريب وجهات النظر، وحل المشاكل بين الأطراف المختلفة الرؤى.

٧- من فوائد الحوار أنه يولد الأنس بين المتحاورين، ويمهد الطريق إلى قبول رأي المخالف والعمل على احترامه.

٨- التعريف المقترح للحوار هو «حديث بين اثنين فأكثر اختلفت نظرتهما حول موضوع محدد يقصدان معرفة الحقيقة أو التوصل إلى اتفاق».

٩ - توجد مجموعة من المصطلحات ذات صلة بالحوار ذكرت بعضها، وبينت الفرق بينها وبين الحوار؛ كالجدل والمناظرة.

١٠- من أصول الحوار التي يجب مراعاتها ما يلي:

(أ) مخاطبة المتحاورين حسب مستواهم العلمي والفكري مع الإلمام بنفسية المحاورين.

(ب) تمكين المقابل من إبداء وجهة نظره كاملة.

(ج) حسن الإصغاء والاستماع للآخرين.

(د) تجنب إحراج المقابل أو إرباكه أو استفزازه.

(هـ) تجنب احتكار الحق.

(و) عدم الخروج عن الموضوع.

(ز) تجنب اللجاج في الكلام والمغالبة فيه.

(ح) استهداف الوصول إلى الحق.

(ط) احترام المقابل وعدم الحط من شأنه.

(ي) تحديد الهدف الخاص للحوار.

١١- الآداب التي يجب مراعاتها في الحوار ما يلي:

(أ) التجمل بالهدوء ولزوم السكينة.

(ب) البعد عن التنطع في الحديث والتكلف فيه.

(ج) الاعتراف بالخطأ والتراجع عنه.

(د) التروي في الكلام قبل إبداء الرأي.

(هـ) التحلي بالحكمة.

(و) التواضع للمقابل.

(ز) انتقاء الألفاظ الطيبة والكلمات العذبة.

(ح) الالتزام بالصراحة والبعد عن المجاملة.

١٢- ورد في القرآن الكريم حوارات متنوعة سواء كانت من حيث الوضوعات أو من حيث الأشخاص ذكرت نماذج منها في محله، ومن أهم الموضوعات التي تناولها الحوار القرآني: القضايا العقدية والتشريعية والجوانب الأخلاقية.

١٣- استعمل الأسلوب الحواري في الحديث النبوي في مجال دعوة الآخرين إلى الإسلام، وتوجيه وإرشاد المسلمين وإقناعهم بالأحكام الشرعية، وتربيتهم على قيم الإسلام، ذكرت نماذج منها في الحوار النبوي.

١٤- إن المتأمل في الأسلوب الحواري يجد أنه أفضل الأساليب في مجال استمالة المقابل وإقناعه؛ بما يثيره من اهتمامه عن طريق مشاركته في النقاش.

١٥- من شأن الأسلوب الحواري إتاحة فرصته للتآلف بين المتحاورين.

١٦- ظهر لي أن المقصود من الحوار في الخطاب الشرعي القرآني أو النبوي: هو إقناع العقول، واستمالة القلوب إلى الحق.

١٧- ثبت أن الإسلام قد وضع مبادئ التعايش، وجعله حقيقة ثابتة، وليس شعاراً يتنادى به الناس عبر العالم قبل خمسة عشر قرناً من الزمان، وقد عاش المسلمون على هذه المبادئ في ظل الحضارة الإسلامية قروناً طويلة.

١٨- يقوم التعايش في الإسلام على مرتكزات أساسية هي:

أولاً: وحدة الأصل الإنساني.

ثانياً: الكرامة الإنسانية لجميع البشر.

ثالثاً: اختلاف البشر في الألوان والألسن هو اختلاف تنوع، وليس اختلاف تضاد.

رابعاً: المطلوب شرعاً من البشرية التعارف لا التنافر، من أجل تحقيق الكمال الإنساني واعمار الكون.

خامساً: عدم الإكراه في الدين.

سادساً: العدل والقسط بين الناس جميعاً وتحريم الظلم.

سابعاً: الوفاء بالعهود.

١٩- السلام العالمي في المفهوم الإسلامي شامل للتعايش بين جميع الناس، بينما في الفكر الغربي خاص بالدول الغربية.

٢٠- الهدف من السلام في الإسلام هو تحقيق الأمن المشترك للناس حتى يعمروا الأرض.

٢١- تحقيق الأمن للناس مقصد شرعي أساسي في الدين الإسلامي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أثر الإعلام في الحوار بين الحضارات

إعداد:

د. سعيد إسماعيل صيني

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

الدراسة التي بين أيدينا بالعنوان الموضح أعلاه يتضمن تعريفا موجزا لمصطلح الإعلام، والحوار، والحضارة والثقافة. كما يتضمن استعراضا ومناقشة للدراسات الرئيسة التي تناولت موضوع أثر وسائل الإعلام في الرأي العام وفي تشكيل الحضارة التي يعيشها الناس، سواء أكان الأثر إيجابيا أم سلبيا.

وسوف يتم اختتام الدراسة بتحليل الأثر المتبادل بين وسائل الإعلام وأحداث ١١ سبتمبر والأثر السلبي لهذه الأحداث على جهود الحوار بين الحضارات الرامية إلى تحقيق التعايش السلمي بين أصحاب الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى رغم وجود بعض الاختلافات.

كما ينبه إلى انقسام الجمهور بين روايتين لهذه الأحداث: الرواية الرسمية للحكومة الأمريكية والرواية التي تعارضها وتسندها الأدلة القوية، وانقسام المسلمين المتهمين إلى ثلاثة أقسام: مكذب، ومصدق باعتزاز ومصدق بتخاذل.

أثر الإعلام في الحوار بين الحضارات والثقافات

عندما نتحدث عن أثر الإعلام في الحوار بين الثقافات والحضارات فإنه يخطر في الذهن عدد من التساؤلات هي:

١- ما هو الإعلام وإمكاناته؟

٢- ما أثر الإعلام في آراء الناس واتجاهاتهم وثقافتاهم؟

٣- ما المقصود بالحوار؟

٤- ما تعريف الحضارة والثقافة؟

٥- ما الآثار الإيجابية والسلبية للإعلام في الحوار بين الحضارات والثقافات؟

ما هو الإعلام؟

يميز المؤلفون في الإعلام بين «الإعلام» و«الاتصال»، باعتبار كلمة اتصال أكثر شمولا[١]. فالاتصال قد يكون بين الإنسان وأخيه الإنسان أو بينه وبين الحيوانات، والجمادات، وقد يكون بين هذه الأصناف الثلاثة. فأشكال الاتصال لنقل المعلومات والحصول عليها بين الإنسان والحيوان عرفته البشرية منذ أن كانت هناك مجموعة بشرية. والإنسان وهو يقود السيارة يقوم بعملية اتصال بينه وبين الآلات الصماء.

والاتصال البشري قد يكون ذاتيا بين الإنسان ونفسه، وقد يكون شخصيا (بين اثنين أو أكثر)، وقد يكون جمعيا (مثل محاضرة أو درس)، وقد يكون جماهيريا (عبر وسائل الإعلام). وهذه الحالة الأخيرة وحدها نسميها «الإعلام» mass communication. ومن عناصر الاتصال الجماهيري التعقيد في التنظيم والتعدد في العناصر[٢]. فالمرسل في الاتصال الجماهيري ليس واحدا، بل طاقما متكاملا، والوسيلة ليست شيئا واحدا ولكن مجموعة معقدة من الأجهزة. كما أن الرسالة تظهر في هيئة مجموعة من الرموز المتنوعة أو المؤثرات الصوتية أو المرئية، لا تقتصر على اللغة بمفردها. أما الجمهور فهو مجموعة من الناس متناثرة على مساحة جغرافية وزمانية واسعة، قد لا يجمع بين أفرادها إلا أنهم جميعا يتعرضون إلى رسالة بعينها كما هي: شكلا ومضمونا.

والاتصال قد يكون باللمس والصوت والنظر و... أما الإعلام فلا يكون باللمس، إلا أن نُدخل في حسابنا طريقة برايل للمكفوفين.

وهناك فرق بين كلمة «إعلام» (معلومات أو استعلامات) التي يقابلها في اللغات الأوربية بما في ذلك الألمانية والفرنسية والإنقليزية information[٣].

---

(١) انظر مثلا: ;Westley and Mc Lean, A Conceptual model ; Scramm, The Nautre.

(٢) صيني، مدخل إلى الإعلام ص ٣٤-٣٦.

(٣) انظر مثلا صيني، الإعلام ص ٣٧ وحاشيتها.

وهذه تستخدم في لغاتها مع الوزارات (وزارة الإعلام) أو الأقسام (قسم أو طاولة الاستعلامات information desk أو مركز المعلومات information center). ويتطلب من هذه المؤسسات أو الأقسام تقديم معلومات واقعية صادقة. وهنا فقط تتفق كلمة «إعلام» المشتقة من مادة «أعلم» في معاجم اللغة العربية.

وبعبارة أخرى، فان كلمة «إعلام» بهذا المعنى الأخير لا تعادل كلمة «إعلام» بمعنى الاتصال الجماهيري. فالأخيرة تشمل بالإضافة إلى البرامج الإخبارية البرامج الإقناعية (الدعوية) والترفيهية، التي تتميز بكونها محاولات لنقد الواقع وربما أيضا لتغييره بدلا من الاقتصار على وصفه وبكونها أعمالا إبداعية وخيالية، لا تقتصر على الوصف.

ولو نظرنا إلى كلمة «الاتصال» بجميع أشكالها سنجد أنها تتكون من مرسل ورسالة (شكل ومضمون) ووسائل (مطبوعة أو أصوات أو صور مسجلة) ومستقبل(١).

وكانت هذه الممارسات تنتهي بانتهاء العملية الاتصالية إلا أن تُحفظ في الذاكرة. ومع اختراع وسائل الحفظ البصرية والسمعية أمكن حفظها في هيئة مطبوعات ساكنة، أو مسموعات أو مسموعات مرئيات تمتلئ بالحياة. كما أصبح في الإمكان استعمالها مرارا وتكرارا دون حاجة إلى تكرار الممارسة الاتصالية نفسها، في الواقع بتكاليفها المادية والزمانية والجهدية. كما مكنت هذه المخترعات الإعلامية الإنسان من نقل الممارسة الإعلامية من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، دون حاجة إلى نقل العناصر البشرية، والآلية التي أنتجتها. وبهذا أصبح لدينا ما نسميه بالإعلام أو الاتصال الجماهيري. كما أسهمت هذه المخترعات في إنتاج الممارسات الإعلامية المتقنة التي لا تتجاوز مدة عرضها الساعة والساعتين ولكن

---

(١) Lasswell; Osgood.; Wiener; Shannon and Weaver; Shannon and Weaver; Schramm, Information; Osgood; Schramm , How communication ; Severin and James Tankard,Jr.; Newcomb; Festinger, Information; Westly and Mc Lean, Jr; Gerbner; Ruben, International; Harper; Westly and Mc Lean, Jr.; Gerbner; Ruben, International; Harper; McQuail and Windahl; McQuail and Windah.

تحتاج إلى ظروف مكانية وزمانية وبيئية لا يمكن توفيرها خلال فترة عرض المادة الإعلامية بأية حال من الأحوال.

وعموما يسهم عدد من العناصر - بطريقة مباشرة، وعموما يتكون الاتصال الجماهيري، أو الإعلام أو ما يطلق عليها «وسائل الإعلام» كم العناصر التالية الرئيسة:[1]

١- العناصر البشرية الماهرة: وهي عناصر تحتاجها العملية الإعلامية أو الممارسة الإعلامية سواء لإعداد المضمون، أو تقديمه، أو لاستثمار الوسائل الآلية لخدمة هذا المضمون في مرحلة الإنتاج، والحفظ، والإرسال، أو التوزيع والنشر.

وأؤكد على صفة "الماهرة" وذلك لأن القدرات الاتصالية البدائية لا تكفي لإنتاج المادة الإعلامية ذات الجاذبية العالية. فوسائل الاتصال الحديثة أصبحت تتطلب أدوات أكثر دقة وتعقيدا وقوة وتحتاج إلى مهارات إبداعية متخصصة وعالية جدا.

٢- الإطار الفكري أو العقدي، مثل الإطار الإسلامي أو العلماني الذي يكتسح الساحة الإعلامية اليوم بلا منازع ولكن بدرجات متفاوتة.[2]

٣- المضمون: وهو كل ما يراد إيصاله من رسائل إلى الآخرين إما بهدف دعوتهم إلى مساندته أو تبنيه وتطبيقه، وإما لمجرد إخبار الآخرين للإحاطة به.

٤- الوسائل الآلية: وعلى رأسها الوسائل التي مكنت الإنسان من حفظ العملية الاتصالية بمضمونها في هيئة رموز مقروءة وصور ثابتة، ثم مكنته من حفظها مسموعة، ثم مسموعة مشاهدة بحركاتها الطبيعية. وجاءت وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية وجاء جهاز الحاسب الآلي وانتشر استعماله فأحدثت كل هذه الوسائل انقلابا في عملية إنتاج

---

(١) صيني، مدخل إلى إعلام ص ٣٦-٣٨.

(٢) انظر مثلا Zuckerman

وحفظ وتوزيع المادة الإعلامية بصورة مذهلة، لم يسبق لها مثيل. لقد أمكن حفظ عشرات المجلدات والساعات الطويلة من الأصوات والمشاهد المتحركة في أسطوانة مضغوطة أو صلبة يمكن وضعها في الجيب، وإرسالها في دقائق إلى أقصى حدود الكرة الأرضية، بواسطة شبكة الإنترنت،(١) بل ونقلها عبر الأقمار الصناعية إلى الكواكب ومنها للحصول على صور دقيقة لأسطح تلك الكواكب.

وهذه الوسائل عموما أشياء محايدة يمكن تسخيرها للخير أو للشر، أي للإصلاح أو الإفساد. وما يعنينا في هذه الدراسة هو العلاقة بين الاتصال الجماهيري والحوار بين الحضارات والثقافات كنشاط بشري.

تأثير وسائل الاتصال الجماهيرية:

لقد أصبحت عملية الاتصال بالجمهور العام أكثر سهولة وإتقانا بسبب وسائل الاتصال الجماهيريةا وإن كانت أحيانا أكثر تكلفة. والسؤال: إلى أي درجة تؤثر وسائل الاتصال الجماهيرية في توجيه الآراء وفي إنشاء أو تنمية الاتجاهات النفسية والذهنية حول القضايا المختلفة عموما والعادات والتقاليد؟

لقد قام المهتمون بهذه العلاقة بإجراء دراسات كثيرة حول هذه الظاهرة، مرت بمراحل مختلفة.

فمثلا يقول «كلابر»(٢) إن الدراسات في مجال تأثير وسائل الإعلام أصبح أكثر تحديدا. فبدلا من محاولة الإجابة عن السؤال: هل لوسائل الإعلام أثر على الجمهور بشكل عام؟ استخدمت عدد من الدراسات مداخل جديدة. ومن هذه المداخل الدراسات التي قام بها «إلميرا» Elmira(٣) و«ديكاتور» Decatur(٤) فقد ركزت دراساتهما على العوامل الأساسية التي يمكن ملاحظتها في العلاقة بين وسائل الإعلام والجمهور. وركزت دراسات

---

(١) Heinlein, pp. 121-218.

(٢) Klapper, in Berelson and Janowitz.

(٣) Elmira, quoted in Klapper.

(٤) Decatur, quoted in Klapper.

أخرى على الوظائف التي تقوم بها وسائل الإعلام ومن تلك الدراسات ما قام به «رايلي» Riley(١) و«ماكوبي» Maccoby(٢) وركّزت هاتان الدراستان على الوظائف التي تقوم بها وسائل الإعلام للأطفال بدلا من تأثير وسائل الإعلام فيهم. ومن الدراسات التجريبية ما قام به «هوفلاند» Hoveland ، حيث تم فيها تثبيت أثر المثير الاتصالي واختبار أثر العوامل الأخرى للعملية الاتصالية. هذا بشكل عام، أما فيما يتعلق بالرأي العام وبالتنمية الثقافية فهناك دراسات عديدة سوف يتم استعراض بعضها فيما يلي.

التأثير في الرأي العام:

يبدو أن نتائج هذه الدراسات التي بدأت منذ الحرب العالمية الثانية ولا تزال مستمرة إلى تاريخنا هذا غير مستقرة والمسألة لم تحسم بشكل قطعي بعد. فهناك من يقول بضعف أثر وسائل الإعلام، وهناك من يقول بأن وسائل الإعلام تؤثر دائما، وهناك من يقول بأن وسائل الإعلام واحدة من العوامل الأساسية التي تؤثر في الرأي العام.

يقول «لانق» وزميلته بأن كثيرا من الذين يقولون بضعف تأثير وسائل الإعلام يستشهدون بانتخابي الرئاسة الأمريكية التي فاز فيها "ترومان" للفترة الثانية رغم الموقف المعادي للصحافة وكسب أيزنهاور الانتخابات قبل أن تبدأ الحملة الانتخابية.(٣) وهناك دراسات أخرى تميل إلى تأكيد هذه النتائج مثل دراسة «إلميرا»(٤) ودراسة «بريستول» Bristol(٥) عن الانتخابات البريطانية. فقد وجد الأخير أن الذين قاموا بتغيير رأيهم كانوا من غير المستقرين سواء في تأييدهم للمرشحين أو في رغبتهم في التصويت. وكانوا أقل تعرضا إلى وسائل الاتصال الجماهيري من غيرهم ممن أدلوا بأصواتهم

---

(١) Riley.

(٢) Maccoby.

(٣) Lang and Lang.

(٤) quoted in Lang and Lang

(٥) quoted in Lang and Lang.

في الانتخابات. وبعبارة أخرى، فإن نسق الأصوات يدل على نوع من الاستقرار في طبيعتها. وتعزز هذه الدراسات القول الشائع بين الباحثين أن وسائل الإعلام أن الدور الرئيس لوسائل الإعلام هو تعزيز ما يفضله الناخبون، وحث المؤيدين على التصويت. فهي تقوم بالتصفية والترسيخ أكثر من تحويل الأصوات.(١)

ويعارض «لانق» Lang وزميلته هذا القول بمناقشة أدلة القائلين بضعف أثر وسائل الإعلام مناقشة موضوعية تعترف ببعض الأدلة ولكن تفند البعض الآخر بالتنبيه إلى بعض التفسيرات الجديدة لما حصل في انتخابات الرئاسة الأمريكية التي فاز فيها ترومان وأيزنهاور. ثم يؤكدان قوة أثر وسائل الإعلام بإبراز الأثر غير المقصود للإعلام بقولهما إن هذه الوسائل تؤثر بطريقة مباشرة وغير مباشرة في الرأي العام. فهي التي تنقل صورة العوامل المنافسة للإعلام إلى الجمهور، فضلا عن تأثيرها على العوامل المنافسة نفسها مثل الانتماء الحزبي، والتحيز لبعض القضايا أو الاهتمام بها. فوسائل الإعلام هي التي تنقل الشخصية القوية للمرشح وربما هي التي صنعتها. وعندما تصفي وتنشئ وتلقي الضوء على بعض الأنشطة العامة فإنها لا تقتصر على نقل أخبار الحدث فحسب ولكنها تنقل كل ما يتعلق بالنشاط السياسي والمعتقدات السياسية. وهي تفعل ذلك ليس فقط في فترة الانتخابات ولكن أيضا فيما بين الانتخابات. وبينما هي تفعل ذلك فإنها تقدم وجهات نظر مختلفة وتعمل على تشكيل صورة المرشحين والأحزاب، وتبرز بعض القضايا عن غيرها.(٢)

ولعل من المناسب التنبيه إلى ضرورة التفريق بين الأخبار وبين الرأي في المفهوم النظري للصحافة الحرة. ففي الوقت الذي تستطيع فيه الصحافة التعبير بحرية عن رأيها في الافتتاحيات وأعمدة التعليق فإنها لا تستطيع

---

(١) Berelson, Lazersfeld and McPhee pp. 248.

(٢) Lang and Lang.

تحوير الأخبار عمدا. فهذا العمل يعتبر مشينا ويضر بسمعة الوسيلة الإعلامية وتخالف مواثيق الشرف الإعلامي.[١] وقد يجرها ذلك إلى المحاكم والتعرض للعقوبة. بيد أن المرشح الذكي لا تعجزه الطرق التي يمكن بها استغلال الأخبار لصالحه بطريقة غير مباشرة، وذلك بتضخيم أو إنشاء قضايا أو افتعال أحداث لا تستطيع وسائل الإعلام تجاهلها.

وثبت في دراسة «ماكومب» و«شو».[٢] أن وسائل الإعلام تقوم بتحديد الموضوعات التي يتحدث عنها الناس. بل تؤكد دراسة «رامسدين»Ramsden بأن وسائل الاتصال الجماهيري توجه الجمهور في كيفية التفكير في القضايا المطروحة للنقاش.[٣]

وعموما فإن حجم تأثير وسائل الإعلام يعتمد على عوامل كثيرة، ومنها أيضا درجة تنوع هذه الوسائل ومواقفها أو درجة توفر البدائل التي توفر حاجات الإنسان من المعرفة.[٤]

وحتى بالنسبة للأثر المتعمد فإن «كلابر» Klapper يقول بأن تأثير وسائل الإعلام في مجال الإقناع ليس بالدرجة المزعجة جدا، رغم كون بعض الدراسات أثبتت أن هذه الوسائل نجحت في تنمية روح التسامح الديني مثلا، وفي الترويج لسندات توفير المال للحرب، وفي ترسيخ طريقة الحياة الأمريكية.[٥] ويصوغ «بيريلسون» Berelson[٦] هذا التأثير بقوله إنه «نوع من الاتصال، حول نوع من القضايا، تم جذب انتباه نوع من الناس إليها، تحت نوع من الظروف، له نوع ما من التأثير»[٧]. فهناك دائما عوامل أخرى تنافس وسائل الإعلام في التأثير على الآراء ولو بطريقة غير مباشرة. ومن العوامل

---

(١) Metzeler; Given; Lippmann, Public Opinion; Dyke;

(٢) McComb and Shaw; Missika and Brigman; Zhu, Watt, Snyder, Yan, and Jiang; Maccomb and Shaw The agenda setting; Buder; Watt.

(٣) Ramsden; Cohen p. 3; Ramsden.

(٤) Halpen.

(٥) Klapper, in Berelson and Janowitz.

(٦) Berelson, Communications and Public Opinion.

(٧) Lasswell in Smith et. al. p. 121.

المنافسة في التأثير: قادة الأحزاب السياسية الذين قد يتفقون على استبعاد بعض القضايا في الانتخابات، بعض الأحداث الجارية التي تدفع ببعض القضايا إلى المقدمة.(١) ومن العوامل المنافسة أيضا بعض القضايا التي تفرض نفسها على وسائل الإعلام أو تستثير موضوعات يصعب على وسائل الإعلام تجاهلها.(٢) كما أن الإنسان يميل إلى نسيان بعض الأشياء وتذكر أشياء أخرى.(٣)

وعموما فإن تأثير وسائل الإعلام مقيد بعوامل كثيرة تخرج عن سيطرة وسائل الإعلام نفسها. فانطلاقا من نظرية المنبه والاستجابة وتطويرا لها، يقول ماكويل بأن «ماقواير» McGuire يقترح ضرورة الأخذ في الاعتبار عددا من العوامل تتلخص في الأصناف التالية:(٤)

١ - عوامل تتعلق بمصدر الرسالة الإعلامية.

٢ - عوامل تتعلق بمضمون الرسالة الإعلامية.

٣ - عوامل تتعلق بالوسيلة الإعلامية.

٤ - عوامل تتعلق بمن يستقبل الرسالة الإعلامية.

٥ - عوامل تتعلق بأهداف الرسالة الإعلامية.

التأثير على الثقافة الجماهيرية:

وبالنسبة لتأثير الإعلام على الثقافة العامة للجمهور يقول "كلابر" إن المداخل الجديدة لدراسة العلاقة بين وسائل الإعلام والجمهور تعامل هذه الوسائل على أنها من بين الوسائل التي تؤثر على الفرد وليست الوحيدة. ومع هذا فإن الدراسات أثبتت بأن وسائل الإعلام تقوم بدور رئيس، وفي الغالب تأثيره حتمي، وفي بعض الحالات تأثيره كاف.(٥) ويؤكد بأن هناك

---

(١) Missika and Bregman.

(٢) Bennett and Lawrence.

(٣) Zhu et. al.; Pan and McLeod.

(٤) العربي ص ١٤٣.

(٥) Klapperm in Berelson and Janowitz.

علاقة متبادلة بين القيم الحضارية ووسائل الإعلام. ومن الأمثلة على ذلك مساهمة وسائل الإعلام في تنمية معلومات الطفل حول القيم الحضارية التي يعيش فيها وحول متطلباتها. وفي المقابل تُأثر القيم الحضارية في محتويات وسائل الإعلام وأساليبها. فالقائمون على إدارة وتشغيل وسائل الإعلام، ينشئون ويعيشون في ظل تلك القيم. ومن جهة أخرى، فإن أثر وسائل الإعلام أيضا معرض للتعديل بما للأسرة من أثر مباشر على الطفل، وما للمدرسة وللزملاء. بيد أنه ينبغي أن لا ننسى أن العناصر التي تسهم في تعديل أثر وسائل الإعلام هي نفسها معرضة للتأثر بوسائل الإعلام. فوسائل الإعلام لها قدرة كبيرة للوصول إلى قاعدة عريضة من الجمهور الذي يتعرض للمعلومات نفسها ويضحك للنكت نفسها، أي لا يمكن إغفال تأثير وسائل الإعلام في تشكيل الحضارة التي يعيشها أبناء تلك الحضارة.(١)

غير أن كلابر يضيف بأن تأثير وسائل الإعلام يتدرج من التحول الكامل من اتجاه إلى آخر والتغير البسيط، والإسهام في تعزيز الاتجاهات الموجودة أصلا. ويفصل «ماكويل» McQuail(٢) أنواع التأثير لتشمل في نظره التأثيرات التالية:

١ - التسبب عمدا في التحول من اتجاه إلى آخر.
٢ - التسبب بغير قصد في إحداث تغيير كامل.
٣ - التسبب في إحداث تغيير بسيط في الاتجاه أو في درجة تقبل التغيير.
٤ - المساهمة في تسهيل عملية التغيير، بصورة مقصودة أو غير مقصودة.
٥ - تعزيز المواقف والاتجاهات الموجودة.
٦ - التسبب في منع التغيير.

وبعبارة أخرى، فإنه ينبغي أن لا نغفل عن التأثير بعيد المدى الذي

---

(١) Klapperm in Berelson and Janowitz.
(٢) العربي ص ١٣١-١٣٢.

يتراكم تدريجيا مع مرور الزمن بسبب الرسائل الحيادية أو الإقناعية التي يتلقاها الفرد مباشرة من وسائل الاتصال الجماهيرية أو من طرق أخرى اعتمدت فيما تنقله على وسائل الإعلام. وهذا الأثر بعيد المدى غالبا ما يترك بصماته على ما يتبناه الجمهور من آراء ومواقف وثقافة.(١)

وجاء التصنيف العام لماكويل لأنواع التأثيرات مؤكدا هذه الحقيقة. فالاثنا عشر نوعا التي اقترحها تتراوح بين التأثير طويل المدى وقصير المدى والتأثير المقصود وغير المقصود.(٢)

وفي الوقت الذي يتعرض فيه الفرد إلى رسائل الإعلام وهو مُحمّل بمنطلقات مسبقة (معتقدات واتجاهات)، فإن هذه المنطلقات ليست دائما متعارضة مع ما تبثه وسائل الإعلام. وقد يعيش الجمهور حالة من الرغبة أو الاستعداد للتغيير فيوفر بذلك المناخ المناسب لأن تعمل هذه الوسائل بفعالية لإحداث التغيير أو التعجيل به. وحتى في المجتمعات التي تتمتع بدرجة طيبة من الاستقرار فإن وسائل الإعلام يمكنها التأثير على المجتمع بأكمله من خلال التأثير على الصفوة أو الطبقة القيادية في المجتمع: السياسيون، ورجال الأعمال والعلماء...(٣) واتضح من دراسة ل «كريستي» Christie(٤) أن جدول أعمال وسائل الإعلام يؤثر على جدول أعمال الحكومة أيضا.

ونخلص مما سبق بأن وسائل الإعلام تؤثر بطريقتين رئيستين:

١ - تؤثر وسائل الإعلام في الجمهور بما تبثه من برامج إقناعية سياسية وتجارية وفكرية...

٢ - تؤثر بطريقة غير مقصودة أو غير مباشرة بما تبثه من أخبار شبه محايدة أو معلومات ومعارف. وهذا التأثير أكثر خطورة لأنها تجعل الناس يصدقون بعض الأساطير بصفتها حقائق . وسيتبين لنا ذلك من

---

(١) Jordan.

(٢) العربي ص ١٣٣-١٣٩.

(٣) Klapperm in Berelson and Janowitz.

(٤) Christie.

خلال المثال الذي سيتم عرضه في نهاية هذه الورقة.

وعموما فإن تأثير وسائل الإعلام على الثقافة والحضارة أمر لا يمكن إنكاره تؤكده الدراسات التي لا حصر لها، ويؤكد هذه الحقيقة كبار خبراء الإعلام الأمريكي مثل، «شرام» و«بورتر». بل إن «ريل» يخصص كتابا يصف فيه الثقافة التي قامت وسائل الإعلام بنشرها وتغطي كافة جوانب الحياة: التعليم، والرياضة، والصحة، والسياسة، الدين.(١) وقد أثبتت الأبحاث أنه بالرغم من جهود وسائل الاتصال الجماهيرية في تنمية الإحساس بالقومية الواحدة مثلا فإن بعض القضايا الحضارية الاجتماعية التي قد تفرض وجودها ذات آثار سلبية.(٢)

ومن جهة أخرى، فإنه يجب التفريق بين أن يكون لوسائل الإعلام أي نوع من التأثير على أفراد الرأي العام مستقلين أو مجتمعين، وبين أن تكون لها قدرة على إقناع الجمهور كله بوجهة نظر واحدة. فليست وسائل الإعلام مؤثرة بالمعنى الأخير. بل إن الإعلام بما يقدمه، ولاسيما، في المناخ العلماني اللاديني أو الديموقراطي يلغي بعضه أثر بعض في قضايا كثيرة أو يوجد بلبلة تجعل الجمهور يسلم لأي معلومة أو رأي لا يكلفه جهدا. وبالنسبة للبعض الآخر من الجمهور فإنه يترك مساحة كبيرة للاستقلال في الفكر وفي الرأي لمن يعرِّض نفسه لوجهات النظر المختلفة.(٣)

وأما عن التأثير بأي شكل من الأشكال أو التأثير متعدد الاتجاهات فهذا صحيح. وذلك لأن معظم الأفراد عالة على وسائل الإعلام في إشباع احتياجاتهم العديدة، ومنها الحاجة إلى التعرف على البيئة المحلية والعالمية، والحاجة إلى التوجيه، والحاجة إلى التعليم للقيام بدورهم في البيئة المحيطة بهم. وبالطبع فإن بعض المعلومات أكثر لصوقا بهذه الحاجات من غيرها، سواء بالنسبة للفرد أو بالنسبة للمجتمع كله. فالمعلومات الدينية مثلا

---

(١) انظر مثلا: Schramm and Porter; Real

(٢) Real pp 231-273.

(٣) Jordan.

(بالنسبة للمسيحيين) أقل لصوقا من المعلومات السياسية لمن يهتم بالأنشطة السياسية أكثر...[1]

الإعلام والحوار بين الحضارات والثقافات:

يتبين مما سبق أن للإعلام تأثير على جمهوره بطريقة مباشرة وعلى غير جمهوره بطريقة غير مباشرة. وقبل الحديث عن هذا التأثير فإنه يحسن التعريف بالحوار والثقافة والحضارة والحوار بينها.

ما هو الحوار:

باستقراء مدلول كلمة «الحوار» في الكتاب والسنة وبمراجعة معاجم اللغة يظهر أن الحوار بمعناه الواسع يعني المراجعة والتفاعل بين طرفين أو أكثر تتبادل فيه الأطراف المتحاورة المشاعر والاحتياجات والآراء والأفكار والمعتقدات. وهو في الغالب بين طرفين متعارضين أو مختلفين في وجهات النظر أو ينتميان إلى مجموعات مختلفة متميزة.[2] وهو اسم جامع يضم أنواعا مختلفة ذات معان محددة، مثل: المحادثة والمجادلة والمناظرة...

ويُفترض في الحوار بين المخلوقات وجود نوع من التكافؤ بين الطرفين من زاوية واحدة على الأقل. وهذه الزاوية هي وجود احتمال لأن يؤثر كل طرف على الآخر أو أن يتأثر به. فيندرج في الحوار أن يقول شخص شيئا أو يفعل شيئا ما فيقول الآخر شيئا أو يفعل شيئا كرد فعل له مع وجود احتمال لأن يؤثر رد الفعل هذا على الطرف الأول. ولا يندرج في الحوار طرفان أحدهما يقول شيئا أو يفعل فيقلده الآخر. ولا يندرج فيه أن يصدر طرف أمرا ثم ينفذه الآخر بدون نقاش.

وبتطبيق هذا المدلول على الواقع نجد أن طرق التعبير في الحوار تتعدد لتشمل التعبير اللفظي وغير اللفظي. ويندرج تحت كلمة «الحوار» مصطلحات

---

(١) Halpen; Ball-Rokeach p. 487.

(٢) ابن منظور، أنيس وآخرون.

أخرى لتؤدي مدلولات أكثر تحديدا مثل: المناظرة، والمجادلة...[١]

وقد يكون الحوار لفظيا وتلقائيا بين الناس عموما؛ وقد يكون الحوار لفظيا مرتبا له من قبل ليأخذ شكل الندوات والمؤتمرات. وقد يكون الحوار سلوكيا يستخدم وسائل التعبير اللفظية وغير اللفظية أثناء التعامل اليومي بين الزملاء لإنجاز عمل محدد بين المعلمين والطلاب، وأثناء تبادل المصالح مثل الحوار بين البائع والمشتري...

التعريف بالحضارة والثقافة:

إن التعريف السائد للحضارة يقول بأنها مجموعة التراث الفكري والعادات والتقاليد والحرف وما يندرج تحتها من الوسائل المادية لمجموعة من الناس، متقدمة نسبيا لأنها مشتقة من الحضر المختلف عن البدو. وكثيرا ما يتم التمييز بين الحضارات بنسبتها إلى أزمنة أو أمكنة مختلفة[٢] والاختلاف المكاني أو الزماني في الغالب يولِّد بعض الاختلافات التي قد تكون ذات أهمية كبيرة مثل المعتقدات أو الفلسفة الفكرية أو الاقتصادية، أو قد لا تكون ذات أهمية كبيرة مثل الاختلاف في طريقة الملبس والمأكل والعادات والتقاليد في بعض الأمور. ونظرا لثبات الصفات البشرية واحتياجاتها فإن المشترك بين الحضارات أكثر بكثير من المختلف فيه.

وتختلف الحضارات باختلاف المحاور التي ترتكز عليها. فبعضها يرتكز على محاور ربانية أو معتقدات صادرة من قوى خارجية، أي هي محاور دينية، تتألف من مجموعة من المبادئ التي تقيِّد نمو هذه الحضارات وتوجهها. ولهذا فإن هذه الحضارات تميل إلى الثبات. والحضارة الإسلامية واحدة من هذه الحضارات التي تقيدها ضوابط ربانية ثابتة في القواعد العامة ولكن مرنة في مستوى التفاصيل بصورة ملحوظة[٣]

---

(١) صيني، الحوار بين الحضارات.

(٢) انظر مثلا: Merriam-Webster؛ أنيس وزملاؤه؛ المنجد.

(٣) انظر: صيني، الحوار بين الحضارات؛ صيني، الإسلام والحوار

ويرتكز بعض هذه الحضارات على النمو التلقائي الحر نسبيا والذي لا ضابط له سوى بقايا الفطرة البشرية، وما يشيع ويصبح فلسفة أو عرفا سائدا. وهذه الحضارات قابلة للتغيير بطريقة جذرية نتيجة لعوامل خارجية أو ذاتية.

ويغلب على الروابط التي كانت تجمع بين أفراد الحضارة الواحدة أو تفرق بينها وبين الحضارات الأخرى في البيئات البدائية أنها روابط رأسية، أي الانحدار من جد بعيد واحد أو قريب، مثل القبيلة أو العشيرة... أما بعد تشعب الديانات وظهور الوحدات الجغرافية السياسية فقد أصبحت الروابط الأفقية المكتسبة أكثر انتشارا وبعضها أكثر قوة، مثل الروابط العقدية، والروابط المبنية على المصالح الاقتصادية والسياسية والعسكرية المشتركة.

ومع أن بعض معاجم اللغة تعتبر الثقافة مرادفة للحضارة، غير أن المدقق في بعض التعريفات والاستعمالات في العربية والإنقليزية مثلا يجد شيئا من الفرق. فالثقافة تقتصر على الإنتاج الفكري (العلوم والفنون) دون العادات والتقاليد والحرف وما يندرج تحتها من وسائل مادية.

أنواع الحوار بين الحضارات:

يظهر الحوار بين الحضارات والثقافات في ضوء أهدافها في أربعة أشكال رئيسة:

١- حوار للتقريب بين أصحاب الحضارات والثقافات المختلفة، وذلك بتذويب الفوارق بين الحضارتين حيث تتبنى كل حضارة شيئا من الحضارة الأخرى للوصول إلى حل وسط يرضى جميع الأطراف نسبيا؛ أو بتخلي أحد الأطراف عن حضارته أو بكثير من مظاهرها ويتبنى حضارة الطرف الآخر. وهذا لا يكون إلا إذا كانت جميع الأطراف المتحاورة أو أحد الأطراف مستعدا للتنازل عن أجزاء من حضارته.

٢- حوار بين أصحاب الحضارات المختلفة يحاول فيه أحد الأطراف أو كلا الطرفان إقناع الآخر بأن حضارته أفضل ويحقق السعادة في الحياة الدنيوية أو الأبدية إضافة إلى الحياة في الدنيا.

٣- حوار بين أصحاب الحضارات حول شؤون الحياة عامة بما في ذلك الدين، ولكن ليس للتلفيق بين الأديان أو للدعوة إليها. ويهدف هذا النوع من الحوار إلى أن يتعرف كل صاحب حضارة أو ثقافة مميزة على ما عند الآخرين من المعتقدات والعبادات والتعاليم السلوكية والمفاهيم والعادات والتقاليد. وهذا بدوره يؤدي إلى التعرف على الأمور المشتركة والمختلفة...

٤- حوار عملي تلقائي يجري أثناء التعامل اليومي في أمور الدنيا بين أصحاب الأديان المختلفة، مثل الاتصال التبادلي الذي يحدث أثناء إنجاز عمل لأحد الطرفين أو لصالح الطرفين. ويندرج فيه جميع أنواع السلوك أثناء التعامل الروتيني اليومي بين الجيران والزملاء في الفصل الدراسي أو المصنع أو المتجر أو المكتب أو حتى في اللقاء العابر في الشارع وفي الفندق والمطعم وفي الحافلة. فنحن - عمليا- نتحاور أثناء تبادل التحية وأثناء البيع والشراء وأثناء أداء أي عمل جماعي، تختلف فيه وظيفة كل فرد عن الآخر.

فالمحاورة بالمعنى الواسع - كما أشرنا سابقا - تكون بجميع أساليب التعبير اللفظية أو غير اللفظية، ومنها السلوك الطبيعي وجميع وسائل التعبير الفنية.

وربما كان النوع الرابع من الحوار أبلغ وأكثر فعالية من كثير من المحاورات اللفظية المرتبة مسبقا بين قادة الفكر التي تهدف في تنمية الاحترام المتبادل والتعاون بين أصحاب الأديان والحضارات المختلفة. فهي محاورات عفوية عملية، ترتكز على الفطرة البشرية وعلى المصالح المشتركة، وتجري في الواقع وليس فقط في أذهاننا أو على صفحات الورق.

أثر الإعلام في الحوار بين الحضارات:

يتبين مما سبق أن وسائل الإعلام سواء بأخبارها المحايدة أم المنحازة، وبحملاتها الإعلامية محددة الأهداف تؤثر في ما يجري في العالم على الصعيد المحلي أو العالمي. وقضية الحوار بين الحضارات ليست إلا واحدة

من القضايا الإنسانية التي تتأثر بما تبثه وسائل الإعلام وتنشره أو تضخمه. وهناك نوعان من الأثر:

أولا: الأثر الإيجابي، ويحدث هذا الأثر بالطرق التالية:

- نشـر الأخـبـار الإيجـابيـة عن مـؤتمرات وندوات الحـوار، أو أشـكال الحوار العملية الإيجابية بين أصحاب الحضارات المختلفة.(اللفظي والعملي)
- محاولة إقناع الرأي العام عبر الحضارات بضرورة التعاون من أجل عـالم أفـضل يسـوده السـلام حـتى مع الاخـتـلاف في بعض الأمـور ومحاولة حثه على التعاون في الأمور المشتركة.

ثانيا: الأثر السلبي:

- تجاهل الجهود الرامية إلى تعزيز روح الحوار بين الحضارات من أجل التـعـايش السلمي، مـثل مؤتمرات الحـوار وندواتهـا وصـور التـعـايش السلمي الموجودة في الواقع.
- إبراز أخـبـار الجـوانب السلبـيـة للجـهـود التي تحـاول تـعـزيز الحـوار السلمي أو الودي بين أصحاب الحضارات المختلفة وتضخيمها، وذلك بدلا من مناقشتها مناقشة موضوعية.
- التركيز على نشر أخبار الأشكال العنيفة للحوار مثل الصراعات الياسية والاقتصادية والعسكرية، والترويج للأفكار التي تعزز الفرقة، مثل الترويج لنظرية الصراع بين الحضارات.(١) والآراء المتطرفة التي تثير القلاقل والنعرات العنصرية والدينية والطائفية والقومية.

حادثة ١١ سبتمبر والحوار بين الثقافات:

لعل أحداث ١١ سبتمبر أبرز مثال للأثر القوي للإعلام غير المقصود والمقصود على الحوار بين الحضارات والثقافات والجهود الرامية إلى تنمية

---

(١) Muzzafar

الشعور بأهمية التعايش السلمي بين الحضارات. لقد اكتسحت آثار الأخبار عن الحادثة السلبية الواحدة آثار جهود إيجابية مقصودة وتلقائية كثيرة وعلى مدى زمن طويل للمسلمين ولغير المسلمين من المتعاطفين مع المسلمين أو من المحايدين.

ولو تأملنا أحداث ١١ سبتمبر من حيث مصداقية أحداثها وملابساتها التي نشرتها وسائل الإعلام سنجد ما يلي:

أولا - أجزاء يمكن للمشاهد الخارجي أو الإنسان العادي التأكد منها، مثل: تدمير المركز التجاري العالمي (العمارتين الضخمتين المسماة «التأوم») والتي تتكون من عشرات الطوابق، وأن التدمير كان بفعل متفجرات وأنها نتجت عن مئات الضحايا، وأن طائرتين كانتا من عوامل هذا التفجير.

ثانيا - أجزاء يصعب التحقق من مصداقيتها بالنسبة لمعظم الناس وحتى بالنسبة لكثير من المختصين ورجال الإعلام، مثل: أن هجوما مماثلا حصل لمبنى وزارة الدفاع الأمريكية، وأن مدبري الحادثة كانوا من المسلمين، وأن عدد الضحايا كانوا أكثر من ثلاثة آلاف، وأن نسبة كبيرة من اليهود كانوا غائبين عن مكاتبهم في المبنيين عند وقوع الحادثة...

وهذه الأجزاء تخضع بسهولة للابتكار والتكهن وللتحوير والتشويه. وهذه الحقيقة تجعلها عرضة للاستغلال من قبل أصحاب المصالح الشخصية.

ولهذا لا نستغرب أن تكون هناك -على الأقل- روايتان متعارضتان حول مدبري أحداث ١١ سبتمبر ومنفذيها:

الرواية الأولى: وهي التي نشرتها الحكومة الأمريكية بصورة رسمية وحاولت جاهدة في إثبات صحتها بشتى الطرق. وهي التي تناقلتها وسائل الإعلام المحلية والدولية باعتبارها حقائق مؤكدة. وتقول هذه الرواية بأن بعض المسلمين هم الذين خططوا لها وقاموا بتنفيذها. وهي الرواية الأكثر شعبية حتى بين المسلمين المتهمين بالحادثة. وقد أخبرني من أثق به أن هناك

موقع على شبكة الإنترنت متخصص في الدفاع عن هذه الرواية وفي تفنيد براهين أصحاب الرواية الأخرى. وكأني بهذه الفئة لم تقف عند حد نشر روايتها بشتى الطرق، بل استمرت في الدفاع عنها.

ولعل خطورة وسائل الإعلام ولاسيما ما تبثه من «أخبار» عن أحداث واقعية أو وهمية أو مختلقة لا تقف عند حد إفساد العلاقة بين المنتمين إلى الحضارات المختلفة، ولكن تتجاوزها إلى جعل أصحاب الحضارة المُتّهمة أنفسهم ينقسمون إلى فرق متعارضة. فقد انقسم المسلمون بالنسبة للمخططين والمنفذين إلى ثلاث فرق:

(أ) فرقة ترفض الرواية الأمريكية الرسمية والتهمة وهم قلة نادرة.

(ب) فرقة هي الأغلبية فيما يبدو، وينقسمون إلى قسمين:

١- قسم يعترف وباعتزاز؛ ويحاول تفسير بعض الأحداث بطريقة تؤكد التهمة، وقد يختلق قصصا لدعم وجهة نظره والرواية الأمريكية الرسمية.

٢- قسم يعترف بتخاذل. وقد يقترح على المسلمين تقديم اعتذار إلى الحكومة الأمريكية أو إلى الشعب الأمريكي عن تلك الحادثة التي تقترب في فظاعتها مما يجري في فلسطين وما يجري في أفغانستان وفي العراق اليوم.

الرواية الثانية: وهي عموما تقول بأن ما حدث هي مؤامرة سياسية قذرة خطط لها ونفّذتها عصابة تتكون من «الموساد» أي الاستخبارات الإسرائيلية، وعناصر ذات نفوذ في الـ«بنِتَاقون» (وزارة الدفاع الأمريكية)، وفي الـ«سي آي أي» (الاستخبارات الأمريكية). ويستدل هؤلاء ببراهين أورد الكثير منها صاحب كتاب "الخديعة المرعبة" الذي يرجح أنها من صنع عناصر في البنتاقون، ومن البراهين التي أوردها أن المار الشامل للمبنيين لا ينتج إلا بوجود متفجرات بكميات ضخمة في المبنيين، وأن الطائرات تم توجيهها بأجهزة تحكم موجودة في تلك المباني. كما يشك في اصطدام طائرة بمبنى وزارة الدفاع الأمريكي.

وكذلك تستند هذه الرواية إلى الخبر الذي نشرته صحيفة «لوس أنجلس تايمز» الذي يفيد بإلقاء القبض على ما يزيد عن المائة جاسوس إسرائيلي، كان بعضهم في مواقع قريبة من مواقع المسلمين المتهمين الذين يعيشون في الولايات المتحدة خلال فترة الحادثة ليجمعوا المعلومات اللازمة لتلبيسهم التهمة أو لإشراكهم فيها كأدوات. كما يستدل أصحاب هذه الرواية بغياب عدد كبير من الموظفين اليهود في العمارتين لغير مناسبة يهودية خاصة.

ويستدلون أيضا بما يشاع عن علاقة بعض رجال الجيش الأمريكي والاستخبارات بمصانع الأسلحة التي يسيطر عليها الصهاينة من اليهود، ثم تورط الجميع في إثارة الحروب بين شعوب العالم ترويجا لبيع الأسلحة. كما تستدل هذه الفئة بخلو قوائم ركاب الطائرتين من أسماء المتهمين من المسلمين.

يضاف إلى ذلك أسطورة جواز السفر السعودي الذي صمد أمام النيران التي أتت على العمارتين الضخمتين، وأسطورة السعوديين الذين كانا في الطائرتين اللتين انفجرتا بما فيهما ووجودهما أحياء في بلادهما في آن واحد أو الطيار السعودي الذي مات قبل خمس سنوات من حادثة ١١ سبتمبر في بلده مسالما ثم يموت مرة أخرى في الحادثة إرهابيا حسب الرواية الأولى.

ومن يدقق النظر في الشريط الذي نشرته وزارة الدفاع الأمريكية يلاحظ أ التصنيع واضح، وهناك شكوك تثار حول مصداقية الأشرطة التي تصور أسامة بن لادن يعترف بمسئوليته عن الحادثة.

صحيح أن الإنسان الحكيم سيقف حائرا أمام هذه الروايات المتعارضة، ولكن الغالب هو أن الرواية ذات الصوت الأعلى والأقوى هي التي تكسب الرأي العام في النهاية.

وهذه الحقيقة تقود إلى حقيقة أخرى، وهي احتمال أن تكون وسائل الإعلام هي نفسها ضحية للخدعة الشبه مُتقنة. فالحقد الأعمى لبعض اليهود وشهوة السيطرة والمال قد تدفع بعض السياسيين إلى اختلاق أحداث

جسيمة قد يذهب ضحيتها الآلاف من البشر دون رحمة. فيستدرجون وسائل الإعلام إلى نشر أخبارها بصورة تحقق مصالحهم الشخصية المخطط لها، وذلك بالتلاعب والكذب في الأجزاء التي يصعب التحقق منها. بل ويعملون أيضا على عرقلة محاولات الآخرين للتحقق من مصداقية الأحداث باسم السرية والأمن القومي والسلامة...

وليس هذا غريبا لمن يقرأ كثيرا عن المؤامرات السياسية ولاسيما المؤامرات الصهيونية ولمن يعرف إلى أي درجة تقدمت كتابة القصص العلمية الخيالية scince fiction وصناعة الأفلام ولمن يدرك إلى أي درجة انحطت البشرية بسبب طمس الفطرة البشرية وغياب المبادئ الأخلاقية التي جاءت بها الأديان، حيث أصبح المال والثروة كل شيء في حياة الإنسان المعاصر إلا من عصم ربي.

والأكثر إيلاما للمسلم أن يرى أن كثيرا من المسلمين يصدقون الأخبار تصديقهم للقرآن الكريم والسنة النبوية الموثقة، وإن كانت ضد إخوانهم من المسلمين وتحتمل أن تكون أخبارا كاذبة غير مقصودة أو افتراءات مُدبّرة.

وأسأل الله أن يحفظنا من أن نكون ممن يؤذون المسلمين بتصديق ونشر الأخبار السلبية التي لا ندري مدى صحتها ولاسيما إذا كانت صادرة من أعداء المسلمين. فالله سبحانه وتعالى يحذر من ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾ [**الأحزاب**: ٥٨] ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع». فإثم من يردد الكذبة على وجه التصديق والترويج وليس على سبيل التشكيك والتحذير والتفنيد لا يقل عن إثم منشئها.

قائمة المراجع

القرآن الكريم.

أنيس، إبراهيم، عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي محمد خلف الأحمد، المعجم الوسيط ط٢(القاهرة: مجمع اللغة العربية ١٣٩٢).

العربي، عثمان، مترجم، الإعلام وتأثيراته: دراسات في بناء النظرية الإعلامية، تأليف دنيس ماكويل (الرياض: المؤلف ١٤١٢هـ).

صيني، سعيد إسماعيل، مدخل إلى الرأي العام والمنظور الإسلامي (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢١هـ).

صيني، سعيد إسماعيل، الإعلام الإسلامي النظري في الميزان (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٧هـ).

صيني، سعيد إسماعيل، مدخل إلى الإعلام الإسلامي (القاهرة: دار الحقيقة للإعلام الدولي ١٤١١هـ).

صيني، سعيد إسماعيل، الإسلام والحوار بين الحضارات، بحث مقدم لندوة الحوار بين الحضارات من أجل التعايش المنعقد في دمشق في الفترة ١٨-٢٠/٥/٢٠٠٢م.

المنجد في اللغة والأعلام ط ٢٠(بيروت: دار المشرق ١٩٦٨).

ميسان، تيري، ١١ أيلول ٢٠٠١: الخديعة المرعبة، ترجمة سوزان فازان ومايا سلمان (دمشق: دار كنعان ٢٠٠٢م).

قائمة مراجع أجنبية

Catholic New Times, BBC Cief attacks U.S. media war coverage - World - BBC Director General Greg Dyke Brief Article May 18 2003.

Berelson, Bernard, Paul F. Lazarsfeld, and William N. McPhee, Voting, Chicago: University of Chicago Press 1954.

Berelson, Bernard, Communications and Public Opinions, in Schramm, Communication in Modern Society, Urbana, IL: University of Illinois Press 1948.

Berleson, Bernard and Morris Janowitz, (eds) Reader in Public Opinion and Communication, New York City: The Free Press 1966.

Christie, Thomas Bryan, Agenda-Opinion Congruence: The Dynamics of Public Opinion, Public Policy and Mass Media Agenda During the Persian Gulf

War, (Unpublished dessertation) The University of North Carolina at Chapel Hill, 1993.

Cohen, Bernard C., The Press and Foreign Policy, Princeton, NJ: Princeton University Press 1963.

Cohen, Bernard C., The Press, the public and foreign policy, in Berleson and Janowitz, pp. 133-146.

New Catholic Times, BBC chief attacks U.S. media war covorage - World - BBC Director Genral Greg Dyke - Brief Article May 18, 2003.

Given, J. L., Making a Newspaper, New York: Hery Holt 1970.

Halpern, Pablo, Media Dependency and Political Perceptions in an Authoritarian Political System, in Journal of Communication Vol 4 (1994) 39-51.

Heinlein, Robert A., Take Back Your Government: A Practical Handbook for the Private Citzen Who Wants Democracy to Work, Riverside, NY: Bean Publishin Enterprises 1992.

Jordan, Donald, Newspaper Effects on Policy Preferences, Public Opinion Quarterly vol. 57 (1993) 191-204.

Klapper, Jiseph T., The Effects of Mass Communication, in Berleson and Janowitz, pp. 473-485.

Klapper, Jiseph, What We Know about the Effects of Mass Communication: the Brink of Hope, in Carlson, pp. 262-383.

Lang, Kurt, and Gladys Engel Lang, The Mass Media and Voting, in Berleson and Janoviwitz, pp. 455-472.

Lasswell, Harold D., Communications Research and Public Policy, in Carlson, pp. 605-614.

Lasswell, Harold D., Nations and classes: the symbos of identification, in Berleson and Janowitz pp. 27-41.

Lippmann, Walter, Public Opinion, New York: Macmillan 1922.

Maccoby, Eleanor E., T.M. Newcomb, and E. L. Hartley (Eds.). Readings in Social Psychology. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1958

Maccoby, Eleanor E., Why Do Children Wach TV?, Public Opinion Quarterly, Vol. 18: 239-244.

Maccoby, Nathan and Eleanor E. Maccoby, Homeostatic Theory in Attitude Change, in Carlson pp .250-257.

McCombs, M. E., and D. L. Shaw, The Agenda Setting Function of Media, Public Opinoin Quarterly, Vol., 36 (1972): 176-187.

Metzeller, Ken, Creative Interviewing, Englewood-Cliffs, N. J.: Printice-Hall, Inc. 1977.

Merriam-Webster, Webstr's New American Dictionary 1995.

Muzzafar, Chandra, The West's hidden agenda-Western dominance drive world politics, The World Press Review Feb 1994.

Ramsden Graham, P., Media Coverage of Issues and Candidates: What Balance Is Appropriate in Democracy?, Political Science Quarterly vol. 111 (1996) 65-81.

Real, Michael, R., Mass Mediated Culture Pritice-Hall, Inc. Englewood Cliffs, N. J. 1977.

Riley, John W., Jr. and Mathilda White Riley, Mass Communication and the Social System" in Merton, Broom, and Cottrell.

Schramm, W., and William E. Porter. Men Women Messafes, and Media. New York: Harper & Row Publishers, 1982.

Zuckerman, Phil, Secularisation: Europe-yes, United States-no: why has secularisation occured in Western Europe but not in the United States? An examination of the thearies and research, Skeptical Inquirer March-April 2004.

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

التأثير العربي الإسلامي في الحضارة الأوربية ٥

الدكتور/ عبد الصبور شاهين

آفاق الحوار بين الحضارات والثقافات

(نحو ثقافة حوار في مواجهة ثقافة العنف) ٢١

الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد

مستقبل الحوار بين الثقافات والحضارات (الإيجابيات والسلبيات) ١٢٩

الدكتور/ عبد الله التطاوي

الحوار في القرآن والسنة أسسه وأهدافه ١٥٣

الدكتور/ أحمد عبد الرحمن القاضي

الحوار في الكتاب والسنة مبادئه وأهدافه ١٧٩

الدكتور/ بسام داود عجك

إسهام الأقليات المسلمة في الحوار الحضاري والثقافي ٢١١

الدكتور/ إبراهيم جاو

إسهام الأقلية المسلمة بتايلاند في الحوار الحضاري والثقافي ٢٢٧

الدكتور/ إسماعيل لطفي جافاكيا

الإسلام .. وحوار الحضارات ٢٥٧

الأستاذ/ كامل الشريف

الحوار الثقافي والحضاري في خدمة السلام رؤية إسلامية ٢٩٧

الدكتور/ الشيخ محمود عكام

موانع الحوار .. بين عقدة الضعف وعقيدة القوة ٣٢١

الدكتور/ محمد عبد النبي

الحضارة الإسلامية وجريمة العبث بالتاريخ ٣٦٩

الدكتور/ محمد سعيد البوطي

الموقف الإسلامي من نزعة صراع الحضارات ٣٨١

الدكتور/ محمد عمارة مصطفى عمارة

مصتقبل الحوار بين الحضارات والثقافات .. رؤية إسلامية ٤٣٥

الدكتور/ مصطفى تسيريتش

الحوار والتعايش الإنساني في ضوء الخطاب الإسلامي ٤٥٣

الدكتور/ مطيع الله الحربي

أثر الإعلام في الحوار بين الحضارات والثقافات ٥١١

الدكتور/ سعيد بن إسماعيل صيني